الصهيونية واسرائيل وآسيا

الصهيونية واسرائيل وآسيا

الصهيونية واسرائيل وآسيا

الصهيونية واسرائيل وآسيا

الصهيونية واسرائيل وآسيا

الصهيونية واسرائيل وآسيا

الصهيونية واسرائيل وآسيا

الصهيونية واسرائيل وآسيا

تأليف ج.هـ. جانسن

ترجمة راشد حميد



G. H.. Jansen,
Zionism, Israel and Asia,
Palestine Books No. 39,
Palestine Liberation Organization,
Research Center,
Colombani St. off Sadat St.,
Beirut, Lebanon.

الصهيونية واسرائيل وآسيا

سلسلة "كتب فلسطينية" – ٣٩

الصهيونية واسرائيل وآسيا

تأليف ج.ه. جانسن

ترجمة راشد حميد

منظمة التحرير الفلسطينية
مركز الابحاث

شارع كولومباني المتفرع من شارع السادات
بيروت – لبنان

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٢

تام بتغطيةتكاليف اصدار هذا الكتابالسفير مهدي التاجر

المحتويـــات

مقدّمة

ينظر هذا الكتاب الى الصهيونية واسرائيل كقوة دخيلة ، على عكس ما هي عليه الحال في معظم الكتب التي تدور حول الموضوع ، ويعود هذا جزئيا على الاقل الى حقيقة انني انظر من زاوية تختلف عن الزاوية التي ينظر منها معظم الكتاب الآخرين فأنا كهندي أنظر الى اسرائيل من الشرق الى الغرب ، أما هم كأوروبيين واميركيين فينظرون اليها من الغرب الى الشرق . فأنا أرى اسرائيل الصهيونية تتقدم باتجاهي ، أما هم فيرونها تبتعد عنهم . ان النظر عبر المتوسط طولا ورؤية اسرائيل على الشاطىء الشرقي شيء ، والنظر عبر الخليج العربي وجبال مؤاب الى هذه الدولة الديناميكية الجديدة التي اقامت نفسها على الطرف الغربي من آسية شيء آخر مختلف تماما . ان اسرائيل بالنسبة للغرب نقطة بعيدة ، اما بالنسبة لآسية فهي راس جسر ساحلي قريب .

يمكن للمرء ان يتساءل عما اذا كان اصدقاء ومؤيدو اسرائيل الغربيون الاقوياء سيشعرون شعورا مختلفا تماما تجاهها لو كانت تقع على سواحل البرتغال او نيوانغلند ، لكن الحقيقة أنها تقع في قارة اخرى مختلفة تماما .

ان الموضوع الاساسي لهذا الكتاب هو ان اسرائيل في آسية ولكنها ليست منها فقد حاولت اسرائيل لفترة وجيزة جدا بعد تأسيسها ان تصبح جزءا من آسية لكنها فشلت في ذلك وتخلت عن تلك المحاولة . والواقع ان الفشل كان المصير المحتم لتلك المحاولة بسبب طبيعة الحركة الصهيونية ذاتها التي كانت غير آسيوية أو معادية لآسية في عدة نواح اساسية .

هنا قد يخشى أنني دائما اكرر الاتهامات العربية المألوفة بأن اسرائيل « غربية » و « استعمارية » . أنا لا اعتقد ذلك وأرى أن من المثير للاهتمام ان الاسرائيليين ، من هذه الناحية وحدها من القضية ، يقولون ان آلة الدعاية العربية قد نجحت في تضليل الناس ، مع انني بعد ان راقبت جهود الدعاية العربية لسنوات عديدة وعن كثب رايت ان الكفاءة تنقصها لدرجة تثير الشفقة وانني لست مستعدا للاعتراف لها باي قدرة على الاقناع . ان هذا الكتاب يتخذ الحقائق المقنعة اساسا وخاصة كلمات الصهيونيين انفسهم .

قبل بلوغ وجهة نظري الحاضرة سرت في إتجاه معاكس لنشاتي ولآرائي الشخصية حول القضية الفلسطينية ذاتها .

يزعمون ان الصهيونية تتخذ تاريخ « الشعب » اليهودي كما ورد في التوراة اساسا لها وانها استمرار له ، ذلك لأن برنامجها السياسي انما يهدف الى مجرد انجاز

الوعد « بالعودة » الذي قطعه يهوه « لشعبه المختار » ومن المعلوم جيدا الآن ان اي شخص يقبل تعاليم التوراة صادقا هو في منتصف الطريق الى الصهيونية . فقد كان والداي يؤمنان بورع بالطوائف المسيحية البروتستانتية الاكثر تمسكا بالعصمة الحرفية للكتاب المقدس والتي تعتبر التوراة اكثر اهمية من الانجيل . وكانا يصران على أن يشاركهما اولادهما ذلك اليقين بأن عودة اليهود الى الارض المقدسة مقدمة الهية لنهاية العالم التي بدت لهما قريبة جدا . وبعد عام ١٩٤٧ اشتد اقتناع والدي بالصهيونية بحيث صار صهيونيا امميا عن اقتناع تام ، يدين العرب المعادين لاسرائيل لأنهم يحاولون بذلك احباط مشيئة الله ، وبقي على ذلك الاعتقاد حتى وفاته عام ١٩٦٤ .

وكانت دراسة الكتاب المقدس والطقوس الدينية المختلفة أهم جزء تقريبا في برنامج المدرسة الارسالية حيث درست ولم يكن عدد الطلاب اليهود بيننا قليلا وتميز شعورنا تجاههم باحترام تكتنفه الخشية على انهم من سلالة الأنبياء العظام الذين كنا نعرف عنهم الكثير جدا . ان هذا نموذج تام عن الموقف من اليهود في الهند حيث لم يكن اي اثر للاسامية .

استحوذني في ذلك الحين النضال الوطني الهندي مثلما استحوذ الشباب الهنود . وبعد الحرب العالمية الثانية كان في صالح يهود فلسطين انهم قاتلوا البريطانيين في الوقت نفسه الذي كانت فيه الحركة الوطنية الهندية تمر فيآخر مراحل نضالها ضد الدولة الامبريالية ذاتها . اضف الى ذلك ان اشتراكية الكيبوتس الصرفة التي بدت وكأنها مزيج تام من المثالية والعملية كانت تجذبني بصفتي مؤمنا بالاشتراكية .

لهذه الاسباب جميعها كنت اميل بحماس الى الصهيونية عام ١٩٤٧ لدرجة انني كتبت أول ما كتبت كصحافي مقالة عن ضرورة وعدالة مشروع التقسيم الصادر عن الامم المتحدة . وكنت شديد الرغبة في الاتصال بهذه الحركة مباشرة لدرجة انني اصبحت لفترة قصيرة مراسلا لصحيفة « هآرتس » في الهند .

وخلال مهمتي الدبلوماسية الاولى في السفارة الهندية في القاهرة بين العامين ١٩٤٨ و ١٩٥٢ بقيت مؤيدا لاسرائيل رغم أن الحكومة الهندية تبنت سياسة مؤيدة للعرب لا تزال تتمسك بها حتى الآن . وكانت التقارير الكثيرة التي كنت ارسلها بحكم منصبي تتعارض والسياسة الرسمية . ولم يكن صعبا في تلك الظروف تأييد اسرائيل ضد العرب . فقد اعطت الجيوش العربية صورة بائسة في قتال ١٩٤٨ بسبب الفساد والخيانة الداخلية ، وكانت مصر تمر في آخر سنوات حكم فاروق البغيضة سيما وأن الملك اطلق لوقت ما يد الاخوان المسلمين الذين كانت الهند من الاهداف الرئيسية لدعايتهم .

في اوائل عام ١٩٥٣ ، وبعد شهور من طرد فاروق تجولت في شوارع القاهرة : فشعرت لاول مرة انه بامكان العرب احترام انفسهم واكتساب احترام الغير بتصميمهم على عمل شيء ما لحل قضاياهم . وامتد بي الشعور الى انهم اصحاب قضية عادلة في فلسطين .

وحملت معي شعوري هذا الى الامم المتحدة في نيويورك حيث التحقت بالوفد الهندي الدائم هناك . وقد ناقش مجلس الامن بضع حوادث انذاك ، وطرحت وجهة

النظر العربية بمهارة كبيرة على ايدي الدكتور شارل مالك مندوب لبنان ، والمأسوف عليه الدكتور محمود عزمي ممثل مصر ، فقد تمكنا من الرد بفعالية على حجج الخطيب اللامع ابا ايبان بعد مناقشات حملتني على العودة الى الوثائق الاساسية حول فلسطين ، حيث وجدت بعد تكرار قراءتها انني لم استطع مقاومة الاستنتاج بان العرب على حق والاسرائيليين على خطأ .

لكن احدا لا يعمل كلية في عالم العقل الهادىء عندما يتعلق الامر على الاقل بالقضية الفلسطينية التي هي مشحونة عاطفة ربما اكثر من اي قضية عالمية قائمة اخرى . لقد كان رد فعلي ضد الدعم العاطفي المتقد حماسة والحثيث والمنظم تنظيما رفيعا والذي يحبو به اليهود الاميركيون دولة اسرائيل ، ذلك الدعم الواضح جدا في نيويورك ، كان رد فعلي عاطفيا فقد بدا لي ذلك ولا يزال على انه حالة واضحة من حالات الولاء الذي يتخطى الحدود الاقليمية يجب ان تستنكر . كذلك شعرت ان بلدا يعتمد اعتمادا كبيرا على ولاء كهذا يعاني من ثغرات اساسية . وتلاحقت الاحداث لتعزز مشاعري هذه .

كان رفضي ، امام مسرح قرب برودواي ، شراء بطاقات من سيدات متطوعات في حركة هداسا التي تقدم المساعدات للمستشفيات الاسرائيلية ، بداية ابتعادي عن مشاعري الصهيونية السابقة . فقد اثار هذا الحدث في مخيلتي صورة تربط بين السياسة من جهة والزراعة المائية من جهة ثانية ، وظهرت اسرائيل وكأنها تنمو ، في الواقع ، معلقة في الماء (ماء يحتوي سمادا كيماويا يستعمل في الزراعة خارج التربة) مع انها تبدو مثل نبتة طبيعية تعيش في التربة .

ومن حسن حظي انني حضرت مؤتمر باندونغ عام ١٩٥٥ حيث حذر نهرو العرب في جلسة خاصة ان الخطر لا ياتي من اسرائيل بقدر ما ياتي من القوى الكبرى وراء تلك الدولة ، وقد كان نهرو بذلك يذهب بتفكيره ابعد مما كانت تذهب اليه الوفود العربية التي احتجت لدى رئيس وزراء الهند الذي احتاج الى وقت قصير ليؤكد انه كان يدافع عن عدالة القضية العربية منذ خمسة وعشرين عاما .

وقد استمر لدي اعتقاد مشابه لذلك رغم احداث كتلك ورغم اقامة دامت اثني عشر عاما في بيروت منذ اواخر عام ١٩٥٥ — اولا كدبلوماسي ثم كمراسل أجنبي لصحيفة هندية . ان كل من يعتقد ان العيش مع العرب يؤثر على تفكيره ما عليه الا أن يجرب ذلك كصحافي ، اننا نتحمل الشكوك الحمقاء والتثبيط المرهق على ايدي الحكومات العربية .

وقبل سنوات قلائل اتهمتني وبعض زملائي الاجانب بعض الصحف في لبنان باننا « عملاء للصهيونية » ، واشارت الي على الاقل نشرة اسرائيلية واحدة باسم « معاد للسامية » .

اما اسرائيل فقد زرتها اربع مرات ولقيت كل عون من المسؤولين في الدولة والتقيت بعدد من زعماء اسرائيل مع انني كنت اود ان اراهم جميعا . وقد زرت معظم البلاد من المطلة ودان في الشمال الى بئر السبع وايلات في الجنوب .

لا يستطيع الانسان ولا يجب أن يحجب اعجابه بما حققته اسرائيل رغم انه يجب الا ينسى ان هذا يعود الى المساعدة المالية الخارجية السخية والخالية من

القيود . وعلى وجه الخصوص ، اذكر الثقة الهادئة التي تميزت بها عاملات كيبوتز دان الذي يبعد ما يقل عن ميل واحد عن الحدود السورية ، واذكر كذلك تفاني واندفاع الشبان الرواد في احد كيبوتزات الحدود الواقعة مسافة ثلاثين ميلا شمالي العقبة في منخفضات وادي عربة الحارة حيث يزرعون ازهارا تباع في محلات الازهار في شمالي اوروبا هذا ويمكن وصف الكثير مما يجري في اسرائيل بالقوة والبراعة .

كنت افكر باستمرار : ماذا لو كانت اسرائيل في مكان آخر ؟! اسرائيل في بلاد ليست لها لأن تلك البلاد ملك لشعب طرد وحل محله شعب آخر اسرائيل ليست في القارة المناسبة ، انها غريبة عن آسية . لكنني اكتشفت كم هي غريبة فقط عندما مشيت من القدس العربية الى القدس الاسرائيلية عبر بوابة مندلبوم .

الفصل الاول

انطباعات سطحية

ان من يعبر بوابة مندلبوم ينتهي بعد مسافة قصيرة لا الى مجرد بلد آخر وانما الى حضارة ومدنية مختلفتين في قارة اخرى حملتها اليها جماعة عنصرية تعيش في قرن آخـر .

يبدو لاول وهلة ان رجال الشرطة في نقاط التفتيش على الجانبين الاردنـي والاسرائيلي متشابهون لانهم لا يزالون يرتدون الزي الازرق الغامق الذي ورثوه عـن عهد الانتداب البريطاني الا ان الشبه ينتهي عند ذلك الحد لان الاردنيين ساميون سمر ويتكلمون العربية بينما الاسرائيليون سلافيون او تيوتونيون او عرق آخر غـير سامي يتميزون باللون البنفسـجي ويتكلمون العبرية . والاردنيون يقومون بواجبهم ببطء ولكن بأدب ، أما الاسرائيليون فسريعون في عملهم ولكن بجفاف وفظاظة . هـذه هـي اول العلامات الفارقة بينهما فقط .

اثناء زيارته للاراضي المقدسة في كانون الثاني عام ١٩٦٤ ، زار قداسة البابـا بولس الاول الاماكن المقدسة على جانبي الحدود مما اتـاح للصحافيين الاجانـب (باستثناء العرب والإسرائيليين) فرصة التنقل بين البلدين ذهابا وايابا . كانت تلك فرصة سنحت لي بدخول اسرائيل والخروج منها عن طريق الاردن . وقد سافرت الى اسرائيل مرتين قبل ذلك ومرة بعدها عن طريق قبرص لا عن طريق بلـد مجـاور خـلال دقـائق معـدودة .

طبيعي ان يختلف حجم وشكل وجوه واجسام سكان شقي القدس بسـبب الاختلاف العرقي بينهما (والذي يتكره رجـال الدعايـة العـرب) . والجديـر بالملاحظة ان ملامح الوجوه مختلفة ايضا : ففي الجانب العربي يغمر الانشراح والانفتاح وجوه الناس ، بينما الانقباض والاضطراب يظهر على الوجوه في الجانب الاسرائيلي اذ انه من الواضح ان الاسرائيلي حمل معه توترات اوروبا ومركباتها النفسية .

ليس هذا فحسب بل ان هناك اختلافا ايضا بين اللباس العربي الملون والمتنوع وبين اللباس الاسرائيلي الغامق والعملي . وعلى سبيل المثال لا نجد احدا في القدس « الاسرائيلية » لا يعتمر قبعة بينما نجد العكس في القدس العربية .

ونلاحظ ان المارة الاسرائيليين يسيرون بخطى سريعة شاقين طريقهم بفظاظة في الشوارع المزدحمة بشكل لا يلاحظ في اي مدينة عربية . ان السرعة ونفاذ الصبـر الاوروبيين قد انتقلا الى صفوف الاسرائيليين بدرجة اكثر مما هما في صفوف العرب .

ان هذه مجرد فروقات سهلة الملاحظة في السلوك العام ، وربما يكون أشدها العلاقة بين الجنسين . ففي اي مكان آخر من آسيا لا نستطيع ان نرى طوال ساعات النهار وخاصة في الليل فتى وفتاة يسيران ، ويد الواحد بيد الآخر او ذراع الواحد يلف ذراع الآخر ، ويتبادلان القبلات ويتلاطفان دونما خجل أو حياء . اننا نرى هذا حتى في القدس وهي مدينة محافظة. وهذا شائع في تل ابيب وحيفا وليس في اي مدينة من البر الآسيوي ـــ اذ يمكن ان يحدث هذا في جزر سنغافورة او هونغ كونغ . ان العلاقة بين الجنسين ، وهي عنصر اساسي في اي مجتمع من المجتمعات ، تختلف في اسرائيل عنها في اي مكان آخر من آسية .

حصل حديثا ان بدت الاختلافات واضحة في المظهر والملبس والسلوك بين العرب والاسرائيليين بشكل غريب مروع . كان ذلك في تموز ١٩٦٧ ولم تمض الا اسابيع قليلة على الحرب الثالثة في سبيل فلسطين . وحدث انني كنت في القدس يوم سمح لاول مرة منذ عشرين سنة لسكان القدس الجديدة بزيارة المدينة القديمة وبدا كأنما جميع اهل « القطاع الاسرائيلي » قد تركوا قطاعهم الى النصف العربي من المدينة. وقد ملأت حشود من مختلف الاسرائيليين الشوارع الضيقة في تلك المدينة المسورة بشكل اقل ما يوصف به هو الضجيج والفظاظة وقلة الذوق والتهذيب . كان الرجال يرتدون قمصانا مفككة الازرار وسراويل قصيرة أما النساء فكن يرتدين بلوزات رقيقة بلا اكمام وسراويل قصيرة وطويلة ضيقة جدا . كان الرجال والنساء يسيرون والايدي متشابكة او معقودة حول الخواصر او ملقاة على الاكتاف . اما قبل الاحتلال فقد كان مصير السواح الذين يجرأون على ارتداء مثل تلك الملابس ، او على التصرف بهذا الشكل ، هو اقتيادهم الى اقرب مخفر شرطة . ولم يتغير سلوك الاسرائيليين كثيرا حتى أمام اقدس اماكنهم المقدسة ـــ حائط المبكى . لقد زرت ذلك المكان مرتين أيام سبت . ورأيت مقابل كل اسرائيلي يذهب للصلاة تسعة آخرين يذهبون لشراء حاجات تذكارية او لالتقاط الصور . كان ذلك بالنسبة للاردنيين المتدينين العاديين مبعث حيرة اكثر منه صدمة .

لكنني اجد أن الاسرائيليين كما رأيتهم لم يتعمدوا الاهمال أو الاستفزاز وانما تلك كانت حقيقتهم . وحتى عندما تصرفوا في المنطقة العربية مثلما اعتادوا في المنطقة الاسرائيلية بدوا غرباء ومزعجين اكثر من السائح البسيط جدا القادم من الغرب الاوسط للولايات المتحدة .

ونادرا ما يواجه الانسان في اي مكان آخر في العالم حاجزا لغويا كالذي يواجهه عندما يعبر الى اسرائيل من الممر الآسيوي الضيق ، على الرغم من ان اللغتين العربية والعبرية ترجعان الى أصل واحد وتضمان كلمات مشتركة . هذا وان تأثر العبرية باللهجات الاوروبية يجعل محادثة بسيطة بالعبرية كما يتكلمونها في اسرائيل غير مفهومة للعربي .

وتحيط بالطريق من بوابةمندلبوم الى قلب القسم اليهودي من القدس منطقة قد الفت تماما منظر الرجال الذين يرتدون الازياء التي تذكرنا ، بشيء من الغموض ، بالقوزاق : قبعات كبيرة مسطحة كسيت بالفرو الكثيف ورداء خارجي فضفاض على صدرية مزينة بالرسوم والالوان وجزمات طويلة تصل الى الساق . أما الاولاد

الصغار يلفتون الانظار بقبعاتهم السوداء ، وبدلاتهم وجواربهم السوداء أيضا ، ويعلقون اقراطا كحلق في آذانهم . وهؤلاء هم بالطبع اليهود الارثونكس الذين ما يزالون يلبسون هذا الزي البولندي منذ القرن السابع عشر والذي كان لباس « الغيتو » في اوروبة الشرقية . انهم يذكروننا بشكل حي ، ان لم تذكرنا نجمة داود السداسية على العلم الاسرائيلي عند نقطة المراقبة ، بأن اسرائيل لها ديانتها المميزة وهي اليهودية . وتتجلى تلك الميزة في ان الديانة اليهودية تمارس في اسرائيل فقط ، باستثناء بعض الجاليات الصغيرة في حين ان الديانات الاسلامية والهندوسية والبوذية تنتشر في بلاد آسيوية كثيرة . اما المسيحية كاليهودية وجدت في فلسطين لكنها عادت فوجدت قاعدتها الاساسية في اوروبة فيما بعد . لقد عادت الديانتان المسيحية واليهودية ثانية الى آسية — عادت المسيحية مع مجيء القوى الامبريالية الاوروبية فرسخت قواعدها في عدة بلدان آسيوية ربما بفضل تلك الرعاية الاوروبية القوية ، ففي الهند وحدها يوجد حوالي سبعة ملايين مسيحي . أما اليهودية فلم تحصل على مثل ذلك الدعم وتوجد فقط في اسرائيل مشكلة بذلك نقطة اختلاف اخرى مع بقية أقطار القارة الآسيوية .

ان المظهر الخارجي لمدينة تل ابيب ، كبرى المدن الاسرائيلية ، هو انها لا تتمتع بصفة أصلية كما هي الحال بالنسبة لما أضافه الاسرائيليون على المدن العربية مثل صفد الجديدة او الناصرة الجديدة . ولكن الصفة الملازمة لاسرائيل والتي تبدو واضحة حتى في المناطق الريفية من البلاد هي أن شعبها هم جماعة غرباء عن المنطقة ودخلاء عليها . يقول آرثر كوستلر (١) بأن الكيبوتسات الاسرائيلية ذكرته بالمزارع الجماعية في بولندة واوكرانيا وببعض المناطق اليوغوسلافية والهنغارية . وذكرتني أنا بما فعله المستعمرون الفرنسيون في السهل الممتد الى الجنوب والشرق من مدينة الجزائر بحيث حولوه بشكل أصبح معه يشبه كوت دور في بورغنده .

لقد عالجت لحد الآن انطباعات سطحية ، ولكني بعدما سافرت في طول اسرائيل وعرضها لا استطيع أن اتهرب من شعوري ، الذي يصعب علي تفسيره ، بأن اسرائيل اوروبية في جوهرها وتنظيمها الاساسي وحياتها اليومية . وعادت بي الذاكرة الى ملاحظة قالها لي شخص اسرائيلي ذكي ، وهو احد معارفي : « سياستنا تقوم على النموذج الفرنسي ، ثقافتنا من وسط اوروبة والخدمة المدنية انكلوسكسونية ، وشعبنا الآن اوروبي بشكل رئيسي » . ولو تركت جانبا الجملة الاخيرة ، لمدة وجيزة ، لشعرت ان الملاحظات السابقة ، مع انها صحيحة ، لا تصل الى صميم المقالة . ولكن بعد العودة الى جداول « الخلاصة الاحصائية لاسرائيل » * اعترف مهما ترددت بأن ماركس قد اعطى المفتاح في تأكيده على ان الاسس الاقتصادية للمجتمع تحدد البناء الاجتماعي والثقافي الفوقي .

ووفقا لتلك الجداول فان الزراعة تشكل اقل من ٢٠٪ ، والاعمال غير الزراعية تشكل اكثر من ٨٠٪ من الحياة الاقتصادية في اسرائيل ، في حين ان الجزء الاكبر من

---

١ — ا. كويسطر، Promise & Fulfilment لندن ، ١٩٤٩ ، ص ٣٢٥ .

* Statistical Abstract of Israel

البر الآسيوي على عكس ذلك تماما بحيث تشكل الزراعة اكثر من ٨٠٪ ، والاعمال غير الزراعية اقل من ٢٠٪ وخلال احدى زياراتي لاسرائيل التقيت بالجنرال موشيه دايان عندما كان وزيرا للزراعة واوردت له هذه الارقام ، فأعرب عن استغرابه من أن الزراعة تشكل هذه النسبة المئوية المرتفعة في بلده واضاف بأنه لو يملك زمام الامر لخفضها الى ١٠٪ . (وقال معلقا على ذلك بشيء من الكبرياء بقوله ان مكننة الزراعة في أسرائيل تعد في المرتبة الثانية بعد ايطالية) . وعندما اشرت اليه بأن تقسيم العمل ذلك يعني أن هناك ثغرة واسعة لا مفر منها بين التركيب الاقتصادي والاجتماعي في اسرائيل وبينه في بقية دول آسية ، اجاب بأن على الدول الآسيوية ان تبذل جهدا لكي تلحق باسرائيل ، اما اذا هم ارادوا ذلك او عقدوا العزم عليه فان تلك مسألة أخرى ، والحقيقة تبقى ان هناك فجوة ، لأن طريقة التفكير نفسها والاحكام التقييمية الاساسية في المجتمع الزراعي تختلف تماما في البلاد غير الزراعية عما هي عليه في البلاد الزراعية .

ان ما لدى اسرائيل وما ليس لديها يعزلانها عن آسية بنفس القدر . ان البلاد الآسيوية وان كانت تفتقر الى التنظيم الصناعي أو المهارات التقنية ، فهي بدون شك (وربما بسبب ذلك الافتقار) تتمتع بثقافاتها المحلية المتعددة الجوانب ، وهذا ما تفتقر اليه اسرائيل . وقلما نعثر في اسرائيل اليوم (وهذا ما يحز في نفوس كثير من الاسرائيليين) على مأكولات او البسة أو رقصات أو حرف يدوية أو فن عمارة لها طابعها المميز . ولعل ذلك يرجع الى كون اسرائيل تتألف من شعوب جاءت من حوالي خمسين بلدا مختلفا ، حتى أنه من العسير وجود ثقافة واحدة علما انه ليس هناك فسيفساء ثقافات قائمة بنفسها . فالرقصة الوطنية الاسرائيلية « الهورا » هي اوكرانية ، والنشيد الوطني الاسرائيلي « هاتيكفا » اغنية شعبية قديمة جاءت من اوروبة الوسطى . وقد دعيت مرة الى وجبة افطار اسرائيلية فوجدت ان الخبز والزبدة والجبنة والزيتون كانت طعام الشرق منذ آلاف السنين (٢) . ان اليهود الذين جاءوا الى اسرائيل لم يأتوا بأجزاء من حضارات البلدان التي كانوا يعيشون فيها لأنهم لم يكونوا في غالبيتهم من الذين تمثلوا حضارات بلدانهم ، لأن الذين تمثلوا ثقافات بلدانهم لا يشعرون بالحاجة الى المجيء الى اسرائيل . الا أن غياب الهوية الحضارية هذا قد وجد البديل له في الجماعة اليهودية الوحيدة التي انتقلت بمجموعها حاملة مع حضارتها الاصلية ، تلك هي الجماعة اليهودية اليمنية القديمة ، وهذا هو سبب انتشار الرقصات والمجوهرات اليمنية وغيرها من الحرف اليدوية التي كثيرا ما نلاحظها اليوم في اسرائيل .

ان هذه الاشارة الى المهاجرين اليمنيين تعيد الى الذاكرة القول السابق بأن معظم الاسرائيليين اليوم شرقيون . ان صحة ذلك تؤدي الى القول (٣) بأن اسرائيل بلد

---

٢ ـ ومن جهة اخرى ، كان طعام اسرائيل غربي أكثر من طعام الدول الغربية : فهي تستهلك اكبر كمية من الدجاج بالنسبة للفرد الواحد في العالم ، وفي العام ١٩٥٦ كانت الثالثة في استهلاك البيض بعد الولايات المتحدة وكندا .A. Rubner ، **الاقتصاد الاسرائيلي** ، لندن ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٣ .

٣ ـ ج. باركس ، Arab & Jew in the Middle East ، لندن ، ١٩٦٧ ، و Bulletin of the Council of the Sephardic Community « Israel's Oriental Problem » القدس ، المجلد الثاني ، العدد ٧ ـ ٩ ، ص ٣ ـ ٤ .

شرقي او أفرو ــ آسيوي بما لا يقبل الجدل . يمكن ان يكون هذا صحيحاً حسب الجداول الاحصائية ، لكنهم لم يكسبوا الدولة لونها الخارجي او شخصيتها السياسية والاقتصادية الاساسية . ان اليهود الشرقيين ، كما سنرى بعد قليل ، يحتجون لفظيا وفعليا على هذا الوضع . وفي الحقيقة يندر جدا ان نرى يهودا شرقيين في المدن والبلدان الاسرائيلية خاصة في تل ابيب . والحادثة التالية اكبر دليل على ذلك . لقد تجولت في عشرين مدينة تمتد من اليابان الى كاليفورنيا ، ولكن لم يحدث قط انني استرعيت النظر والانتباه في هذه المدن لسمرة بشرتي وكوني أجنبيا كما حدث لي في شوارع تل ابيب اذ كانت العيون تحدق بي باندهاش .

من جهة ، لم يفاجئني هذا ، اذ عبر المسافات الشاسعة في آسية نرى أن هناك تشابها وتفاعلا بين البلدان المتجاورة بحيث لا يوجد فصل وتغير كاملين بينها ابدا . ان الباكستان ترتبط مع العالم العربي وايران بروابط اللغة المكتوبة والدين ، وترتبط بالهند بروابط التقارب في الجنس والحضارة واللغة المحلية . وكذلك البوذية ، فهي تكون رابطة شديدة بين الهند وكافة بلدان جنوب شرقي آسية واليابان ، وبورمة ايضا ترتبط مع تايلاند ولاوس بروابط اللغة والجنس . ولكننا نرى انه بين اسرائيل وجاراتها الآسيوية اختلاف عميق يصل الى حد انعدام كل الروابط من جنس ومظهر ولغة ومأكل ودين وسلوك وتنظيم اجتماعي . ولربما بدا لنا لاول وهلة ان تل ابيب شبيهة ببيروت ، ولكن بيروت لا تختلف في جوهرها وحياتها اليومية عن سايغون او بومباي ، وكذلك القسم الاردني من القدس يشابه الى حد كبير مدينة اصفهان او بيناريس او كيوتو . ولكن « القدس الاسرائيلية » او تل ابيب لهما من الشبه الكبير فقط مع بودابست وفرانكفورت .

وعند بوابة مندلبوم تنتهي آسية وتبدأ اوروبة الوسطى .

اصول اسرائيل غير الآسيوية

ربما يسأل سائل ، لماذا تكون الدولة اليهودية في آسية غريبة ودخيلة وغير آسيوية ؟ ان هناك جوابا ديموغرافيا ورياضيا بسيطا : ذلك أن اليهود وعبر قرون عديدة خلت كانوا شعبا غير آسيوي .

ان في العالم اليوم ما يقارب الثلاثة عشر مليونا ونصف المليون من اليهود ، ثلاثة عشر مليونا منهم يوجدون في اوروبة واميركا الشمالية والجنوبية واوستراليا ، ونصف المليون الباقي يوجد في قارتي افريقيا وآسيا ، بينهم حوالي مئة الف في قارة آسيا وحدها ، وهي القارة الام « للشعب اليهودي » .

واليهود الآسيويون يشكلون اقلية صغيرة في اي مجموعة عينية تمثل اليهود . وانه لمن المدهش ان اليهود الشرقيين يشكلون نصف السكان في اسرائيل ، الا ان ذلك يرجع الى صدفة تاريخية من جهة ، ومن جهة اخرى الى كون اليهود الاوروبيين هم الذين خلقوا دولة اسرائيل نفسها

ان كون معظم اليهود غير آسيويين هو جزء من المأساة الطويلة التي شهدها « العنصر » اليهودي ، وبعد طرد اليهود من فلسطين على يد الامبراطور هادريان في

القرن الثاني استمرت الغالبية اليهودية مع ذلك في العيش في الشرق وحول سواحل البحر الابيض المتوسط في شمال افريقيا ، الى ان كان القرن الثاني عشر حيث مال الميزان الديموغرافي واصبحت غالبية اليهود موجودة في اوروبا اما عن طريق اعتناق الديانة اليهودية هناك على نطاق واسع واما عن طريق ازدياد نسبة التوالد بين اليهود ، ومنذ ذلك الحين وعلى الرغم من تمركز اليهود في اسرائيل من جديد بقيت الديانة اليهودية غير آسيوية .

عندما دخل اليهود اوروبا لاول مرة انتشروا في شتى ارجاء القارة ، ولكنهم ما لبثوا أن أخذوا يتنقلون في وقت لاحق من تاريخهم في اوروبا ، وذلك بسبب الاضطهاد ، في موجات مختلفة بعضها ببطء وبعضها الآخر بسرعة المد وقوته متوجهين من الغرب الى الشرق اولا ثم من الشرق الى الغرب .

وفي مناسبتين من التاريخ اليهودي في اوروبا نرى أن بقاء اليهود على قيد الحياة يعود الى استضافة وحماية الحكام المسلمين . كانت الفترة الاولى في القرن السادس عندما وضعت الفتوحات الاسلامية في اسبانيا حدا للاضطهاد اليهودي على يد المسيحيين هناك . ومنذ القرن العاشر فصاعدا اخذ الضغط على اليهود في اوروبا الغربية في الازدياد ببطء حتى اذا ما أطل القرن السادس عشر كانت تلك المنطقة بكاملها قد افرغت من اليهود ما عدا بعض الجيوب الصغيرة والمبعثرة . لقد انتقلت الجاليات اليهودية نحو الشرق ووجدت ملجأ لها في الامبراطورية العثمانية كما في بولندة وروسيا حيث تجمع القسم الاكبر منهم في المقاطعات الغربية من روسيا وبولندة وهي التي عرفت فيما بعد بمناطق الاستيطان .

وقد عاش اليهود تحت الحكم العثماني بسلام لكنهم كانوا يلاقون دوما في اوروبا الشرقية تمييزا وكراهية قوية كانت تتفاقم من وقت لآخر لتنتهي بالمذابح . وعلى الرغم من هذا ، فان اليهود الاوروبيين ساهموا مع الشعوب الاوروبية الاخرى في الانفجار السكاني الذي شهدته اوروبا في القرن التاسع عشر . ففي سنة ١٨٠٠ بلغ تعداد اليهود بين ٢،٥ و٣ ملايين ، وفي سنة ١٨٥٠ ارتفع هذا العدد الى خمسة ملايين ، ومع حلول عام ١٩١٤ بلغ عددهم اكثر من اثني عشر مليونا .

وقد جاءت هذه الزيادة على الرغم من الهجرة الهائلة من اوروبا الشرقية الى اوروبا الغربية ثم عبر المحيط الاطلسي الى امريكا في اعقاب المذابح الكبيرة التي شهدتها روسيا عام ١٨٨١ . وبين عامي ١٨٨١ و ١٩١٤ انتقل ما يزيد عن ربع سكان العالم من اليهود الى أماكن متفرقة من العالم بشكل عنيف ، ونتيجة لذلك ظهر هناك مركز ضخم جديد لليهود . ففي خلال هذه الثلاث والثلاثين سنة ازداد سكان الولايات المتحدة من اليهود . فبعد أن كانوا أقل من ربع مليون زادوا عن المليونين .

انها لحقيقة أنه بينما كان سكان اوروبا الغربية من اليهود قد بلغوا في القرن التاسع عشر ثلاثة اضعاف ما كانوا عليه من قبل ، وخاصة عن طريق الهجرة من الشرق ، نجد أن عدد اليهود في اوروبا الشرقية ، على الرغم من الهجرة اليهودية منها ، قد تضاعف خمس او ست مرات . وفي عام ١٧٧٢ كان عدد اليهود في روسيا

٦٠٠،٠٠٠ ، ومع بداية عام ١٩١٧ اصبح عددهم اربعة ملايين (٤) .

ان هذه الزيادة الكبيرة في الاعداد تؤكد الاتجاه نحو نشوء اغلبية غير شرقية بين يهود العالم . ولم ينعكس هذا الاتجاه ، بالرغم من التغير العنيف الذي حصل في صفوفهم في اوروبا خلال الحرب العالمية الثانية . فقد قتل حوالي ستة ملايين يهودي على ايدي النازيين (من اصل عشرين مليون ضحية) ومع الهجرة في عام ١٩٥٩ انخفض عدد اليهود في اوروبا الى اقل من اربعة ملايين . ولكن حتى ذلك الحين كانت الجالية اليهودية في اميركا الشمالية قد ازداد عددها الى خمسة ملايين ونصف المليون. ان اكبر تجمع يهودي هو اليوم في امريكا الشمالية ، تأتي بعدها اوروبا واميركا الجنوبية ، أما افريقيا فان ترتيبها يأتي في الدرجة الثانية ، تتبعها آسيا (اسرائيل داخلة في الحساب) واستراليا .

وعليه فان اسرائيل تعتبر بالضرورة غريبة ودخيلة على آسية ، لانها خلقت بأيد يهودية اوروبية ، وعندما اعلنت قيامها في العام ١٩٤٨ كانت مقتصرة تقريبا على اليهود الاوروبيين المقيمين فيها . ومنذ ذلك الوقت ويهود اميركا واوروبا يدعمونها.

ان الظروف التي احاطت بولادة اسرائيل عام ١٩٤٨ اكدت على ان السكان يجب الا يكونوا من اليهود الاوروبيين فقط والا اصبحت غريبة ، بل يجب ان يكونوا جميعا تقريبا من اليهود الاوروبيين . وقد تم ذلك عن طريق طرد السكان العرب الاصليين من فلسطين الذين كانوا الاغلبية الساحقة والذين لو بقوا في الدولة اليهودية الجديدة لشكلوا حلقة وصل بينها وبين المنطقة العربية في غربي آسيا . ان الارقام النسبية للتغير الكبير في عدد السكان هي التالية : في عام ١٩١٩ عندما استولت بريطانيا على الادارة في فلسطين ، كان من بين السكان البالغ عددهم ٧٠٠،٠٠٠ نسبة ١٠٪ من اليهود وكان نصف الـ ٧٠،٠٠٠ يهودي من المهاجرين منذ عام ١٨٨٠ . وفي العام ١٩٤٨ ونتيجة للهجرة من اوروبا ازداد تعداد الجالية اليهودية ليبلغ حوالي ٦٠٠،٠٠٠ مقابل ١ر٢ مليون عربي من المسلمين والمسيحيين وعند نهاية عام ١٩٤٩ بلغ تعداد العرب ١٥٠،٠٠٠ بينما ازداد تعداد السكان اليهود مما جعل نسبة العرب قليلة جدا ومركزهم ثانويا بحيث لا يستطيعون صبغ الدولة اليهودية محليا بأي لون . وقبل توسع اسرائيل في اعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ كان العرب يشكلون ١٠٪ من مجموع السكان وهذا بالضبط هو عكس ارقام عام ١٩١٩

وفي الاشارة الى انتقال الشعب الفلسطيني الى خارج بلده عام ١٩٤٨ استعملت كلمة « طرد » . لعدة سنوات امتدت حتى اوائل الستينات كان الاعتقاد السائد هو الادعاء الذي اطلقه الاسرائيليون بأن الفلسطينيين قد تركوا ديارهم عن ارادة حرة بعد الاوامر التي صدرت اليهم عن طريق الاذاعة من قادتهم الذين وعدوهم بالعودة الى وطنهم في ظرف اسابيع معدودة . ان الابحاث الهامة التي قام بها عدد من الدارسين امثال ارسكين شلدرز (٥) ووليد الخالدي (٦) قد اثبتت عدم صحة هذه الرواية :لقد بينوا

---

٤ ــ هذه الارقام مأخوذة من كتاب H. Sacher ، **الصهيونية والمستقبل اليهودي** ، لندن ، ١٩١٦ ، ص ١٢ ــ ١٤ انظر ايضا ج. باركس ، The Emergence of the Jewish Problem لندن ، ١٩٤٦ ، المقدمة .

٥ ــ The Spectator, Erskine Childers ١٢ ايار ، ١٩٦١ .

٦ ــ وليد الخالدي ، Middle East Forum ، بيروت ، تشرين الثاني ١٩٥٩

ليس فقط انه لم تذع اوامر كتلك ولكن على العكس من ذلك ، فقد اشاروا الى ان تلك الاذاعات التي وجهت الى الفلسطينيين كانت تحثهم على عدم ترك بيوتهم . واذا كان الفلسطينيون قد تركوا بيوتهم فما ذلك الا بسبب الضغط العسكري وانتشار اعمال الارهاب ، واكبر دليل على ذلك المذبحة الشهيرة التي شهدتها قرية دير ياسين العربية . وبعد ثبوت هذه الحقائق اكدت لي وزيرة الخارجية الاسرائيلية غولدا مئير ، في مقابلة معها عام ١٩٦١ بأن الفلسطينيين خرجوا بناء على الاوامر الصادرة اليهم . ولكن وزارة الخارجية الاسرائيلية لم تكن قادرة على ان تعطي برهانا وثائقيا يدعم زعم وزيرة الخارجية بالرغم من التماساتي المتكررة بهذا الصدد .

وهكذا فان دولة اسرائيل كما هي اليوم قد جاءت الى الوجود بعد الاستيلاء على مقاطعة ماهولة بواسطة مهاجرين أجانب ، ثم تبع ذلك طرد الغالبية العظمى من السكان الاصليين . وقلما يوجد في التاريخ حادثة مشابهة لهذه . ان رجال الاعلام العرب يؤكدون باستمرار ان اسرائيل تشبه انظمة المستوطنين البيض في جنوب افريقيا وروديسيا ان هذه المقارنة تفتقد الدقة لانه على الرغم من ان المستوطنين يسيطرون على جهاز الدولة ، الا ان سكان البلاد الاصليين يبقون ويشكلون الاكثرية . وهذا ما ينطبق على ليبيريا ، على الرغم من ان القادمين الجدد ينتمون الى الاصل العرقي نفسه الذي هو اصل السكان الاصليين ان السابقتين الوحيدتين في تاريخ العالم هما طرد الهنود الحمر من مناطقهم على يد المستوطنين الجدد في اميركا الشمالية (٧) ، وطرد السكان الالمان ، على يد الروس والبولنديين ، من مقاطعتهم الواقعة الى الشرق من خط اودر ـ نيسة في عام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦

وبما ان خلق اسرائيل ادى الى طرد السكان الاصليين والمجيء بمهاجرين يهود جدد ، فان عنصرا ديناميكيا جديدا قد اضيف الى سلسلة العناصر التي تجعل من اسرائيل غريبة كما سبقت الاشارة وهذا يعني ان اسرائيل ليست جسما غريبا خاملا ولكنها جسم غريب فعال لم يكن الجسم الذي يستضيفه راغبا فيه وقادرا على قبوله . وهذه الصفة التي تنطبق على اسرائيل كانت ملازمة للحركة الصهيونية التي جاءت بها الى الوجود .

وقد عبر عن وضع اسرائيل الراهن والاهداف الاساسية للصهيونية بدقة احد المدافعين عن الصهيونية بالكلمات التالية : « ان الصليبيين مع ذلك كانوا آخر من حاول محاولة الاسرائيليين ـ وهي نقل مجتمع اوروبي الى الشواطيء الشرقية للبحر الابيض المتوسط . وينبغي الا نخطيء في فهم حقيقة أن الاسرائيليين يودون أن يبقوا اوروبيين ، ولذلك نرى ان اهدافهم السياسية والاجتماعية هي اهداف دولة اوروبية » (٨) .

---

٧ ـ يشير مؤسس الصهيونية السياسية ، هرتزل ، الى مذكراته على أنها مثل « الكتاب المطول من مايفلور الجديدة New Mayflower » (المذكرات ، ص ٥٧٤) ، واشار الزعيم الصهيوني الاميركي القاضي لويس برانديس باستمرار الى المستوطنين في فلسطين بأنهم « الاباء الحجاج اليهود » ا. هرتزبرغ ، الفكرة الصهيونية ، نيويورك ، ١٩٥٩ ، ص ٥١٩ .

٨ ـ Max Beloff, «Time, Space & Israel» in **Mission of Israel,** (ed.) J. Baal, Jeshura, New York, 1963, P. 176.

الفصل الثاني

الدوافع الصهيونية

العـــــودة

لا بد ان دافعا قويا فعلا حمل يهود أوروبا على المجيء الى تلك الرقعة الواقعة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط المعروفة بفلسطين لاقامة دولة لهم فيها . وعند قيام اسرائيل برزت في الوقت نفسه الى الوجود دول آسيوية مستقلة جديدة نتيجة نضال الحركات القومية في تلك البلاد . ويعتبر الاسرائيليون ان لدولتهم جذورا قومية زعما منهم انها تشكل وجها شبه كبير بين اسرائيل والدول الآسيوية الحديثة والحركة القومية التي قامت في صفوف اليهود هي الصهيونية .

وقد صيغت كلمة « صهيونية » عام ١٨٩٣ ، وهذا ما يجعل الحركة الصهيونية تبدو حركة عصرية نسبيا مثلها مثل العديد من الحركات القومية الاخرى وخاصة الآسيوية منها .

الا ان تلك الحركة اليهودية تختلف عن الحركات القومية الآسيوية من ناحية واضحة جدا هي أن هذه الحركات حركات تحررية قامت بها شعوب تعيش في منطقة معينة في سبيل التخلص من الحكم الاجنبي ليجعلوا سيادتهم ومصيرهم في ايديهم . أما اليهود في مناطق الشتات فلم تكن لهم بقعة جغرانية واحدة يقيم فيها كل « الشعب » او معظمه مع انهم استوطنوا منطقة شاسعة ضمت عددا كبيرا منهم لذلك بالنسبة للصهيونية كان الوصول الى ايجاد قاعدة هي الغاية والهدف الاساسي .

ومن المعروف جيدا وبوضوح ان الحركة القومية في بلدان عدة مثل الهنـــد والجزائر لم تكن تعبيرا عن قومية او شعور قومي سبق ظهور الحركة القومية وانما الاخيرة هي التي ولدت ذلك الشعور . ان مهمة الصهيونية كانت اكثر تعقيدا من ذلك ، اذ لم يكن يتوجب عليها أن تجمع « شعبا » في بوتقة قومية فحسب بل كان عليها أن تأتي « بشعب » مشتت الى منطقة يستولي عليها وأن تخلق في الوقت نفسه او في وقت « لاحق » أمة من ذلك « الشعب » .

وهنا يجب ان تطرح ثلاثة اسئلة اساسية . السؤال الاول والاقل اهمية نسبيا هو ما اذا وجد او لم يوجد شعور قومي بشكل معين في صفوف « الشعب » اليهودي قبل قيام الحركة الصهيونية المنظمة . اما السؤال الثاني والاكثر حسما فهو : هـــل يستحق الشعور الذي ولدته الحركة الصهيونية بعد قيامها اســـــم « قومية » ؟ والسؤال الثالث : ان لم تكن الصهيونية حركة قومية ، فما هي دوافعها الحقيقية ؟

قلنا أنه كان لكل حركة قومية في آسيا « قاعدة اقليمية » بالاضافة الى اشياء

غيرها . ويعود هذا الى أن هذه « القواعد الاقليمية » كانت مهدا للمدنيات القديمة سواء اكانت هضاب الاناضول او فارس او افغانستان أو شبه الجزيرة العربية او الهند أو ماليزيا أو اودية دجلة والفرات أو الاروادي أو الميكونغ او اليانغستي او جزر اليابان او الفيليبين أو اندونيسيا . وقد قامت داخل هذه الكيانات الجغرافية المتباينة اجناس لها دياناتها وحضاراتها ولغاتها وتقاليدها وتاريخها . وشكلت هذه العوامل بالاضافة الى الرقعة الجغرافية المشتركة ، المواد الخام التي كانت في متناول دعاة القومية في آسيا ، الذين اتخذوا منها مادة البنية القومية الجديدة . وكانت عاطفة حب الوطن بمثابة الاسمنت الضروري والاساسي لتماسك تلك المواد . ونحن نريد أن نعرف ما اذا كانت جميع هذه العوامل او ايا منها متوافرة لدعاة الصهيونية .

ان اثبات الدوافع الصهيونية يتجاوز مجرد الاهتمام التاريخي . فميزات الحركات القومية الآسيوية انتقلت الى حد ما الى الدول القومية التي اقامتها هذه الحركات حتى وان بدت هذه الدول مخالفة لمطامح وآمال الزعماء القوميين ، ويصح هذا على الحركة الصهيونية ودولة اسرائيل حيث ان الحياة السياسية فيها وعلاقاتها بجيرانها وسياستها الخارجية لا تزال جميعها تتميز وتتأثر الى حد بعيد بميزات ودوافع الحركة الصهيونية .

نستدل مما يقوله الصهيونيون عن الصهيونية انه بسبب الوضع الخاص « للشعب » اليهودي يصعب غاية الصعوبة ان لم يستحل تحديد نوع الحركة الصهيونية تحديدا دقيقا في ماضيها وحاضرها . وهذا يميزها عن الحركات القومية الافرو — آسيوية الاخرى .

يقول احد الصهيونيين « الصهيونية مثل أعلى وكونها كذلك يجعل تعريفها متعذرا » (١) » ويتساءل آخر : « ما هي الصهيونية ؟ هي في جوهرها وغايتها فلسطين بكل تأكيد ، ولكنها في الوقت نفسه كل ما هو اقوى واعمق واكثر حيوية في الديانة اليهودية في العالم اجمع (٢) » ، وهذا الجواب في حد ذاته مثال ممتاز على تأرجح الصهيونية بين الخاص والعام ، بين السياسة والدين .
وتعرف « دائرة المعارف البريطانية » الصهيونية تعريفا بسيطا جدا هو انها « رد فعل اليهود للاسامية الامية (٣) . »

وهكذا نرى منذ البدء ان الدوافع الصهيونية كانت اما دينية أو عرقية أو فكرة سياسية أو رغبة في التخلص من الاضطهاد اللاسامي ، أو كل هذه مجتمعة .
ظهرت في معظم الحركات القومية مذاهب متعددة ومتضاربة فكرا وعملا . الا ان هذه الظاهرة دارت حول قضيتين بسيطتين نوعا ما هما : هل تستعمل اساليب العنف

---

١ — س. ششتر في هرتزبرغ ، **الفكرة الصهيونية** ، ص ٥٠٥ .

٢ — ن. سوكولوف في Zionism : Problems & Views ، تحرير غودمان ولويس ، لندن ، ١٩١٦ ، ص ٣١ .

٣ — طبعة ١٩٤٣

او الاساليب الدستورية وهل تطالب بالاستقلال الكامل والفوري او الاستقلال على مراحل خلال فترة من الزمن إما الخلافات داخل الحركة الصهيونية فلم تكن حول الاسلوب فحسب بل حول الغاية الرئيسية نفسها . ومن ثم برز بشكل مدهش عدد كبير من الاشكال الصهيونية في تاريخ الحركة الصهيونية الخيرية ، والصهيونية العملية ، والصهيونية السياسية ، والصهيونية التوفيقية ، والصهيونية الثقافية ، والصهيونية الروحية ، والصهيونية الدينية والصهيونية الاشتراكية ، والصهيونية العضوية ، والصهيونية التخطيطية ، والصهيونية الميكانيكية ، وصهيونية الحد الادنى ، والصهيونية الشعبية ، والصهيونية الخلاصية ، والصهيونية الدفاعية ، والصهيونية بلا صهيون .

والمثير للحيرة خصوصا هو ان تيودور هرتزل ، مؤسس الحركة الصهيونية الرئيسي كحركة منظمة على نطاق واسع ، كان في البداية صهيونيا بلا صهيون تماما ، ثم تحول تدريجيا ليصبح في عامه الاخير صهيونيا بصهيون تماما

ربما تكون هذه التسميات المتعددة مجرد اسماء جديدة لشعور قديم جدا وهو رغبة « الشعب » اليهودي في تحقيق نبوءة العودة الى الارض المقدسة التي مر ذكرها في اسفار التوراة . وربما يبدو غريبا ، حتى لبعض اليهود ، ان تقوم حركة في القرن العشرين على اساس الكتب الدينية التي ترجع الى العصر البرونزي الاخير . ويجب ملاحظة العهد المعقود بين « الشعب » اليهودي والههم يهوه الذي جعلهم « شعبه المختار » واعطاهم أرض الميعاد ، ذلك لان هذا العهد يلعب دورا هاما في الدفاع عن الصهيونية ان لم يكن عن قيام الحركة الصهيونية ذاتها . وهذه الاحداث مدونة في سفر التكوين وهناك وعد آخر في اسفار الانبياء وخاصة في سفر اشعيا حول تجمع « الشعب » اليهودي المشتت ثانية في فلسطين كخطوة قبل قدوم المسيح المخلص (٤) . ويشكل الوعد والعودة الاساس الديني للحركة الصهيونية .

وقد ناقش رجال اللاهوت المسيحيون واليهود هذه النصوص مطولا باحثين عن الحدود الجغرافية لارض الميعاد بدقة ، وعما اذا كانت تنطبق حرفيا على الشعب اليهودي وحده او ، بمعنى مجازي ، على الجنس البشري كله (٥) . والقيمة العملية لهذه المناقشات قليلة واهميتها اقل من ذلك .

المهم حقا في الموضوع هو حقيقة ان العاطفة التي تكتنف فكرة العودة قد استمرت عبر القرون بفضل قولين او شعارين يثيران الذكريات والعواطف بشكل قوي . اولهما المزمور السابع والثلاثون بعد المئة ويصف يهود المنفى في بابل حيث يصرخون عاليا « اذا نسيتك يا اورشليم تنسى يميني » . وهذه الكلمات تتكرر في صلوات اليهود ثلاث مرات في اليوم . اما الثاني فهو ما يقولونه عندما يشربون نخب عيد

---

٤ ــ يعطي ن. باربر قطعة نموذجية عن هذه النصوص التورانية في كتابه Nisi Dominus لندن ، ١٩٤٦ ، ص ١٢ ــ ١٥

٥ ــ أنظر A - Guillaume, «Zionists & the Bible» in **Palestine And the Bible,** صدر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٧

الفصح « العام القادم في اورشليم » . وتركت هذه الكلمات في حد ذاتها تأثيرا عظيما في مجرى التاريخ يشبه تأثير شعارات « الحرية والمساواة والاخوة » أو « يا عمال العالم اتحدوا » . ولعل من اسباب اثارة مشاعر العودة عند عامة اليهود في كل زمان ومكان حتى قبل قيام الحركة الصهيونية ، خروجهم مـــن مصر وعودتهم من النفي البابلي (٦) .

تلك كلمات جميلة بليغة وبراقة لكنها تنطوي على مقدار ضئيل من الحقيقة . اما القس جيمس باركس ، وهو صهيوني غير يهودي واسع الثقافة ، فقد اعطى رأيا اكثر اعتدالا في دور الدين في قيام الحركة الصهيونية وخلق دولة اسرائيل (٧) وعرض باركس للاصول الخمسة التي تقوم عليها اسرائيل مبتدئا اياها بهذه الكلمات التحذيرية : « في حين ان القضية العربية عادية وسهلة الفهم لانها ترتكز على العلاقة التي تربط شعبنا بالارض التي عاش عليها قرونا، فان القضية اليهودية ليست سهلة الادراك (٨) » (وعلى الرغم من ذلك فان القضية العربية لم تفهم جيدا مثل القضية اليهودية) الاصل الاول هو اليهودية لأن « الصهيونية العلمانية لا تستطيع تغيير حقيقة مؤداها ان اعمق مرتكز لدولة اسرائيل هو الديانة اليهودية (٩) » والاصل الثاني هو الامل في الخلاص بدعوة « الشعب » اليهودي للعودة الى « وطنه » مع مجيء المسيـــح المخلص أما الاصل الثالث فهو التاريخ اليهودي وما شهده من اضطهاد والاصل الرابع هو استمرار الحياة اليهودية في اسرائيل . والاصل الخامس والاخير هو عـــلاقة يهود فلسطين بيهود العالم . ومن المشكوك فيه ان يعطي القادة السياسيون المتعنتون في اسرائيل حاليا الاولوية ذاتها للدافع الديني رغما عن ان كثيرين جدا من المنظرين الصهيونيين الذين يجعلون الامل التاريخي في العودة بين الدوافع الرئيسية للحركة وحسب قول اول رئيس لاسرائيل فان « فلسطين تملك سحرا وفتنة رومنطيقيـــة بالنسبة لليهود (١٠) »

ومن حسن الحظ او سوءه ان السحر والرومنطيقية يلعبان دورا ضئيلا جـــدا في حياة البشر العاديين بمن فيهم اليهود . وهكذا فانه على الرغم من أن اليهود كانـــوا يكررون العهد كل يوم بألا ينسوا القدس مغنين بذلك التوق للعودة اليها ، فان قليلين جدا منهم ذهبوا فعلا الى هناك للحج او الاستيطان حتى عندما لم تكن هناك عقبات في طـــريق العودة

ويبدو أن هرتزل نفسه قد ضاق ذرعا بمثل تلك الافكار الرومنطيقية ، فكتـــب لكبير حاخامي فينة عام ١٨٩٦ يقول : « وما السبيل الى فهم التقييم الجديد لرمزيـــة « العودة » التي يرددها اليهود باستمرار في صلاتهم ؟ لما تفسر العودة الى صهيون بالعكس تماما كلما ذكرت (١١) . » تلك كلمات قاسية ولكنها ليست بعيدة عن الحقيقة

---

٦ ــ ن. سوكولوف ، تاريخ الصهيونية ، المجلد الاول ، لندن ، ١٩١٩ ، ص
٧ ــ ج. باركس ، Five Roots of Israel ، لندن ، ١٩٦٤
٨ ــ المصدر السابق ، ص ٣
٩ ــ المصدر السابق ، ص ٥ .
١٠ ــ حاييم وازمن ، **التجربة والخطأ** ، لندن ، ١٩٥٠ ؛ ص ١٤٣
١١ ــ **المذكرات** ، ص ٢٢١

لأنه لم يرحل الى فلسطين عبر الاجيال الا القليل جدا من اليهود ، وفي بعض الاحيان بلغ عدد اليهود في فلسطين بضعة آلاف أما اليهود الاصليون الذين استطاعوا أن يزعموا بأن اجدادهم لم يعرفوا النفي ابدا فوجدوا في قرية واحدة في بداية القرن التاسع عشر اسمها بقعين وهي قرية جبلية نائية في الجليل (١٢) » .

ولم يواجه المهاجرون اليهود اي عقبة سياسية لأن « زعماء المسلمين لم يرفضوا في اي فترة السماح لليهود القادمين من البلدان الاجنبية بدخول فلسطين والاستيطان فيها . ولم يمنح هذا السماح للمسيحيين الغربيين (١٣) » وبعد وصول اول فوج من المستوطنين الصهيونيين من رومانيا عام ١٨٨٢ أصدر السلطان عبدالحميد لاول مرة في التاريخ ، عام ١٨٨٥ ، امرا يسمح بدخول اليهود كحجاج فقط لا كمستوطنين ، « على ان القانون لم ينفذ ابدا بصرامة » . ولكن هذا القانون وما تلاه من قوانين تقيد الهجرة كانت تنطبق فقط على اليهود الاجانب ، اما مئات الآلاف من المواطنين اليهود في البلدان المحيطة بفلسطين والخاضعة للامبراطورية العثمانية فقد كان باستطاعتهم دوما الاستيطان في فلسطين (١٤) . ويقدر عدد اليهود الذين كانوا في فلسطين عام ١٨١٤ بحوالي ١٠ر٠٠٠ يهودي فقط ، وفي عام ١٩١٤ مجرد ٣٥ر٠٠٠ يهودي من بين ١٢ر٠٠٠ر٠٠٠ يهودي يرددون في صلواتهم ثلاث مرات في اليوم أن لن ينسوا اورشليم والعودة الى « ارض الميعاد » . والبرهان القاطع هو ان « رغم ما كتب عن المكانة التي تشغلها فلسطين في قلب « الشعب » اليهودي ، الا انها كأرض للعيش عليها لم يكن لها الا تأثير ضئيل على الفرد اليهودي (١٥) » واشار داعية صهيوني فعلا « الى التوبيخ الذي يحس به لان اليهود هم اقل طائفة من بين الطوائف الاخرى تقصد الى فلسطين (١٦) »

ويمكن اعتبار مخاطر السفر ومصاعبه في العصور القديمة طبعا حائلا بين اليهود وذهابهم الى فلسطين الا ان مثل هذه العقبات لم تقف في طريق اليهود في مصر أو في ما يعرف اليوم بسورية ولبنان ، يبدو من ذلك أنهم كانوا يفضلون ترف القاهرة ودمشق وبيروت . وعندما كان يسيطر عليهم الاعتقاد بقرب مجيء المسيح المخلص لم تقف في طريقهم في الحقيقة عوائق تمنعهم من الاستعداد للذهاب الى فلسطين وقام في الشعب اليهودي ثلاثة ادعى كل منهم انه المسيح المخلص ونقرأ اشياء مكتوبة ترجع الى عام ١٠٩٦ عن يهود البلدان الاوروبية يتجمعون في سالونيكا للابحار الى فلسطين وقد ظهرت اشكال مضللة ومشابهة من الحماس عام ١٦٦٥ (١٧) . ويبدو ان هذه الاحداث تثبت ان الانفجارات العاطفية التي كانت تحدث أحيانا حول ترقب قدوم المسيح المخلص كانت تقتلع اليهود ، رغم مشاق السفر ، وتدفع بهم الى فلسطين . ولكن ذلك لم يحدث عبر العصور كحافز على مستوى تلك الانفجارات قوة وثباتا واستمرارا

---

١٢ — ج. باركس ، **تاريخ فلسطين** ، لندن ، ١٩٤٩ ، ص ١٨٢
١٣ — المصدر السابق ، ص ١٧٩
١٤ — المصدر السابق ص ٢٦٧ — ٢٧١
١٥ — بي هوروفيتس ، The Jewish Question & Zionism ، لندن ، ١٩٢٧ ، ص ٧٤—٧٥
١٦ — H. Bentwich ، رسالة الى مجلة **العالم اليهودي** ، ٢١ — ١ — ١٨٩٧
١٧ — باركس ، المصدر السابق ، ص ١٧٥

واذا كان دافع الدعوة للعودة الى الارض المقدسة دينيا فقد حملت الدعوة عددا قليلا جدا من اليهود الى فلسطين . اما الدوافع العلمانية للحركة الصهيونية في الدعوة الى العودة الى ارض اسرائيل فقد حظيت بدرجة من النجاح اكثر قليلا فقط . وشهدت السنوات بين العامين ١٨٨٥ و ١٩١٤ هجرة حوالي ٣٠٫٠٠٠ يهودي صهيوني الى فلسطين بينهم ١٢٫٠٠٠ يعملون في الارض . وقد لام الصهيونيون انفسهم بمرارة لقلة استجابتهم للدعوة ، وقد علق ، في العام ١٩١٤ ، زعيم صهيوني بارز قائلا : « اذا كانت حفنة من الشبان فقط بين ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ يهودي تستطيع ان تبذل عرقها فان هذه اشارة ، اشارة قايين ، الى أن الباعة المتجولين يتعلقون بعملهم لأن العزيمة للقيام بأي شيء افضل ، تعوزهم (١٨) » .

ان تردد اليهود الايجابي في الذهاب الى فلسطين استجابة الى دعوة « العودة » الى « الارض » ، سواء أكان مرده اليهودية أو الصهيونية ، قد ظهر بشكل أوضح بعد العام ١٩١٩ عندما تسلمت بريطانيا مقاليد الحكم في فلسطين . وبعد مضي عقد من الزمان على الاقل تحسنت الاحوال وعم السلم واصبح السفر اكثر سهولة من ذي قبل بكثير ، ولم تعد هناك قيود على الهجرة . الا انه في فترة الاثني عشر عاما (١٩٢٠ — ١٩٣٢) لم يدخل فلسطين الا ١١٨٫٠٠٠ يهودي فقط ، اي ٠٫٧٥ ٪ من يهود العالم . وفي العام ١٩٢٧ فاق عدد الذين غادروا البلاد عدد الذين دخلوها ، وفي عام ١٩٢٨ بلغ صافي عدد المهاجرين عشرة اشخاص بالضبط .

وعلى حد قول أحد اصدقاء صهيون خسر اليهود في هذه الفترة فرصة تسوية المسألة الفلسطينية بسرعة وحسم قبل ان تصبح قضية حقيقية . ويرثي ر.هـ.س. كروسمان حقيقة فشل اليهودية العالمية في الفترة ١٩١٩ — ١٩٢٠ « في اداء دورها في المهمة وهو تقديم نصف مليون مهاجر في السنوات القليلة الاولى (١٩) . » ويلوم كروسمان الثورة الروسية لقطعها سيل المهاجرين الذين كان من الممكن ان يذهبوا الى فلسطين . ولكن هناك جاليات يهودية كبيرة في اوروبا الشرقية والوسطى — دع عنك اميركا — كانت تستطيع ان تقدم نصف مليون يهودي الضروري ، لكنهم لم يفعلوا . فجاذبية فلسطين لم تبلغ القدر الكافي لذلك .

هذه هي الحالة خلال قرون كثيرة من التاريخ اليهودي . فمن المعروف جيدا ان معظم اليهود الذين نفوا الى بابل والذين اطلقوا اول عهد بألا ينسوا اورشليم بقوا في بابل عندما سمح لهم بالعودة الى اورشليم ووطنهم .

ويمكن ان تكون مشاق السفر الى الامبراطورية العثمانية في آخر عقودها قد منعت اليهود من الذهاب الى فلسطين . ولكن شيئا لم يمنعهم من الذهاب الى أرض الميعاد بخيالهم — أي من الشعور بدافع قوي للعودة . والغريب ان هناك شيئا قليلا جدا حول فلسطين ، في الادب والفن العبري الحديث . وعبثا نبحث عن «اناشيد صهيون» . ويبدو ان الاشتياق والتوق للماضي قد استهلك في المزامير وعند النبي اشعيا . وكان اسم صهيون يتردد على شفاه « الشعب » اليهودي كل يوم لكنه حسب قول الفنانين

---

١٨ — J. H. Brenner في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٣٠٩ .

١٩ — R. H. S. Crossman A Nation Reborn, ، ١٩٦٠ ، ص ٦٢ .

كان يشغل مكانا صغيرا في مخيلتهم او في قلوبهم (٢٠)

وبناء على ذلك فان فكرة « العودة » في حد ذاتها دينية كانت أم علمانية ، والحب العميق لارض فلسطين لا يمكن قبولهما بين الدوافع الرئيسية للحركة الصهيونية التي لم تقدم اكثر من حالة عاطفية . ان السحر القديم ، والاعجاب الرومنطيقي الذي تثيره ارض اسرائيل في نفوس اطفال اسرائيل يعبر افضل ما يعبر عنه بايجاز مؤرخ بريطاني ممتاز : « وتبقى الحقيقة انه في كل تلك السنوات لم تستعمل هذه الطريق (الى فلسطين) كثيرا ... فعندما غادروا روسيا أو بولنده والارض المقدسة على شفاههم ، كانت اقدامهم تسير ثابتة في الاتجاه الآخر : الى المانيا او انكلترا او اميركا ولقد كان من المفارقات انهم حتى عندما ذهبوا الى الامبراطورية التركية المتسامحة والمضيافة — مثل السفرديم الذين طردوا من اسبانيا — ... فان القليل جدا منهم ذهب الى فلسطين مع انها كانت جزءا من الامبراطورية يسهل الوصول اليه وعدد سكانه قليل . كان هناك وشلا لا جدولا ... وربما ينظر المثاليون الى الوراء ويكتشفوا اصول هذه المغامرة في احلام متصوفي القرون الوسطى وفي نبوءات الحاخامين أما الآن وقد كسبت الارض فان الخرافة يمكن ان تندمج في سند الملكية (٢١) . »

لكن الخرافة لم تدفن بل تقمصت . فبدل هالتها الدينية تسيست خرافة العودة لتناسب عالم ما بعد عصر الاستعمار . وهكذا فان خلق اسرائيل يطرح كعودة شعب آسيوي اصلا الى موطنه الآسيوي القديم . ولكن هذا الزعم خرافي كما سنرى ، مثله مثل اي زعم سابق

استخدام الدين والعرق

عند الغوص في تأثير الديانة اليهودية على الصهيونية يزعم كثيرون من مؤيدي الصهيونية ، يهودا وغيرهم ، أنه بما أن اليهودي فريد بكونه عضوا من عرق ودين في آن معا ، فان الديانة اليهودية ايضا فريدة بكونها تجمع بين الدين والقومية . وهكذا فان الكتب اليهودية المقدسة ليست مجرد كتب دينية وانما هي ايضا تاريخ العرق اليهودي القديم ووصف جغرافي لفلسطين وبيئتها الطبيعية والانسانية . ويزعم اللورد بلفور ، وقد لعب دورا حاسما في حياة اليهود الحديثة ، أن اليهود واليهودية فريدان : « لا احد يقترح قيام مستعمرات بوذية في الهند ... أو تجديد المغامرات الصليبية التي قام بها اسلافنا في القرون الوسطى من اجل المسيحية . الجواب هو ان الحالات ليست متوازية . ان مركز اليهود فريد من نوعه . فالعنصر والدين والوطن مترابطة بالنسبة لليهود وذلك بعكس الحال بالنسبة لاي عنصر او دين أو وطن آخر على وجه الارض » ... ان مطامح اليهود وآمالهم « معبر عنها بلغة وصور تعتمد في معانيها تماما على الاعتقاد انه من هذه الارض فقط وبواسطة هذا التاريخ فقط وبهذا

---

٢٠ — R. F. Mintz ، **الشعر العبري الحديث** ، بيركلي ، ١٩٦٦ ، D. Potterson ، **الرواية العبرية في روسيا القيصرية** ، ادنبره ، ١٩٦٤ ، ملاحق عن « الادب العبري الحديث والصهيونية والفن الحديث » في كتاب سوكولوف ، **تاريخ الصهيونية** ، المجلد الثاني .

٢١ — Jewish & Other Nationalism, H. R.Trevor - Roper ، محاضرة هربرت صموئيل الخامسة ، لندن ، ١٩٦٢ ، ص ١٣ — ١٥

الشعب وحده فقط تنتشر المعرفة الدينية الكاملة في العالم كله (٢٢) » وبايجاز اكثر « من خلال حياة امة ، تمت ارادة الله التي اوحى بها (٢٣) » .

لا بد من تعليق اولي على تفسير بلفور للديانة اليهودية . ان صح ذلك التفسير فان تلك الديانة تتكشف عن يقين متحجر وغطرسة ضيقة تتعارضان بشكل صارخ مع التسامح والانتقائية اللتان تميزان الديانات الاخرى في آسية .

ولكن الزعم بحيازة ميزات فريدة في العالم لا يمكن تأييده لان الهندوسي والديانة الهندوسية يتمتعان بميزات تجمع بينهما مثل الميزات التي تجمع بين اليهودي والديانة اليهودية . ان اعتناق الديانة اليهودية لا يجعل الانسان حقا يهوديا واليهودي يبقى يهوديا وان صار ملحدا أو اعتنق ديانة أخرى . وهذا ينطبق على الهندوسي ايضا وكانت الديانة الهندوسية أيضا حتى خلق القومية الهندية العلمانية حديثا عبارة عن اتحاد الدين والشعور العرقي أو القومي لان أرض الهند ، بهارات ماتا ، ترتبط بالديانة الهندوسية ترابط فلسطين بالديانة اليهودية

ولكن على الرغم من هذا الترابط بين الديانة والارض التي نشأت فيها فان الديانة الهندوسية في مناطق انتشارها حيث حملها المستوطنون الهنود لم تولد « سحرا » أو مذهبا « رومنطيقيا » للعودة الى أرض هندستان المقدسة. وقد وصف روائي من غربي الهند ، ويتحدر من أصل هندي ، أسمه ف . س . نايبول ، انتقال الديانة الهندوسية بشكل تام الى غربي الانديز حاملة معها نظام الطبقات الاجتماعية . وكان مأكل وملبس الجماعة الهندية وفن العمارة عندهم هنديا تاما . ثم يضيف قائلا ان الرحلة من الهند الى غربي الانديز نهائية، بمعنى انه لم يعد هناك توق للعادة (٢٤). وعندما زار نايبول نفسه الهند انتابه شعور بالاشمئزاز . وهكذا فان ديانة مشابهة تماما للديانة اليهودية من الناحية النوعية المعقدة لم تولد شيئا مثل التوق الصهيوني لفلسطين . وكما رأينا سابقا لم يكن هذا التوق لفلسطين ، داخل الحركة الصهيونية ، دافعا عظيم القوة او الفعالية العملية .

ولكن الزعم بحيازة ميزات فريدة ، والمقارنة بالديانة الهندوسية ، يطرحان امامنا دافعا صهيونيا آخر ، دينيا وسياسيا . هل الصهيونية هي التعبير السياسي عن جماعة دينية بسبب التداخل الغريب لا الفريد بين « العرق والدين والوطن » في الديانة اليهودية ؟ بالتأكيد اعطى صهيونيون كثيرون هذا التفسير لحركتهم . وبوضوح اكثر ، هل استخدمت الصهيونية الدين لاغراض سياسية ؟

ظهر حول هذه المسألة مذهبان فكريان بين صفوف زعماء الصهيونيين وحاولت الجماعة الاكبر عددا والاكثر نفوذا ، ومنها هرتزل ، ان تستفيد من الصلة الموجودة بين الديانة اليهودية وارض فلسطين منكرة في الوقت نفسه وجود اي روابط اساسية بين الصهيونية والديانة اليهودية . اما الجماعة الاصغر فقد زعمت ان اليهودية هي الديانة القومية « للشعب » اليهودي وان مهمة الصهيونية هي تأمين قاعدة اقليمية

---

٢٢ — أ. ج. بلفور ، مقدمة كتاب سوكولوف ، **تاريخ الصهيونية** .
٢٣ — باركس ، Five Roots of Israel ، ص ٧ .
٢٤ — An Area of Darkness, V. S. Napaul. ، لندن ، ١٩٦٤ ، ص ٣٠ — ٣٣ .

قومية في فلسطين وحدها لان الديانة اعتبرتها ارضا مقدسة . وقد استخدم زعماء الجماعة الاولى الديانة اليهودية بقصد الحصول على دافع عاطفي معين . اما الجماعة الثانية فقد اعتمدت الديانة اليهودية في عملها الصهيوني لانها ربطت «القوميةاليهودية» التي دعت لها الصهيونية « بالقومية الدينية » التي نادت بها الديانة اليهودية وقد اشاع بعض زعماء هاتين الفئتين وجهتي النظر السابقتين .

كانت صلة هرتزل باليهود ، دع عنك صلته بالديانة اليهودية ، ضئيلة الى حد انه في كتاباته ، وقبل ان تختمر في ذهنه فكرة الدولة اليهودية ، لم يتعرض لذكر اليهود الا لماما . فقد احتوت كتاباته « بالكاد أكثر من اثني عشر سطرا عن اليهود » (٢٥) . وقد عبر عن انسلاخه عن الديانة اليهودية في رسالة كتبها عام ١٨٩٣ : « ان الحل الحقيقي والحاسم (للمسألة اليهودية) يمكن أن يتم فقط بذوبان اليهود تماما عن طريق اعتناق المسيحية والتزاوج » (٢٦) . وتابع هرتزل خطه الفكري هذا في خطة غير عادية طرحها في وقت لاحق عام ١٨٩٣ واعدا فيها البابا بتحويل اليهود علنا وبشكل جماعي الى الكثلكة مقابل مساعدة البابا في استئصال المد اللاسامي المتصاعد . وقد فكر بتحويل اولاده هو الى المسيحية (٢٧)

ومن المعروف أن هرتزل لم يجتذبه شيء ديني معين في فلسطين او القدس . فهو في كتابه Der Judenstaat ينم عن ذهنية متفتحة عندما يقارن بين حسنات فلسطين والارجنتين كموقع للدولة اليهودية ويترجم عنوان كتابه هذا عادة خطأ « الدولة اليهودية » مع ان الترجمة الصحيحة هي « دولة اليهود » ، وهو اهم الكتب الصهيونية . يقول هرتزل في كتابه هذا : « سنأخذ ما يعطى لنا وما يختاره الراي العام اليهودي » (٢٨) . وعندما يقيم بهدوء دور فلسطين في الحركة الصهيونية يقول : « فلسطين هي وطننا التاريخي الذي نتذكره دوما ان اسم فلسطين في حد ذاته يجتذب شعبنا بقوة عجيبة الفعالية » ، و « الاسطورة الجبارة في صالحها » (٢٩) . ولم يبد هرتزل أي حماس شديد للقدس ، ذلك القلب النابض عاطفة « للعودة » . ولم يكن هرتزل يريد جعل القدس عاصمة أي دولة يهودية في المستقبل بل اعلن « سوف نجعل القدس خارج أي سلطة بحيث لن تكون ملكا لاحد وفي الوقت نفسه ملكا للجميع . . . للسلطة العظيمة ، سلطة الحضارة والاخلاق » ، لا الدين (٣٠) . وقد ذهب هرتزل فعلا الى فلسطين والقدس كزائر وليس كحاج ، ذهب الى هناك كسياسي ، ولان القيصر استدعاه الى هناك من أجل مباحثات سياسية . وعندما كتب هرتزل عن زيارته القصيرة والخاطفة تلك شكا كثيرا من الحر وعدم الراحة في الارض المقدسة .

وكتب هرتزل في مذكرته محاكيا ذلك الدعاء القديم « عندما اتذكرك في الايام القادمة ايتها القدس ، لن يكون ذلك بسرور ان الرسوبات المتعفنة لالفي عام من

---

٢٥ — هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .
٢٦ — A. Bein ، **تيودور هرتزل** ، لندن ، ١٩٥٧ ، ص ٨٩
٢٧ — Bein ، المصدر السابق ، ص ٩٤
٢٨ — تيودور هرتزل ، **دولة اليهود** ، لندن ، ١٩٤٦ ، الطبعة الرابعة ص ٣٠
٢٩ — المصدر السابق ، ص ٣٠ ، ٥٦
٣٠ — **المذكرات** ، ص ٢٤٥ — ٢٤٦

اللاانسانية واللاتسامح والقذارة تكمن في الازقة الكريهة الرائحة ». وقد مر « بلحظات عظيمة » عندما اطل على القدس من على جبل الزيتون لكن أمانيه تجاه المدينة كانت أماني مخطط مدن مستنير لا أماني انسان متدين ورع (٣١)

أما ماكس نوردو ، اقرب رفاق هرتزل في العمل ، فقد أنكر وجود اي صلة بين الصهيونية والديانة اليهودية بطريقة أكثر وضوحا وعنفا من هرتزل وقد تساءل نوردو في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني الرابع : « لماذا أصبحنا صهيونيين؟ ربما بسبب توق صوفي لصهيون ؟ ان معظمنا طليق من ذلك » (٣٢) . وقد تحدث قبل ذلك عن « رسالة » يهودية خاصة بكلمات مثل « الهراء » و « الحماقة » (٣٣) .

ولم يكن هرتزل ونوردو الزعيمين الصهيونيين الوحيدين اللذين أنكرا وجود اي صلة بين الصهيونية والديانة اليهودية ، اذ يستطيع الانسان ان يختار بشكل اتفاقي من بين عدد كبير من الصهيونيين اناسا مثل م . أ . بيرديشفسكي الذي انتقد الغموض الذي يكتنف مفاهيم مثل الحضارة اليهودية أو التومية اليهودية ، ومثل ج . كلاتسكن أيضا الذي ذهب أبعد من ذلك مؤكدا ان الحديث عن (الخصوصية) الروحية وعن المصير والرسالة دليل على حالة مرضية شاذة تصيب ما ليس أمة ، ثم أعلن « ان يكون المرء يهوديا يعني ألا يقبل مبدأ دينيا أو اخلاقيا »

أما الكتاب الصهيونيون الذين يربطون بين الصهيونية من جهة واليهودية كديانة قومية من جهة ثانية فهم اما يؤكدون ان هذه الصلة حقيقة واضحة او انهم منغمسون في نقاش دائري مؤداه ان حركة الشعب اليهودي قومية لان اليهود « أمة » ، وان الصهيونية أيضا قومية لانها ترتبط بشكل واضح بالديانة اليهودية ، المعتقد «القومي» للشعب اليهودي لكنهم لم يعطوا تعريفا واضحا للكلمة « قومي » . واول من ربط فكرة الصهيونية بالديانة اليهودية القومية هو موزس هس ، احد أقدم المفكرين الصهيونيين ، في كتابه « رومة والقدس » الذي صدر سنة ١٨٦٢ « ان الديانة اليهودية ... مرتبطة عضويا بالقومية اليهودية . والديانة اليهودية هي قبل كل شيء قومية » (٣٤) ، و « الديانة اليهودية أساسا وطنية يهودية » (٣٥) و « اليهودي الذي لا يؤمن بالبعث القومي لشعبه يعمل على تصفية شعبه فقط » (٣٦) . واستمرت هذه التوكيدات والمناقشات بالشكل نفسه تقريبا لفترة الـ ٧٥ سنة التالية ، أي حتى عام ١٩٢٥ . ويقول العالم المشهور البرت اينشتاين « تنبع الصهيونية من دافع أعمق حتى من تألم اليهود . وتمتد جذورها الى تقليد روحي يهودي يمثل الحفاظ عليه وتطويره ، مبرر استمرار وجود اليهود كجماعة ... واعادة بناء الامة اليهودية»(٣٧).

واضاف الصهيونيون الى ترابط العرق والدين في الديانة اليهودية عاملا ثالثا هو

---

٣١ ــ المصدر السابق ، ص ٧٤٥ ، ٧٥٣ .
٣٢ ــ M. Ben Horin ، ماكس نوردو ، لندن ، ١٩٥٦ ، ص ١٩٩
٣٣ ــ المصدر السابق ، ص ١٨٣ .
٣٤ ــ موزس هس ، رومة والقدس ، نيويورك ، ١٩٥٨ ، ص ١٩
٣٥ ــ المصدر السابق ، ص ٢٨ .
٣٦ ــ المصدر السابق ، ص ٥٨ .
٣٧ ــ البرت اينشتاين ، About Zionism ، لندن ، ١٩٣٠ ، ص ٥٦ ــ ٥٨ .

القومية بحيث اصبح ممكنا ، ربما بغموض حقيقي ، للصهيونيين أن يقولوا بأن الصهيونية تقوم على مبدأ القومية في الديانة اليهودية ، بعد ان كان هؤلاء الزعماء انفسهم ينكرون وجود أي عنصر ديني في الصهيونية . وهكذا كتب هرتزل نفسه : « نعتبر انفسنا أمة على اساس معتقدنا الديني » (٣٨) و « نشعر بترابتنا التاريخية فقط من خلال معتقد آبائنا » (٣٩) . وعن ترابط الدين والسياسة يقول : « انت لا تفهم الاحداث والاحوال التي لا يمكن تقديرها . ما هو الدين ؟ تصور ما تحمله اليهود طوال الفي سنة من اجل هذا الخيال ... وبكل تأكيد يجب أن يقوم هذا الخيال القومي على أسس عملية » (٤٠) . وقال نوردو ، الملحد والمشكك ، امام المؤتمر الصهيوني الثاني : « ليس الصهيونيون حزبا ، انهم الديانة اليهودية ذاتها ... ويجب الا نتكلم من الان فصاعدا عن الصهيونية ، ونحن الان مدعوين لادراك اليهودية لا الصهيونية » (٤١) . وهكذا فان اليهودية غير الدينية مندمجة تماما في البرنامج السياسي للصهيونية .

وقد عبر عن الالتباس الحقيقي المتذبذب حول هذه المسألة احسن تعبير مؤسس « الصهيونية الروحية » آحاد هاعام (آشر غنزبيرغ) عام ١٩١٠ في رسالة بعث بها الى يهودا ماجنس يقول فيها : « تقول انك تريد ان « تنشر الدين القومي والقومية الدينية » . يجب أن اعترف بعدم وضوح هذه الصيغة لي بالمرة. و « الدين القومي» يعني بكل تأكيد ان الديانة اليهودية قومية أساسا ... ولكنك عندما تتحدث عن نشر الديانة القومية ، لا ادري ماذا تعني (الا اذا كنت تقول ، ببساطة ، الشيء نفسه بكلمات اخرى) . هل تفكر حقا باستثناء كل اولئك الذين يؤمنون بمبادىء الدين بين صفوف القوميين ؟ اذا كان ذلك هدفك فأنا لا استطيع ان أوافقك ... واذا كان من المستحيل أن يكون يهوديا بالمعنى الديني من لا يسلم بقوميتنا ، فانه من الممكن أن يكون يهوديا بالمعنى القومي من لا يقبل بكثير من الاشياء التي يتطلب الدين الايمان بها » (٤٢) .

واذا تركنا هذه التناقضات والتحريفات اللفظية جانبا ؛ لانتهينا الى تقدير صحيح لاهمية الديانة اليهودية كقوة حافزة للصهيونية وذلك باعتبار الحقيقة المدهشة التالية عن حياة زعماء الصهيونيين . ان غالبية هؤلاء الزعماء لم يؤمنوا ولم يمارسوا المعتقد اليهودي كما لا يؤمنون به ولا يمارسونه حاليا ، لقد كانوا وما زالوا يهودا مرتدين أو لا أدريين * ان لم يكونوا ملحدين. وفي كتابه الكبير «الفكرة الصهيونية » يجمع هرتزبرغ اعمال ٣٧ من أعظم الصهيونيين نفوذا مع نبذ عن مواقفهم من الناحية الروحية تبين انه ما لا يقل عن واحد وعشرين منهم قد تركوا الديانة اليهودية ومن بين هؤلاء معظم الصهيونيين المشهورين في التاريخ الصهيوني أمثال هس وسمولنسكن وبنسكر وهرتزل ونوردو وآحاد هاعام وسركين وبوروشوف وغوردون ووايزمن وبن غوريون. والجدير بالملاحظة ان ما لا يقل عن ١٣ من بين الواحد والعشرين كانوا اما ابناء او احفاد

---

٣٨ ــ المذكرات ، ص ٥٦ .
٣٩ ــ دولة اليهود ، ص ٥٤ .
٤٠ ــ Bein ، المصدر السابق ، ص ١١٦ .
٤١ ــ Ben Horin ، المصدر السابق ، ص ١٩١
٤٢ ــ هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٦١ ــ ٢٦٢ .
* ــ Agnostics

حاخامين أو طلابا في مدارس اليشيفا او من دارسي التلمود في سنيهم الاولى . وكان تخليهم عن الديانة اليهودية عن معرفة لا عن جهل ومهما يكن فان نشأتهم الدينية هذه تركت اثرا عليهم بحيث صبغت الديانة اليهودية تفكيرهم الصهيوني حتى عندما لم يكن دافع نشاطهم الصهيوني دينيا .

وكما سبق القول ، فان اليهودي عضو في عرق ودين على حد سواء . وربما يكون من اكثر التناقضات الظاهرية في الصهيونية دهشة ان الزعماء الرئيسيين لحركة اقامة دولة لليهود لم يكونوا يهودا في معتقدهم الديني . ويتساءل مؤرخ صهيوني « ما الذي جعل « المؤمنين الجدد بالمسيح المخلص » والذين انكروا وجود الله بشدة ان يصروا مع ذلك على اعادة بناء الامة اليهودية على الارض التي وعد بها ابراهيم فقط ؟ » (٤٣) الا ان المؤرخ لم يعط جوابا .

قال ثيودور هرتزل عن نفسه « انني مفكر حر » (٤٤) . هذا ونجد في مذكراته كيف خطط بشكل بين وواضح ودقيق لتسخير الديانة اليهودية لمهمة بناء الدولة

وقد ضاق هرتزل ذرعا بالايمان المنظم « ان الهوية اليهودية لا علاقة لها بالتدين الخشوع » (٤٥) . وعندما عالج مكانة الدين في الدولة اليهودية قال « سنسمح لكل انسان ان يجد الخلاص هناك على طريقته الخاصة . وسنفسح المجال اولا وقبل كل شيء للجماعة الخالدة من « مفكرينا الاحرار » الذين يقومون بفتوحات جديدة من اجل الانسانية » (٤٦) . وخلال زيارته للقدس قيل له انه لم يسمح لليهود بدخول منطقة الهيكل خوفا من أن يحرمهم الحاخامون ، فأجاب غاضبا ومعلقا « ما اكثر الخزعبلات والتعصب في كل ناحية ! ومع ذلك فانني لا أخاف أيا من هؤلاء المتعصبين » (٤٧)

ولم يعرف هرتزل لا اللغة العبرية ، « اللسان المقدس » ، ولا اي شيء من طقوس الكنيس وهكذا فانه عندما دعي خلال احد المؤتمرات الصهيونية لتلاوة « دعاء البركة » في كنيس بازل « كان قد تمرن على قول الكلمات العبرية القليلة المطلوبة » ، وسببت له تلاوتها « قلقا اكثر مما سببته له خطاباته أمام المؤتمر » (٤٨) . ومن المثير للسخرية جدا انه رغب ان يترك اثرا قويا في نفوس المجتمعين في المؤتمر الخامس ، ذلك المؤتمر العاصف والحاسم ، فعبر عن تفانيه لفلسطين بان تلا بالعبرية الشعار الصهيوني حول عدم نسيان القدس ولكن الكلمات كانت قد كتبت له بالاحرف اللاتينية (٤٩) .

وربما نتيجة لهذه الوقائع التي كانت تحدث في المناسبات والاحتفالات، كتب وايزمن المعادي لرجال الدين انه قد آلمه في احدى المراحل موقف هرتزل المتميز « بالاحترام الشديد لرجال الدين اليهود » ، ثم نقل في الوقت نفسه عن الحاخامين قولهم في هرتزل انه « ابعد ما يكون عن فهم الديانة اليهودية الحقة (فهو يعتبر) كل الحاخامين

---

٤٣ ــ المصدر السابق ، ص ٧٤ ــ ٧٥
٤٤ ــ **المذكرات** ، ص ٢٨٣
٤٥ ــ **المذكرات** ، ص ١١١
٤٦ ــ المصدر السابق ، ص ١٥٥
٤٧ ــ المصدر السابق ، ص ٧٤٧
٤٨ ــ المصدر السابق ، ص ٥٨٨ ــ ٥٨٩
٤٩ ــ A. Bein ، تيودور هرتزل ، نيويورك ، ١٩٥٦ ، اللوحات ، ص ١٢٠ ــ ١٢٣

العظام ورؤساء الطوائف والدارسين اليهود غير ذي قيمة » (٥٠) .

اذا اظهر هرتزل اي احترام لرجال الدين فذلك يعود الى انه اعتبرهم « غير ذي قيمة » في برنامجه لحمل اليهود على مغادرة اوروبة . فهو يتوقع في كتابه « دولة اليهود » ان « حاخامينا ، الذين نتوسل اليهم بشكل خاص ، سيكرسون طاقاتهم لخدمة فكرتنا وسيوحون بها الى المصلين من على المنبر ... ان نداء كهذا يمكن ان يطلق في الكنيس » (٥١) . وقد افاض في الحديث عن هذه الفكرة في مذكراته : « ان الحاخامين ... سينقلون حماسهم الى الاخرين عبر المنابر . تصور مدى الحماس الذي سيصحب القول القديم والسنة القادمة في أرض الميعاد ، من الان فصاعدا . ليس هناك حاجة للدعوة الى اجتماعات خاصة تتميز بكثير من الحماقة . ان هذه الدعاية ستتم من خلال ممارسة الطقوس الدينية وبالشكل المناسب ... وسيتلقى الحاخامون بانتظام نصائح « جمعية اليهود » ويعلنونها ويفسرونها لمصليهم » (٥٢) . وكان هرتزل يفكر بمهمات اكثر تحديدا يقوم بها الحاخامون مثل تجنيد العاملين « ليس فقط بين صفوف مصليهم الغاليين بل بين اليهود الاغنياء الذين يحتاج بناء الدولة لعونهم المادي » . « وسأطلب الى اصحاب الملايين الذين لا يزال في قلوبهم شعور بالهوية اليهودية ان يجتمعوا بحاخام يقرأ لهم خطابي . والحاخامون الذين لا يرغبون في السير معنا سيتركون جانبا . وسيكون الحاخامون أعمدة منظمتي وسوف أقدسهم من اجلها ... وكجزء لهم سيشكلون تنظيما هرميا حسنا وفخما يبقي دائما خاضعا للدولة بالتأكيد » (٥٣)

وخطط هرتزل للاستفادة من القوة الجاذبة لليهودية الشعبية بطريقة اخرى تجتذب اليهودي العادي الى الوطن الجديد . « وهل انا بحاجة لايضاح ظاهرة الجماهير وطرق اجتذابهم الى اي رقعة عن طريق مناقشة الحج الديني ايضا » ؟ ويلاحظ ان المسيحيين والمسلمين يسافرون باعداد كبيرة الى لوردي ومكة . « وهكذا سنبني هناك ساداغورا ★ اجمل لحاخام العجب » (٥٤) .

وعلى الرغم من ان هرتزل فكر بالاستفادة من الحاخامين الا انه بقي على كراهيته الاساسية لهم . وفي مكان لاحق من مذكراته يحلل ساخرا كيفية كسب حاخامي العجب السلطة على مصليهم لا من خلال ميزات روحية وانما بواسطة اتصالاتهم الجيدة ، فهم « ببساطة ، متجولون يبحثون عن النفوذ » (٥٥) .

ويمكن ان تكون آراء هرتزل غير المضللة حول الاستفادة من اليهودية ورجال الدين غير محصورة في صفحات مذكرته ، ويحتمل ان يكون شاركه آراءه ايضا زعماء صهيونيون آخرون ولا أدريون كذلك ممن شكلوا حلقته . وربما كان هذا ما جعل آحاد

---

٥٠ ـ وايزمن ، المصدر السابق ، ص ٢٤

٥١ ـ **الدولة اليهودية** ، ص ٥٤

٥٢ ـ **المذكرات** ، ص ١٥١ .

٥٣ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٣ .

★ ساداغورا مركز مشهور يحج اليه اليهود في رومانية .

٥٤ ـ المصدر السابق ، ص ١٥٥

٥٥ ـ المصدر السابق ، ص ٦٤١ .

هاعام ، احد أتباع هرتزل ، يأسف لحقيقة ان « كل رجالنا العظام تقريبا ، أي أولئك الذين هيأهم تعليمهم ومركزهم الاجتماعي ليكونوا على راس الدولة اليهودية ، بعيدون جدا عن اليهودية روحيا وليس لديهم صورة ذهنية صحيحة عن طبيعتها وقيمتها»(٥٦).
ولكن آحاد هاعام نفسه لم يكن مؤمنا واراد ان يستخدم الدين ، بطريقة مختلفة، لتعزيز « الصهيونية الروحية » غير اليهودية التي كان يدعو لها . وقد دافع عن ممارسة الطقوس الدينية التقليدية لان لها « مبرر قومي » ولانها هي « الاشياء المقدسة عند الامة » (٥٧) . وهذه الممارسة بدون الايمان تذكرنا بفكرة مشابهة للاأدري آخر وهو موزس هس الذي اعتبر اليهودية « عبارة قومية » والذي « يمارس الصوم ويحتفل بالاعياد ... لتبقى على قيد الحياة ... التقاليد اليهودية الشعبية » (٥٨) .

ربما كان هذا المدخل الانثروبولوجي أو الفولكلوري الى اليهودية عند هؤلاء الصهيونيين أقل قسوة ولكنه اقل اخلاصا ايضا من موقف هرتزل ، الا انه بالاساس شيء واحد اي محاولة حركة « سياسية » لا لان تستمد قوة لها من الدين بل لاستغلاله لصالحها .

ان الديانة الحقة بدعوتها العالمية كانت دوما معادية للولاءات القاطعة والخصوصية في القومية وفي الحركات السياسية (٥٩) . كان هذا ولا يزال صحيحا بالنسبة لليهودية الحقة ، بنوعيها الاورثوذكسي والاصلاحي ، التي كانت مناوئة للصهيونية باستمرار . ولذلك يصعب اعتبار اليهودية الحقة واحدة من دوافع الحركة الصهيونية. لقد عارضت « جمعية الحاخامين الالمان » عقد المؤتمر الصهيوني الاول في ميونيخ عام ١٨٩٧ مجبرة اياه على الانتقال الى بازل . وفي السنة نفسها ظهر موقف « المؤتمر المركزي للحاخامين الاميركيين » الذي « قرر، اننا لا نوافق اطلاقا على اية محاولة لتأسيس دولة يهودية».

واحس احد دعاة الصهيونية الاوائل ، موزس هس ، بصواب تام العداء الذي لا مفر منه بين اليهودية الصهيونية المسيسة واليهودية في حد ذاتها ، فاعلن حكمه على مصير اليهودية الاورثوذوكسية في سنة ١٨٦٢ : « ان اشكال اليهودية الاورثوذوكسية التي كان لها مبرر تام حتى قرن البعث ستنحل بنفسها بالطبيعة من خلال قوة فكرة القومية اليهودية الحية وتاريخها الديني » (٥٩) . ولم تتحقق هذه النبوءة بشكل رئيسي لان الصهيونية سيطرت على اليهودية العادية المنظمة وفقا للخطوط التي رسمها هرتزل . ومهما يكن فان المعارضة الدينية للصهيونية لا تزال مستمرة حتى اليوم خارج اسرائيل وداخلها ، وهي ليست محصورة فقط بالارثوذوكسيين جدا (الذين لا يعترفون بوجود الدولة) ولكنها تشمل الاتقياء من اليهود ذوي التفكير العصري الذين هم اقرب الى الروح اليهودية الحقة من اعضاء دار الحاخامية التي تدعمها الدولة ، والذين « جعلوا » ، كمكافاة لهم على « دعمهم الصهيونية » ، « في تنظيم هرمي فاخر » .

---

٥٦ ــ هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٦٨
٥٧ ــ احاد هاعام ، **مقالات ورسائل ومذكرات** ، اكسفورد ، ١٩٤٦ ، ص ٤٥
٥٨ ــ هس ، المصدر السابق ، ص ٥٠ ، ٥١ .
٥٩ ــ هس ، المصدر السابق ، ص ٣٧

سيبدو هذا العرض للعلاقات بين الصهيونية والديانة اليهودية عاديا لاي شخص ملم بالتاريخ الحديث لجنوبي آسية وغربيها واليابان .

ان ذلك النوع من الصهيونية الذي زعم بأن فكرة « العودة » الدينية المحضة هي دافعه ، اشبه بحركة آرية ساماج الهندوسية الاحيائية بالهند في حنينها الى أمجاد هندستان أو آريافارته القديمة . وهي تعيد الى الذاكرة ايضا تمجيد شنتوية الامبراطورية اليابانية لنيبون القديمة .

واكثر من ذلك دهشة هو الشبه بين الصهيونية الدينية ـ السياسية والحركات المشابهة لها تماما هذه الايام في اليابان وجنوبي وغربي آسية . وهنا نذكر سوكاكفاكاي في اليابان والتي ترتكز على اسس بوذية ، والحركات السياسية البوذية المرتبطة باسماء يونو في بورمة وباندرانايكه في سيلان وجان سانغ ، فرع آرية ساماج ، في الهند ، وهناك العصبة الاسلامية في باكستان والاخوان المسلمون في مصر .

قد يقول صهيوني انه ان وجدت أوجه شبه بين الحركة الصهيونية وهذه الحركات في بعض البلدان المنتشرة عبر القارة فعندها اذا تكون الصهيونية قريبة بشكل واضح من او متناغمة مع عنصر هام في الفكر أو الشعور السياسي الآسيوي .

ان استنتاجا كهذا ليس صحيحا لان هذه الحركات السياسية ـ الدينية ليستجزءا من التيار الرئيسي في الحركة القومية العلمانية في آسية انها في الحقيقة حركات تتعارض ، باستثناء واحدة منها ، مع الحكومات القومية . ففي فترة مبكرة من هذا القرن اضطر اتاتورك في تركية ورضى شاه في ايران الى ضرب مقاومة الأئمة والملل. اما الحركات البوذية في بورمة وسيلان فهي حركات غير متسامحة وعنيفة لدرجة أصبح القاؤها جانبا ضروريا . وفي الهند انتهى الجناح العنيف لحركة جان سانغ بعد ان قتلوا المهاتما غاندي . وينظر في اليابان الى سوكاكفاكاي بعين الريبة والغضب . وتعرض الاخوان المسلمون في مصر للقمع بشدة لانهم لجاوا الى العنف التآمري . ان هذه الحركات عبارة عن دوامات في المياه الضحلة بعيدا عن التيار العلماني الرئيسي في القومية الآسيوية .

الشعور بالانفصال

ان الحركات القومية ، او على الاصح ، شبه القومية ، الانفصالية في الهند وفي بلجيكه وويلز ايضا تتخذ من اللغة المستقلة اساسا لها . وكان هرتزل اول من نفى ان تكون اللغة المستقلة اساسا ممكنا للصهيونية بسبب الحقيقة الواضحة وهي ان اليهود يتحدثون في الشتات لغات متنوعة وفقا للبلدان التي يقيمون فيها . وفي مخططاته للدولة اليهودية تصور ان يتكلم المهاجرون لغاتهم المختلفة وتوقع ان تصبح الالمانية اللغة الام (٦٠) . ولم يتنبأ هرتزل ببعث العبرية كلغة حية ، وهو ما قام به بن يهودا. الا ان بعث اللغة جاء بعد مضي عدة سنوات على قيام الحركة الصهيونية فكانت اللغة نتاجا ثانويا لها ولم تكن من دوافعها .

٦٠ ـ المذكرات ، المصدر السابق ، ص ١٧١

بعد ويلات الاضطهاد العنصري التي حلت بيهود اوروبة الشرقية والوسطى في السنوات الخمسين الاخيرة تبدو السخرية القاسية في محاولة تفسير الصهيونية على انها التعبير السياسي لجماعة عرقية او اثنية . فقد رفض هرتزل الذي عرف دوما بواقعيته تلك الفكرة ، الا ان قلة من الزعماء الصهيونيين الآخرين لم يرفضوها . ويصف هرتزل في مذكراته اول اجتماع له بالصهيوني البريطاني اسرائيل زانغويل قائلا « (انه) طويل الانف ، شبه زنجي ، وشعره صوفي شديد السواد ... ووجهة نظره عرقية وهذه لا استطيع قبولها لو انني نظرت اليه والى نفسي » (٦١) . ولم يكن زانغويل وحيدا في افكاره العرقية . فقد تساءل غوردون اللطيف والمثالي : « ما هي هذه العاطفة القومية ؟ اين هي قوتها ؟ ليس لنا بلد خاص بنا وليست لنا لغة قومية حية الدين ؟ لكن ديانتنا في طريق التضاؤل والانحسار ... هناك قوة اساسية داخل كل واحد منا ... هذه هي ذاتنا الاثنية » (٦٢) . وزعم الصهيوني الاميركي ر. غوتهايل بأن « الصهيونية بحثت فوجدت لنا اساسا اوسع من الاساس الديني ، انه العنصر والهوية » (٦٣)

ومهما يكن فان هذه آراء جماعة قليلة ومعظم الصهيونيين اليوم يأخذون بالنتيجة العلمية التي توصلت لها الاختبارات التي ترتكز على اساس حجم الجسد ولون الشعر والعيون وشكل الانف ونوع الدم، «وأي زعم بأن لليهود كيانا عرقيا غير صحيح»(٦٤).

يضاف الى ذلك ان عبارات تبدو شوفينية عرقية يهودية في كتابات الصهيونيين الاوائل وردت حتى قبل ان يصير مفهوم « العرق » مفهوما مشبوها وشريرا . ونجد اكثر الامثلة على هذه المزاعم المتبجحة في الكتاب الصهيوني الاساسي الذي كتبه موزس هس « رومة والقدس » . يقول هس ، وهو صديق وزميل سابق لكارل ماركس ، في كتابه « كل يهودي يمكنه ان يكون مسيحا مخلصا وكل يهودية ان تكون اما دولورسه » : « اليهود وحدهم يستطيعون الصعود الى القمة حيث تبدو الحياة والموت متساويين » ، و « كان كبار معلمي معرفة الله دوما يهودا (٦٥) » . وزعم نوردو بأن اليهودي « أكثر نشاطا وقدرة من الاوروبي العادي ، دع عنك الآسيوي والافريقي الغارقين في طور السبات » (٦٦) . وكتب آحاد هاعام ، الواضح الرؤيا ، يقول الى صديق له : « لن تفهم ان وجودنـــا في الشتات بحد ذاتـــه ممكن فقط لاننا نشعـــر اننا ارستقراطيو التاريخ » (٦٧) . واخيرا يبدو هرتزل نفسه في تناقض مع آرائه الاولى عندما يقول ملاحظا « ان عنصرنا اكثر فعالية في كل شيء من معظم شعوب الارض الآخرين . وهذا في الحقيقة سبب الكراهية العظيمة » (٦٨)

تلك مزاعم اربعة من كبار زعماء الصهيونيين في الماضي . الا ان هذا الشعورلايزال مستمرا في الوقت الحاضر ، ففي عام ١٩٥٧ تحدث بن غوريون عن شعبه مؤكدا :

---

٦١ ـــ المصدر السابق ، ص ٢٧٣

٦٢ ـــ هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٨٠

٦٣ ـــ المصدر السابق ، ص ٤٩٨

٦٤ ـــ هاري شابيرو ، **الشعب اليهودي** ، الاونيسكو ، باريس ، ١٩٦٠ ، الفصل السادس .

٦٥ ـــ هس ، المصدر السابق ، ص ١٥ ـــ ١٨ .

٦٦ ـــ هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

٦٧ ـــ احاد هاعام ، **مقالات ورسائل ومذكرات** ، ص ٢٦٨

٦٨ ـــ **المذكرات** ، ص ١٣٤٧ .

« أومن بتفوقنا الاخلاقي والفكري وبقدرتنا على ان نكون نموذجـا لخلاص العنصر الانساني » (٦٩) .

يملأ التيه هذه الآراء القوية والعنصرية لتبلغ الشوفينية وتتجاوزها . ولعدم وجود عرق يهودي ، لا يمكن وصف تلك الآراء بالشوفينية العنصرية على نحو صحيح . فعلى اي اساس تقوم تلك الآراء اذا على شبه عرقية يهودية ام على عرقية يهودية مـا ورائية ؟ وهل في هذا ما يصلح لان يكون دافعا للصهيونية ؟

ربما يجيب هرتزل في كتابه « دولة اليهود » من خـلال اصراره علـى القول « نحن شعب ـ شعب واحد » . ولكن مفهوم « الشعب » قريب من مفهوم « العرق » بشكل خطر واعاد هرتزل في وقت لاحق تعريف فكرته ، وربما زادها ابهاما ، بهذه الكلمات « نحن وحدة تاريخية متنوعة انثروبولوجيا ويكفي هذا ايضا للدولـة اليهودية » . ولكنه لا يكفي لاعتبار ذلك عنصرا مشتركا بين اليهود ، هـذا العنصر الذي نحن في سبيل البحث عنه ، فهو يثير سؤالا آخر « كيف يشكل اليهود « وحدة تاريخية » ؟ » يجيب التاريخ على هذا بالعكس ، فمنذ زمن الامبراطور هادريان وحتى يومنا هذا لم يشكلوا وحدة .

ولو كان اليهود « شعبا واحدا » لكانت لهم تقاليد او اساليب حياة مشتركة. ولكنه لا يوجد تقليد مشترك يربط يهود الهند بيهود بولنده ، وطريقة حياة اليهودي في مراكش تختلف كثيرا من حياة اليهودي في اميركة في المأكل والملبس وفي الحضارة والسلوك الاجتماعي وهذا التنوع وغياب العامل المشترك يخلقان لحكومة اسرائيل مشاكل في صهرهم عند وصولهم هناك .

ان الاسرائيلي يعطينا الجواب الاوضح . يقول دوف برنير « وهكذا ولمدة تسعة عشر قرنا يجمع اليهود « تاريخا » (تاريخ الدفاع عن النفس ضد الاضطهاد) ، و « جماعة ايمان » (ايمان بالبقاء والخلاص الاخير) و « جماعة مصالح » (تضامن اليهود في وجه الاغتصاب والفظائع) » (٧٠) . ان استعمال علامات الاقتباس مهم ولكن الاكثر من ذلك اهمية هو حقيقة ان العناصر الثلاثة المشتركة كلها محددة بتعابير سلبية عن ردة فعل اليهود للقوى الخارجية المعادية . وهنا نبدو وكأننا نقترب من قلب المسألة بحيث يربط دوف برنير ردة الفعل السلبية هذه باسرائيل اي بالصهيونية . وفي الصفحات القلائل التي تسبق ذلك يقول : « ولم يكتب جول اسحق لغير ما داع، انه بدون معتقد خاص لا تكون انفصالية ، وبدون انفصالية لا يكون بقاء (بل انصهار عاجل) وبدون بقاء تكون نهاية اسرائيل . والى حد ما يسبق «التحدي» «الرفض» (٧١) » . والمقصود بالرفض هو رفض العالم غير اليهودي لليهود .

ويقول برنير بأن اليهود جماعة منفصلة وقائمة بذاتها بمحض اختيارهـا جزئيا ولاحظ الكتاب الصهيونيون الاولون ايضا كـلا من الانفصال اليهودي وحقيقة خلقه الذاتي جزئيا ، الا ان ايا منهم لم يقل ، كما فعل برنير على ما يبدو ، ان هذين العاملين

---

٦٩ ـ مجلة Forum ، العدد الثالث ، ١٩٥٧ ، ص ٢٠ ـ ٣٨

٧٠ ـ « النزاع العربي الاسرائيلي » ، **الأزمنة الحديثة** ، العدد ٢٥٣ ، ص ٤٢٣ . برنير هو عضو اللجنة الوطنية للهستدروت وعضو المكتب السياسي لحزب المابام .

٧١ ـ المصدر السابق ، ص ٤٢٠

يتحدان في موقف سياسي يهودي مشترك هو التحدي الذي ربما يكون دافعـــا للصهيونية وان يكن دافعا سلبيا .

وعليه فان تفحص كيفية حصول الانفصال اليهودي يمكن ان يفسر بروز الصهيونية .

ان غيتوات اوروبة الشرقية كانت بالطبع التعبير المادي المباشر عن انفصال اليهود . وكلمة غيتو (مثل كلمة عرق) لها الان مضمون ينتقص من القيمة ولكنه ربما لم يكن كذلك بالنسبة لليهود الذين عاشوا فيها . ويزعم احد الكتاب الصهيونيين بأن « الطرد والغيتوات امنت بقاءنا » (٧٢) . وليس غريبا بعد ذلك انه « في المرحلة الاولى يمكن ان يكون هناك قليل من الشك بأن الايدي اليهودية قد أرست أسسها » (٧٣) . وربما يكون افضل تحليل للعلاقة الغريبة بين اليهودي والغيتو الذي عاش فيه ، هو تحليل ماكس نوردو في خطابه امـــام المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ . فبعـــد ان يقول « الشعور الاساسي هو مقت اليهود » من جهة الاميين ، يصف نوردو يهودي الغيتو بكلمات تنم عن زهو غاضب يكاد يكون ساخرا « فحيثما لم تحتجزه السلطات في الغيتو كان يبني واحدا لنفسه . وربما يعيش بنفسه دون أي علاقات غير علاقات عمله مع المسيحيين   الغيتو بالنسبة ليهود الماضي لم يكن سجنا بل ملجأ ... الغيتو وحده اعطى اليهود امكانية البقاء اثر عمليات الاضطهاد الرهيبة التي شهدتها القـــرون الوسطى — ففي الغيتو كان لليهودي عالمه الخاص ، كان ملجاه الاكيد وعوضه الروحي والاخلاقي عن وطن ام ... لقد كان همهم الوحيد جعل الوجود (في الغيتوات) آمنا بواسطة الاسوار غير المنظورة التي كانت اسمك واعلى بكثير من الاسوار الحجرية التي تحيط به » (٧٤) .

كان الجانب الطقوسي من اليهودية احد تلك « الاسوار غير المنظورة » : «الانفصال القومي هو في طبيعة الاشكال والمحظورات الكثيرة في ديانتنا » (٧٥) ، على حد قول أحد الكتاب الصهيونيين . وربط موزس هس قبله ايضا الطقوسية اليهودية بالوجود السياسي « ان ممارسة الوف التعاليم الدقيقة ما هي الا في سبيل الحفاظ علـــى سلامة اليهودية في الشتات ، تلك هي الوطنية اليهودية » (٧٦) . وذهب نوردو ابعد من ذلك قائلا ان المحظورات الطقوسية في حـــالة الانفصال عززت الشعور بالجماعـــة اليهودية ، وزعم ان هذه المحظورات ادخلت في سبيل الحفاظ على الانفصال ان « جميع العادات والممارسات اليهودية سعت لا شعوريا وراء غرض واحد هو الحفاظ على اليهودية عن طريق الانفصال عن الآخرين ، والحفاظ على الجماعة اليهودية ... ان هذا الاندفاع نحو الانفصالية كـــان مصدر معظم القوانين الطقوسية التـــي كانت مساوية تماما عند اليهودي العادي لمعتقده ذاته » (٧٧) .

وهكذا فان اليهودي الاوروبي هو الذي خلق الغيتو عمدا ، وجزئيا على الاقل ،

---

٧٢ — J. H. Brenner في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٣١٠ .
٧٣ — بي. هورويتس ، **المسالة اليهوديـــة والصهيونية** ، لندن ، ١٩٢٧
٧٤ — نوردو في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .
٧٥ — J. Klatzkin في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٣٢١ .
٧٦ — م. هس ، المصدر السابق ، ص ٥٦
٧٧ — نوردو في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٣٨

ليحافظ على انفصاله الذي عزز بدوره شعور الجماعة الانفصالي . ويستمر نوردو في خط جدله بأن هذا الشعور الانفصالي يؤدي بشكل طبيعي الى البرنامج الصهيوني في اقامة جماعة منفصلة في دولة منفصلة ، ثم يعطي ارقاما دقيقة : مليونا يهودي سعيدون ومكتفون في ارض ميلادهم وليس لهم نية في هجرها ، انهم يشكلون سدس الشعب اليهودي (في ذلك الوقت) ، ولكن خمسة اسداسهم او عشرة ملايين يهودي مستاؤون جدا في البلاد التي يعيشون فيها يجب ان يعطى هؤلاء الفرصة للخلاص بواسطة الصهيونية (٧٨) .

وحاول المنظرون الصهيونيون اللاحقون ، في سبيل اضفاء وزن ومقام رفيع على حركتهم ، ادخال حلقة رابعة في المسلسل السببي التالي : الانفصال ــ شعور الجماعة ــ الصهيونية ، ليصبح : الانفصال ــ شعور الجماعة ــ القومية ــ الصهيونية . وقد بذل ليون سيمون مجهودا كهذا في « القومية اليهودية » من دراسة شالم هاوس « القومية » (٧٩) . وبعد القول بأن لليهود « حس ذاتي مشترك بالتميز عن بقية العالم وبروح الجماعة فيما بينهم » يذهب سيمون الى القول بأن هذا « الحس بالتضامن ، معززا بالعداء الخارجي الذي لا شك ساعد على الاثارة ، كان دوما قويا بقدر يؤمن الوجود المستمر لهذه الامة المتميزة » (٨٠) . واستعمال علامات الاقتباس هنا مهم كما ان استعمال كلمة « المتميزة » مهمة لانها تضعف الحجة الصهيونية كثيرا . وقدم الاستاذ تالمون ، استاذ التاريخ في الجامعة العبرية ، دفاعا اقوى عن الصهيونية زاعما انها تعزز الاعتبار القومي . ويقول تالمون ان « الحركات القومية السابقة واللاحقة قد اظهرت الديالكتيك نفسه في تطورها التاريخي اما نحن فنختلف لاننا لسنا مثل التشيكيين والرومانيين والباكستانيين الخ ، لان هؤلاء كانوا الاغلبية او الامة الحاكمة ، أما نحن فنختلف ، ويتوجب علينا ان نبين عوامل تميزنا » (٨١) .

وزعم أحد مؤرخي الصهيونية بصواب ان « اي نوع من الصهيونية يتضمن بالضرورة بعض الحس بفقدان الامل في تقبل مجتمع الاغلبية قبولا كليا للفرد اليهودي في المستقبل » ، وهذا التشاؤم العنصري يفيض بالنسبة للقومية في آسية وأفريقية .

ان عددا كبيرا من الدول الافروآسيوية ، بحكم الظروف ، مجتمعات تعددية ــ مثل الفيليبين وماليزيه والهند وسيلان ولبنان ومصر وكينيه ونيجيريه ــ لانها تضم عددا من الاجناس والاديان واللغات . ولا يوجد وفاق ، حسب مقتضى الحال ، في كل بلد من هذه البلدان الا ان هناك ميلا نحو التعايش على الاقل بعيدا عن اسلوب التنفير الصهيوني الذي يبعث على اليأس .

وهكذا نجد في دافع الصهيونية واسرائيل ، الذي أفردناه على سلبيته ، عنصرا

---

٧٨ ــ المصدر السابق ، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ .

٧٩ ــ يوضح المحرر ان مقالة سيمون تعبر عن وجهة نظر شخصية ولا تتفق بالضرورة ووجهة نظر المجموعة التي وضعت الكتاب . وكتب الجزء المتعلق بالقومية في الشرق الاوسط رجل انكليزي ، وهذا مثال على نوع التوازن بين العرب والصهيونيين الوجود في النشرات الغربية « الموضوعية » ، وهذه هي الحال حتى الآن .

٨٠ ــ **القومية** ، ص ١٦٣ .

٨١ ــ J. L. Talmon ، المصدر السابق .

آخر من عناصر الاختلاف بينهما وبين القومية الافروآسيوية ودول العالم الثالث الجديدة .

قوميـــة ام ملجـــا

هل يمكن مع هذا أن تكون الصهيونية نوعا من القومية المتولدة بذاتها دونما دافع خارجي ، اي قومية في حد ذاتها ؟ ان شعبية القومية في العالم المعاصر وهيبتها غير المستحقة قد وصلت فعلا حدا صار معه كل كاتب صهيوني تقريبا يصف الحركة « بالقومية » ، ويقبل معظمهم التعريف بلا جدل على انه واضح جدا ولا يحتاج الى ايضاح . ويحاول البعض تحليل هذا التعريف بأسلوب دائري : يؤلف « الشعب » اليهودي « أمة » ، وعليه فان حركة شعبية يهودية مثل الصهيونية تكون بالتالي « قوميــة » .

ومهما يكن فان هناك عددا غير قليل من المنظرين الصهيونيين الذين يتفحصون أسس القومية الصهيونية بدقة اكثر . ولا يتطلب كشف الاختلافات الاساسية بين الصهيونية وأنواع القومية العادية تحقيقا وبحثا كثيرين . الا ان هؤلاء الكتاب يملأون الثغرة بقولهم ان الصهيونية نوع خاص من القومية . وهكذا يسلم هرتزبرغ في بداية كتابه « الفكرة الصهيونية » بان « الصهيونية لا يمكن تصنيفها ، وبناء عليـــه لا تفسر بسهولة كنوع « مألوف » من انواع البعث القومي ... وتخرج عن تاريخ القومية الحديثة » .

واستنتج ي . م . باينز ، في العام ١٨٩٥ ، ان اليهود « لا يمكن تعريفهم كقوميــة عادية و « طبيعية » (٨٢) » ، ووافق برلين بعد ستين سنة من ذلك التاريخ على ان اليهود « لم يكونوا أمة بأي معنى مألوف للكلمة » (٨٣) .

ويشارك آخرون في الفكرة التالية : بما ان « العوامل الموضوعية للامة مثل الاقليم واللغة يجب ان تستبدل جزئيا ببديل ذهني وروحي ... فان اليهود اصبحوا ، كما حدث ، أمة روحية » (٨٤) ، وبدون عبارات مثل ، كما حدث : « لقد كنا دوما أمة روحية » (٨٥) . وزعم آخرون ايضا انه اذا كانت اسرائيل في المنفى أمة فانها لم تكن « أمة حية » (٨٦) . ويأتي بعد ذلك تعريف بنسكر الشهير في كتابه « التحرر الذاتي » ، أحد أعظم الكتابات الكلاسيكية في الفكر الصهيوني ، والذي يقول « ان اليهود يخافون لانهم أمة شبح ماتت منذ زمن طويل » (٨٧) .

هناك ايضا التحديد بالنفي كما فعل الاشتراكي الصهيوني نحمان سركين : « صحيح أن هذه القومية لا تمثل هدفا قوميا ساميا ، وهذا هو التناقض المأساوي في الحياة اليهودية . ومهما يكن فقد اعتبر العدو اليهودي **دائما** أمة ، وهم عرفوا انفسهم دوما كذلك . ورغم انهم سلبوا كل ميزاتهم القومية الخارجية ، بقوا أمة متميزة لها وجودها

---

٨٢ ـــ هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ، ٤١٢
٨٣ ـــ أيزايا برلين ، المصدر السابق ، ص ٥ .
٨٤ ـــ J. Heller ، **الفكرة الصهيونية** ، لندن ، ١٩٤٧ ، ص ١٩
٨٥ ـــ P. Smolenskin في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٤٧
٨٦ ـــ Rabbi Abraham Kook في هرتزبرغ ، ص ٤٣٧ .
٨٧ ـــ ل. بنسكر ، **التحرر الذاتي** ، لندن ، ١٩٣٢ ، ص ١٨

الذي هو نفسه سبب كاف لكينونتها » (٨٨) ، وبكلمة اخرى كانوا أمة متولدة بذاتها . ويستطيع المؤرخ غير الصهيوني ، بعد ان يجهد نفسه في تحديد تعريف القومية تعريفا دقيقا واضحا ، ان يصف الصهيونية بأنها « آخر القوميات الاوروبية واقلها نموذجية » (٨٩) .

وصرح هنس كوهن ، رغم انه مؤرخ القومية ، بأن القوميات معقدة لدرجة « انها تتحدى التعريف الدقيق » (٩٠) ، ولم يمنعه هذا وغيره من الكتاب من محاولة التعريف. تعدد دراسة شاتام هاوس الميزات التالية للامة : فكرة الدولة المشتركة في الماضي والحاضر او من اجل المستقبل ، جماعة ذات حجم معين وصلات قريبة من افرادها ، اقليم محدد تقريبا ، ميزات معينة (مثل اللغة) تتميز بها ، مصالح معينة مشتركة ، درجة معينة من الشعور المشترك او الارادة متصلة بصورة الامة في عقول افرادها(٩١). ويقول كوهن نفسه ان اشهر الميزات المشتركة للامة عادة هي : الاصل المشترك ، اللغة ، الاقليم ، الكيان السياسي ، العادات والتقاليد ، والدين . ومن بين هذه العناصر الستة يتمتع الشعب اليهودي بآخرها فقط اي الدين . وربما كانت دراسة ج . هلر اشمل دراسة في الصهيونية كقومية ، فهو يعدد في دراسته هذه سبع ميزات مشتركة للامة اصل مشترك ، خصوصيات جسدية وعقلية ، التاريخ والتقاليد ، الاقليم ، اللغة ، والحضارة ، وحسب عملية التعريف الدائري المألوفة ، الوعي القومي . ربما يبدو ان الشعب اليهودي يتمتع بنصف واحدة من هذه الميزات اي التاريخ المشترك ، الا أن هلر نفسه ينفي كل تلك الميزات ويقول ان اليهودية (التي لم يدرجها في قائمة الميزات التي عددها) « تبدو الصلة الوحيدة التي تجمع بين مختلف يهود العالم اليوم ». ولم يذكر الدين لانه « مع ذلك ، لم يعد التقيد بالقانون الديني اليوم صلة تربط جميع اليهود ببعضهم » (٩٢) .

ومهما يكن فان هلر يحاول ان يثبت في فصل بعنوان الميزة الفريدة للقومية اليهودية، خطأ ما يسميه فرضيتين غير صحيحتين : ان اي أمة يجب أن تتمتع بكل الميزات القومية المتفق عليها عادة ، وان الامة اليهودية يجب أن تكون مثل كافة الامم الاخرى او ان لا تقبل كأمة بالمرة . وتدل هذه المحاولة ان هلر ادرك ـــ كما يجب ان يدرك اي مراقب موضوعي ـــ انه طالما يتعلق الإمر بالميزات المشتركة للامة فان الشعب اليهودي لا يملك ايا منها وان الحركة الصهيونية ، في صفوف هذا الشعب ، لا يمكن قبولها ، على هذا الاساس ، كنوع من القومية ، اذ لا نستطيع ان نصنع طوب القومية بدون القش الضروري للطوب اي الميزات القومية .

وهلر هو أحد الكتاب الصهيونيين الذين يصرون على الميزة القومية للصهيونية ولكنهم يعترفون بشكل دفاعي بأنها ، على حد تعبير هلر ، غير عادية ، فريدة ، وفوق العادة. ورغم كل ذلك لا يزال تصنيف الصهيونية غير ممكن حتى في اكثر الدراسات في

٨٨ ـــ لي مرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .
٨٩ ـــ Trevor - Roper ، المصدر السابق ، ص ٢٣ .
٩٠ ـــ H. Kohn ، فكرة القومية ، نيويورك ، ١٩٤٥ ، ص ١٣
٩١ ـــ القومية ، ص XVIII
٩٢ ـــ Heller ، المصدر السابق ، ص ١٢ ـــ ١٧

الحركات القومية دقة وتفصيلا. يضم المخطط الذي وضعه ك. سيمونز ـــ سيمونولويتش ما لا يقل عن تسعة اقسام واقسام فرعية (٩٣) :

١ ـــ حركات الاقليات

أ ـــ ابديـــة

١ ـــ تمييزية (الغيتو ونظام الملة)

٢ ـــ تعددية (تبحث عن هوية متساوية)

ب ـــ التحريرية الوحدوية (الاردننية)

٢ ـــ حركات التحرير

أ ـــ الاستردادية (بولندة وهنغارية)

ب ـــ بعثية (اللتوانيون)

جـ ـــ الاثنية (الصوماليون)

د ـــ الذاتية ـــ الانفصالية (الولايات المتحدة الاميركية)

هـ ـــ المعادية للاستعمار (الهند وبورمة)

و ـــ الأهلانية (الرّيف) R. I. F.

يترك هذا المخطط مكانا للغيتو ، اما الصهيونية فلا تقع في اي من ابوابه . ويشير سيمونز ـــ سيمونولويتش الى كتاب ل . ويرث الذي قسم قومية الاقليات الى ثلاثة انواع : تعددية (تبغي الحكم الذاتي) ، انفصالية (الانفصال عن الاغلبية المسيطرة) ، تسلطية (تبغي السيطرة على هذه الغالبية بدعم من الاستعماريين المعتدين من خارج الحدود) (٩٤) . ويمكن اعتبار الصهيونية تهجينا معدلا للانفصالية والتسلطية لان يهود اوروبة لم يتوجهوا الى منطقة اوروبية بل الى فلسطين حيث تسلطوا بنجاح على غالبية اخرى بدعم من الاستعماريين . وهذا أيضا ليس ، على اية حال ، تصنيفا مألوفا .

تقع الصهيونية في اطار القومية فقط عندما تعطى القومية تعريفا عاما وغامضا نوعا ما. وهكذا فان ثلاثا من المميزات الست المذكورة في دراسة شاتام هاوس تنطبق على الصهيونية : لليهود مصلحة مشتركة للبقاء في وجه الاضطهاد ، ولهم ارادة مشتركة للهروب منه وذلك باقامة حكومة في المستقبل . ولكن هذه المميزات بحد ذاتها عامة لدرجة تسمح بتطبيقها تقريبا على اي جماعة ضاغطة سياسيا ، بل تكاد تنطبق حتى على أصغر جماعة شبه قومية او جزء من قبيلة .

يشير أبا ايبان (٩٥) ، وزير خارجية اسرائيل ، باستمرار ، عندما يعالج القومية الاسرائيلية ، النتاج الرئيسي للصهيونية ، الـــى تعريف بليـــغ لكنـــه غامض وضعه رينان في تعريف القومية : « ان الامة روح ، مبدأ روحي . انها المشاركة في مجد ماض مشترك وارادة مشتركة في الحاضر ، وانجاز أشياء عظيمة مشتركة ، والرغبـــة في القيام بها ثانية ، هذه هي الشروط الاساسية لكينونة الامة » . الجملة الاولى خطابية،

٩٣ ـــ K. Symmons - Symonolewicz ، « الحركات القومية : محـــاولة في الطوبولوجيا المقارنة » ،Comparative Studies in Society& History ، المجلد السابع ، العدد الثـــاني ، لاهاي ، ١٩٦٥ ، ص ٢٢١ وما يليها .

٩٤ ـــ المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

٩٥ ـــ كما في مقالته « الحقيقة والخيال في الشرق الاوسط » ، مجلة الشؤون الخارجية، تموز ١٩٦٥

اما الثانية فتثير تساؤلا لا بد منه : متى كانت آخر مرة انجز فيها اليهود اشياء عظيمة ؟ ان الحنين للماضي وتذكره موضوع عادي في الحديث عن القومية الصهيونية . وقال « كلاتزكن » المعادي لليهودية ، أن اليهود كانوا « اعضاء أسرة واحدة ، وحملة تاريخ مشترك » (٩٦) ... هو بالضرورة طبعا تاريخ بعيد .

ولكن النقاش المستمد من التاريخ القي جانبا على يد كاتب صهيوني آخر هو ي.م. باينز : « صحيح تماما ان التاريخ المشترك هو ميراث قومي الا انه لا ينجب القومية ، وليس معروفا عنه تأثيره في ان يلتف ليصبح علة علته ذاتها ! » (٩٧) .

يقف المدافعون عن القومية الصهيونية على ارضية اصلب عندما يشيرون ، كما يفعل رينان ودراسة شاتام هاوس ، الى « الارادة المشتركة » ، أو حسب قول كوهن « ان اعظم شيء اساسي هو الارادة المشتركة الحية والفعالة . تولد القومية بتقرير خلق القومية » (٩٨) .

لو سلمنا جدلا ان يهود اوروبة تمتعوا ، في أواخر القرن التاسع عشر ، بهذه « الارادة المشتركة » لبقي علينا ان نحدد ما اذا كان دافع تلك الارادة هو الشعور القومي وان هدفها كان خلق كيان قومي .

يسلم الكتاب الصهيونيون بالميزة القومية لحركتهم لانها ، على حد قولهم ، لم تكن اكثر من انعكاس للصراع القومي ، داخل صفوف اليهود الاوروبيين ، الذي شهدته كافة البلدان الاوروبية تقريبا خلال القرن الماضي . اذا صح هذا يصح معه لوم أحد الكتاب الصهيونيين لليهود بأنهم يلتقطون الفكرة عندما ينتهي منها تقريبا شعب آخر (٩٩) . ان اصل الصهيونية كحركة سياسية اصيلة يعود الى العامين ١٨٩٦ عندما صدر كتاب هرتزل « دولة اليهود » و١٨٩٧ عندما انعقد المؤتمر الصهيوني الاول . اما شروح الفكرة الصهيونية قبل هذا الوقت فكانت منسية تماما . ان هذين التاريخين متأخرين جدا في تاريخ القومية الاوروبية باعتبار ان اليهود الاوروبيين اختلطوا بكل الشعوب الاوروبية التي بدات نضالاتها القومية في وقت مبكر . فقد حققت اليونان استقلالها عام ١٨٣٢ وايطالية عام ١٨٦٠ ، ومنحت هنغارية الحكم الذاتي عام ١٨٦٧ وبلغارية عام ١٨٧٨ سنة حصول الصرب ومونتينيغرو ، أيضا على استقلالهما اي اكثر من عشرين سنة قبل تأسيس الحركة الصهيونية رسميا . كان من الواجب بالتأكيد ان تستجيب المشاعر القومية اليهودية ، اذا وجدت ، الى الروح القومية في ذلك الوقت المبكر .

وقدم الاستاذ تريفور — روبر نظرية مهمة في تفسير هذا الظهور المتأخر « للقومية اليهودية » (١٠٠) . يقول تريفور — روبر ان موجة القومية الاوروبية الاولى (١٨٥٩ — ١٨٦٩) حملت قومية الامم « التاريخية » في اوروبة وهي ايطالية والمانية وهنغارية الى النصر . وبدأت هذه الدول بعد ذلك باضطهاد الاقليات على أرضها مما

---

٩٦ — في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٣١٧ .
٩٧ — في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٤١٣ .
٩٨ — Kohn ، المصدر السابق ، ص ١٥ .
٩٩ — احاد هاعام ، المصدر السابق ، ص ٤٥
١٠٠ — Trevor - Roper ، المصدر السابق ، ص ١٦
١٠١ — الحاشية رقم ٩٢ اعلاه .

ادى الى ظهور موجة من « القوميات الثانوية » هي التشيكية واليهودية والكرواتية (في شمال غربي يوغوسلافية) . ولكن برلين لم يعتبر الاقلية اليهودية مشابهة لاقليات اوروبة الوسطى والشرقية (١٠١) التي بدات حركاتها ، على اية حال ، قبل يهود اوروبة ببعض الوقت . استنتج تريفور — روبر ، كما سبق وذكرنا ، « ان الصهيونية كانت آخر القوميات الاوروبية وأقلها نموذجية » .

أما المنظرون الصهيونيون فلا يزالون يبدون حساسية تجاه هذا الظهور المتاخر خاصة وان كاتبا يهوديا معاديا للصهيونية كتب مؤخرا يقول « لم يكن انتظار هرتزل ونهاية القرن التاسع عشر وتطور الحركة الصهيونية ضروريا للمطالبة بدولة يهودية اذا وجدت بين صفوف اليهود الارادة لاقامة أمة » (١٠٢) .

يجيب دوف برنير بسؤال آخر : لماذا كان ضروريا للشعوب الايطالية والهنغارية او الالمانية ان تنتظر القرن التاسع عشر ؟ ان النضوج البطيء والتطوير الصبور ضروريان دوما للقوميات . ان التشبيه الذي يعطيه برنير مضلل مثل معظم التشابيه . فالمبادىء القومية لم تفرض على الايطاليين والهنغاريين والالمان ان يفعلوا شيئا عمليا وسياسيا مثلما فرض على اليهود ، ثلاث مرات في اليوم، من اجل الذهاب الى القدس طيلة عدة قرون . ومهما يكن فقد أطاع عدد غير قليل من اليهود هذا الامر مظهرا للاغلبية غير العاملة بان الطاعة ممكنة .

يؤدي تفحص الدوافع الصهيونية الى نتيجة واحدة هي ان الحركة الصهيونية لم تكن في الماضي وليست الان قومية حقا، ولم تكن جزءا من الحركة القومية الاوروبية الرئيسية . وأكثر ما يقال فيها « انها كانت ايمانا يؤخذ به بدون برهان ... وكانت مطابقة لروح العصر القومية » (١٠٣) . وأقل من ذلك ايضا هو الشبه بين الصهيونية والحركات القومية الافروآسيوية . وليس ذلك لان الزعماء الصهيونيين كانوا يهـودا « نصف قوميين » (١٠٤) ومندمجين ومقربين فحسب ، بل لان الصهيونية تفتقر الى قاعدة القومية الاساسية وهي ان اليهود ليسوا عرقا ولا شعبا وانما مجرد مجموعة منفصلة . ولم يكن من الممكن اعتبارهم عرقا أو حتى شعبا لانه لم يكن ممكنا أبدا الاجابة عن السؤال التالي : من هو اليهودي ؟

ان افضل ايجاز لهذا البحث عن الدوافع الصهيونية هو كلمات ب . هـ . س . كروسمان الذي يعطف على الصهيونية واسرائيل بحرارة . فبعد ان لاحظ ما اكتشفته المحاكم الاسرائيلية من صعوبة في تحديد الميزات المشتركة التي تميز اليهودي عن غير اليهودي قال : « ليس الدين تلك الميزة بكل تأكيد (٨٠ ٪ على الأقل من الاسرائيليين لاادريون) . هذا ولا نجد عرقا أو تقليدا حضاريا مشتركا بين الاسرائيليين الذين تربطهم بعضهم ببعض في الواقع حقيقة بارزة واحدة هي انهم غير مرغوب بهم في بلدان مولدهم » (١٠٥) .

---

١٠٢ — G. Friedmann ، نهاية الشعب اليهودي ؟ لندن ، ١٩٦٧ ، ص ٢٣٨ .
١٠٣ — The Seat of Pilate, J. Marlowe ، لندن ، ١٩٥٩ ، ص ٣٥ .
١٠٤ — Trevor - Roper ، المصدر السابق ، ص ٢٠ — ٢١ .
١٠٥ — Crossman ، المصدر السابق ، ص ٩١ — ٩٢ .

وهنا نقع اذا على القوة الدافعــة الصحيحة والشديدة للصهيونيــة فالحس الانفصالي ، وهو عامل سلبي ، من جهة ، وكون اليهود « غير مرغوب بهم » وهوالعامل الفعال ، من جهة ثانية يؤديان الى اللاسامية . وتبرز « الارادة المشتركة » لليهود الاوروبيين في الهروب من اللاسامية على صورة الصهيونية .

قامت الحركات القومية الافروآسيوية على اساس رغبة الاجناس أو الشعوب ذات الاديان والحضارات واللغات الخاصة بهم في الحرية على أراضي أوطانهم . وهكذا فان هذه الحركات القومية ، بدافعها الايجابي تختلف أشد الاختلاف ، عن معاداة اللاسامية الصهيونية ، فالصهيونية تبحث عن ملجأ لا عن استقلال .

ان الصلات المحددة والمباشرة بين الحركة الصهيونية واللاسامية في اوروبة الشرقية واضحة وخالية من اي شك . ومع ذلك فقد أنكر مؤرخو الصهيونية وجود هذه الصلات باصرار وقوة أحيانا بسبب تصميمهم على طرح الصهيونية كشكل من أشكال الحركة القومية حتى وان كانت نوعا غير مألوف منها فحسب . وسنتفحص ، بعد قليل ، اسباب اعادة كتابة الحقائق التاريخية .

اسرائيل دولة غربية في مظهرها الخارجي وطريقة حياتها الاساسية لانها خلقت على ايدي اليهود الذين جاءوا من الغرب والذين يؤلفون أغلبية يهود العالم . ورغم ذلك كان من الممكن جدا لاسرائيل ان تظهر الى الوجود بمظهر دولة شرقية بواسطة مئات الالوف من اليهود الشرقيين الذين عاشوا في بلدان قريبة من إسرائيل أو مجاورة لها . الا ان هذا لم يحدث لان اسرائيل هي نتاج الصهيونية ، واليهود الاوروبيون وحدهم تحولوا الى الصهيونية بسبب اضطهاد اللاسامية الاوروبية لهم . وليست اسرائيل دولة صهيونية شرقية لانه حتى قيامها عام ١٩٤٨ لم تسيطر الصهيونية على اليهود الشرقيين (١٠٦) لانهم لم يعانوا من اللاسامية في البلدان التي اقاموا فيها .

لذلك فان سارتر مخطىء عندما يقول ان اللاسامية صنعت اليهودي ، ان اليهودي الصهيوني الغربي فقط أصبح صهيونيا بواسطة اللاسامية التي هي بالتحديد مرض مسيحي اوروبي .

وبعد الثورة الفرنسية سارت اوروبا الغربية والوسطى بتقدم نسبي نحو التخلص من اللاسامية ، واستمر الاجحاد قويا واضحا ولكن دون اضطهاد جسدي فعال . وبقيت اوروبا الشرقية ، على أية حال ، مصابة ، طوال القرن التاسع ، بأشد أشكال اللاسامية قسوة .

يمكننا ان نستنتج من ذلك ان الصهيونية برزت في اوروبة الشرقية ، وهذا ما حدث فعلا . فكانت قيادتها وجماهيرها بدون استثناء تقريبا من اوروبة الشرقية . ولذلك فان النخبة القيادية في اسرائيل لا تزال تأتي الى حد كبير جدا من المهاجرين من اوروبة الشرقية الذين حملتهم الى فلسطين موجتا الهجرة الثانية والرابعة .

يبدو الدفاع التفسيري الذي تدمه المؤرخون الصهيونيون المتأخرون ، في محاولتهم تفسير الاصول اللاسامية للصهيونية ، غريبا جدا اذا ما قورن بكتابات المؤسسين الاوروبيين الشرقيين الاصلية ، فهؤلاء لم يخفوا أبدا حقيقة انهم يشكلون ردة فعل

---

١٠٦ ــ ل. شتاين ، تصريح بلفور ، ص ٣٥ .

للاسامية وان الذي أرادوه بالحاح هو بلد يلجأون اليه ، وربما يصبح دولة قومية أو لا ، وليس بالضرورة في فلسطين .

وكانت الحركة الصهيونية منذ بدايتها وحتى العشرينات تمزقها المنازعات الناتجة عن الخلافات حول المظهر والهدف بين يهود اوروبة الغربية ويهود اوروبة الشرقية . وكان السواد الاعظم من الزعماء الذين انشغلوا بهذه المنازعات المريرة من اوروبة الشرقية ، على الاقل في مولدهم ومنشاهم المبكر . واذا القينا ، مرة أخرى ، لمحة على سير السبعة والثلاثين صهيونيا بارزا التي يضمها كتاب هرتزبرغ « الفكرة الصهيونية » بين دفتيه ويهدف الى عرض نخبة نموذجية من الصهيونيين البارزين ، نجد ان ستة منهم فقط لم يكونوا اوروبيين شرقيين . وأبرز الاوروبيين الشرقيين موزس هس ويهودا مغنيس . ونجد حتى بين اسماء زعماء اليهود الامريكيين اسماء اوروبية مشهورة مثل شنتر وبرانديس والحاخام سلفر .

وقد لوحظ انه لم يكن « غربي » واحد عضوا في « لجنة العمل الصهيوني الداخلي » التي اقامها هرتزل . فمنذ البداية كان « الشرقيون » دائما الاغلبية الساحقة في المنظمة الصهيونية وفي المؤتمرات الصهيونية (١٠٧) . وكان هذا حتميا لان اغلبية يهود اوروبة وجدوا في روسية وبولندة والمناطق الشرقية من الامبراطورية الهنغارية ــ النمساوية . وهذا التجمع اليهودي الهائل في شرقي اوروبة هو بالضبط سبب اصابة هذه المنطقة باللاسامية اكثر من غيرها ، وبذلك صارت اعظم منتج للصهيونية .

ان سير هؤلاء السبعة والثلاثين زعيما وغيرهم تكشف ان جميعهم تقريبا ، وخاصة اكثرهم نفوذا ، تبنوا الصهيونية لا لمعتقد سياسي عـــام وانما بسبب التأثــير المباشر للاسامية من خلال حدث ما في حياتهم الشخصية او بسبب حدث ما في ايامهم . والجدير بالملاحظة اكثر من ذلك هو ان تأثير الاحداث المعادية للسامية عليهم كان قويا ومباشرا حيث ان كثيرا منهم تحولوا الى الصهيونية بين ليلة وضحاها بعد ان كانوا يدافعون عن الاندماج المعادي للصهيونية او كانوا يدافعون عن اللاادرية او الاشتراكية .

وتنبع صهيونية اول « صهيوني » ، كاليشر المولود عام ١٧٤٥ ، من رغبة في ايجاد حل لمأساة يهود اوروبة الشرقية (١٠٨) . وتأثر اثنان آخران من دعـــاة الصهيونية الاوائل ، هما الكلاي وهس ، « بتهمة الدم » التي أتهم فيها يهود دمشق عام ١٨٤٠ . وحولت مذبحة عام ١٨٧٠ سمولنسكن الى الصهيونية . وبلغ تأثير مذبحة ١٨٨١ حدا حاسما دعيت معه المذبحة « تحولا في التاريخ اليهودي الحديث » (١٠٩) : فقد تركت تأثيرا حاسما على صهيونيين مشهورين مثل بنسكر وآحاد هاعام والفتى وايزمن . ومن المعروف جيدا من اقوالهم ان قضية دريفوس المعادية للسامية عام ١٨٩٤ قد حولت هرتزل ونوردو الى الصهيونية ، وقد كانا شاهدي عيان على المشهد الشهير الذي جرد فيه الكابتن دريفوس من رتبته العسكرية بينما كانت الجماهير الباريسية تهتف في الخارج « فليسقط اليهود » . اما مذبحة كيشينيف عام ١٩٠٣ فكانت نقطة التحول نحو

---

١٠٧ ــ V. K. Rabinowicz ، **خمسون عاما من الصهيونية** ، لندن ، ١٩٥٠ ، ص ١٨ ــ ١٩ .
١٠٨ ــ هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ١١٠ .
١٠٩ ــ المصدر السابق ، ص ١٨٠

الصهيونية عند جابوتنسكي وبن غوريون . وجاء التميز ضد السامية في امريكة بالناقد المشهور لودفيك لويبسون الـى حظيرة الصهيونية . وحصل الشيء نفسه لشخصية مهمة جدا هي البرت اينشتاين .

ويصف الزعماء الصهيونيون انفسهم باستمرار وبكلمات حية كيف حملتهم اللاسامية من عدم الاكتراث الى الصهيونية العاملة . وهكذا يتذكر هس حادثة عام ١٨٤٠ : « رغم انني كنت في ذلك الحين بعيدا عن اليهودية فقد بدأت عندي رغبة فـي التعبير عن مشاعري الوطنية اليهودية بصرخة الم ... بسبب من فظاظة وسذاجة الجماهير الاوروبية والآسيوية ... الحزن ... اصبح الان حالـة ذهنية شائعة » (١١٠) ويتحدث هرتزل بوضوح اكثر : « كنت غير مكترث ليهوديتي ، دعنا نقول انهـا كانت دون مستوى وعينا . ولكن تماما كما تدفع اللاساميـة اليهود المترددين والجبنـاء الساعين وراء مصالحهم الذاتية الى احضان المسيحية ، فقد دفعت اللاسامية يهوديتي الى السطح بقوة » . وكتب عام ١٨٩٥ يقول : « كيف اكتشفت (فكرة الدولة اليهودية) ؟ لست اعرف . ثلاث عشرة سنة وتجسدت الفكرة . وترجع ملاحظاتي الاولى الى العام ١٨٨٢ عندما قرات كتاب دوهرنغ » (١١١) ، وهو كتاب معاد للسامية بقسوة وشدة صدر بعد سنة من المذابح الروسية . وقال نوردو بجلاء تام : « فتحت اللاسامية عيني على العودة الى هويتي اليهودية المنسية » (١١٢) . وقال جابوتنسكي ، وكان دوما مراوغا ، ان بدايات نشاطاته الصهيونية اتصلت بالاوبرا الايطالية (حيث كانـت المؤلفات من وضع اناس يهود وتدور حول مواضيع يهودية) وبتنظيم الدفاع الذاتي في اوديسه ضد مدبري مذابح ١٩٠٣ والقائمين عليها . وكتب هو والشاعر بياليك اشعارا تستنكر هذه المذابح (١١٣) . وكتب اينشتاين عن تحوله الى الصهيونية عام ١٩٢١ قائلا: « حتى قبل سنتين كنت اعيش في سويسرة وخلال اقامتي هناك لم ادرك يهوديتي . فلم يكن هناك ما يثير المشاعر اليهودية في . وعندما انتقلت الى برلين تغير كل ذلـك ، فادركت الصعوبات التي كانت تواجه الكثير من الشبان اليهود هناك (وخاصة الطلاب اللاجئين من اوروبة الشرقية والذين هددوا بالطرد) . وايقظت في هذه الاحـداث ومثيلاتها العاطفة القومية اليهودية . انني يهودي قومي ، بمعنى انني اطالب بالحفاظ على القومية اليهودية مثل أي يهودي آخر . انني انظر الـى القوميـة اليهوديـة كحقيقة » (١١٤) . وهكذا نكون قد وصفنا كيف ان عملية التمييز ضد الساميـة قـد دفعت شخصا امميا ودنيويا جدا مثل اينشتاين الى الاصرار على الصهيونية المتحجرة .

وكان آباء الصهيونية المؤسسون صريحين ومنفتحين تماما في القول ان هـدف الصهيونية هو ، بالحاح شديد ، ايجـاد مكان يلجأ اليه يهود اوروبـة الشرقية من الاضطهاد المعادي للسامية . وقال بنسكر عام ١٨٨٢ ان المذابح الاخيرة ولدت وعيا قوميا في صفوف اليهود الروس والرومانيين ليتفجر « في شكل حركة لا تقاوم ، باتجاه

---

١١٠ ــ هس ، المصدر السابق ، ص ٣١ ــ ٣٢ .
١١١ ــ المذكرات ، ص ١٠٩ ــ ١١١ .
١١٢ ــ Ben Horin المصدر السابق ، ص ١٧٥ .
١١٣ ــ جي. بي. شكتمان ، ثائر ورجل دولة ، المجلد الاول ، نيويورك ، ١٩٥٦ ، ص ٧٤ ــ ٧٨ .
١١٤ ــ اينشتاين ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

فلسطين ... وليس لليهود مخرج آخر من وضعهم اليائس » (١١٥) . وطرح ليلينبلوم، في السنة نفسها ، القضية بشكل اكثر دراماتيكية : « ارض اسرائيل ... التي هي ملجأنا الاخير في زمن الاضطراب هذا ... هي بسهولة وبساطة مسألة حياة ، وبدون حلها مكتوب لنا الفناء كشعب » (١١٦) .

ان الكلمات « ملجأ للجماهير اليهودية المضطهدة » (١١٧) تظهر مثل القرار الثابت في كل كتابات هرتزل الصهيونية . وهكذا قال هرتزل وهو يدلي بشهادته امام لجنة ملكية عام ١٩٠٢ : « يجب ان يموت اليهود او يخرجوا . ان يهود اوروبة الشرقية لا يستطيعون البقاء حيث هم ... الى اين يذهبون ؟ » (١١٨) . ومرة اخرى يقول « ان خطتي تدعو الى استخدام قوة دافعة ، موجودة فعلا . ما هي هذه القوة ؟ محنة اليهود ! » (١١٩) . ويقول بصراحة اكثر « ولن يلزم جهد كبير لتشجيع حركة الهجرة . وقد أخذ اعداء السامية بالاهتمام بهذا من اجلنا » (١٢٠) . وفي خطابه امام المؤتمر الصهيوني الاول قال « ان الشعور بالوحدة ... بيننا كان في طريق الزوال عندما بدأ مد اللاسامية يبرز حولنا . فقد اعادت لنا اللاسامية قوتنا من جديد . لقد عدنا الى وطننا » (١٢١) . ولكن اذا فقد اليهود شيئا فقد فقدوا وطنهم في اوروبة: « سيتوجب علينا الانسحاب من اوروبة . اننا لا نستطيع البقاء هنا بعد الان » (١٢٢) . وعندما حاول نقل بعض من احساسه بالالحاح الى جوزف تشمبرلين ، وزير المستعمرات ، ناشده هرتزل قائلا : « يجب ان آتيهم بمساعدة عاجلة » (١٢٣) .

ان امر نقد وجهه زعماء يهود اوروبة الشرقية ، مثل آحاد هاعام ووايزمن ، ضد هرتزل وجماعته « الغربية » هو فعلا ذلك النقد الذي وجهه آحاد هاعام ضد الصهيونية الهرتزلية التي كانت « نتاجا لا ساميا يعتمد على اللاسامية من اجل وجوده » ، « ولم تبحث عن شيء اكثر من دولة في فلسطين تكون ملجأ لليهود المشردين » . وعلى حد قول وايزمن فانه « بالنسبة لهرتزل وربما لغالبية ممثلي اليهود المجتمعين في بازل ، تعني الصهيونية حلا عاجلا للمشاكل المحدقة بشعبهم الذي حلت به الرزايا القاسية » (١٢٤) .

وكان واضحا تماما لمؤسسي الصهيونية الاصليين ان القوة الرئيسية وراء الصهيونية هي ببساطة حركة الطرد والترحيل اللاسامية في اوروبة الشرقية .

اوجد الصهيونيون ، في مناقشاتهم الاقل عملية والاكثر نظرية ، ديالكتيكا غريبا متمازجا بين الصهيونية واللاسامية . ويقبل هرتزل ، دون احتجاج ، ملاحظة فراندوق

---

١١٥ ــ بنسكر ، المصدر السابق ، ص ٢٨ ــ ٣٠ .
١١٦ ــ Lilienblum في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٧٠
١١٧ ــ **المذكرات** ، ص ٦٤٨ .
١١٨ ــ المصدر السابق ، ص ٣٨٩
١١٩ ــ المصدر السابق ، ص ٢٣٧
١٢٠ ــ المصدر السابق ص ١٥٢
١٢١ ــ المصدر السابق ، ص ٢٣٣
١٢٢ ــ المصدر السابق ، ص ١٤٠
١٢٣ ــ المصدر السابق ، ص ١٣٦٠
١٢٤ ــ وايزمن ، المصدر السابق ، ص ١١٢ ، احاد هاعام في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٦٦ ، احاد هاعام ، **المقالات** ، ص ٢٨٥ .

بادن بأن « الشعب قد اعتبر الصهيونية ضربا من اللاسامية » (١٢٥) ، وهذا ما جعل الحكومة الالمانية تتردد في دعم الصهيونية . واعتقد الصهيوني الفرنسي برنارد لازار بان « اللاسامية موجودة لان اليهود يشكلون امة » (١٢٦) . اما نوردو فكان ، نوعا ما ، اكثر ذكاء في قوله ان الصهيونية نتاج كل من مبدأ القومية ، وانحراف مبدأ القومية اي اللاسامية (١٢٧) . وربما كا نبنسكر اذكاهم جميعا في طريقته لفهم اللاسامية، فقدأكه قائلا : « يجب علينا ان نثبت ان مصائب اليهود ترجع قبل كل شيء الى عدم رغبتهم في الاستقلال القومي . . . يجب ان نثبت ان عليهم ان يصبحوا امة » (١٢٨) . وهكذا فان غياب الصهيونية القومية ينتج اللاسامية وهذه تنتج بدورها الصهيونية .

والحقيقة ان الصهيونيين ابدوا دائما موقفا متقلبا ومتضاربا تجـاه اللاسامية ، فوجدوها نافعة ، وجعلها بعضهم ، في الوقت نفسه وبدافع الكراهية والاستحواذ ، في مستوى الغريزة الطبيعية الموجودة عند كل الناس معززين بذلك تلك النزعة التشاؤمية التي لاحظناها في الصهيونية .

وتوقع هرتزل ان اللاسامية ستساعد الصهيونية بطريقتين . اولا ، « في البـدء ستساعدنا اللاسامية من خلال انفجار الاضطهاد » (١٢٩) . ويمكن ان يحدث ذلك في اوروبة الشرقية . وستساعد حكومات اوروبة الغربية والوسطى بشكل اقل وضوحا واكثر ادبا لانهم يرغبون ايضا في ان يروا اليهود يغادرون من خلال الهجرة التي ينظمها الصهيونيون اذا لم يكن ذلك بالاضطهاد . ويسجل هرتزل هذا التوقع عدة مرات في مذكراته ، كما يسجل ايضا اعجابه بالقيصر الذي قال له ، في وجهـه وبصراحـة امبراطورية ، انه يسعده ان يرى نوعا واحدا من اليهود يهاجرون (١٣٠) . ويعبر بضعة كتاب صهيونيين اخرين عن توقعهم هذا النوع من التعاون المهذب بين اللاسامية والهجرة الصهيونية .

الا ان هرتزل رأى طريقة عملية اخرى يكون فيها المعادون للسامية ذوي منفعة : « يمكن أن تكون فكرة ممتازة دعوة اناس محترمين وموثوق بهم من المعادين للسامية لتصفية الممتلكات (ممتلكات المهاجرين اليهود) . وسيصبح المعادون للسامية اصدقاء افضل ، يعتمد عليهم . وستصبح البلدان المعادية للسامية حليفاتنا » (١٣١) . وقـد تم هذا فعلا وبالضبط بين المانية الغربية واسرائيل اليوم .

وطالما ان المعادين للسامية « محترمون وموثوق بهم » استطاع هرتزل ان يتفق معهم ويصل حتى درجة المحبة ، مثلما حدث مع وزير الداخلية الروسي المشهور بلهفي . ويسجل هرتزل ، بدعابة ساخرة ، اجتماعاته الودية مع المحرضين اليهود بروح عصرية قائلا : ان بعض اصدقائي الخلص من اعداء السامية .

ولكن شعور هرتزل نحو اللاسامية أعمق من المستوى السياسي او الشخصي .

---

١٢٥ — المذكرات ، ص ٦٥٧ .
١٢٦ — في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٤٧١ .
١٢٧ — Ben Horin ، المصدر السابق ، ص ١٨٢ .
١٢٨ — بنسكر ، المصدر السابق ، ص ١٧
١٢٩ — المذكرات ، ص ٥٦ .
١٣٠ — المذكرات ، ص ٧٢٨ .
١٣١ — المذكرات ، ص ٨٣ — ٨٤ .

فبكلماته هو : « اللاسامية هي قوة شديدة لا شعورية بين الجماهير لا تؤذي اليهود. وانني اعتبرها حركة مفيدة للشخصية اليهودية . فهي تمثل تثقيف جماعة بواسطـة الجماهير وربما تؤدي الى امتصاصها . ويتم التثقيف عن طريق الضربات القاسيـة وحدها » . ولم يشارك هرتزل آراءه « الغربية » المرضية (لنفسه) ، نوعا ما ، حول القيمة التثقيفية للاضطهاد المعادي للسامية ، أي زعيم صهيوني آخر ولكن بعضهم وافقه بحماس على كونها قوة شديدة لا شعورية .

واصر بنسكر ان اللاسامية «كانحراف نفسي ، وراثية ، وكمرض انتقل طوال الفي سنة ، داء عضال » ... « وتوجد الكراهية (لليهود) في كل زمان ومكان » (وكراهية اليهود) ضرب وراثي من ضروب المشاعـر الشيطانية الخاصة بالجنس البشري » (١٣٢) . وشعر نوردو ايضا بأن اللاسامية متأصلة في الخصوصية النفسية للانسان وليست مؤقتة ، ووصفها بأنها نوع من انواع كراهية الجديد (١٣٣) .

وهذا التفسير « الشيطاني » للاسامية هو نفسه ضرب من الضلال لانه انغـلاق اوروبي على الذات كليا . فمن السخف ان نزعم مثلا ان « كافة » البلدان الافروآسيوية قد اصيبت بها في « كل » الاوقات ، على العكس من ذلك ، فان الجماعات اليهودية القديمة في جنوبي الهند والعراق وشمالي افريقية كانت تربطهم علاقات سلمية جيدة بالسكان المحليين .

وفي الحقيقة ، لا تقارن مواقف القومية الافروآسيوية من عدوتها الامبريالية بعلاقة الحب والكراهية الملتوية والمعقدة بين الصهيونية واللاسامية . فقد خلقت اللاسامية الصهيونية التي كانت تعتمد عندئذ على دينامية اللاسامية في الترحيل ، ولم تستطع الصهيونية الا ان تكره اللاسامية . وكان دعـاة القومية الافرو ــ آسيويـون بكـل بساطة ، باستثناء الهند ، يكرهون ويعارضون الامبريالية . وقد حاول المهاتما غاندي ، في الهند ، ان يفرق بين الامبريالية الكريهة والامبريالي الذي لم يكن مكروها . ولكنه لم يقل ابدا ان الامبريالية مفيدة او ان لها تأثير جيد على الشخصية الهندية . ولربما كان العنصر الماسوشي * في علاقة الصهيونية باللاسامية هو الذي يميزها عن القومية الافرو ــ آسيوية . وكتب مؤرخ صهيوني معاصر يقول بأن « هرتزل يعطي الانطباع انه انسان يعاني من الم الاسنان ، وقد قيل له الا يلمس موضع الالم ، ولكنه كان مضطرا ان يفعـل ذلـك » ، ولكن هـذا يصح في وصف مشاعر كـل الزعماء الصهيونيين الآخرين تجاه اللاسامية .

والاغرب من ذلك هو النظرية التي يقترحها هرتزل ونوردو ، على وجه الخصوص ، والقائلة بأن الصهيونية هي ببساطة ، وعلى حد تعبير هرتزل في كتابه « دولة اليهود »، « صانعة السلام » بين اليهود وغير اليهود لانها تستخدم اللاسامية في سبيل هـدف « بناء » . وهذا ما وصفه هرتزبرغ « بالفكـرة الاذكى والاجـرأ والاكثر تفاؤلا في الصهيونية السياسية » لانها تقدم « عرضا من اليهودي يؤمن السـلام للمجتمع الغربي

١٣٢ ــ بنسكر ، المصدر السابق ، ص ١٩

١٣٣ ــ Ben Horin ، المصدر السابق ، ص ١٨٤

* تلذذ المرء بالاضطهاد ينزل به .

١٣٤ ــ J. L. Talmon ، المصدر السابق ، هرتزبرغ ، المصدر السابق، المقدمة ، ص ٤٨ ــ ٥١ .

بمغادرته الى دولــة خاصة به ، انه آخــر قربان يقدمه على مذبح حبــه للعالم الحديث » (١٣٤) . وربما يكون هذا نوعا غامضا من الشعر ولكن عواطف كهذه تبدو للقومي الافرو — آسيوي اما مضحكة او غريبة او شريرة ، وربما تحمله ايضا على التساؤل : « ما علاقة كل هذا بالقومية ؟ »

وهناك طبعا علاقة اكبر بكثير من العلاقة النفسية — المرضية بين الصهيونية وقوتها الخلاقة . فقد كانت وتيرة الهجرة اليهودية من اوروبة الى فلسطين انعكاسا مباشرا لوجود او غياب الضغوط اللاسامية لانه لم يكن هناك ، كما رأينا ، حركة يهودية ثابتة الى فلسطين . ولم تجتذب فلسطين حركة الهجرة بل كان دافعها داخليا اي من اوروبة.

نمت الهجرة الى فلسطين في العامين ١٦٤٨ — ١٦٤٩ واصبحت متواصلة بسبب المذابح في اوكرانية (١٣٥) . وبينما كان مستقبل فلسطين موضع نقاش عام ١٨٤٠ لم يرتفع صوت واحد بين اليهود يدعو لاسترداد الارض لانه (١٣٦) ، على الرغم من فضيحة « تهمة الدم » في دمشق ، لم يحدث انفجار لا سامي في اوروبة .

وفي الاربعين سنة التالية كتب الكلاي وكاليشر وهس كتبا كلاسيكية في الصهيونية ولكنها لم تلق انتباها واهتماما بسبب الهدنة المؤقتة بين اليهود الاوروبيين واللاسامية : فالصهيونية لم تكن بدون اساس . وقد ادت مذبحة ١٨٨١ بسرعة ، اثر مقتل القيصر اسكندر الثاني ، الى تشكيل حركة احباء صهيون وتأسيس اول مستوطنة صهيونية في فلسطين عام ١٨٨٢ . وعندما حل العام ١٨٩٦ ، وبسبب غياب الضغوط اللاساميــة « خبت (الصهيونية) مبتعدة عن الانظار » وتحولت الى « رؤى رومنطيقية » ... « وما هي الا سنوات حتى بدت وكأنه محكوم عليها بالزوال » (١٣٧) . الا انها لم تلق هذا المصير بسبب قضية دريفوس واثرهـــا في نفس هرتزل الذي حافظ على زخـم الصهيونية ، ذلك الزخم الذي ازداد اثر مذبحة عام ١٩٠٣ ومع غياب الضغوط اللاسامية ، ورغم وجود منظمة صهيونية رسمية ، انتكست الحركة الصهيونية وعانت حالة من الخمول امتدت حتى العام ١٩١١

الصهيونية حركة اوروبية شرقية في اصولها ، لا لمجرد ان معظم زعمائها جاءوا من تلك المنطقة حيث تتجمع الغالبية العظمى من يهود اوروبة ، بل هناك ايضا سببان آخران . السبب الاول ، كما رأينا ، هو حساسية يهود اوروبة الشرقية الخاصة تجاه اللاسامية التي قامت على اساس الاجحاف العام الذي عززته بشكل نشيط ايضا انظمة الحكم غير المستعمرة للتخلص من النقمة عليها . والسبب الثاني ، الذي شجع انتشار الصهيونية في صفوف يهود اوروبة الشرقية ، هو حجم الصهيونية وتنظيمها الداخلي .

كان العداء بين اليهود « الشرقيين » و « الغربيين » داخل الحركة الصهيونية انعكاسا صحيحا للاختلاف العميق بين الشرقيين الذين كانوا على اتصال مباشر بالحضارة والبيئة السلافيتين في معظمها ، والغربيين الذين كانوا على اتصال مباشر بالحضارة الانجلوسكسونية او اللاتينية وقد تجاوز اتصال الغربيين ببيئتهم ، بمحض ارادتهم ، في اواخر القرن التاسع عشر ، لحد الاندماج بالسكان . اما اليهود الشرقيون

١٣٥ — باركس ، **تاريخ فلسطين** ، ص ١٨٢
١٣٦ — ل. شتاين ، **تصريح بلفور** ، ص ٩
١٣٧ — Bein ، المصدر السابق ، ص ١٧٩

فلم يندمجوا ابدا تقريبا وبقوا يهودا منغمسين بحماس وعمق في الدين وتعاليمه القويمة ، وقدموا للحركة الصهيونية ليس قيادتها فحسب بل قاعدتها الشعبية والصبر والمثالية ايضا .

واستطاع الاوروبيون الشرقيون ان يحافظوا على انفسهم كجماعة متميزة ومنفصلة لان ستة او سبعة ملايين منهم اقاموا في منطقة واحدة ، تعرف « بمنطقة الاستيطان » ، فكانوا قريبين من بعضهم بعضا . وسمح لهم بادارة شؤونهم داخل حدود هذه المنطقة بواسطة شبكة قوية من المنظمات الاجتماعية (الجاحال) التي كانت مستقلة خاصة فيما يتعلق بالتربية ، وتمتع الحاخامون البارزون فيها بنفوذ عظيم .

واشار كتاب كثيرون الى « منطقة الاستيطان » هذه وكأنها غيتو موسع . وتحدث مؤرخ صهيوني عن يهود هذه المنطقة وكأنهم سجناء « يعيشون حياتهم الدينية ، ويمكننا ان نضيف حياتهم القومية ، وكأنهم يعيشون على ارضهم محرومين من الحرية وحقوق المواطنة ومنعزلين ــ بمحض رغبتهم من ناحية ، وبسبب الظروف التي عاشوها من ناحية ثانية ــ من الاطار العام للفكر التقدمي وعن الحضارة . . . فكانت حياتهم مقيدة وأفق رؤياهم ضيقا » (١٣٨) . وهذا وصف صحيح بما فيه الكفاية باستثناء بعض الكلمات مثل « سجناء » و « مقيدة » ، فهذه كلمات غير صحيحة بالمرة لان منطقة الاستيطان كانت كبيرة جدا ، امتدت من بحر البلطيق الى البحر الاسود شاملة وارسو وكييف واوديسة ، بالغة مساحة قدرها ٣٦٠،٠٠٠ ميل مربع ، اي ما يساوي مساحة فرنسة او ٢٠٪ من مساحة روسية الاوروبية .

ولم يكن يسمح ليهود « منطقة الاستيطان » ، في اغلب الاحيان ، بالعيش في القرى او بممارسة الزراعة . ونتيجة لذلك ، وعلى الرغم من ان اليهود كانوا يشكلون سدس السكان ، كانت نسبة كبيرة منهم تعيش في المدن : ٩٤٪ في مقاطعة موهيليف ، ٦٩٪ في منسك ، ٥٦ ٪ في فلنا ، ٤٩ ٪ في كييف (١٣٩) . وهكذا كان من السهل جدا لهم ان يعيشوا منغلقين على انفسهم تماما داخل جو يهودي كليا .

وبما ان هذا الجسم اليهودي قد ترك يطور مؤسساته بنفسه فان يهود هذه المنطقة اصبحوا مع مرور الزمن « امة داخل امة فعلا ، يضاف الى ذلك ميزة اخرى هي ان هذه الامة ربحت الزعامة الحضارية للعالم اليهودي المترامي الاطراف » (١٤٠) ، او على الاقل « اقلية قومية اصيلة استقرت على ارض اجدادها » (١٤١) .

وهكذا حقق يهود « منطقة الاستيطان » في اوروبة الشرقية شيئين : الاول اشبه ما يكون بوجود قومي منظم ومستقل ، والثاني ، والاهم من ذلك ، هو القاعدة الاقليمية . صحيح أن الارض لم تكن ملكهم وان وجودهم عليها ، في اغلب الاحيان ، غير مستقر ، الا انها كانت المكان الذي يشعرون فيه انهم في بيئتهم وبين اهلهم وخلانهم .

وعليه فانهم عرفوا ، من خلال تجربتهم ، ما قصده هرتزل عندما أعلن فكرة الدولة اليهودية لانهم كانوا يعيشون في دولة من هذا النوع .

---

١٣٨ ــ بي. هورويتس ، المصدر السابق ، ص ٢٠ ــ ٢١ .
١٣٩ ــ M. Davitt, Within the Pale ، لندن ، ١٩٠٣ ، ص ٣٨ وما يليها .
١٤٠ ــ ا. س. ايبان ، «Afterword» ، في بنسكر ، المصدر السابق .
١٤١ ــ برلين ، المصدر السابق ، ص ١٣

ودعم يهود اوروبة الشرقية هرتزل فورا وبحماس لسببين هما : حاجتهم للهرب من انفجار الاضطهادات اللاسامية المتكررة ، وكون فكرته الاساسية مألوفة لديهم .

وكان البرنامج الصهيوني بالنسبة لهؤلاء اليهود مجرد الانتقال من «منطقة الاستيطان» الى فلسطين ، الى جانب منحهم الحقوق السياسية .

وقد تم فعلا ، الى حد ما ، نقل ظروف اوروبة الشرقية جملة الى اسرائيل مما يفسر التناقضات الظاهرة في بعض جوانب الحياة الاسرائيلية في المحيط الجديد والمختلف في غربي آسية .

ولسبب سياسي ايضا ، كان من السهل على اليهود «الشرقيين» أن يولواولاءهمخالصا للصهيونية . ولم يشعر معظمهم بالولاء الى الدولة الروسية لانهم انقطعوا عن الحياة الروسية . ولذلك لم تزعجهم اي مشاعر بالولاء المزدوج

اما بالنسبة لليهود الغربيين فقد اختلطت الامور كثيرا : فهم أقل عددا واكثر انتشارا واندماجا ، لذا شعروا بصراع حقيقي ، في أعماقهم ، من الولاء المزدوج . وبما انهم كانوا يشاركون في حياة وبناء الدول الغربية فقد كانت فكرة الدولة اليهودية مخيفة لهم، لا جديدة عليهم فحسب .

ولم يمض وقت طويل حتى اكتشف هرتزل موقع قوته الحقيقية . فبعد المؤتمر الصهيوني الاول كتب عن « اكتشافه يهود أوروبة الشرقية ... القوة التي لم يشك فيها » ، وتأثر « بوحدتها الداخلية » وبحقيقة ان هؤلاء اليهود كانوا « غارقين في العاطفة القومية اليهودية » (١٤٢) .

وحسب قول تالمون فان في كل ما كتبه هرتزل عن الصهيونية « كان يهود اوروبة الوسطى والشرقية في ذهنه ، لا يهود بلاد الشرق (غير الاوروبي) ولا الغرب بكل تأكيد » . وتحدث هرتزل في ما كتبه حول الهجرة الى الدولة اليهودية عن « عمالنا غير المهرة الذين سيأتون أولا من المستودعات العظيمة في روسية ورومانية » (١٤٣) .

وعليه فاننا لا نتجاوز الحقيقة البسيطة اذا قلنا ان « القومية اليهودية اكتسبت حقيقتها كليا تقريبا بواسطة يهود الامبراطورية الروسية والشرق الاسلامي ، الى حد ما ... فلو لم يوجد يهود روسية لما كان للصهيونية قضية ولا امكانية في ان تتحقق وتبرز في اي شكل خطير » (١٤٤)

وكان يهود روسية على هذه الدرجة من الاهمية لان اللاسامية ، باعتدائها على جماهير يهود أوروبة الشرقية ، كانت الدافع الرئيسي للصهيونية وبالتالي اصبحت تلك الجماهير الاداة الرئيسية لتحقيق الصهيونية .

وقد وعى جيدا زعماء اليهود الشرقيين ، أهميتهم بالنسبة للصهيونية فاستاءوا منذ البداية من حقيقة أن القيادة كانت ، في السنوات الاولى ، في ايدي الغربيين ، أمثال هرتزل . وعلق الزعيم الشرقي ، وايزمن بشكل حاد ومنحاز انه بفضل اليهود الروس « وجد هرتزل حركة جاهزة له . فنحن لم نأت الى فلسطين بمبادئنا فحسب وانما

---

١٤٢ — Bein ، المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .
١٤٣ — Talmon ، المصدر السابق، وهرتزل ، **دولة اليهود** ، ص ٣٧ .
١٤٤ — برلين ، المصدر السابق ، ١٢ ، ١٧

بشعبنا أيضا » (١٤٥) .

ومهما يكن فان المعارك الكبيرة الاولى وقعت داخل الحركة الصهيونية حول مسألة ما اذا كانت فلسطين ــ صهيون ــ هي هدف الصهيونية .

وباختصار كانت المسألة اما ان تقوم الصهيونية على مبدأ (القومية اليهودية) أو على الحاجة الانسانية لايجاد ملجأ لليهود الهاربين من اللاسامية في اي جزء من الكرة الارضية .

الحل الجزئي

وبما ان الصهيونية هي ، بالتحديد ، تحرك اليهود الى فلسطين ، ربما يبدو غريبا ان تصبح فلسطين كهدف ومبرر لوجود الصهيونية ، سببا للخلاف . الا ان ذلك حدث لان أعظم الزعماء الصهيونيين الاوائل نفوذا كانوا صهيونيين بلا صهيون ولم يكن حبهم لفلسطين متأصلا في الحركة ولا في زعمائهم ولا في جماهيرها .

أما أوائل دعاة الفكرة الصهيونية وهم الكلاي وكاليشر وموزس هس فكانوا يحبذون فلسطين ، ولكن كلماتهم وقعت على أرض عاصفة فلم تترك أثرا عمليا على الحركة الصهيونية خلال فترة الهدوء بين العامين ١٨٤٠ و١٨٨٠

وربما يبدو غريبا انه حتى مذابح ١٨٨١ ، التي أحيت الصهيونية كثيرا ، لم تكف لدفع المهاجرين اليهود او الفكر الصهيوني باتجاه فلسطين بالتحديد . وقبل مذبحة ١٨٧٥ قال سمولنسكن بتجرد كاف : « لم تكن تربة الارض المقدسة اساسا لهويتنا القومية ابدا ، ونحن لم نخسر اساس قوميتنا عندما طردنا . لقد كنا دوما امة روحية ... » (١٤٦) وكان سمولنسكن احد اولئك الصهيونيين الذين شعروا انهم مضطرون للتطلع الى فلسطين وحدها بواسطة احداث ١٨٨١ مثله في ذلك مثل زعماء اليهود الروس أمثال بن يهودا وليلينبلم .

وتركت المذابح أثرا عكسيا تماما على الصهيوني المشهور بنسكر : لقد هزت المذابح أعماق كيانه وحولته عن الاندماج الى صهيونية متقدة حماسة ، ولكنها حولته في الوقت نفسه أيضا عن فلسطين . فهو يقول في كتابه « التحرر الذاتي » : « يجب أن يكون لنا في النهاية **وطن** ان لم يكن **بلدا** لنا . اذا اتيح لنا وطن آمن ... يجب ، قبل كل شيء، الا نحلم باسترداد يهودا القديمة . يجب الا نربط أنفسنا بمكان أوقفت فيه حياتنا السياسية ودمرت في ما مضى . يجب الا يكون هدف مساعينا الحاضرة « الارض المقدسة » بل ايجاد أرض لنا . نحن لسنا بحاجة لشيء غير قطعة واسعة من الارض من اجل اخواننا الفقراء . ربما تصبح الارض المقدسة أرضا لنا مرة ثانية . ان تم ذلك فهو الافضل ... » ، « ويمكن ان تشكل قطعة الارض هذه اقليما صغيرا في اميركة الشمالية أو باشاوية ذات سيادة في تركية الآسيوية » (١٤٧)

لقد هاجم الصهيونيون بنسكر بمرارة فسمح لنفسه أن يتصهين ، باعطاء فلسطين

---

١٤٥ ــ وايزمن ، المصدر السابق ، ص ٤٣

١٤٦ ــ Smolenskin ، في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٤٧ .

١٤٧ ــ بنسكر ، المصدر السابق ، ص ٣٢ ، ٣٨

الافضلية كهدف لكنه رفض أن يجعل هذه الافضلية مسالة مبدأ . وفي مؤتمر صهيوني دعا له في كاتويتس عام ١٨٨٤ ، رفض بنسكر أن يطرح خيارات بديلة للوطن : « اختار فلسطين لانها ممكنة التحقيق ولان الشعب يريدها ، لماذا ؟ بكل بساطة ، لانه يريد وطننا » (١٤٨) .

وأنجز يهود أوروبة الشرقية أيضا مهمة الصهينة على أشهر الصهيونيين بلا صهيون وبالتحديد هرتزل نفســه . وكانت لدى هرتزل ، في عدم اعطاء الافضلية لفلسطين ، الدوافع نفسها التي كانت لدى بنسكر ، فلم تحرك الرجلين رؤى صوفية وانما انسانية ملحة تبحث عن وطن سريع المنال للاجئين الاوروبيين الشرقيين . فهما لم يصرا على فلسطين لغياب الشعور الديني عندهما نحوها ولانهما لم يدركا كيف يمكن أن تصبح بسرعة ، وهي جزء من الامبراطورية العثمانية ، متاحة للهجرة المفتوحة والواسعة النطاق (١٤٩)

وجعلهما هذا الموقف ، كما جعل كثيرين ممن يفكرون مثلهما ، في موضع نزاع مع زعماء يهود أوروبة الشرقية حول مسالتين : الغاية والوسيلة .

ولم يكن جميع الزعماء الشرقيين ، كما سنرى ، ملتزمين كليا بفلسطين كهدف . ولكنهم ، تحت ضغط العواطف الدينية لدى جماهير أوروبة الشرقية اليهودية ، اصروا على فلسطين هدفا لهم . ولما لم تكن فلسطين متاحة للهجرة المفتوحة ، اقترحوا التسلل غير المشروع .

وأخيرا قبـــل هرتزل هدف الاوروبيين الشرقيين لكنه لم يقبل ابدا بالوسيلة التي اقترحوها ، وهكذا قضى السنوات القليلة المتبقية من حياته في الجهودات الدبلوماسية في عدة بلاطات لفتح فلسطين للهجرة اليهودية الرسمية والمنظمة ، ولكن دون جدوى .

وصرح هرتزل بوضوح بآرائه حول فلسطين والتسلل في كتابه « دولة اليهود » « هناك اقليمان يؤخذان بعين الاعتبار هما فلسطين والارجنتين . فقد تمت تجارب مهمة للاستعمار في البلدين على الرغم من قيامهما على المبدأ الخاطىء لتسلل اليهود التدريجي. ان التسلل محكوم بنهاية سيئة . فالتسلل يستمر حتى اللحظة التي لا مفر منها عندما يشعر السكان الاصليون بأنفسهم مهددين ويجبرون الدولة على وقف تدفق اليهود الاضافي » . وهذا ما حدث بالضبط في السنوات التالية في فلسطين أيــام العثمانيين والبريطانيين .

ويتساءل هرتزل : « فلسطين أم الارجنتين ؟ » « سنأخذ ما يعطى لنا وما يختاره الراي العام اليهودي » (١٥٠) . وكان هرتزل في مذكراته اقل حماسا تجاه فكرة صهيون كهدف للصهيونية . وفي خطاب وجهه لعائلة روتشيلد في حزيران عام ١٨٩٥ يقتبس هرتزل عن نفسه قائلا : « سأخبركم الان كل شيء عـــن « أرض الميعاد » باستثناء موقعها . ان هذه مسألة علمية محضة . يجب أن نأخذ باعتبارنا العوامل الجيولوجية والمناخية ، وبايجاز ، كافة أنواع العوامل الطبيعية باحتراس واعتبار آخر الابحاث . .

١٤٨ — M. Buber ، **اسرائيل وفلسطين** ، لندن ، ١٩٥٢ ، ص ١٢٨ .

١٤٩ — يدعو التشابه بين اراء هرتزل وبنسكرللاستغراب لان هرتزل سمع فقط بكتاب بنسكر بعد ان كتب هرتزل **دولة اليهود** وانتهى مـــن قراءته بعـــد ذلك بخمس سنوات .

١٥٠ — هرتزل ، **دولة اليهود** ، ص ٢٩ ، ٣١

كانت فلسطين في ذهني بعض الوقت ، ويمكنها ان تلقى استحساننا للحقائق التالية انها مقر الاجداد الذي لا ينسى عند شعبنا ، وان اسمها نفسه يؤلف برنامجا ، وانها تجتذب الجماهير الدنيا بقوة . ولكن لم يعد معظم اليهود شرقيين واعتادوا على مناطق مختلفة جدا ... وهكذا أيضا ستبقى أوروبة قريبة جدا منها . وفي ربع القرن الاول من وجودنا سنحتاج من أوروبة الى السلام وارتباطاتها العسكرية والاجتماعية اذا كنا نريد النجاح ... ولكنني ، من حيث المبدأ ، لست ضد فلسطين ولا مع الارجنتين » (١٥١) .

واعتقد بنسكر ايضا ان موقع الدولة اليهودية يجب أن يحدده الخبراء لا « سحر » و « رومانسية » فلسطين اللذين تحدث عنهما وايزمن .

ويلاحظ هرتزل في مكان آخر ، حيث يناقش وجهات النظر المؤيدة والمعارضة ، غياب مجال التوسع في فلسطين ، ولكن « الاسطورة العظيمة » في جانبها ، في حين ان اميركة الجنوبية يمكن أن تلقى الكثير من الاستحسان بسبب « بعدها عن أوروبة العسكرية القذرة » (١٥٢) .

ومهما يكن فقد قرر المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ ان « هدف الصهيونية هو تأسيس وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام » . لقد تصهين هرتزل علنا لكنه في الحقيقة لم يتحول . واستمر يشعر بالحاجة الملحة الى ملجأ فكتب عام ١٨٩٩ : « أعتقد ، على أية حال ، اننا سنتقدم ، بعد المؤتمر الصهيوني القادم، بطريقة عملية الى الارض ، أي ارض » . وقال سرا في العام ١٩٠٢ انه يظن ان خطة للاستيطان في قبرص « خطة معقولة » (١٥٣) .

لقد كان النزاع يختمر بين « الغربيين » و « الشرقيين » حول ما اذا كان يجب أن تكون فلسطين هدف الصهيونية أم لا . فالشرقيون يشعرون بأن « « صهيونية الغربيين » تهدف الى مفهوم ميكانيكي وسوسيولوجي » (١٥٤) . وقد وصل النزاع قمته في المؤتمر الخامس عام ١٩٠٤ . واضطر هرتزل الى القول آنذاك ، وعلى الرغم من مساعيه الدبلوماسية التي لم تعرف الكلل ، ان افضل عرض استطاع استخلاصه من السلطان عبد الحميد هو حرية الهجرة اليهودية الى الامبراطورية العثمانية في مجموعات صغيرة ومنفصلة والى اي منطقة باستثناء فلسطين . الا ان هرتزل رفض ذلك العرض على الفور . وفي هذا الظرف عرضت الحكومة البريطانية قطعة من ارض يوغنده (سميت فيما بعد « بالمرتفعات البيضاء » وتوجد الان في كينية) . وكان هرتزل يؤيد ارسال لجنة تحقيق من قبل المنظمة الصهيونية الى يوغندة كمكان مؤقت للاستيطان في انتظار الاستيطان الصهيوني النهائي ، في الوقت المناسب ، في فلسطين . ويلخص وايزمن الشرقي ، هذا التطور بهذه الكلمات المريرة . « لم تكن فلسطين ابدا ، في الحقيقة ، متاحة ، للزعامة الغربية . لقد كانت سرابا وعندما اضمحل السراب اقترحت يوغندة ... » (١٥٥) .

---

١٥١ — المذكرات ، ص ١٣٣ .
١٥٢ — المذكرات ، ص ٥٦ ، ٦٩
١٥٣ — المذكرات ، ص ٤١٣ .
١٥٤ — وايزمن ، المصدر السابق ، ص ٧٤ .
١٥٥ — وايزمن ، المصدر السابق ، ص ٧٥

وربح هرتزل التصويت على ارسال اللجنة ولكن عدد الاصوات المؤيدة بلغ ٢٩٥ مقابل ١٧٧ صوتا معارضا ، وامتنع مئة (١٠٠) عن التصويت . وكانت النتيجة هزيمة معنوية ادت الى خروج الشرقيين . وفي اجتماع خاص بهم ، في جلسة مغلقة ، تعهد هرتزل بان الهدف النهائي هو فلسطين .

ويصف وايزمن هـــذه الاحداث بانها الانتصار النهائي للصهيونيين بصهيون على الصهيونيين بلا صهيون وبانها القرض الحاسم لارادة الزعامة الاوروبية الشرقيـــة ، المتكلمة باسم جماهير اليهود الشرقيين ، على الزعماء الغربيين المترددين والمندمجين الذين فقدوا الاتصال بالشعب اليهودي . وهذا صحيح بمعنى عام جدا

ووايزمن مخطىء كليا تقريبا فيما يتعلق بتفاصيل الصراع داخل المؤتمر . فهو يعطي، من جهة ، انطباعا بأن هناك انقساما واضحا يقف فيه كل الشرقيين ، تقريبا متحدين ومتضامنين ضد هرتزل . ومن جهة أخرى ، ينسب الى نفسه دورا حاسما . فهو يصف كيف ان المجتمعين فوجئوا ، خلال التصويت ، الذي جرى بمناداة الاسماء كلا بمفرده ، بعدد الاصوات المعارضة من الشرقيين وقد صوت والد وايزمن واخوه ايجابيا ولكن عندما صوت وايزمن معارضا اصفر وجه هرتزل . ومنذ تلك اللحظة ، حسب راي وايزمن ، تصهين هرتزل نهائيا (١٥٦) . هـــذه مسرحية مثيرة بل وخيال صرف ايضا (١٥٧) .

والحقيقة ان زعماء اليهود الشرقيين ، لم يلتزموا بفلسطين وحدها ولم يكن جميع الغربيين ضدها . وفي اجتماع للجنة الاعمال ، امام المؤتمر كان العضوان اللذان أيدا لجنة التحقيق روسيين ، أحدهما من كيشينيف ، التي كانت مسرحا لآخر مذبحة ، وقد قال بان اليهود الروس ، في ظروفهم الحالية ، يريدون الذهاب الى اي مكان حتى الى الجحيم . ومن بين الثلاثة الذين صوتوا ضد اللجنة اثنان غربيان .

واجتمعت في اليوم التالي ، بسبب الانقسام ، مجموعة غير رسمية لتقرر ما اذا كان العرض البريطاني ، بتقديم يوغنده ، سيوضع امام المؤتمر . وترك هرتزل هذا الاجتماع لتتسنى للمجتمعين حرية المناقشة . وايد اربعة ممثلين من الروس العرض وعارضه ثلاثة غربيين . وهكذا وضع العرض امام المؤتمر

وقبل المؤتمر صوت الصهيونيون الروس على يوغنده فعارضها ١٤٦وايدها ٨٤ وامتنع كثيرون عن التصويت .

وتحدث وايزمن أمام المجموعة غير الرسمية وصوت مؤيدا يوغنده ، ولكنه ما لبث ان صوت ضدها في المؤتمر بعد يومين (١٥٨) .

---

١٥٦ ــ وايزمن ، المصدر السابق ، ص ١١٧

١٥٧ ــ ان فائدة كتابات وايزمن وخطبه كمرجع للحقيقة التاريخية امر مشكوك فيه للغاية اذ يظهر تحليل كتاب **التجربـــة والخطا** الذي قام به ف. ك. رابينويتس في كتابه **خمسون عاما من الصهيونية** عـــدم فائدة كتابات وخطب وايزمن كمرجع للحقيقة التاريخية . ومن الواضح ان رابينويتس متحزب وينشغل أحيانا بالتوافه الا ان القائمة الطويلة التي يقدم فيها أخطاء هرتزل في التفسير وعدم صحة الحقائق التي يبني عليها لم يشكك فيها . وتفسير ذلك انه اما ان وايزمن ضعيف الذاكرة جدا او انه كذاب . هذا ويستحق كتـــاب رابينويتس ان يعرف على نطاق اوسع .

١٥٨ ــ Rabinowicz ، المصدر السابق ، ص ٥٤ ــ ٦٣ ، Bein ، المصدر الســـابق ، ص ٤٥٢ ــ ٤٦٣ .

وهناك مبرر لما كتبه هرتزل في مذكراته عن « هؤلاء السياسيين الروس التافهين ، الموجودين في لجنة الاعمال ، الذين أيدوا أولا القبول العاجل بالمشروع الشرق أفريقي، ثم غادروا القاعة بعد ذلك بشكل دراماتيكي وكانه أسيء الى مشاعرهم الداخلية»(١٥٩).

لكن هرتزل يحتج على شيء مألوف جدا في الحياة السياسية . فهناك سياسيون يعبرون عن آراء معقولة في اعمالهم الخاصة ويتكلمون بحماقة في العلن لخوفهم مما يمكن أن يفكر به ابناء مقاطعتهم الانتخابية ، وفي هذه الحالة فان معظم زعماء يهود اوروبة الشرقية يفترضون في جماهيرهم تفانيا نحو فلسطين وفلسطين وحدها

ولكنهم لم يكونوا كذلك ، الا انه من السخرية ان هرتزل نفسه وقع في خطأ الظن انهم كذلك . وعندما اجتمع ، في نيسان علم ١٩٠٤ ، بلجنة الاعمال ، قبل وفاته بقليل، أعلن انه كان في البداية ، ببساطة ، « من دعاة الدولة اليهودية » (أي صهيوني بلا صهيون يبحث عن اي ملجأ) . الا انه تعلم كثيرا : « تعلمت أولا ان اعرف اليهود وكان ذلك متعة احيانا . ولكنني تعلمت قبل كل شيء ان افهم اننا سنجد حلا لمسألتنا فــي فلسطين فقط » (١٦٠) .

ولم تكن جماهير يهود روسية ، بعد مذبحة كيشينيف ، تفكر كذلك مطلقا .

وعندما عاد زعماؤهم على مضض اثر هزيمتهم في التصويت الذي جرى في المؤتمر ، عقدوا مؤتمرا لهم في شاركوف أرسلوا بعد انتهائه انذارا نهائيا الى هرتزل يطالبونه فيه بحذف المشروع الشرق افريقي من جدول اعمال المؤتمر الصهيوني القادم . وكشفت ردة فعل هذا الانذار النهائي ان النصف الاكبر في المنظمة الصهيونية ككل يعارض قرار شاركوف . والاهم من ذلك انه تشكلت في صفوف اليهود الروس انفسهم لجان احتجاج صوتت مع ارسال لجنة الى شرقي افريقية ، واتهم مندوبو شاركوف ، في كل انحاء روسية ، « بالخيانة » و « التآمر » . وكتبت « الجويش كرونيكل » في ذلك الوقت تقول : « كان للمشروع الشرق افريقي بدون شك انصار بين اليهود الروس اكثر بكثير مما كان للصهيونية نفسها » (١٦١) .

والمدهش حقا هو ان المزراحي ، اليهود المتدينون في أوروبة الشرقية ، كانوا في معظمهم ، رغم دعائهم من أجل القدس في صلواتهم ثلاث مرات في اليوم ، يحبذون يوغنده (١٦٢) .

أما الاكثر من ذلك دهشة فهو انعكاس هذه المشادات الحادة في فلسطين نفسها ، وهي هدف النزاع كله . يقتبس كوستلر عن مؤرخ اسرائيلي رأيه بانه ، في فلسطين عام ١٩٠٣ « اصبحت العاطفة تجاه يوغنده مرتبطة بالكراهيــة الشديــدة لفلسطين ... ولم يقتصر هذا المظهر على افراد قلائل . والواقع ان افرادا قلائل هنا وهناك ، في المدن والقرى ، بقوا موالين ولم ينضموا الى الجماهير المحتجة الشاجبة ... وكل

---

١٥٩ ـــ هرتزل ، **المذكرات** ، المجلد الثالث ، ص ٤٩٥ (الطبعة الالمانية) . ولا ترد هذه الكلمات في الطبعة الانكليزية (٤ مجلدات) « الكاملة » .

١٦٠ ـــ Bein ، المصدر السابق ، ص ٤٩٦ .

١٦١ ـــ Rabinowicz ، المصدر السابق ، ص ٦٤ ـــ ٦٦ . Bein ، المصدر السابق ، ص ٤٨٠ ، ٤٨٨ .

١٦٢ ـــ وايزمن ، المصدر السابق . ص ١١٤

المعارضة ليوغنده جاءت من خارج فلسطين . ففي صهيون نفسها كانوا جميعا ضد صهيون » ويلاحظ كوستلر ان هــذا الحــادث « تغفلــه عــادة مؤلفــات تاريــخ الصهيونية » (١٦٣) ، عن ادراك تام .

ونال الزعماء الاوروبيون الشرقيون ما ارادوا على الرغم من سوءالفهموالاحتجاجات، وتقرر في المؤتمر الصهيوني السابع ، وبعد وفاة هرتزل ، ان فلسطين وحدها هي هدف الحركة ، الا ان الشرقيين ، لم يسيطروا على المنظمة الصهيونية الا في المؤتمر العاشر عام ١٩١١ .

وتخلل الفترة بعد هذا التحول استمرار النزاع حول فلسطين فحاول الغربيون الان اعاقة اعمال الاستعمار في فلسطين والتي بدأها الشرقيون ، عام ١٩٠٨ . وترك الصهيونيون بلا صهيون ، تحت زعامة اسرائيل زانغويل ، الحركــة الصهيونية كليا وشكلوا منظمة منافسة هي « المنظمة الاقليمية اليهودية » التي حاولت دون نجاح ايجاد ملجأ لليهود في أماكن متعددة مثل البيرو والاكوادور وكينية وغينية الجديــدة واسترالية .

وجاء حدث خارجي غير متوقع بالمرة رسخ المطامع الصهيونية في فلسطين بشكل ثابت ، ذلك هو الحرب العالمية الاولى التي نتج عنها انحلال الامبراطورية العثمانية .

ولكن صهيونيا بارزا واحدا على الاقل تساءل ، مع ان سنين كثيرة قد مرت بعد تلك الحرب ، عن الصلة بين الصهيونية وصهيون مستعملا الكلمات نفسها التي استعملها سمولنسكن قبله بخمس وخمسين سنة . وكتب يهودا ماجنس عام ١٩٣٠ : « انني لا اعتقد بتاتا ان الشعب اليهودي ، بدون فلسطين ، يسير في طريق الزوال او انه مكتوب له الدمار ، على العكس من ذلك فهو يزداد قوة . وهناك ثلاثة عناصر رئيسية في الحياة اليهودية : الشعب والتوراة وارض اسرائيل . وفي رايي ان الشعب والتوراة يمكنهما ان يوجدا ويكونا خلاقين كما وجدا وكانا خلاقين بدون الارض » (١٦٤) .

وفي احد الاقوال عن هرتزل زعم انه رغم كونه « جاهلا تماما بمد الفكر والشعور الذي كان ينبض من خلال يهود روسية ... جاء (هرتزل) برسالة وتعاليم اليهودي الروسي الى اليهودي الغربي ... فعلم اكثر مما عرف » .

ولقد راينا ان هرتزل اعترف علنا انه تعلم عن ضرورة فلسطين ، وان دافعه الرئيسي كان الحاجة الى ايجاد ملجأ فوري ليهود اوروبة الشرقية الذين القت بهم اللاسامية خارجا . ومن الواضح جدا ايضا ، في كتاباته العامة والخاصة ، انه عرف جيدا بــأن الشعب اليهودي لا يتحرك نحو الدولة اليهودية سواء كانت في فلسطين او في اي مكان اخر الا اذا اجبر على ذلك بواسطة اللاسامية او باغراء دعاية الحركة الصهيونية ولم يكن لدى هرتزل اوهام حول جاذبية فلسطين : فقد عرف وقال انه ليس هناك حافز يبعث الجراة والغيرية في الاندفاع نحو فلسطين حتى بين يهود اوروبة الشرقية .

قام يهودي فرنسي بتحقيق في روسية عام ١٩٠٤ فوجد ان « فلسطين ، في الحقيقة ، اجتذبتهم اقل من فكرة الهجرة » . وكان هرتزل في السنوات السابقة اقل تفاؤلا فكتب

---

١٦٣ ــ كوستلر ، Promise and Fulfilment ، ص ٣٧ ، اقتباسا عــن S. Zemach Introduction to the History of Labour Settlement in Palestine.

١٦٤ ــ ماجنس في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٤٤٤ .

في كتابه « دولة اليهود » بصراحة قاسية تقريبا : « اولئك اليائسون هـذه اللحظـة سيذهبون اولا ، توجههم الافكار المزيفة التي ننتجها بكثرة فائقة والمضطهدة فـي كل مكان ... وسيقدم المعادون للسامية الحافز ... ان قليلا من اليأس ضروري لمهمة عظيمة .. ان افقر الناس سيذهبون اولا لفلاحة التربة ... والمراتب الاعلى فالاعلى ستشعر باغراء للذهاب الى هناك ... عندما يزيد « يائسونا » قيمة الارض بوجودهم وعملهم » (١٦٥) . ويلاحظ في مذكراته بقلق ان العمل الاولي القاسي او الخطر في ارض الدولة الجديدة يمكن ان يعهد الى السكان المحليين القيام به حتى لا نروع المستوطنين اليهود الجـدد : « ان السجناء القدامى لا يحبون ان يتركوا السجن فهم يجب ان يلاطفوا » (١٦٦) . اما كلماته المفضلة حول عملية الهجرة فقد استمدها من البستنة : « سنقتلع المراكز ونأخذها الى الجانب الاخر ... ونزدرع بيئات بكاملها حيث يشعر اليهود بالراحة » ، « سنعطي اليهود وطنا ... باقتلاعهم بحذر بكل جذورهم وازدراعهم في تربة افضل » . « وعندما نرحل عن مصر مرة اخرى لن نترك الترف وراءنا » (١٦٧).

ومن الواضح ان هذا لم يكن مغامرة قومية بطولية ، فقد كان هرتزل واقعيا انذاك وتعلم عن شعبه .

ولم يعد الزعماء الصهيونيون ابطالا . فجوهر الحركة الصهيونية هو دعوة اليهود الى الخروج من اوروبة الى مكان اخر اصر اليهود الاوروبيون الشرقيون ان يكـون فلسطين . ولكن كم زعيم من اصحاب الدعوة — وجلهم اوروبيون شرقيون — قام بما ينادي به هو نفسه وجعل نفسه مثـالا للجماهير بمغادرة اوروبة والاستيطـان في فلسطين ؟ قليلون جدا فعلوا ذلك . فهؤلاء الرجال لم يواجهوا المصاعب التي واجهتها الجماهير الفقيرة وكان باستطاعتهم جميعا ان يسافروا الى فلسطين اذ كان ممكنا لهم ان يتخلصوا من قيود الهجرة كما فعل الالاف غيرهم . ومع ذلك قام هرتزل نفسه بزيارة عاجلة واحدة فقط الى فلسطين دامت عشرة ايام باستدعاء من القيصر الا انه لم يكلف نفسه ان يرى اكثر من المنطقة الواقعة بين يافا والقدس . وحتى هذا الحد لم يصله هس ولا بنسكر ولا سمولنسكن ولا نوردو ولا سركين ولا شمشتر . ويعترف وايزمن انه قام بزيارته الاولى وهو في سن الثالثة والثلاثين نتيجة تحد فقط ولكنه كان بامكانه ان يذهب بعد ذلك للغرض نفسه (١٦٨) . كان هذا موقف الاغلبية . ومن السهل فعلا ان نسجل اسماء الزعماء الصهيونيين القلائل المشهورين الذين مارسوا في فلسطين ما بشروا به عن فلسطين ، وهؤلاء هـم : بن يهودا وآحاد هاعام وبرنر وغوردون وجابوتنسكي وماجنس وبن غوربون .

لدينا هنا اذن صورة حركة فريدة من نوعها . ويزعمون انها ليست شيئا اذا لم تكن مثالية لها هدف بسيط وعملي هو رحلة قصيرة نسبيا من اوروبة الى الساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط . ولكننا عندما نتفحص اقوال واعمال الزعماء واتباعهم نجد ان افضل وصف لذلك يبدو في ابيات مككولي التالية :

---

١٦٥ — دولة اليهود ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٥٧ .
١٦٦ — المذكرات ، ص ٢٠٨
١٦٧ — المذكرات ، ص ٤١ ، ١٤٩ ، دولة اليهود ، ص ١٠١
١٦٨ — وايزمن ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

واولئك الذين في المؤخرة يهتفون « الى الامام »
واولئك الذين في المقدمة يهتفون « الى الخلف »

البدائل السياسية والانسانية

لقد اعطي كتاب هرتزل « دولة اليهود » عنوانا فرعيا هو « محاولة حل عصري للمسألة اليهودية » . وحلل هرتزل المسألة وحلها في ذهنه بكلمات بسيطة واضحة : بما ان يهود اوروبة الشرقية يخضعون للاضطهاد اللاسامي فانهم يجب ان يغادروا اوروبة الى مكان غيرها . وقد رأينا انه وقعت مشادة كبيرة حول موقع تلك الارض ورأينا ايضا انه في ذلك الوقت وبعده اعطيت اسباب قيمة لتوضيح او حجب حقيقة الهروب وهكذا ادخل على الحل البسيط الذي قدمه هرتزل تعقيد مضاعف حول الهدف والدافع.
وثمة تعقيد ثالث قبله هرتزل نفسه وكل زعيم صهيوني اخر هو : يمكن ان تكون

الصهيونية حلا جزئيا جدا للمسألة اليهودية لان جزءا صغيرا نسبيا من يهود اوروبة يريدون أو يستطيعون الذهاب الى « أرض الميعاد » انّى كانت . وعلى عكس أي حركة قومية اخرى فان زعماء الصهيونية لم يريدوا لحركتهم ان تحقق هدفها كاملا . صحيح ان سمولنسكن دعا في السنوات الاولى من حياة الصهيونية الى الجلاء الكامل عن اوروبة الشرقية وان بن غوريون يدعو اليوم الى التجمع الكامل ليهود المنفى في اسرائيل، ولكن الصهيونيين انفسهم يعلمون افضل من غيرهم بأن هذه احلام .

وصحيح ايضا ان هرتزل تحدث في الصفحات الاولى من مذكراته عن هجرة كل يهود اوروبة هجرة منظمة تحيط بها المراسيم وعن ابتهاجه « باكتشاف » فكرة الدولة اليهودية . لكنه سرعان ما كف عن احلامه عائدا الى الحقائق الواقعية عندما دون فكرته بعد شهور قلائل : « من يريد البقاء فليبق ... هل يقول الناس ... أيذهب الفقراء معنا فقط ؟ انهم الفقراء بالضبط هم الذين نحن بحاجة اليهم اولا ! ان اليائسين وحدهم هم الذين ينجحون كفاتحين » .

كان هذا قبول هرتزل علنا بحقيقة قبل بها كثيرون من اسلافه في الحركة الصهيونية ، وهي ان اليهود الاغنياء والمندمجين في اوروبة الشرقية والغربية لا يذهبون الى الدولة اليهودية وان فقراء يهود الغرب ربما لا يذهبون وان بعض ، وليس جميع ، فقراء اليهود « الشرقيين » ربما لا يذهبون .

واعترف سمولنسكن المتحمس أنه « لن يذهب جميع اليهود وانما المحرومون والمضطهدون فقط هم الذين سيبحثون عن مكان يهاجرون اليه ... يكفي ان يذهب مليون فقط من اخوتنا (البالغ عددهم عشرة ملايين) لان في ذلك راحة لهم ولاولئك الباقين في الدياسبورا (الشتات) (١٦٩) . رمى الصهيونيون من وراء هذه الحقائق الى تحقيق فضيلة ، هي فضيلة الهية ، ضرورية قائلين مع الحاخام الكلاي : « نحن مدعوون الا نحاول الذهاب الى الارض المقدسة مرة واحدة ودفعة واحدة . فمن الضروري ،

---

١٦٩ — Smolenskin في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٥١

في المقام الاول ، لكثير من اليهود ان يبقوا بعض الوقت في مناطق انتشارهم لمساعدة المستوطنين الاوائل في فلسطين الذين سيأتون بلا شك من صفوف الفقراء . ويرغب الرب ، في المقام الثاني ، في خلاصنا بكرامة ، لذلك فنحن لا نستطيع الهجرة بشكل جماعي ... » (١٧٠) .

ولبنسكر تفسير اخر اكثر ذكاء وواقعية لتردد اليهود في الذهاب الى صهيون باعداد كبيرة . فهو يقول ان الذهاب باعداد كبيرة غير ضروري حسب ما يسمى بنظرية « النقطة الحرجة » الصهيونية التي تعتبر ان اللاسامية تظهر فقط عندما تزداد نسبة اليهود بين السكان لتتجاوز نقطة معينة ، وان الرد الصهيوني على اللاسامية هو في حمل نسبة اليهود التي تفوق « النقطة الحرجة » على الهجرة ، وان هذه النسبة الفائضة ستأتي طبيعيا وبسهولة اكثر من الجماهير الفقيرة العديمة الجذور

وهكذا يقول بنسكر « اننا نستطيع ان نختلط بالامم بأقل نسب فقط ... وعليه يتوجب علينا ان ننقل **فائض** اليهود غير القابلين للاندماج ... واذا امكن توزيع اليهود بالتساوي على كل شعوب الارض يحتمل الا تبقى هناك مسألة يهودية » ان الذي نحن بحاجة اليه هو « وطن آمن لا تنتهك حرمته **لفائض** اولئك اليهود الذين يعيشون كبروليتاريين في بلدان مختلفة . ولن تكون هناك طبعا مسألة من اي نوع حول هجرة موحدة للشعب كله . ان يهود الغرب القليلي العدد نسبيا ... يمكنهم ان يبقوا حيث هم . ويمكن ان يبقى الاغنياء ايضا حتى حيث لا يعامل اليهود بتسامح ... ان هذا الفائض هو الذي يجلب المصير المشؤوم للشعب كله . الان هو الوقت المناسب لخلق ملجأ لهذا الفائض » (١٧١) .

واذا اعتبرنا عدم اطلاع هرتزل على كتابات بنسكر لبدا الشبه فوق العادة بين افكارهم حول هذا الموضوع اذ استعملا كلمة « فائض » التي اكد عليها هرتزل دوما وكتبها بالانكليزية Surplus في مخطوطة مذكراته المكتوبة بالالمانية .

ومهما يكن فقد اضاف هرتزل مع ذلك نظرية اخرى هي احتمال عدم قدرة اليهود على التحرك . وزعم هرتزل بانه ليست جميع الدول الاوروبية تسمح ليهودها بالذهاب بسبب الاثر السيء الذي قد يتركه ذلك على اقتصادها . واذا نظرنا في اتجاه الراي الاوروبي في ذلك الحين لبدا لنا هذا غير محتمل ولكن هرتزل يستعملها كمبرر لاستعماله كلمة « فائض » الكريهة نوعا ما : « يجب علينا ان نستعمل كلمة « فائض » والا لن يسمحوا (الحكومات الاوروبية) لنا بالقيام بالدعاية ومغادرة البلاد » ويقول بتفاؤل اكثر : « سيتخلى كل بلد عن عدد من اليهود يستطيع الاستغناء عنه . وستتوقف عملية التهجير في كل بلد مع انتهاء اللاسامية نفسها » . وبقيت الفكرة الاساسية حول كيفية « تصريف الفائض » قائمة : « ولا يمكن بأية حال ان يهاجر جميع اليهود الى فلسطين من روسية اكثر من اي بلد اخر ، باستثناء **فائض** من البروليتاريين واليائسين فقط ... يساعدهم اخوانهم اليهود الاغنياء » (١٧٢) .

---

١٧٠ — Alkalai في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٠٥ .
١٧١ — بنسكر ، **التحرر الذاتي** ، ص ٣١ — ٣٦ .
١٧٢ — **المذكرات** ، ص ٥١ ، ٣٣٦ ، ٦٧٠ ، ٧٨٣ .

وكرر جميع الكتاب الصهيونيين اللاحقين تقريبا فكرة نوردو « ان الهجـــرة الجماعية غير ممكنة ، والصهيونية لا تطالب بها ولا تتوقعها » (١٧٣) .
ولكن ، مع نهاية الربع الاول من هذا القرن ، برزت امام اليهود مسألة جديدة نتيجة للحل الجزئي نفسه الذي قدمته الصهيونية للمسألة اليهودية ، فصار عليهم مواجهتها .
وبينما اعترف الصهيوني السويسري فلغ ، عام ١٩٢٧ ، ان الصهيونية لم تتضمن « عودة جميع اليهود الى فلسطين ، وهذا غير عملي حسابيا » ، شعر في الوقت نفسه انها « معجزة » ان يصبح هناك « ثلاثة ملايين يهودي يتحدثون العبرية ويحيونها على تربة عبرية !! » (لاحظ الزيادة على ارقام سمولنسكن الذي قال بأن مليونا من عشرة ملايين سيهاجرون) . ولكنه يتساءل : « بالنسبة للاثنـــي عشر مليـــون يهودي الذين سيبقون مشتتين في سائر انحاء العالم ، بالنسبة لي ولهم ، يبقى السؤال المأساوي : ما هي اليهودية ؟ . . . كيف نكون يهودا ؟ لماذا نكون يهودا ؟ » (١٧٤) .
ولو رجع فلغ الى كتابات آحاد هاعام الاولى لكان ذلك افضل لان آحاد هاعام رأى مسبقا كل المسائل الروحية والعملية التي اثارها برنامج « الصهيونية السياسية » اشار آحاد هاعام ، في نقد مباشر للمؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ ، الى انه بسبب الزيادة الطبيعية « لن ينقص ، باية حال ، عدد اولئك المتبقين خارج فلسطين » (فقد ازداد عدد يهود اوروبة اربعة اضعاف خلال القرن التاسع عشر على الرغم من الهجرة الهائلة الى اميركة) . ولذلك يتساءل آحاد هاعام : « اذا كانت الدولة اليهودية لا تعني « تجمعا للمنفيين » وانما مستوطنة لجزء صغير من شعبنا في فلسطين ، فكيف ستحل هذه الدولة المسألة المادية للجماهير اليهودية في الشتات ؟ . . . لن تنتهي المسألة بخلق الدولة اليهودية ، وحل المسألة مرة والى الابد يفوق قدرتنا » (١٧٥) . وانتقـــل آحاد هاعام بعد ذلك ، عام ١٩٠٢ ، الى مخاطر فكرة التهجير : هل في مقدورنا ان نخفض عدد اليهود في كل بلد الى الحد الاقصى بحيث تتحمل ذلك حالة البلد الاقتصادية دون اثارة اللاسامية ؟ » واشار الى هذا بقوله ان هذا هو « عقب اخيـــل الصهيونيـــة السياسية » (١٧٦) . لقد كانت هذه ولا تزال نقطة ضعف قاتلة للنظرية الصهيونية ان لم يكن للممارسة الصهيونية . فبعد اربعة عشر عاما صرح وايزمن بالاعتراف التشاؤمي التالي : « ان تجميع كل اليهود مع بعضهم بعضا في مكان واحد مستحيل بكل وضوح حتى وان كان مرغوبا فيه . ان ملايين اليهود في اوروبة الشرقية لا يمكن نقلهم الى ارض يهودية بالتلويح بعصى سحرية ، واي هجرة تدريجية سيوازيها بالمقابل النمو الطبيعي للسكان . يجب ان نسوي المسائل السياسية والاقتصادية ليهود اوروبة الشرقية ، او لغالبيتهم ، في البلدان التي يعيشون فيها » .
ما هو اذن موضوع الصهيونية ؟ من اجل ماذا تكافح ؟
يجيب وايزمن عن عمد بدوران واسهاب لانه جعل موضوع « التجميـــع » خـــارج نطاق البحث : « وطن للشعب اليهودي . . . حيث ينتجون نمطا من الحياة يوافـــق

---

١٧٣ ــ Ben Horin ، المصدر السابق ، ص ١٩٤
١٧٤ ــ Fleg في هرتزبرغ ، ص ٤٨٢ ــ ٤٨٣ .
١٧٥ ــ احاد هاعام في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ ــ ٢٦٤ .
١٧٦ ــ احاد هاعام ، **بنسكر والصهيونية السياسية** ، في بنسكر ، المصدر السابق ، ص ٤٩ .

شخصية ومثل الشعب اليهودي ... المركز القومي ... مصدر كل ما هو يهودي في جوهره الى أقصى حد .. هناك سيعبر العقل اليهودي والشخصية اليهودية عننفسيهما كما لا يستطيعان في اي مكان اخر » (١٧٧) .

ليست هذه كلمات غامضة فحسب فهي تشبه كثيرا على ما يبدو ما نادى به ودافع عنه آحاد هاعام الذي ضاق به وايزمن ذرعا .

وجواب آحاد هاعام نفسه على اسئلته يقول انه يجب على الصهيونية الا تحاول حل المسألة اليهودية باقامة دولة سياسية فحسب وانما باقامة دولة تكون ، نوعا ما ، مركزا ثقافيا — روحيا . وبعد خمس سنوات توصل اينشتاين الى النتيجة نفسها تقريبا : « لن تحل فلسطين المسألة اليهودية ولكن تطويرها سيعني احياء روح الشعب اليهودي » .

واعتبر احد مشاهير دعاة الصهيونية الروحية المتأخرين هذه الافكار غير كافية . واعلن يهودا ماجنس ، في العام ١٩٣٠ ، بشكل قاطع : « لا تستطيع فلسطين حل المسألة اليهودية للشعب اليهودي . فحيثما يوجد يهود توجد المسألة اليهودية . انه جزء من المصير اليهودي ان يواجه اليهود هذه المسألة ويجعلونها تعني شيئا جيدا للانسانية » (١٧٨) .

لدينا هنا احدى الخصوصيات المعقدة الكثيرة التي ميزت الحركة الصهيونية كحركة سياسية . فقد زعم مؤسسوها ان هدفها ، على وجه الخصوص ، هو حل مسألة انسانية مأساوية وملحة هي انفصال يهود اوروبة الذي ادى الى الاضطهاد المعادي للسامية . ومع ذلك فان كثيرا من هؤلاء الزعماء صرح منذ البداية ان باستطاعة الصهيونية تقديم حل جزئي فقط . والحلول الجزئية طبعا افضل من لا شيء ، لكن بعض الصهيونيين رأوا مسبقا انها لا تكفي على الاطلاق . والحقيقة ان دولة اسرائيل لم تعط اجوبة على المسألة اليهودية لا ماديا ولا عاطفيا .

وهذا الغموض التشاؤمي في الاهداف الصهيونية هو ايضا عامل اضافي يميز الصهيونية عن الحركات القومية الافرو — آسيوية . فالاستقلال كان هدف هذه الحركات فولد هذا الهدف مشكلاته الخاصة . الا ان الزعماء القوميين لم يعتقدوا ، ابان انشغالهم في النضال ، بأن الحركة في حد ذاتها يمكن ان تكون فاشلة جزئيا او كليا فقط ، وبانها يحتمل الا تحقق اهدافها وتبقى دائما غير تامة ، لان ذلك يكون خيانة لاتباعهم .

والصهيونية كحركة تقوم على اساس مثال انساني سام كان يحركها ايضا دافع الربح بشكل غريب . فقد توسل الزعماء الصهيونيون بصراحة تامة دعم يهود الطبقتين العليا والمتوسطة على اساس ان الدولة اليهودية استثمار رابح . ووفقا للتحليل الماركسي فان توق البرجوازية الوطنية للربح هو القوة الدافعة لكل حركات التحرر الوطني . ولكن الزعماء القوميين الآسيويين لم يقولوا لاتباعهم صراحة ان عليهم الانضمام الى الحركة القومية من اجل الربح ، وربما تم لهم ذلك من خلال خداع الذات او الكتمان البارع . اما الصهيونيون ففعلوا ، واصبحت الارض المقدسة ذاتها مشروعا

---

١٧٧ — وايزمن ، مقدمة الصهيونية والمسألة اليهودية ، تحرير Sacher ، لندن ١٩١٦

١٧٨ — ماجنس في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٤٤٤ . اينشتاين ، المصدر السابق ، ص ٣٦ .

تجاريا ناجحا . واشار بنسكر الى فوائد المشاركة الفورية في الحركة الصهيونية لانه اذا وقع الاختيار على فلسطين كموقع للدولة اليهودية فان سعر الارض سيزداد . وتحدث سمولنسكن في صالح فلسطين لانها يمكن ان تصبح « مركزا تجاريا يربط اوروبة بآسية وافريقية » ويمكنها ايضا ان تكون موقعا لمعامل الزجاج « لان رمال البلاد من نوع رفيع » (١٧٩) . وحاول هرتزل متعمدا ان يستخدم ، في كتاباته ، الفطنة التجارية عند شعبه في صالح البرنامج الصهيوني . وكانت « الشركة اليهودية » تمثل السلطة التنفيذية للحركة كما كانت عبارة عن « مشروع تجاري تماما » هدفها « سحب ارباح طائلة » من مشاريعها . وبدت اجزاء من كتاب « دولة اليهود » وكأنها بيان قومي الا ان النصف الاخير من الكتاب في معظمه عبارة عن نشرة تمهيدية لشركة تصف فيها مشاريعها . وقد استثار الزعماء الصهيونيون ايضا حافز الربح عند الافراد الذين يؤيدون الحركة . « لن نخسر ممتلكاتنا التي اكتسبناها ، بل سنحولها الى نقد . سيرحل فقط اولئك الذين هم متأكدون انهم بذلك يحسنون مركزهم » ، « وان الخروج سيكون في الوقت نفسه ارتقاء طبقيا » . ورأى هرتزل مسبقا انه من خلال الحركة الصهيونية قد ينتج خطر ان « ينشىء اليهود المعتدلو الغنى مشروعا تجاريا كبيرا وجديدا ، وقد تنسى الهجرة اليهودية » (١٨٠) .

واصبحت معظم مظاهر الحذر وغياب الاستثارة في الصهيونية ــ استغلالها العاطفة الدينية ، استفادتها واعتمادها على اللاسامية والضرب على وتر حب المال ــ اجزاء منها عندما استولت « الصهيونية القومية السياسية » على الحركة ؛ وهذه عملية ابتدأت في السنة الاخيرة من حياة هرتزل وتمت في العام ١٩١١ .

وقد تقرر نهائيا في العام ١٩٠٥ ان فلسطين يجب ان تكون الهدف الاقليمي للحركة الصهيونية . ولكن حتى العام ١٩١١ ، عندما ازيح الهرتزليون عن الزعامة ، لم يكن قد اتضح بعد نوع المؤسسة اليهودية التي ستقام في فلسطين : هل ستكون حضارية ام سياسية ، وقد فضل النوع الثاني في العام ١٩١١ .

هناك نوعان آخران من الصهيونية يقلان عن غيرهما اشمئزازا : خيري وانساني . وقد وضعت الصهيونية القومية السياسية النوع الاول جانبا وامتصت الثاني . وقد وجدت الصهيونية الخيرية عبر العصور على شكل « حلوكة » ، وهي الصدقة التي يدفعها اليهود في الكنيس للمتدينين الذين يريدون الهجرة الى الاراضي المقدسة والموت هناك . وما التبرعات التي قدمها بارون هيرش للمستعمرات اليهودية في الارجنتين وتبرعات بارون ادمون روتشيلد للمستعمرات المشابهة في فلسطين الا مجرد امثلة عظيمة على الصهيونية الخيرية .

وأفضل مثالين على الصهيونية الانسانية هما بنسكر وهرتزل في الفترة الاولى من عملهما الصهيوني عندما كانا لا يزالان صهيونيين بلا صهيون . وصحيح ايضا ان هرتزل فكر بدولة بكل ما في مفهوم الدولة من معنى ولكن هذا كان ثانويا بالنسبة للهدف الرئيسي وهو ايجاد مأوى للاجئين بسرعة . وفي سبيل الحصول على هذا ، وعلى الرغم من

---

١٧٩ ــ بنسكر ، المصدر السابق ، ص ٤٠ ، Smolenskin في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

١٨٠ ــ دولة اليهود ، ص ٣٠ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ٨٥ .

تنظيرهما ، فان بنسكر وهرتزل كانـــا مستعدين لقبول أرض في اي مكان وتحت اية شروط .

وبعد العام ١٩١١ وخلال سنوات الحرب والمناقشات التي أدت الى تصريح بلفور عام ١٩١٧ ، سيطرت الصهيونية القومية على الحركة .

واستمر ذلك الوضع خلال فترة الانتداب على فلسطين وحتى العام ١٩٣٢ ، على الرغم من أن الصهيونيين السياسيين حافظوا على اهدافهم القومية تحت ستار مفهوم « الوطن القومي » .

واستطاعت الصهيونية أن تركز على السياسة القومية من العام ١٩١١ الى العام ١٩٣٢ لانه لم تكن هناك حاجة عظيمة للاعمال الخيرية أو للمشاعر الانسانية بسبب عدم حدوث عملياتٍ طرد معادية للسامية على نطاق واسع في أوروبة . وخلال فترة العشرين سنة هذه دخل فلسطين حوالي مئة الف يهودي . وبلغ عدد أعضاء المنظمة الصهيونية مئتي الف عضو في العام ١٩١٦ .

بعد العام ١٩٣٢ وحتى خلق اسرائيل في العام ١٩٤٨ وضع الصهيونيون السياسيون موضوع الانسانية مرة ثانية في مقدمة الحركة الصهيونية وذلك في سبيل تعزيز حججهم القومية : الدولة اليهودية ضرورية لتكون وطنا للاجئين الهاربين من النازية .

بقيت هذه هي القضية للسنوات الثلاث أو الاربع الاولى من وجود اسرائيل ، ولكن منذ أوائل الخمسينات وخاصة بعد حرب الخامس مـــن حزيران ١٩٦٧ صار هدف الصهيونية الرئيسي والوحيد تقريبا هدفا سياسيا هو الحفاظ على الدولة القومية فـــي اسرائيل من خلال الدعم المالي والضغط الدبلوماسي والدعاية . أما التأرجح بين مختلف المدارس الفكرية والعملية داخل الحركة الصهيونية فقد انتهى بالنصر النهائي للقوميين .

ان التفسيرات المتتالية لحركة ما يمكن أن تكون أحيانا مساوية في الاهمية بل وربما أكثر أهمية من الهدف الاصلي للحركة ، ذلك أن هذه القشور من الممكن أن تجعل معركة الاصل غير ممكنة .

بدأت عملية التحول التفسيري هذه في الحركة الصهيونية في وقت مبكر جدا ولا تزال مستمرة جاعلة الاصول اللاسامية في الحركة غامضة في حين أنها تلقي ضوءا قويا على المظاهر « القومية » .

لقد صدر عن الصهيونيين عدد كبير من الكتب والمقالات والخطب يناقشون فيهـــا القضية الصهيونية كحركة قومية ، مولدة بذلك جوا عنيفا أدى في حد ذاته الى الشك في حاجة الصهيونيين ليس فقط الى اقناع الاخرين بل الى اقناع انفسهم بحقيقة نظريتهم .

وقد رأينا مرارا ان الصهيونية طرحت كقومية عن طريق ربطها بالشعب « القومي »، اليهودي أو بالديانة « القومية » اليهودية .

ويلاحظ التأكيد على المظهر القومي بشكل خاص خلال وبعد الحرب العالمية الاولى حينما لعب مبدأ القومية دورا كبيرا جـــدا ضمت قائمة المحتويات في كتاب حول الصهيونية ، صدر عام ١٩١٦ ، فيما ضمته عناوين الفصول التالية : احـــدى الامم الصغيرة ، اسرائيل أمة ، الصهيونية وبعث القومية في أوروبة ، اليهود امة ، انكلترة

وحركة القومية اليهودية «١٨١» .

وبما ان الصهيونيين الاوائل لم يخفوا حقيقة ان دافع الصهيونية ، على الصعيدين الشخصي والعام ، يكمن في اللاسامية فان نفي وانكار الاصول اللاسامية ببساطة لا يكفي، فقد كان من الضروري حجب هذه الاصول بالمناقشات العديدة تدريجيا.

وهكذا بينما يعترف حتى اينشتاين بأن الصهيونية برزت « من حقيقة المعاناةاليهودية» (أي اللا سامية) فانه يؤكد أيضا أنها برزت « حتى من دافع أعمق من المعاناة اليهودية . فهي متأصلة في التعاليم الروحية اليهودية » (١٨٢) . وطرحت الصهيونية أيضا كنوع من التجسيد الاسمى للاسامية . وهكذا يقول ايبان في العام ١٩٣٢ : « الى اي حد تواجه الصهيونية التحدي اللاسامي ؟ ... وعلى الرغم من أن اللاسامية كانت حافزها أصلا فقد عاشت الصهيونية الى ما بعد الدافع الخيري لبرنامجها . » ثم تاتي المطابقة بين الصهيونية وحركة قومية آسيوية مشهورة « لناخذ مثلا متعلقا بالموضوع — القوميون الهنود يرغبون في الحصول على حريتهم لان الامبريالية تبقيهم يعانون آلام الخضوع ولكن رغبتهم في الاستقلال لا تقل اذا عاملتهم الحكومة الامبريالية باكثر مما يتصور من اللطف والتسامح . وعلى سبيل المشابهة فان مأساة اليهود الفعلية في الشتات تعزز لكنها لا تولد ضرورة الصهيونية » (١٨٣) .

وضمن هذا التحول العام عن اللاسامية تتضح ايضا أهمية تأثير احداث معينة ، معادية للسامية ، على الحركة الصهيونية بشكل حاسم . وهكذا : « يقال باستمرار ان المذابح وعمليات الاضطهاد في الفترة ١٨٨٠ — ١٨٨١ شكلت نقطة تحول في الفكر اليهودي الروسي ، ولكن كل الذي انجزوه هو بلورة وتوضيح الافكار » (١٨٤) .

وقد أهملت كلمات هرتزل حول أهمية قضية دريفوس المعادية للسامية في تحوله الى الصهيونية ، وقلل من أهميتها : « كان هرتزل يبالغ عندما يقول بأن قضية دريفوس جلعته صهيونيا » ، « والرأي الذي يؤخذ به هو أن اللاسامية كانت سبب قول هرتزل بالصهيونية . وهذا صحيح تماما لكنه عامل خارجي فقط وليس الدافع الداخلي » (١٨٥).

ولا يفيد نوردو شيئا قوله ، وقد تأثر بعمق بقضية دريفوس أيضا : « فتحت اللاسامية عيني على العودة الى يهوديتي المنسية » ، ذلك لان الفصل الذي يضم هذه الكلمات في سيرته الرسمية عبارة عن نقاش طويل واحد هو ان تحول نوردو الى الصهيونية لم يكن ردة فعل مفاجئة للاسامية (١٨٦) . ونجد التقليل ذاته من اهمية الدافع اللاسامي في سيرة جابوتنسكي الرسمية أيضا (١٨٧) .

وأخيرا نجد ان التأليف ما بين الطريحة اللاسامية والنقيضة « القومية » منظرا صهيونيا عصريا يقول : « لم تكن اللاسامية ولا القومية في حد ذاتهما شرطان للصهيونية

---

١٨١ — **الصهيونية : مشاكل وآراء** ، تحرير فودمان ولويس ، لندن ، ١٩١٦

١٨٢ — اينشتاين ، المصدر السابق ، ص ٥٦ — ٥٨ .

١٨٣ — ايبان في Afterword في بنسكر ، المصدر السابق ، ص ٨١ — ٨٢ .

١٨٤ — Sacher ، **الصهيونية والمستقبل اليهودي** ، ص ٥٦

١٨٥ — Backdrop to Tragedy, D. M. Stamler ، بوسطن، ١٩٥٧ ، ص ١٤٨ ، Klatzkin في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٣٢٦ .

١٨٦ — Ben Horin ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ ، ١٧٧ ، والفصل الخامس .

١٨٧ شكتمان ، المصدر السابق .

المعاصرة » (١٨٨) .

ان حيرة الصهيونيين حول الاصول اللاسامية لحركتهم يمكن فهمها بسهولة فاسرائيل تزعم ، من جهة ، انها دولة قومية وهي لذلك ستبدو غريبة اذا كانت ، على غير ما هي عليه الدول القومية الاخرى ، نتاج أي شيء آخر غير حركة قومية . ومن جهة اخرى ، فان حافز ردة فعل للعداء للسامية يبدو مجرد استجابة لقوة خارجية وليس لشيء أصيل ينبع من داخل « الشعب اليهودي » ، ويمكن تفسيرها أيضا بفظاظة كنوع من الهروب .

ولكن القومية كانت لقرن خلا جزءا من روح العصر وكانت الشعارات القومية جزءا من العملة اللفظية لتلك الفترة ولم يستطع الصهيونيون الا أن يتمشوا مع الانماط السياسية السائدة بتقديم حركتهم على أنها جزء من المد القومي الذي غطى العالـم .

هناك سبب أيضا اكثر عملية . كان من الممكن أن يقال للناس الذين كانوا مجرد لاجئين نتيجة العداء للسامية انهم ليسوا بحاجة الـى دولة خاصة بهم اذا اعتبر اليهود قومية فان هذا يعطيهم « حق المطالبة بحقهم ، الذي لا ينتقل الى غيرهم ، في تقرير المصير » (١٨٩) . وتصبح بهذا اسسها الثبوتية ذات قيمة كبيرة جدا

ومع ان أسباب اعادة تفسير أصول الصهيونية ممكنة الفهم الا أنه يبقى هناك شك فيما يتعلق بمعارضة المنظرين الصهيونيين قبول أصل بسيط لحركتهم ولدولة اسرائيل هو مسألة اللاجئين . ومع ذلك فان الولايات المتحدة خلقت بأيدي لاجئين ، وقد قال بعض الكتاب الصهيونيين ان المقارنة مع « الماي فلور » May Flower والآباء الحجاج Pilgrim Fathers ممكنة . واسترالية لا تخجل اليوم بأصولها كمستعمرة للعقوبات .

وربما نجد سبب الحيرة الصهيونية في مزاعمها ، التي ترتكز على الميثاق التوراتي، والتي تطالب فيها بالقيام بدور تربوي خاص وبأداء رسالة خلاصية في العالم — أي نورا تنير به غير اليهود . ان الفجوة بين هذه المزاعم الكبيرة ودولة اسرائيل ربما تبدو واسعة بشكل مخيف . وهذا هو سبب اعادة التفسيرات .

ان تفحص دوافع وأصول الحركة الصهيونية يبين أنها : حركة متغربة يتزعمها يهود اوروبيون شرقيون لا ادريون كـانوا يبحثون عن ملجأ للشعب اليهودي يحميهم مـن الاضطهاد المعادي للسامية ، ثم ركزوا بعد مشادات كثيرة على صهيون هدفا لهم في استعمار فلسطين بسبب ارتباطها ارتباطا يتمشى ومصالحهم بالعاطفة الدينية التي كانوا يفتقدونها ولانه لم يكن في متناولهم اي اقليم آخر .

ومهما بلغت اعادة التفسير فانها لا تعطي حركة من هذا النوع قالبـا قوميا فالحركة الصهيونية ليست قومية وهي تختلف تماما عن الحركة التي خلقت دول العالم الثالث الافرو — آسيوية .

---

١٨٨ — هرتزبرغ في مقدمته ، المصدر السابق ، ص ٢٨

١٨٩ — هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٨

الفصل الثالث

النشاط الصهيوني

الفروقات بين الحركات القومية الافرو ــ آسيوية والحركة الصهيونية

ربما يكون من الخطأ اعتبار الصهيونية ، كنظام فكري وبرنامج عمل ، حركة قومية لان الاطار النظري المعقد الذي ضرب حولها يلعب دورا تمويهيا فعالا

ولا يمكن ابدا ان يحسب اي مراقب مطلع على مبادىء واساليب الحركات القومية من اجل التحرر من الاحتلال الاستعماري ان الصهيونية في عملها حركة قومية .

وكانت الحركات الافرو ــ آسيوية معادية للاستعمار وموجهة ضد الدول الغربية . اما الصهيونية فكانت في عملها على عكس ذلك تماما ــ كانت استعمارية وعملت على حماية القوى الاوروبية .

ومن الواضح ان الصهيونية لم تستطع استخدام الاساليب نفسها التي استعملها القوميون الافرو ــ آسيويون بسبب انتشار اليهود وتوزعهم في أرض الشتات . فلا نجد في الصهيونية ، لافتقارها الى قاعدة اقليمية خاصة بها ، ذلك الانتقال من المطالبة المهذبة بالحكم الذاتي الى المطالبة بدومنيون أو بوضع مرتبط ينتهي باعلان الاستقلال (او من وجهة النظر الاستعمارية ، انتقال من المعارضة الى الهياج فالتمرد) . ولا نجد في التاريخ الصهيوني المراحل المتتالية من الاجتماعات العامة المنظمة واتخاذها مقررات ، تليها بعد ذلك المواكب ، ففرض الاقامة الجبرية والنفي ، واخيرا التخريب والسجن .

ومن المؤهلات الضرورية للزعيم القومي الافرو ــ آسيوي ان يكون قد سجن او على الاقل نفي بسبب النضال ضد الاستعمار . اما بين الزعماء الصهيونيين فقليلون جدا سجنوا او كان هناك ضرورة لسجنهم .

وكان على الحركة القومية الافرو ــ آسيوية ان تصبح حركة جماهيرية في سبيل نجاحها في وجه قوة الحكام المسلحة بقوة الشعب غير المسلح وحدها او لجعل الشعب الخلفية الوقائية للمقاتلين من اجل الحرية   اما الصهيونية فلم تستطع جعل يهود الشتات يلعبون دورهم كاملا خوفا من اثارة ردات فعل لا سامية بين الغالبية المحيطة بهم . واعتمد الصهيونيون بدل ذلك على حلفاء خارجيين مثل بريطانية والولايات المتحدة ، وركزوا على التأثير عليهم من خلال المقابلات المقنعة والاتصالات الحكيمة وجمع المساعدات المالية والحملات الدعائية وضغط الجماعات المنظمة تنظيما جيدا التي كان تأثيرها يفوق نسبة الدعم الفعلي من يهود الشتات .

وكانت هذه الاختلافات نتيجة حتمية لحقيقة ان الافرو ــ آسيويين كانوا يحاولون طرد الحكام الاجانب من اراضيهم في حين ان الصهيونيين كانوا يحاولون كسب موطىء

تدم في بلد آخر سيطردون منه السكان الاصليين بالقوة او بالاقناع .
ونجح الصهيونيون طبعا في تحقيق هذا الهدف . اما الحقيقة المادية لما حدث في فلسطين فهي ان ما كان تحت حكم العثمانيين والبريطانيين غالبية عربية واقلية يهودية تحول الى غالبية يهودية واقلية عربية تحت حكم دولة يهودية . تمثل هذه السيطرة المادية الفعلية الصهيونية على فلسطين انه عمل رائع ولكنه الاستعمار في ابسط اشكاله واكثرها مباشرة ووحشية .
وليست الصهيونية استعمارية فحسب ولكنها بالتحديد شكل من أشكال الاستعمار الغربي الاوروبي . وليس سبب هذا فقط لان جميع الصهيونيين كانوا اوروبيين ، بل لانهم كانوا جزءا من الحركة الاستعمارية الغربية العامة ولانهم كانوا غربيين في تفكيرهم وشعورهم حول موضوع الاستعمار .
وكان الصهيونيون ايضا حلفاء مباشرين ، او على الاقل شركاء صغار ، للقوى الاستعمارية الغربية . وكان الزعماء الصهيونيون يبحثون عن اقليم للاجئين من اوروبة بسبب اللاسامية ، ومن الواضح انه لم يكن في متناولهم اقليم كهذا في اوروبة لان دولة اوروبية واحدة لا تعطي اي جزء من ارضها لليهود . ولم يتساءل الصهيونيون ابدا عن سبب هذا الرفض الاوروبي . كان ذلك الاساس غير المعلن لاتفاق ضمني بين هؤلاء الاوروبيين والصهيونيين والاميين الذين عملوا معا لايجاد اقاليم بديلة في اي مكان خارج اوروبة. وعندما اقترح الملك بن سعود على روزفلت في العام ١٩٤٥ ان يعطى اليهود مقابل ما عانوه قطعة من الارض الالمانية اتهمه روزفلت بعدم المساعدة . وكان هدف الصهيونيين استعماريا ووسيلتهم مؤيدة للاستعمار .
وقامت ايام هرتزل محاولات كثيرة باءت بالفشل للتعاون بين الصهيونيين وبضع حكومات اوروبية لايجاد اقليم للصهيونيين في فلسطين وسيناء ويوغنده
وايام وايزمن نجح التعاون بين الصهيونية والحكومة البريطانية التي فتحت ابواب فلسطين من خلال وعد بلفور الذي اصبح سياسة عملية بعد ان هــزمت بريطانية الامبراطورية العثمانية عسكريا .
واستمر التعاون الصهيوني ــ البريطاني خلال فترة الانتداب . وتعهدت الادارة البريطانية بخلق الظروف ــ ضد المقاومة العربية ان كان هذا ضروريا ــ التي تسمح لليهود بدخول فلسطين باعداد تجعلهم في آخر الامر يصبحون الغالبية ويسيطرون على البلاد .
ولم يبدأ الصهيونيون نضالهم المسلح ضد البريطانيين الا بعد الحرب العالمية الثانية وفقط عندما لم يسمح البريطانيون بالهجرة بالسرعة التي طلبها الصهيونيون . ولكن هذا النضال اختلف كثيرا عن النضال المعادي للاستعمار . فنضالهم لم يكن من اجل الاستقلال القومي للغالبية الاصلية (العرب) بل لوقف هذا واقامة الدولة اليهودية في النهاية مكان الحكم البريطاني . وكان نضال اليهود نضال « المستوطنين » الخائفين من ان يخونهم في النهاية حماتهم الامبرياليون ، وكان نضالهم اشبه ما يكــون بثورات الجزائريين الفرنسيين والروديسيين في وقت لاحق لكنه لم يشبه بأي شكل نضال الحركات الاستقلالية الافرو ــ آسيوية .
وعندما نتفحص الافتراضات الاساسية للزعماء الصهيونيين ، خصوصا افتراضات

شخص مثل هرتزل ، حول مسألة الحصول على اقليم غير اوروبي نجد المدى الكبير الذي يشارك فيه هؤلاء الصهيونيون المستعمرين الاوروبيين في نظرتهم الذهنية وفي اتجاهاتهم العاطفية .

ولم يكن مفر من ان تصبح لغة الصهيونية اليومية « عرضة للتعابير الاستعمارية التي تخللتها (١) » ولكن ربما لا يجب ان نتحدث باسهاب عن حقيقة ان الصهيونيين تحدثوا عن « المستعمرات » وعن « اعتماد استعماري يهودي »و « دائرة استعمار ». كانت هذه مجرد تعبيرات لفظية عن عقلية استعمارية شارك فيها الصهيونيون ، بدون تفكير تقريبا ، الاوروبيين في تلك الايام .

وهذه الافتراضات الصهيونية الاستعمارية الاساسية هي التالية ان اوروبة وامريكة الشمالية تمثلان المدنية وان بقية العالم تمثل البربرية ، وان اوروبة ، بناء على ذلك، لها رسالة تمدينية تنفذها باستعمار تلك الظلمة الخارجية، وانجميع المناطق غير الاوروبية كانت متاحة للاستغلال او الاستيطان وان سكانها يجب ان يكونوا ممتنين لكون اراضيهم اهدافا للاستيلاء او الشراء او التبادل .

واعظم التعابير دهشة عن هذا الاتجاه الاساسي هو ذلك الذي اعطاه هرتزل في كتابه « دولة اليهود » « لنفترض ان صاحب الجلالة السلطان اعطانا فلسطين فاننا نستطيع مقابل ذلك ان نأخذ تدبير جميع الموارد المالية لتركية على عاتقنا . ويجب ان نشكل هناك جزءا من الحصن الاوروبي في وجه آسية ، اي ان نكون مركزا متقدما للمدنية في مواجهة البربرية . ويجب ان نبقى ، كدولة محايدة ، على اتصال بكل اوروبة التي ستكون ملزمة بضمان وجودنا (٢) . » وهنا نسأل : لماذا يقول هرتزل : « ستكون ملزمة » ؟ يحتمل ان يكون ذلك مقابل الخدمات التي تقدمها الدولة اليهودية كمدافعة عن اوروبة ضد « البربرية » الآسيوية .

وكتب هرتزل في « المذكرات » بمثل ذلك النفس : « وبسماحه بدخول اليهود سيفسح السلطان مجالا امام نهر من الذهب والتقدم والحيوية ليصب في امبراطوريته (٣) » ويقول في خطابه امام المؤتمر الصهيوني الاول « سيكون في صالح الامم المتمدنة والمدنية بشكل عام اكثر فاكثر ان تقوم محطة حضارية على اقرب طريق الى آسية . فلسطين هي هذه المحطة ونحن اليهود حملة الحضارة المستعدون ان نعطي ملكنا وحياتنا من اجل خلقها (٤) . »

ويوجد الاصرار نفسه على الرسالة التمدينية في قوله : « سنبقى جزءا من المدنية ونحن على طريق الهجرة . ومع ذلك فنحن لا نريد دولة من طراز دولة « البوير » ولكن منطراز مدينة البندقية (٥) . » ويحتمل ان يكون هذا سبب اصراره الغريب على انيلبس اليهود ، عندما يهاجرون ، اللباس الرسمي مثلما يفعل الانكليزي النموذجي في المراكز

---

١ ــ فايز صايغ ، « صهيونية السيد أبا ايبان اللااستعمارية » ، ميدل ايست فورم ، المجلد ٦٢ ، ٤ ص ٤٣ ــ ٧٤ .
٢ ــ هرتزل ، دولةاليهود ، ص ٣٠ .
٣ ــ المذكرات ، ص ٢١٣ .
٤ ــ هرتزل ، خطب المؤتمر ، نيويورك ، ١٩١٧ ، ص ٢٤ .
٥ ــ المذكرلت ، ص ٢١٣

المتقدمة من الامبراطورية « ليترك في نفوس السكان المحليين اثرا قويا (٦) . »

وشعر هرتزل انه كان جزءا من مدنية غربية متفوقة ليس في وجه آسيا فقط ولكن في وجه يهود اوروبة الشرقية المتاخرين ايضا : « ان عودة اليهود شبه الآسيويين بزعامة اشخاص عصريين تماما يجب ان تعني ، بدون شك ، اعادة هذه الزاوية من الشرق الى حالتها السليمة . وستجلب اليها المدنية والنظام . وهكذا فان هجرة اليهود ستكون في النهاية عبارة عن حماية فعلية للمسيحيين في الشرق (٧) . »

تظهر الملاحظات المرتجلة في معظم الاحيان اشياء كثيرة ، مثل التعليق الهرتزلي التالي : « الشرق مسل دوما » او قبوله الزعم بأن « كل انسان يخاف كل انسان آخر في الشرق . وكان الشعب حيوان شرس يطلق له العنان ويمكن توجيهه في اي اتجاه ايضا (٨) . »

ويظهر افتراض هرتزل التفوق الاوروبي ، والذي تشارك فيه الصهيونية ، في الحملة التالية : « تتحدث كل فلسطين عن خطتنا القومية . فنحن سادة الارض بالوراثة (٩) . » وكذلك الاجلال الكبير للامبراطورية البريطانية : « ان ما يفعله البريطانيون رائع انهم يطهرون الشرق تاركين النور والهواء يدخل زواياه القذرة (١٠) . » كتب هذا عام ١٩٠٣ عندما كان مفكرون انكليز كثيرون ، بمن فيهم روديارد كبلنغ ، يشكون « بروعة » الامبراطورية البريطانية .

ويبدو من احاديث هرتزل وجوزف تشامبرلين ، وزير المستعمرات البريطاني ، انه كان هناك اتفاق تام بين الصهيونية والمستعمرين الاوروبيين بأن كل العالم غير الاوروبي « متاح » لاستعمالهم . والمح تشامبرلين انه كان مستعدا ، ان استطاع ، ان يدعم الصهيونية لانه احب الفكرة الصهيونية : « في الحقيقة كنت استطيع ان اريه تلك البقعة في الممتلكات البريطانية ، حيث لا يوجد شعب ابيض حتى الآن (١١) . » وكون شعب غير ابيض يعيش هناك آنذاك كان بالطبيعة امرا لا يؤخذ به . وابقى تشامبرلين ، خلال رحلاته حول العالم ، الحاجات اليهودية في ذهنه : « لقد وجدت لكم ارضا خلال رحلاتي ، تلك هي ارض يوغنده . وهي حارة على الساحل ولكن المناطق الداخلية ممتازة حتى للاوروبيين . انكم تستطيعون ان تزرعوا قصب السكر والقطن هناك . وفكرت في نفسي قائلا ان تلك يمكنها ان تكون ارضا للدكتور هرتزل (١٢) . » ولسوء الحظ انه كان هناك في ذلك الوقت اوروبيون في ذلك الاقليم اعلنوا انهم لا يريدون مستوطنين يهودا .

وشارك هرتزل هذه الفرضيات الاستعمارية زعماء صهيونيون سابقون ولاحقون . ويقتبس موزس هس هذه الكلمات الموجهة الى اليهود مؤيدا : « ستكونون حملة المدنية للشعوب التي لا تزال عديمة الخبرة وستكونون اساتذتهم في العلوم الاوروبية التي تدم

---

٦ ــ المذكرات ، ص ٢١٢ .
٧ ــ المذكرات ، ص ٦٧١
٨ ــ المصدر السابق ، ص ١٣٥٥ و ٨٠٢ .
٩ ــ المصدر السابق ، ص ٥١٧ .
١٠ ــ المصدر السابق ، ص ١٤٤٩
١١ ــ المصدر السابق ، ص ١٣٦١
١٢ ــ المصدر السابق ، ص ١٤٧٣

لها عرقكم الكثير . وستكونون الوسطاء بين اوروبة وآسية القصوى فاتحين الطرق التي تؤدي الى الهند والصين ـــ تلك المناطق المجهولة التي يجب ان تفتح ابوابها في النهاية امام المدنية (١٣) . » وانكر نوردو بشدة بالغة وغير عادية ، ان تمثل الصهيونية رفضا للمدنية الاوروبية او انتقال الى آسية : « في الحقيقة سنصبح آسيويين لدرجة ضئيلة بقدر ما اصبح الانكلو ـــ سكسونيون هنودا في اميركة وهوتنتوتيون في جنوبي افريقية او بابوانيون في استرالية (١٤) . » (وربما تكون اشارة مهمة الى المستقبل الصهيوني ان الانكلو ـــ سكسونيين في هذه الحالات الثلاث ، طردوا او ابادوا السكان المحليين) اراد اليهود العودة الى فلسطين ، على حد قول آرثر روبين ، « ليس للانغماس في البربرية الآسيوية (١٥) » ، ولا يقبل نوردو ان « يسلم بأن عودة اليهود الى ارض آبائهم هي عودة الى البربرية (١٦) . » وبعد خمسين سنة من ذلك الوقت لا يزال الخوف من « العودة الى البربرية » يصرح به علنا في اسرائيل .

وزعم الزعماء الصهيونيون بعد عدة سنوات ايضا بأنهم لعبوا فعلا دورا ناجحا كمستعمرين وفاتحين . وقال بن غوريون عام ١٩١٧ يصف زملاءه الصهيونيين في فلسطين : « نحن لم نكن نشتغل فقط ـــ كنا فاتحين ، نفتح ارضا . كنا جماعة من الفاتحين (١٧) . » واخبر وايزمن مؤتمر السلام في فرساي عام ١٩١٩ « ان ما استطاع فعله الفرنسيون في تونس ، ... يستطيع اليهود فعله في فلسطين ... لان الصهيونيين ... حتى في ذلك الحين ، قد قاموا بعمل بناء في فلسطين يفوق عمل الفرنسيين في تونس . » وقال في وقت لاحق ايضا انه يمكن مقارنة العمل الصهيوني مقارنة ايجابية بالعمل الاستعماري الذي قام به المستوطنون البريطانيون في كندة واسترلية (١٨) .

وهكذا توجد لدينا صورة غريبة وحزينة عن اليهودي الاوروبي المقتنع بشدة بصحة الادعاء الاستعماري وبتفوقه القاري المتأصل رغم طرده من اوروبة وسعيه وراء اقليم غير اوروبي يستعمره . وكان على كاهل اللاجىء اليهودي الصهيوني القادم من اوروبة امتعة بينها « عبء الرجل الابيض » ، وقد كان هو نفسه رجلا أبيض .

ومذ افترض المستعمرون الاوروبيون ، صهيونيين وأمميين ، ان العالم غير الاوروبي كان مصدر ثروة لهم لم يستطيعوا لحظة واحدة ان يعترفوا بأية حقوق سياسية او حقوق امتلاك للشعوب غير الاوروبية في ارضها ، وخاصة حق تقرير المصير الذي تجاهلوه او راوغوا به .

وقد تجاهلوا ذلك الحق قبل الحرب العالمية الاولى لان الفكرة ذاتها ان للافرو ـــ آسيويين حقوقا سياسية اعتبرت مجرد وقاحة . وهكذا لم يشعر هرتزل بوخز الضمير او الارتياب حول هذا الموضوع .

---

١٣ ـــ هس ، في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٣٤
١٤ ـــ بن هورين ، المصدر السابق ، ص ١٩٧ .
١٥ ـــ أ. روبين ، **يهود اليوم** ، ص ٣٥٠
١٦ ـــ بن هورين ، المصدر السابق ، ص ٢٠٤ .
١٧ ـــ بن غوريون ، **بعث ومصير اسرائيل** ، نيويورك ، ١٩٥٤ ، ص ٩ .
١٨ ـــ وايزمن ، **التجربة والخطأ** ، ص ١٩١ ، ٢٤٤ ، ٢٧٧ .

وبعد الحرب وبفضل وجود الرئيس ولسون في مؤتمر السلام اثير مبدأ تقرير المصير بشكل قوي جدا مما اضطر الصهيونيين واعوانهم الاميين الى اخذه في الحسبان خاصة لان العرب استلهموا مبدأ دحض الادعاء الصهيوني بأن لليهود الحق في وطن قومي في فلسطين .

وقدم الموقف الصهيوني الرسمي من تقرير المصير في منشور بعنوان « الصهيونية : رد على النقد الجديد » صدر عام ١٩٢١ عن « المنظمة الصهيونية في بريطانية العظمى » التي ، كجماعة صهيونية تهتم أكثر من غيرها مباشرة بفلسطين ، ولها اطلاع تام على المناقشات الصهيونية الرسمية . واحدى نقاط النقد التي يرد عليها المنشور هي « ان الصهيونية لا تتفق ومبدأ تقرير المصير » . يجيب المنشور بهذه الكلمات : « ان نسلم بأن حق تقرير المصير معناه ببساطة نظام يأخذ في الحسبان التركيب العرقي الحاضر في كل مقاطعة وبلدة يعني ... ترك المغتصب مغتصبا والذي لا يملك ارضا بلا ارض ... هل اعترف في اي وقت مضى من تاريخ المدنية كله ان استعمار اقليم متخلف يتم فقط بموافقة غالبية السكان الحقيقيين هناك ؟ لو كانت الحال كذلك لندر ان يستعمر اي بلد في العالم » « اذا نفذ ، في كل حالة كهذه ، مبدأ تقرير المصير حتى نهايته المنطقية المجردة وتم استفتاء للسكان المحليين لاصبح كـــل التوسع مستحيلا ولصارت الان الجماهير الاوروبية المكتظة تختنق وتجوع على هذا الطرف من الاطلسي بينما حفنة من الهنود الحمر لا تزال تطوف طليقة في ساحات اميركة التي لا حدود لها » . وبعد هذه النظرة المخيفة والاعتراف الضار بأن الصهيونيين اعتبروا عرب فلسطين مثلما اعتبر المستوطنون الاميركيون الاوائل الهنود الحمر ، حسمت القضية الصهيونية على الشكل التالي « الاستعمار مبدأ لا يقل اهمية عن مبدأ تقرير المصير وهناك حالات يطبق فيها المبدأ الثاني فقط الى حد يتمشى معه والتطور الحر للمبدأ الاول . ولا نزعم طبعا ان كل ارض في العالم يجب ان تفتح للاستعمار بل المناطق القليلة السكان والمتأخرة عموما فقط يمكن اعتبارها مناسبة لتوسع المشردين . ولكن العالم قد طور مفهـــوم « مجتمع الامم » . ومهما كان تقدم ذلـــك المفهوم فان فكرة « مجلس عالمي » يمثـــل مجمل ضمير الشعوب المتمدنة يتضمن فيما يتضمنه المقدرة على منع فتح ابواب منطقة متخلفة للاستعمار . وسيتخذ هذا المنع شكل ارادة جماعية تتجاوز الاعتبارات المحلية الصرفة (١٩) . »

ويمتنع اليوم المدافعون عن الصهيونية ووزارة الخارجية الاسرائيلية عن استنكـــار تقرير المصير علنا . ولم يحتج الصهيونيون في العام ١٩٢١ ان يخفوا نواياهم لانهم كانوا يحدثون اناسا يشاركونهم ، في معظمهم ، نظرتهم الاستعمارية ويمتلكون قوة فعالة . ولم يؤثر رأي شعوب « البلاد المتخلفة عموما » حول المسألة كثيرا رغم ان رأيهم اثر حتى في ذلك الحين ، اكثر مما اعتقد الصهيونيون .

وطرح مؤيدو الصهيونية الاميون جانبا مبدأ تقرير المصير وحتى بشكل ربما كـــان اكثر جفافا . وكتب بلفور ، ذلك الصهيوني المتحمس ورجل الدولة الامبريالي الغيور ، يقول عام ١٩١٩ : « ان الدول الاربع الكبرى ملتزمة بالصهيونية . والصهيونية ، سواء

---

١٩ — **الصهيونية ، رد على انتقادات حديثة** ، المنظمة الصهيونية ، لندن ، ١٩٢١ ، ص ٧ — ٩

اكانت على حق ام على خطأ ، جيدة ام سيئة ، متأصلة في التقاليد السرمدية والحاجات الحاضرة وآمال المستقبل ، التي هي ذات معنى اعمق من رغبات واجحاف الـ ٧٠٠،٠٠٠ عربي الذين يقيمون الآن في تلك الارض القديمة . وفي رأيي ان ذلك صحيح . » ولكن على عكس البيان الصهيوني الذي اقتبسنا منه اعلاه والذي ادعى دعم عصبة الامم كان بلفور امينا في قوله ان السياسة التي وضعها لم تستطع ان « تتناغم » مع « ميثاق العصبة » « لاننا لا نقترح حتى اجراء استشارة لرغبات سكان البلاد الحاليين (٢٠) . »

ان هذا الاستهزاء الشديد كان اقوى من ان يهضمه النوع « الليبرالي » من الصهيونيين الاميين الذين حاولوا ايجاد حجة لتبرير الشذوذ عن قانون تقرير المصير لمصلحة الصهيونيين . وهكذا فان نورمان انجل، المشهور بحبه للسلام، حاول ان يثبت انه لا يمكن ان تكون هناك مسألة حقوق « اغلبية » او « اقلية » في فلسطين لان « تشرد اليهود ... يهم كل البشرية ، كل المدنية ... هل العرب اغلبية بذلك الخصوص ؟ (٢١) . » ويجب ان نلاحظ هنا ايضا المبالغة حول ظاهرة اوروبية صرفة هي اللاسامية وجعلها ظاهرة عالمية ان الجزء الضخم من البشرية الذي عاش في افريقية وآسية لم يكن يألف مفهوم التشرد اليهودي لان اليهود ، في تلك المنطقة قد عاشوا سعداء في اوطانهم عبر القرون .

وشعر بعض الصهيونيين اليهود الذين يتمتعون بضمائر اكثر حساسية من غيرهم ، ايضا بالحاجة الى تبرير انكار تقرير المصير بالحجج . ويسأل الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر في « رسالة مفتوحة الى المهاتما غاندي » عام ١٩٣٩ : « ماذا تعني بقولك ارضا ملكا لشعب ... انك تعني ان تقول بوضوح ان شعبا يستقر على ارض له مطلق الحق في تلك الارض بحيث ان من يستقر عليها بدون اذن من هذا الشعب يكون قد قام بعملية سلب » . ويرى بوبر ان هذا يعني اضفاء قداسة على عملية فتح اصيلة ما . ويذهب قائلا : « يبدو لي ان الله لا يهب اي جزء واحد من الارض ... ان الارض المفتوحة في رأيي ما هي الا معارة فقط للفاتح الذي استوطنها ــ والله ينتظر ما سيفعل بها » . ويشير بوبر الى عمل المستوطنين اليهود بقوله : « هذه الارض تقدرنا لانها تثمر من خلالنا (٢٢) . »

وكما وصفت الصهيونية « بالقومية الروحية » يعلن بوبر هنا عن نوع من «الاستعمار الروحي» .

ان النتيجة الاخيرة لهذه الحجج هي نتيجة الادعاء الاصلي والصريح نفسها : يمكن تجاهل شعب يستقر على ارض والقاؤه جانبا بواسطة مستوطنين اجانب يدعون التفوق على « السكان الوطنيين » ، مثل الصهيونيين » .

---

٢٠ ــ نقلا عن هشتاين ، تصريح بلفور ، ص ٦٤٩ ــ ٦٧٠ .
٢١ ــ نقلا عن هلر ، الفكرة الصهيونية ، ص ٦٨ .
٢٢ ــ بوبر ومغنيس ، رسالتان الى غاندي ، القدس ، ١٩٣٩

وبما ان هرتزل كان جزءا لا يتجزأ من الحركة الاوروبية الاستعمارية فانه من الظلم تقريبا مقارنة حملته الصهيونية بالحملات المعادية للاستعمار التي خاضها الزعماء القوميون الافرو — آسيويون : فهما مختلفتان في النوع عندما لا يكونان متنافرتين . ولكن بما ان الصهيونيين يحيونه كمؤسس دولة اسرائيل — لدرجة انهم نقلوا رفاته الى القدس — يصبح من الضروري تفحص عملياته الدبلوماسية .

كانت نشاطات هرتزل من نوع فريد وخاص بشكل استثنائي ، ذلك لانه حاول شراء بلد لليهود . واذا اعتبرنا الصهيونية قومية فان هرتزل يمكن وصفه فقط انه « قومي تجاري » حاول عقد صفقة بواسطة مفاوضات دبلوماسية على مستوى عال .

ووصف صهيوني بلطف وايجاز هرتزل بهذه الكلمات « كان تفكير هرتزل اوروبيا جدا . فقد اعتقد انه بالمال اليهودي ، وبعطف الدول الكبرى وبموافقة السلطان يمكن خلق الدولة اليهودية في فلسطين مثلما بنت الجن قصر علاء الدين . ويمكن ان يبيع السلطان بسرعة وسهولة ميثاقا يحول فلسطين الى اليهود الذين يمكن الاعتماد على ولائهم ودعمهم المستمر ، لان السلطان كان بحاجة شديدة للمال ولم ير الا املا ضئيلا في التخلص من الانحلال . وستسرع الدول الكبرى لضمان ترتيب يريحهم من مسألة سياسية مقلقة . وعندها يمكن للاموال اليهودية ان تحمل اليهود الى فلسطين (٢٣) . »
ووصف وايزمن ايضا البرنامج بايجاز ولطف اقل : « كان هناك يهود اغنياء ويهود فقراء ... واي شيء منطقي اكثر ، من حمل اليهود الاغنياء على اعطاء السلطان المال ليسمح لليهود الفقراء بالذهاب الى فلسطين ؟ (٢٤) »
يبدو ان هناك مبررا للامتهان المرتجل في كلمات وايزمن لان جهود هرتزل المحمومة التي ادت الى وفاته المبكرة لم تسفر عن شيء . وتخللت السنوات الثماني التي عمل فيها بقوة في سبيل الدولة اليهودية رحلات بين فينا والقسطنطينية بهدف اقناع السلطان عبد الحميد بالسماح بالهجرة اليهودية غير المحدودة ومنحهم منطقة يهودية في فلسطين تتمتع بالحكم الذاتي مقابل دفع المولين اليهود ديون الامبراطورية العثمانية لعدة حكومات اوروبية . واستمرت المفاوضات الملتوية في معظمها على يد وسطاء فاسدين مشبوهين بتقطع مع انها كانت دوما على حافة الانهيار — تماما كما كانت الامبراطورية العثمانية نفسها

وتخلل المفاوضات كلها عنصر كبير من المخادعة في كلا الجانبين وكان كل طرف يعي جيدا عدم الثقة عند الطرف الآخر . وعند زيارة هرتزل الاولى ارسل اليه السلطان الرسالة الصريحة والمثيرة التالية : « انصحه الا يخطو خطوة اخرى في هذا السبيل . انا لا استطيع ان ابيع حتى قدما من الارض لانها ليست ملكا لي ولكنها لشعبي . وكسب شعبي هذه الامبراطورية بالقتال من اجلها وخضبها بدمائه . وسنغطيها ثانية بدمائنا قبل ان نسمح بضياعها من ايدينا ... فليوفر اليهود بلايينهم . وعندما

---

٢٣ — هـ. ساشر ، « الصهيونية وبرنامجها » ، سوسيولوجيكل رفيو ، ١٩١٢
٢٤ — وايزمن ، « التجربة والخطأ » ، ص ٦٢ .

تتجزأ امبراطوريتي يحتمل ان يحصلوا على فلسطين بالمجـان ولكن جئتنا فقط ستجزأ . ولن اوافق على تشريحها (٢٥) . » وبدا واضحا منذ وقت مبكر ان الشيء الوحيد الذي كان يعتبره كل واحد تحت تصرف هرتزل وهو المال اليهودي لم يكن جاهزا للمساعدة . وكان المولان اليهوديـان الرئيسيان بارون هـيرش وبارون روتشيلد صهيونيين خيريين وغير سياسيين ويرفضان باصرار دعم خطـة الدولة اليهودية . والسبب الوحيد لاستمرار المفاوضات بين هرتزل والسلطان هو انه كان في مصلحة الطرفين الا يعترفا بالفشل . فالسلطان استخدم هرتزل للمساومة في مصالح ماليـة اخرى واستخدمه هرتزل لانه ارتد عن دفع الآمال الكبار التي رفعها هو نفسه . ولم يستطع ، الا في العام ١٩٠٣ فقط ، ان يخبر اتباعه بأن السلطان قد استثنى فلسطين بالتحديد من المنطقة التي سمح بفتحها امام الاستيطان اليهودي .

وقد علمت هذه التجربة هرتزل درسا هو انه توجد حتى في عالم السياسة الفاسد بعض الاشياء ــ مثل ارض الوطن ــ التي لا تباع . ولكنه بعـد ان فشـل في شراء فلسطين حاول شراء مناطق أخرى . وفي احدى المناسبات قال بنفاد صبر : « يجب أن يكون الحصول بالمال على تلك الجمهوريات الاميركية الجنوبية ممكنا . ونحن باستطاعتنا اعطاءهم اعانات مالية (٢٦) » .

وحاول مرة ثانية مع الامبراطورية العثمانية ولكن هذه المرة من اجل الحصـول على المنطقة المحيطة بالعريش بالاضافة الى شبه جزيرة سيناء : وفشلت هذه الفكـرة لان الحكومة المصرية لم تسمح بتحويل الماء الكافي من النيل لاقامة المستوطنـات في المنطقة . ومع ذلك فان هرتزل يفسر جمعه المفاوضات السياسية والمال بهذه الكلمات « التملك والقوة والحق . ستتخلى لي الحكومة المصرية عن الممتلكات وعندئذ سأطلب من الحكومة الانكليزية القوة قدر الامكان ، واخيرا ساحصل على الحق من الحكومة التركية بواسطة الرشوة (٢٧) » .

وكانت لديه الافكار نفسها بالنسبة للكونغو : « تملك دولة الكونغو اراضي كافية نستطيع استخدامها من اجل استيطاننا . ونستطيع ان نتحمل جزءا من المسؤوليـات أي ان ندفع ضريبة سنوية ، تحدد في وقت لاحق ، الى دولة الكونغو ننال مقابلها بالطبع الحق في الحكم الذاتي وليس عبودية مستبدة جدا (٢٨) » .

وبالمثل ارتكزت خطط هرتزل حول الموزمبيق على القدرة الشرائية ولكن كان لها هدف سياسي اكثر ذكاء : « سأحاول الحصول علـى هذه الارض غير الصالحة لشركة تعاقدية من الحكومة البرتغالية التي تحتاج الى المال وذلك بأن نعدها بتغطية العجـز ودفع الجزية في وقت لاحق .

ومهما يكن فانا اريد الحصول على موزمبيق فقط كوسيلة للحصول علـى شبه جزيرة سيناء كلها من الحكومة البريطانية وذلك عن طريق التبادل ، بالاضافة الـى

٢٥ ــ المذكرات ، ص ٣٧٨ .
٢٦ ــ المصدر السابق ، ص ٩٢
٢٧ ــ المصدر السابق ، ص ١٤٣٢
٢٨ ــ المصدر السابق ، ص ١٥١٢

الحصول على مياه النيل صيفا وشتاء ، وقبرص ايضا اذا امكن (٢٩) » .
وتفسر الكلمات التالية الاشارة الى قبرص : « حالما نؤسس الشركة اليهودية الشرقية برأسمال قدره خمسة ملايين ليرة لاستيطان سيناء والعريش سيعرف القبارصة في هطول المطر الذهبي على جزيرتهم ايضا . وسيرحل المسلمون وسيبيع اليونانيون بسرور اراضيهم بسعر جيد ويهاجرون الى اثينا وكريت (٣٠) »

وقد وصف هرتزل هذه المشاريع بكلماته لتنقل النكهة الحقيقية لبناء امة .
والمشاريع مهمة ايضا لسببين آخرين ... فهي تبين ان هرتزل لم يستطع اعتبار الشعوب الاخرى شعوبا تتمتع بالاحترام القومي لذاتها ، فبالنسبة له لم يكن على الصهيوني الا ان يلوح بعملته حتى يفسح الاخرون الطريق امام اليهود . هل كان ذلك بسبب افتقاده الشعور القومي ؟ لقد اكد ان اليهود شعب ، وعمل من اجلهم ، ولكن هل كان يشعر بأنه جزء منهم ؟ كتب مرة يقول : « انا يهودي من هنغارية اتكلم الالمانية ولا استطيع ان اكون شيئا آخر ابدا الا المانيا (٣١) » .

ثانيا ، اصبحت فكرة هرتزل بأن المنفعة الاقتصادية تستميل الناس الى المخططات الصهيونية جزءا متمما من الدفاع الصهيوني القسري . وحتى يومنا الحاضر يقدم الاسرائيليون للذين شردوا من فلسطين وعودا بمساعدات مادية سخية ، وللحكومات العربية عروضا لاتحادات جمركية وموانىء حرة وحقوق ترانزيت يظنونها مغرية ولكن للعرب يجدونها مهينة وسافرة . وبالتأكيد يجب ان يكون اليهود آخر من يتوقع من اي شخص الاقتداء بيعقوب الذي باع حق بكوريته مقابل قدر من الحساء .

ولم يحاول هرتزل شراء بلد فحسب بل حاول شراء شعب ليساعده على شراء بلد . واذا اخذنا بعين الاعتبار بعض الناس الذين حاول اغراءهم لبدت جهوده مضحكة وهكذا خطط هرتزل لاثارة اهتمام روتشيلد الذي لم يكن يؤيد الصهيونية السياسية « اذا تمشيت معنا سنغنيك مرة اخيرة . سنجعلك اكبر مما حلم به مؤسس بيتكم المتواضع . سنزيد ما قدمته ، اي المليون الذي بدأنا به ، ثلاثة اضعاف » ، ثم ألقى طعما آخر : « سنأخذ اول حاكم منتخب لنا من بيتكم (٣٢) » .
وكتب الى سيسيل رودس يقول : « اذا زودتنا انت وزملاءك بالمساعدة المالية المطلوبة لهذا فانك سوف ... تنال ربحا كبيرا يرضيك (٣٣) » .
ولاحظ الاستاذ تالمون في تعليقه على اساليب هرتزل انه (اي هرتزل) : « اضطر هرتزل في الواقع الى اللجوء الى الاساليب اليهودية القديمة جدا ، اساليب دبلوماسية السلالم الخلفية ... وكان يستعمل الرشوة حيثما ذهب (٣٤) » .
ويسجل في مذكراته تفاصيل مساوماته على الرشوات ، فكانت احيانا مسلية

٢٩ — المصدر السابق ، ص ١٤٨٧
٣٠ — المصدر السابق ، ص ١٣٦٢
٣١ — المصدر السابق ، ص ١٧١
٣٢ — المصدر السابق ، ص ١٦٤ — ١٦٥
٣٣ — المصدر السابق ، ص ١١٩٤
٣٤ — تالمون ، المصدر السابق .

واحيانا اخرى خصيصة فقد دفع ثمن مقابلة واحدة مع السلطان اكثر من ٢٠،٠٠٠ فرنك (٣٥) .

ان الصلة الوثيقة بين القوة الشرائية والسياسة واضحة في ذهن هرتزل في بابين حول مخططات خلق الدولة اليهودية :

« المرحلة الاولى : آل روتشيلد

المرحلة الثانية : اصحاب الملايين الاقزام

المرحلة الثالثة : الشعب العادي . اذا وصلت هذه المرحلة فان اصحاب المرحلتين الاولى والثانية سيندمون (٣٦) » .

« اذا حصلت محاولات لعرقلة حرية مرور اليهود فعندها سنعرف كيف نعبيء الراي العام العالمي (الليبراليون والاشتراكيون والمعادون للسامية) ضد سجن اليهود . وعندئذ ايضا سيكون دبلوماسيونا يعملون (وسوف نقدم امتيازات مالية على شكل قروض وهبات خاصة . وعندما نكون في الخارج سنضع ثقتنا بجيشنا وبصداقاتنا التي اشتريناها وبأوروبة ضعيفة ومجزأة بواسطة السيطرة العسكرية والاشتراكية .

هذا هو التحرر اليهودي (٣٧) » .

وبغض النظر عما يدعى شراء الدولة فان الهدف الرئيسي للنشاط الدبلوماسي المتكالب الذي قام به هرتزل هو الحصول على الدعم النشيط او الحماية السلبية للدولة اليهودية في احدى القوى الاوروبية . وقد عبر عن هذا الهدف بشكل واضح في « دولة اليهود » : « ان مجتمع اليهود سيتعامل مع سادة الارض الحاليين واضعا نفسه تحت حماية احدى الدول الاوروبية الكبرى ان اثبتت هذه الاخيرة تاييدها للخطة (٣٨) » .

وكانت مشاعر هرتزل نحو الامبراطورية العثمانية غير الاوروبية متقلبة ومتضاربة للغاية . فقد احتقر نظام الحكم والسلطان شخصيا ، وتنبأ بتجزئة هذه الامبراطورية ووضع هذا الاحتمال في خططه . وفي الوقت نفسه لم يرد لذلك الاحتمال ان يتحقق بسرعة كبيرة وعلى الاقل الا يتحقق قبل ان يحصل على ما اراده من الامبراطورية . وعندما تفجر الصراع مع اليونان التي كانت تقاتل لاتمام استقلالها ارسل هرتزل رسائل يبالغ فيها بدعمه وولائه للسلطان ترافقها تبرعات مالية ووعود بتقديم العون الطبي ، ولكنه لم يرد ايضا لتركية ان تربح بشكل حاسم (٣٩) » .

واقترح هرتزل فعلا ان يحضر مندوب رسمي او مراقب عن السلطان المؤتمر الصهيوني الاول (٤٠) . وفي الوقت نفسه غادر فلسطين سرا وبسرعة بعد ان رأى القيصر هناك لانه خاف من الاغتيال على يد السلطات العثمانية معتبرا انها كانت تعرف انه لم يكن صديقا حقيقيا للامبراطورية : « اذا كان عند الحكومة التركية بصيص بصيرة

---

٣٥ ــ المذكرات ، ص ٨٦١ .
٣٦ ــ المصدر السابق ، ص ٤٤ .
٣٧ ــ المصدر السابق ، ص ٥١ .
٣٨ ــ دولة اليهود ، ص ٣٠ .
٣٩ ــ المذكرات ، ص ٥٣٧ ، ٥٤١ .
٤٠ ــ المصدر السابق ، ص ٥٤٥ .

سياسية فقط لوضعت هذه المرة حدا للعبتي مرة والى الابد (٤١) » .
ومن جهة اخرى كان هرتزل منفتحا على المانية وبريطانية وايطالية في اعجابه وطلبه دعمهم دونما حاجة او رغبة في لعب اي « لعبة » .
اراد هرتزل الاشياء نفسها من كافة القوى الاوروبية : ارادهم ان يستخدموا الاقناع او الضغط لحمل السلطان على قبول منطقة للاستيطان اليهودي وان توضع تلك المنطقة بعد ذلك تحت حماية هذه القوى . وبايجاز ، لم يكن هرتزل ، على الرغم من تأكيده للسلطان ان المستوطنين اليهود الاوروبيين سيكونون رعايا عثمانيين موالين للامبراطورية ، مستعدا كليا لوضع المستوطنين تحت سلطة امبراطورية غير اوروبية. كان هذا نفاقا لان حماية اوروبية على المنطقة اليهودية كان مجرد طريق اضافي للتدخل الاوروبي في الشؤون الداخلية للامبراطورية العثمانية . ويحتمل ان يكون هذا سبب خوف هرتزل من الاغتيال وسبب اقتراحه ممارسة الحماية البريطانية سرا. فهو لا يشير الى كيفية عمل هذا الترتيب الغريب ، وربما كان اقتراحه نتيجة ادمانه الطويل جدا على الدبلوماسية السرية والمساومة المراوغة .
وواضح ان المانية كانت اول ما احب هرتزل. واقترح على صديقه غراندوق بادن اول ما اقترح تشكيل شركة يهودية تعاقدية (تدير الاستيطان اليهودي) يكون مقرها الرئيسي في كارلزروة « وتحت حماية صاحب السمو الملكي الغراندوق فريدريك وسينتج عن هذا اوتوماتيكيا علاقة سياسية من حماية الامبراطورية (الالمانية) لا يكون عليها اعتراض من اطراف ثالثة . ولا يتطلب هذا تصريحا واضحا من الحكومة الامبراطورية ، وفي الحقيقة يمكن أن نترك وشاننا نعمل مستقلين تماما كما فعلت الحكومة الانكليزية مع سيسيل رودس في أي وقت (٤٢) »
اراد هرتزل الحماية الالمانية لاكثر من اسباب سياسية. فقد اعترف بأن « كثيرين سيهزون برؤوسهم لها » أما هو فيؤمن بها ، « لان العيش تحت حماية المانية القوية والعظيمة والمناقبية والمحكومة بروعة والمنظمة ببراعة ، لا بد ان يترك التأثير الاعظم فائدة على الشخصية القومية اليهودية (٤٣) » . ومن الجدير بالذكر ان هرتزل كان يؤمن ان للعداء للسامية الاثر المفيد نفسه .
ولكن القيصر كان صديقا طيبا جدا للسلطان فرفض مقترحات هرتزل المريبة ؛ وتحول هرتزل بذلك الى بريطانية . وقد اراد هرتزل منذ وقت مبكر جدا ان يجعل امير ويلز (الذي اصبح فيما بعد ادوارد السابع) احد المشتركين في حماية الدولة اليهودية (٤٤) . كان هرتزل عمليا جدا فيما كتبه الى الزعماء البريطانيين فاقترح ، في كانون الاول عام ١٨٩٦ ، على اللورد سولزبوري « خلق دولة يهودية تابعة وتتمتع بالحكم الذاتي في فلسطين ، تشبه مصر ، وتخضع لسيادة السلطان . ان هذه المسألة ممكنة اذا تم لنا الدعم — واكرر بوضوح ، الدعم غير المنظور — من دولة كبرى ... والفائدة التي يمكن ان تجنيها بريطانية هي بناء خط حديدي عبر فلسطين

---

٤١ — المصدر السابق ، ص ٧٦٠ .
٤٢ — المصدر السابق ، ص ٧٩٤ .
٤٣ — المصدر السابق ، ص ٦٩٣
٤٤ — رابينوبيتش ، المصدر السابق ، ص ٨ .

يمتد من البحر الابيض المتوسط الى الخليج العربي ... ويمكن ان تجني انكلترة هـذه الفوائد بدون كلفة وبدون معرفة العالم باشتراكها ... ويمكن ان تكون لانكلترة طريق احتياطية محايدة الى الهند في حال بروز صعوبات في قناة السويس (٤٥) » .

ومرة اخرى اكد ، في تشرين الاول عام ١٩٠٢ ، لوزير الخارجية البريطاني ، اللورد لانزداون ، على المكاسب المادية عندما طلب منه دعم خطة العريش ــ سيناء : « بعد بضع سنوات قصار ستكبر الامبراطورية بواسطة مستعمرة غنية ... وسينضم جميع اليهود الاخرين في العالم الى صف بريطانية مرة واحدة ، على الاتل ادبيا ان لم يكن سياسيا ... ومرة واحدة ستحصل بريطانية على رعية سرية من عشرة ملايين موالية لها في كل مسالك الحياة في شتى انحاء العالم . فهم يبيعون الابر والخيطان في قرى صغيرة كثيرة في كل انحاء الشرق ، وهم ايضا تجار جملة وصناعيون وسماسرة بورصات وعلماء وادباء ورجال صحافة وغيرها ... ستحصل بريطانية على عشرة ملايين موظف يعملون في سبيل عظمتها ونفوذها وسينشر تأثير هذا بشكل عادي من المجالات السياسية الى المجالات الاقتصادية . وليس من المبالغة بكل تأكيد ان نقول بأن اليهودي يفضل ان يشتري ويوزع منتوجات بلد قدم للشعب اليهودي خدمة حسنة بدل ان يفعل ذلك بالنسبة لمنتوجات بلد يعيش فيه اليهود وضعا سيئا (٤٦) » .

واستعمل هرتزل الحجج السياسية بشكل مناسب في نيسان عام ١٩٠٣ مع الامبريالي جوزف تشامبرلين : « سنستخدم « كدولة حاجزة » * صغيرة ، لن نحصل عليها بالارادة الحسنة للدول الكبرى بل بتنافسها ! وعندما نكون في العريش تحت اللواء البريطاني ستكون فلسطين ايضا في منطقة النفوذ البريطاني » .

ولخص هرتزل ردة فعل تشامبرلين قائلا : « بدا ذلك وكانه يعني الكثير بالنسبة له (٤٧) » .

وحاول هرتزل ، عندما اجتمع بملك ايطالية في كانون الثاني عام ١٩٠٤ ، ان يثير اهتمامه « بمخطط طرابلس لحمل فائض الهجرة اليهودية الى منطقة طرابلس تحت القوانين والمؤسسات الليبرالية الايطالية » . واجابه الملك : « ولكن ذلك ايضا وطن لاناس اخرين » .

ورد عليه هرتزل بقوله : « لكن تقسيم تركية سيحدث حتما » ثم انهى حديثه بهذه الكلمات : « في مقدور ايطالية ان تفعل الكثير من اجلنا لان السلطان يخاف منها (٤٨) » .

وادرك ملك ايطالية بذكاء الفكرة التي جربها هرتزل مع الانكليز . وهذا واضح في الحديث التالي بينهما قال هرتزل : « كان لدى نابليون افكار حول اعادة الامة اليهودية ، يا سيدي ! » الملك : « لا ، لقد اراد فقط ان يجعل من اليهود المنتشرين في شتى انحاء

---

٤٥ ــ المذكرات ، ص ٥٠١ .
٤٦ ــ المصدر السابق ، ص ١٣٦٧

* دولة صغيرة محايدة وواقعة بين دولتين تحول دون تصادمهما .

٤٧ ــ المصدر السابق ، ص ١٤٧٤ .
٤٨ ــ المصدر السابق ، ص ١٦٠٠

العالم عملاء له » . هرتزل : « لقد وجدت هذه الفكرة عند تشامبرلين ايضا » . واجاب الملك « انها فكرة واضحة (٤٩) » . لقد رأينا ان القضية عند هرتزل كانت قضية تقديم اليهود كعملاء لاي دولة اوروبية صديقة .

وكان دافع هرتزل في التقرب من سيسيل رودس هو السعي نفسه وراء حـــام قوي يتمتع استمه بمكانة هامة ويحتمل ايضا ان يؤثر في نفوس اصحاب الملايين اليهـــود المترددين . وقدم الخطة الصهيونية« كشيء استعماري » « جيد تماما بالنسبة لانكلترة، ولبريطانية العظمى ايضا » ، وطلب من رودس « ان يضع خاتم سلطنه » على الخطة. وقد وضع اتفاقا استم رودس في رأس قائمة اسماء «الشخصيات الذين لهم دور في لعبة الشطرنج»، اما الاخرونفهم رئيس الولايات المتحدة وملك انكلترة وقيصر روسية (٥٠).

واعتقد هرتزل فعلا ان دولة يهودية في الشرق لا تفيد دولة اوروبية واحدة فحسب بل اوروبة بكاملها : « تحدثت عن فوائد الدولة اليهودية عموما بالنسبـــة لاوروبة . ويمكننا ان نعيد المنطقة المريضة في الشرق الى حالتها الطبيعية. ويمكننا بناء طرق حديدية في آسية ــ وهي الطرق الرئيسية للشعوب المتمدنة . ولن تكون هذه الطريق الرئيسية عندئذ في ايدي اي دولة اوروبية واحدة (٥١) » .

ان الحاجة الى حماية دولة اوروبية كانت في صلب التفكير الصهيوني . لم يكن لفرنسة في راي هرتزل اهمية ولم يدخلها في حسابه ، الا ان موزس هس ، كتب ، قبل هرتزل بسنوات عديدة يقول : « ان فرنسة الصديقة الحبيبة هي المخلص الذي سيعيد شعبنا الى مكانه في التاريخ العالمي   هل لا زلتم تشكون بـــان فرنسة ستساعد اليهود في اقامة مستعمرات قد تمتد من السويس الى القدس   ان الفرنسيين خلقوا ، بدون شك ليكونوا لبعضهم بعضا (٥٢) »

ان خضوع هرتزل التلقائي لمصالح الدول الاوروبية الامبريالية مدهش حقا . وقد حاول حتى احد نقاد الحركة الصهيونية ان يثبت بأن مفاوضات هرتزل مع هذه القـــوى كانت حتمية وواقعية لان هذه الدول سيطرت على شؤون العالم في ذلك الوقت (٥٣). وسأتناول هذه الحجة بالنقد والتفحص بعد قليل لانه كانت هناك قوى اخرى في العالم، قوى لم يكن هرتزل غير مدرك لها . لقد راى هرتزل بروز العالـــم الثالـــث المعادي للاستعمار . واجتمع بالقومي المصري مصطفى كامل وتأثر به بشكل طيب . كما تأثـــر بالمقدار نفسه « بالعدد المدهش من الشبان المصريين ، الاذكياء على ما يبدو ، الذيـــن ملأوا القاعة في القاهرة » ، خلال زيارة هرتزل لها ، لسماع محاضرة حول مشاكـــل الري . « انهم الاسياد الصاعدون » . « ومن العجيب ان البريطانيين لا يرون هذا فهم يظنون انهم سيتعاملون مع الفلاحين الى الابـــد (٥٤) » . واستطـــــاع ان يرى الامبراطورية البريطانية كجزء من عملية تاريخية عامة وان يرى المخاطر التي تتهددها :

---

٤٩ ــ المصدر السابق ، ص ١٥٩٩ ، ١٦٠٠

٥٠ ــ المصدر السابق ، ص ١١٩٤ ، ١١٧٩

٥١ ــ المصدر السابق ، ص ٣٣٨

٥٢ ــ هس ، في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ١٣٣ ، **وروما والقدس** ، الرسالة ١٢

٥٣ ــ مكسيم رودنسون ، **الازمنة الحديثة** ، المصدر السابق ، ص ٣١ .

٥٤ ــ **المذكرات** ، ص ١٤٤٩ .

« انهم يعلمون الفلاحين ايضا ، الى جانب الحرية والتقدم ، ان يثوروا . واعتقد ان المثال الانكليزي في المستعمرات اما ان يدمر امبراطورية انكلترة الاستعمارية او يضع الاساس لسلطة انكلترة العالمية . وهذا اهم بديل في عصرنا . حبذا لو استطعنا العودة بعد خمسين سنة لنرى ما انتهى اليه (٥٥) » .

واذا حكمنا على هرتزل من خلال افكاره لوجدنا انه كان ينظر الى الخلف لا الى الامام عندما حصر نشاطاته الصهيونية بالمساومة مع الدول الاوروبية الامبريالية فقط او التوسل اليها . فروح العصر لم تجبره على هذا ولكن اجبرته عليه الصفة الاوروبية والاستعمارية للحركة الصهيونية نفسها .

ظهور الحركات القومية في آسيا

يحاول المنظرون الصهيونيون عندما يؤكدون الزعم بأن الصهيونية هي « الحركة القومية اليهودية » ان يثبتوا بصعوبة انها يمكن ان تكون اي شيء آخر لانه من خلال الصهيونية استجاب اليهود مجرد استجابة لروح القومية التي عمت اوروبة وسيطرت على السياسة الاوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ومع ذلك فاننا عندما نعير انتباهنا الى السياسات المؤيدة للامبريالية صراحة والتي يمارسها الصهيونيون فعلا تبرز الحجة المعاكسة والقائلة ، كما ذكرنا آنفا ، بأن هذه السياسات يمكنها بالكاد ان تكون أي شيء آخر لان الدول الامبريالية كانت تسيطر انذاك على العالم .

اذا سلمنا بحجة الصهيونية الاولى يصبح من غير الممكن التسليم بالحجة الثانية كما يصبح من العدل والمنطقي ان نقارن الصهيونية بالحركات القومية الاخرى خاصة الافرو ـ آسيوية منها لان هدف الصهيونية كان خلق دولة في آسية .

ان مقارنة سريعة لكرونولوجيا كل من الصهيونية والحركات القومية الافرو ـ آسيوية حتى العام ١٩١٩ تبين انه بينما اكدت الحركات القومية الافرو ـ آسيوية باستمرار على الحق القومي في الاستقلال عن الدول الاستعمارية بقيت الصهيونية بشكل ثابت حركة تتعاون مع تلك الدول نفسها .

برزت الصهيونية كحركة سياسية منظمة مع صدور كتاب « دولة اليهود » عام ١٨٩٦ ومع انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول عام ١٨٩٧ . وتبعت ذلك جهود هرتزل الدبلوماسية التي لم تكسب اي اقليم ولكنها حققت اعتراف الحكومة البريطانية عام ١٩٠٣ بالجماعة اليهودية ككيان سياسي . وجاءت بعد وفاة هرتزل فترة هدوء سادت فيها « الصهيونية الحضارية » . وتميزت هذه الفترة بتأسيس المستعمرات الصهيونية الحقيقية الاولى في فلسطين عام ١٩٠٨ منتهية بانتصار « الصهيونيين السياسيين » داخل الحركة عام ١٩١١ . وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى كانت الحركة الصهيونية

---

٥٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٤٤٩

لا تزال محصورة بأقلية صغيرة من يهود العالم « وكانت في حالة ركود (٥٦) » . ومع ذلك فعند انتهاء الحرب كان في يد اليهود وعد من الحكومة البريطانية ، من خلال تصريح بلفور ، باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين التي اصبحت انذاك مستعمرة للتـــاج البريطاني .

من الممكن طبعا ان نقول بانه لا يمكن ولا يجب مقارنـــــة الصهيونية بالحركــات القومية الافرو ــ آسيوية لانها عملت خارج اوروبة بينما كان على الصهيونية ان تعمل داخل الحواضر الاوروبية نفسها . ولكن حتى في اوروبة كانت في مطلع هذا القرن درجة من الشعور بالعداء للامبريالية والاستعمار الا انها لم تعكس نفسها على الفكر او العمل الصهيونيين .

لقد رأينا ان الصهيونية برزت متأخرة على المسرح الاوروبي مما ادى الى وصفها « بآخر » الحركات القومية الاوروبية . ويمكن تحديد المد الامبريالي الاوروبي الرئيسي بالفترة ما بين مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ووفاة الملكة فكتورية عام ١٩٠١ . وانتجت حرب البوير على الاقل تساؤلات عميقة في بريطانية حول الفكرة الامبريالية ، وفي العام ١٩٠٢ اخرج ج. أ. هوبسون دراسته الكلاسيكية « الامبريالية » التي تبنى لينين في وقت لاحق اجزاء منها . وهاجم الفيلسوف المشهور هربرت سبنسر وكتاب كثيرون آخــرون أقل منه شأنا الامبريالية بأسسها الاخلاقية وبفائدتها وفعاليتها العمليتين(٥٧). وشهدت السياسة في نهاية القرن كما شهدت الفنون جوا او حالة « انسحابية » ولكن تساؤلات الاميين المعادين للامبريالية وهجمات الشيوعيين اليهود لم تؤثر في الاعجاب والتقدير اللذين كان يكنهما الزعماء الصهيونيون للقوى الاوروبية

بدأ الهجوم المعادي للاستعمار فيآسية قبل تأسيس الحركة الصهيونية في اوروبة. وهذا جدير بالاهتمام لاننا يمكن ان نتوقع فجوة زمنية بين بداية الافكار القومية في اوروبة وظهورها في آسية . ففي العام ١٨٨٢ وجدت في مصر حركة قومية جنينية ، وتأسس المؤتمر القومي في الهند عام ١٨٨٥ . وفي العام ١٨٩٦ كان الفيليبينيون يقاتلون الاسبان والاميركيين . وأسس صن يان صن حركته القومية في الصين عام ١٩٠٥ ، وبعد سنة برزت في الهند دعوة للاستقلال التام والقى القوميون الهنود القنبلة الاولى عام ١٩٠٧ وفي السنة نفسها بدأ في مصر حزبان قوميان . وقمعت انتفاضة في الهند الصينية عام ١٩٠٨ . وبدأت جمعية « العربية الفتاة »في باريس عام ١٩١١ كما تأسس في العـــام نفسه في القاهرة حزب اللامركزية العربي . وفي العـــــام ١٩١٢ اطاحت الصـــين بالمانشويين وقاتل المراكشيون الجيش الفرنسي بضراوة . وتشكلت منظمة العهد فـــي دمشق في العام ١٩١٤ وفي العام التالي جعل القوميون العرب وجودهم ملموسا فـــي مطالبهم القوية في المؤتمر السوري الذي عقد في دمشق . وعلى الرغـــــم من الحالات الطارئة للحرب نشط القوميون الهنود في حركة الحكم الوطني بين العامـــين ١٩١٤ ــ ١٩١٦ وارسلوا في العام ١٩١٨ نداء الى مؤتمر فرساي يطالب بحق تقرير المصـــــير وبوضع دولة دومينون الى ان طالبوا في العام ١٩١٩ بدولة تامة مسؤولة . وطالبـــت

---

٥٦ ــ هـ. ساشر **Zionist Portraits and other Essays** ، لندن ، ١٩٥٩ ، ص ٢٢ .

٥٧ ــ أ. ب. ثورنتون ، **الفكرة الامبريالية وأعداؤها** ، لندن ، ١٩٥٩ ، الفصلان الثاني والثالث

مصر ايضا في العام نفسه بالاستقلال التام ، وعندما رفض طلبها قامت انتفاضة عنيفة عمت البلاد بأسرها . وفي السنة نفسها رفض المؤتمر العربي في دمشق تسوية ما بعد الحرب . وشهد العام ١٩٢٠ شهورا من القتال الذي شنه العراقيون ضد البريطانيين. كما قاد غاندي اول حملة مقاطعة اشترك فيها المسلمون والهندوس .

وخلال فترة الاربعين سنة ١٨٨٠ — ١٩٢٠ كانت كل القارة الاسيوية تغلي بالهيجان والانتفاضات القومية التي كانت الدول الامبريالية تخمدها في منطقة واحدة لتعود وتشتعل في منطقة اخرى .

لو ادخلنا في حسابنا ظروف الزعماء الصهيونيين — الظروف المختلفة السائدة في ذلك الوقت بين اوروبة المتحضرة وافرو — آسية المستعمرة ، والفرق في المقاييس وطرق النظر الى الامور السياسية بين زمانهم وزماننا الحاضر — لو ادخلنا في حسابنا كل هذه الظروف آخذين بعين الاعتبار ما كان يفعله القوميون الاسيويون ،ماذا يمكننا أن نتوقع بانصافنا من هؤلاء الزعماء الصهيونيين القوميين ان يكونوا قد فعلوا ؟ هل كان يتوجب عليهم الاتصال بالحركات الاسيوية؟ هل أتيحت لهم الفرصة وامتنعوا عن ذلك؟هل كان يتوجب عليهم ان يتعاونوا معها؟ انهم لم يحاولوا شيئا عدا اليهود في الحركة الشيوعية. وربما تكون هذه الخطوات اكبر مما كان علينا ان نتوقع بكثير . ألم يعتبر الصهيونيون آسية بربرية وغير متمدنة ؟ ولكن اذا استطاع الاسيويون البرابرة الوقوف في وجه القوة الاوروبية الساحقة ليقاتلوا ويموتوا في سبيل حريتهم يصبح من المناسب ان نتوقع من القوميين الصهيونيين ان يحافظوا على الاقل على احتياطي معين ومسافة معقولة تفصلهم عن الدول الامبريالية . لكنهم بدل ذلك القوا بأنفسهم بين ذراعي الامبرياليين . كان على الصهيونيين ان يتحفظوا على الاقل بالقول ان تعاونهم كان مسالة سياسة ووسيلة سهلة فحسب ، ولكنهم بدل ذلك اوضحوا جيدا انهم اعجبوا حقا بالحكومات الاوروبية وارادوا ان يكونوا شركاء صغارا لهم يفيدونهم ويقومون بواجباتهم تجاههم. وبسبب المثال الذي ضربه القوميون الاسيويون والذي تجاهله الصهيونيون الاوروبيون يمكننا القول بأن دوافع الصهيونية لم تكن قومية وان اهدافها كانت استعمارية واساليبها مؤيدة للاستعمار .

يجب ان توضع الحركة الصهيونية مقابل الخلفية الاسيوية المضطربة التي بلورت احداثها في ثلاثينات واربعينات هذا القرن تفكير الزعماء الاسيويين الذين حكموا على السياسات الصهيونية في فلسطين .

ان المقارنة بين الحركة القومية الاسيوية ، التي اتخذت خطا معاديا للاستعمار ، والحركة الصهيونية ، التي اصبحت عاملا سياسيا هاما في غربي آسية بعد العام ١٩٢٠ ، لا مفر منها . ويبرز من هذه المقارنة سؤالان : لماذا كان على الصهيونية قبل الحرب العالمية الاولى ان تكون خاضعة الى ذلك الحد للدول الاوروبية ؟ وقد اجبنا عن هذا السؤال في حديثنا عن نشاطات هرتزل . والسؤال الثاني هو : لماذا كانت الصلة وثيقة جدا بين الصهيونية والمصالح الامبريالية البريطانية في الشرق الاوسط خلال وبعد الحرب العالمية الاولى ؟ ان الجواب عن هذا السؤال يتطلب تفحص التواطؤ

الصهيوني ـــ البريطاني الذي ادى الى صدور تصريح بلفور .

وايزمن والتواطؤ السياسي

صدر تصريح بلفور « تصريح تعاطف مع المنظمات الصهيونية اليهودية » ، عـــن الحكومة البريطانية في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧ . ويتألف التصريح من ١١٩ كلمة فقط ، وتنص الفقرة الهامة فيه : « تنظر حكومة صاحب الجلالة بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيـــق هذه الغاية ، مع البيان الجلي بأن لا يفعل شيء يضير الحقوق المدنية والدينية التــــي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين ، ولا الحقوق والمركز السياســـي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى » . وكان للتصريح نتائج قاسية على الطرفين المعنيين . فقد كان هدفه تأمين المصالح الامبريالية البريطانية في الشرق الاوسط الا انه دمرها في النهاية . وكان مفروضا به تقديم حل للمسألة اليهودية القديمة جدا .واصبحت كلماته الاساس القانوني ـــ السياسي لدولة اسرائيل ولكن المسألة اليهودية تبقـــى قائمة تضاف اليها المسألة العربية ـــ الاسرائيلية والمسألة الافـــرو ـــ آسيوية ـــ الاسرائيلية الاوسع .

وتسمية هذه الوثيقة نفسها خاطئة لان كلمة « تصريح » تتضمن بيانا من طـــرف واحد في حين ان هذه الصياغة كانت نتيجة تعاون وتواطؤ بين الحكومة البريطانيـــة وجماعة من الصهيونيين بزعامة الدكتور حاييم وايزمن . وقد اعطى اللورد سيف ، وهو صهيوني بريطاني بارز اشترك في المفاوضات ، عنوانا اصح بكثير . فقد وصفه سيـــف بأنه « ميثاق ١٩١٧ بين اسرائيل وبريطانية » ، والتعبير الاكثر ملاءمة هو « ميثـــاق بلفور ـــ وايزمن لعام ١٩١٧ » .

وقد ورد وصف اللورد سيف في مقدمته لاحدث كتاب في سلسلة طويلة من الكتب حول « التصريـــح » ، هو كتاب جون كمشي (٥٨) « اللارومنطيقيون والدول الكبرى وتصريح بلفور» الذي تكمن اهميته في انه يحاول الاجابة عن السؤال التالي «لماذا تعين اقامة صلة وثيقة جدا بين الصهيونية والمصالح الامبرياليـــة البريطانيـــة في الشرق الاوسط ؟ » يقدم الكتاب الجواب التالي : « ان حقيقة الوضع المتفق عليها في العالـــم عند نهاية عام ١٩١٨ هي قوة الامبراطورية البريطانية التي لا ريب في عظمتها . وكان الصهيونيون حلفاءها وكانوا يضعون انفسهم تحت مظلتها الوقائية هذه . واستجاب القوميون العرب للتشجيع البريطاني على الثورة ضد الحكم العثماني وتبعوا الشريـــف حسين ولورنس في « الثورة العربية » . ولم يكن القوميون المصريون ليصلوا بقيادة زغلول باشا ، على الرغم من النضال المستمر من اجل الاستقلال لم يكونوا ليصلوا الى استقلالهم الا بتعاونهم الفعال مع البريطانيين . وكانت الحقيقة القاسية في العام ١٩١٨ انه لم يكن ممكنا الوصول الى اي شكل من اشكال الاستقلال القومي حتى الجنيني للصهيونيين او العرب في الشرق الاوسط الا بالارتباط الوثيق بأحدى القوى الحاكمة :

---

٥٨ ـــ نشر برعاية الجمعية الانكلو ـــ اسرائيلية، لندن ، ١٩٦٨

البريطانيين او الاتراك اما المحظوظون — من العرب واليهود — فقد آثروا بريطانية (٥٩) » . وفي مكان آخر من الصفحات التالية يوسع كمشي اساس توضيحه : « لم يكن هناك مستقبل لاي حركة قومية تحت ظروف العامين ١٩١٧ — ١٩١٨ الا بدعم دولة كبرى . وفي سبيل الحصول على هذا الدعم كان هرتزل مستعدا لتعزيز الامبريالية البريطانية الجديدة في الشرق الاوسط (٦٠) »

ان جون كمشي مدافع عظيم القدرة والخبرة والحماسة للقضية الصهيونية وعليه فانه من الطبيعي أن يقول ، في الوقت نفسه الذي يعترف فيه بالتواطؤ الصهيوني — البريطاني ، بأن ذلك التواطؤ لا مفر منه وأن العرب بقيادة الشريف حسين وزغلول كانوا يتواطأون أيضا وأن « أي حركة قومية » كان يترتب عليها ان تتواطأ . ويوضح رد كمشي وعيه ان التواطؤ الصهيوني ، في اطار قومي ، يحتاج الى توضيح والى أن يعرض على انه ليس مضادا للقومية ، وهذا كسب للحقيقة . ولكن الجواب الذي يعطيه لا يجيب عن السؤال لانه خاطىء تاريخيا .

وبكل بساطة ان مقارنة الاتفاق المكتوب بين البريطانيين والشريف حسين بالميثاق غير المكتوب بين بلفور ووايزمن هي تشويه صارخ للحقيقة فالشريف لم يتطوع لخدمة وحماية المصالح الامبريالية البريطانية في الشرق الاوسط ، أما وايزمن فسنراه يعد مرارا بذلك لانه الاساس الحقيقي لعقد عام ١٩١٧ . وكل ما طالب به الشريف هو المساعدة على القتال في سبيل اقامة دولة عربية مستقلة . وقد اعطي العون لكنه خدع بالاستقلال بعد ذلك فقد تقرب البريطانيون من حسين المتردد وتقرب الصهيونيون من بريطانية المترددة (٦١) والقوميون المصريون لم يتعاونوا أبدا مع البريطانيين وكان زغلول ، الذي انضم اليهم عام ١٩١٤ ، عدو بريطانية العنيد ابان سنوات الحرب في حين كان وايزمن يثبت ولاءه لبريطانية . وفي العام ١٩١٩ قاد زغلول انتفاضة جماهيرية ضد بريطانية في مصر . وهكذا فعل غاندي في الهند . وهكذا فعل عرب فلسطين عام ١٩٢٠ وتوضح هذه الاحداث كما توضح القصة الطويلة للنضالات القومية الآسيوية حتى العام ١٩٢٠ أنه كانت في تلك السنة ثلاث حركات قومية على الاقل « ترفض دعم دولة كبرى » وتقاتلها لان هذه الحركات لم تقبل « الحقيقة المتفق عليها » وهي « قوة الامبراطورية البريطانية التي لا ريب فيها وفي عظمتها » . وهكذا فان كلمات كمشي مهمة ومفيدة جدا في القاء الضوء ، من الزاوية الصهيونية ، على الفرق الاساسي بين القوميين الافرو — آسيويين الذين كانوا يقاتلون الامبريالية قبل وبعد الحرب العالمية الاولى والزعماء الصهيونيين الذين

---

٥٩ — المصدر السابق ، ص ٧٤ .
٦٠ — المصدر السابق ، ص ٨٠ .
٦١ — ر. ستورز ، **Orientations** ، لندن ، ١٩٣٧ ، ص ١٧٣

احتموا تحت « المظلة الوقائية (٦٢) »

وكانت المسألة في الاساس مسألة موقف فكري . ولم يشعر الزعماء الافرو ـ آسيويون ـ اتاتورك وغاندي وزغلول ـ بالتبعية لاوروبة . أما الزعماء الصهيونيون كأوروبيين وضحايا اوروبة السياسيين فكان من الصعب أن يشعروا بأي شيء آخر . هذا هو الجواب الحقيقي عن سؤالنا

ويبقى الآن أن نتفحص الحقيقة الثابتة وهي التواطؤ الصهيوني ـ البريطاني وان نرى كيف تم ميثاق ١٩١٧ (٦٣) . ويقع هذا بشكل طبيعي في ثلاثة أقسام : تقديم المساعدة الصهيونية والقبول البريطاني نتيجة دوافع متنوعة والمناقشات والمساومات ألتي تلت حول التفاصيل .

ان المهم في تصريح بلفور ، كما في معظم البيانات السياسية الهامة الاخرى، هو الافتراض الضمني وليس البناء النظري الفوقي . وتضمن الافتراض في هذه الحالـة الكلمات الرئيسية التالية في « الميثاق » « الطوائف غير اليهوديـة الموجـودة في فلسطين » . وبلغ عدد اليهود في فلسطين في العام ١٩١٧ ٥٦٫٠٠٠ أو ٨٪ من السكان ولكن تلك الكلمات وضعت الشعب العربي الفلسطيني في مركز ثانوي مرة والى الابد. فهم لم يكونوا شيئا في حد ذاتهم بل كانوا « غير شيء » آخر ، كانوا غير يهود فحسب. ولا تظهر في اي مكان من النص الطويل لصك الانتداب كلمات « عربي » أو « عربي فلسطيني » فهـذا النص يسمي الاغلبية (٩٠ ٪) بشكل أكثر أدبا « الاجزاء الاخرى من السكان » ويعتبر اليهود مرة ثانية « **الجزء** » من السكان ، هو المعيار والمقياس . ان ما يساوي التغاضي العاطفي الذي تتكشف عنه تلك الكلمات بين القوى الاوروبية واليهود الاوروبيين دهشة هو حقيقة ان المؤلفين لم يشعروا بحاجة الى التستر وهذا انعكاس بدون شك « لقوة وعظمة الامبراطورية البريطانية » ان ما تتضمنه هذه

---

٦٢ ــ ان الصيغة التي يستخدمها كمشي في نقاشه ــ الاعتراف بالتواطؤ الصهيوني ــ البريطاني والادعاء بتواطؤ آخرين ــ آخذة في الانتشار بشكل واضح في الكتابات الصهيونية وهكذا يقول مدافع آخر عن الصهيونية هو القس ج. باركس في كتابه **خمسة جذور لاسرائيل** ، في الصفحة ٦٣ : « صحيح تماما ان تصريح بلفور وقرار التقسيم جاءا من اوروبة واميركة ، ولكن ذلك انما يجعل فلسطين تتمشى والاتجاه العام في الشرق الاوسط في القرن العشرين » . فمصر كانت ــ بالنسبة لباركس ــ من صنع كرومر وليس من صنع محمد علي ، وكذلك صنعت شركات النفط الغربية ثروة العراق والخليج . وهذا مثل آخر على الارتباك الصهيوني في فترة ما بعد الاستعمار ولكن لا توجد هنـــا أيضا في الحقيقة مقارنة بين « التصريح » والتطورات الاخرى . ولم يدع القوميون المصريون كرومر الى مصر مثلما فعل الصهيونيون الذين دعوا بريطانية الى فلسطين . كما لم يتعاون القوميون مع كرومر بل قاوموه على عكس الصهيونيين الذين تعاونوا مع البريطانيين خلال فترة الانتداب . وبالتاكيدلا يمكننا ان نقارن عملية أخذ النفط من الاراضي العربية (بأرباح ضخمة) بعملية وضع اليهود في ارض عربية مقابل وعد سمي بالدعم اليهودي . ويبدو ان كمشي وباركس يعتمدان في ذلك على جهل قرائهم تاريخ مصر . وعلى عكس ما كتبه كمشي فان القوميين المصريين لم يتواطأوا مع البريطانيين ابدا على الرغم من تواطؤ زغلول حتى العام ١٩١٧ فقط . ويجب ان يعي باركس انه على الرغم من اصلاحات كرومر الاقتصادية كانت في مصر معارضة سياسية على الاقل من العام ١٨٩٥ فصاعدا . انظر : توم ليتل ، **مصر** ، لندن ، ١٩٥٨ ، ص ١١٢ ، ١٢٩ ــ ١٣٠ .

٦٣ ــ لقد كتب عدد كبير من الكتب حول تصريح بلفور . والدراسة الدقيقة والواضحة هي كتاب ليونارد شتاين **تصريح بلفور** . كما تجب الاشارة الى كتاب وايزمن **التجربة والخطا** ، ونظرا لعدم الثقة بوايزمن كما اثبتنا فان كتابه مهم في معظم الاحيان من ناحية انه يكشف ما اعتقد وايزمن أنه حدث وليس ما حدث فعلا . ويجب ان تراجع تفاصيل كتاب وايزمن دومـــا في ضوء التصحيحات التي قدمهـــا و. ك. رابينويتش في كتابه **خمسون عاما من الصهيونية** .

الكلمات هو بوضوح أن البريطانيين والصهيونيين كانوا مترابطين معـا في المسألة الفلسطينية ، كانوا هم «اصحاب الامر» وكان العرب هم «الـ آخرون» و «الغرباء».
واذا افترضنا هذا الانحياز الصهيوني الاساسي منذ البداية بالضبط لاصبح كل ما حدث في فلسطين فيما بعد نتيجة له .
وكان الانحياز حتميا بسبب الطريقة التي تم بها « الميثاق » عام ١٩١٧ .
وفكر بضعة أشخاص قبل ميلاد الصهيونية الهرتزلية السياسية بكثير بفكـرة استخدام اليهود في دور سياسي بالتحديد في فلسطين . ومن الثابت تاريخيا أن نابليون اصدر في ٢٢ آذار ١٧٩٩ اعلانا يدعو فيه جميع يهود آسية وافريقية للتجمع تحت راياته لاعادة تأسيس القدس القديمة (٦٤) . وفسر ملك ايطالية ، كما راينا ، هذه الحادثة بعد قرن من الزمان كمحاولة من نابليون لجعل اليهود عملاء له . وهناك بعض الشك حول ما اذا كان هذا الاعلان قد صدر فعلا . ولكن لو افترضنا ذلك لاصبح تعليق المؤرخ الصهيوني التالي ملائما جدا وشديد الصلة بالاحداث اللاحقة : « استعمل بونابرت ، رجل عصره بشكل راسخ ، اللهجة الدارجة بحرية ودعا اليهود امة وبالفعل ذهب ابعد من ذلك تقريبا مانحا اياهم وطنا قوميا في ارض الآخرين وربما لم يكن هناك مفر من هذا ولكنه لم يقل عن كونه صفة مميزة (٦٥) » . ان استعمال اللهجة القومية الدارجة والكرم على حساب ارض الآخرين وتجنيد العملاء وجدت جميعها للمرة الثانية عـام ١٩١٧ .
يبدو ان الصلة السياسية البريطانية الرسمية الاولى باليهود ترجع الى عام ١٨٣٩ عندما طلب بالمرستون من القناصل البريطانيين تقديم الحماية لليهود . ولم يتم بعد ذلك اي عمل بريطاني رسمي قبل لقاء تشامبرلين بهرتزل ، ولكن فكرة مبادرة بريطانية ـــ صهيونية لم تغب كليا ابدا . وفي الاربعينات من القرن الماضي حث حاكم استعماري سابق على الاستيطان اليهودي في فلسطين لتأمين طريق بريطانية الـى الشرق (٦٦) . وقال هولنغورث عام ١٨٥٢ ، في كتابه « ملاحظات حول ظروف اليهود الحاضرة في فلسطين » ، ان اقامة دولة يهودية في فلسطين « لم يكن عملا انسانيا وعادلا فحسب بل ضرورة سياسية ... في تأمين الطريق الرئيسي الى الهند عبر آسية الصغرى (٦٧) » . وربط السير لورنس اوليفانت عام ١٨٧٩ فكرة الاستيطان اليهودي بالحاجة الى تأمين «التغلغل البريطاني سياسيا واقتصاديا في فلسطين (٦٨)». وصعد بناء قناة السويس حساسية بريطانية نحو فلسطين جاعلا بريطانية اكثر تقبلا للمشاريع التي تعد بتأمين امنها ، وكانت الصهيونية احدى هذه المشاريع .
وعند اعلان الحرب العالمية الاولى انتهز اليهود على جانبي خطوط القتال فرصة امكانية تعزيز الحرب لقضيتهم .
وفي ألمانية ، حيث دعم الزعماء اليهود الصهيونيون بقوة الاهداف الحربيـة

---

٦٤ ـ ب. غوادبلا ، **نابليون وفلسطين** ، لندن ، ١٩٢٥ ، وما يتلوه .
٦٥ ـ المصدر السابق ، ص ٣٣ .
٦٦ ـ **Backdrop to Tragedy** ، ص ١٣٦ .
٦٧ ـ هـ. م. كالين ، **الصهيونية والسياسة العالمية** ، لندن ، ١٩٢١ ، ص ٤٩
٦٨ ـ **Backdrop** ، ص ١٣٧

لحكومة القيصر (٦٩) ، قدم بودنهايمر رئيس الصندوق القومي اليهودي مذكرة الى وزارة الخارجية تحث على خلق مناطق يهودية تتمتع بالحكم الذاتي في أوروبة الشرقية علها تساعد في تأسيس دولة يهودية في فلسطين (٧٠)

وتوقع البريطانيون الشيء نفسه فحتى قبل دخول تركية الحرب في تشرين الاول عام ١٩١٤ كتب هرتزل متوقعا أنه بعد النصر « ستقع فلسطين داخل منطقة النفوذ البريطاني وسنتمكن بسهولة من نقل مليون يهودي الى فلسطين خلال الخمسين او الستين سنة التالية وسيكون لبريطانية حاجز فعال (لقناة السويس يحميها من القوى المعادية التي يحتمل ان تأتي من الشمال) وسيكون لنا بلد بلجيكة آسيوية (٧١) »

وهكذا تصور وايزمن منذ البداية بالضبط توحيد المصالح البريطانية والصهيونية في الشرق الاوسط . وكان هذا آخر تعبير عن شيء فكر به وهو في سن الثانية عشرة عندما كتب « وعليه يقع علينا الالتزام بايجاد ملجأ ما لانه حتى في اميركة حيث تعم المعرفة سيضطهدوننا ... لقد قرروا جميعا ان اليهودي مكتوب له الموت ولكن انكلترا سترحمنا (٧٢) »

ولكن الخطوة الاولى نحو التعاون الصهيوني — البريطاني لم تأت من وايزمن ولا من اي عضو آخر في المنظمة الصهيونية في حد ذاتها وانما من عضو يهودي مؤيد للصهيونية في الحكومة البريطانية نفسها هو هربرت صموئيل

وفي التاسع من تشرين الثاني عام ١٩١٤ حاول صموئيل ان يثير اهتمام غراي ، وزير الخارجية البريطاني فطرح له فكرة « احياء الدولة اليهودية هناك (في فلسطين) ». وربط صموئيل الفكرة على الفور بالمصالح الامبريالية مثلما فعل هرتزل . « ظننت أنه يجب أن يلعب النفوذ البريطاني دورا هاما في تشكيل مثل هذه الدولة لان الوضع الجغرافي لفلسطين ، وخاصة قربها من مصر ، يجعل ودها لانكلترة مسألة ذات اهمية للامبراطورية البريطانية » « وقلت أيضا أنه من المفيد جدا أن تضم فرنسة بقية سورية لانه من الأفضل بكثير أن تكون على حدود الدولة قوة اوروبية مجاورة بدل تركية » ، وهذا استمرار مباشر لفكرة هرتزل حول المحمية الموالية لاوروبة

وعرض صموئيل فكرته في ٢٨ كانون الثاني عام ١٩١٥ على رئيس الوزراء البريطاني آسكويث الذي رفضها بسخرية . وفي آذار عام ١٩١٥ عمم صموئيل خطته بشكل معدل على دائرة اكبر مسقطا فيها احتمالات ضم فلسطين الى فرنسة وبقاءها تركية وتدويلها — أو تأسيس دولة يهودية مستقلة ، مؤيدا فكرة « المحمية البريطانية وتشجيع الاستيطان اليهودي » ولم يرد ، على ما يبدو ، في ذهن صموئيل احتمال ان يحكم فلسطين شعبها نفسه

وفي محادثة ثانية بين صموئيل وغراي في شباط عام ١٩١٥ ابدى الاخير « شكا

---

٦٩ — ج. كمشي ، **The Unromantics** ، ص ١٠ ، وكان بينهم ناحوم غولدمان ، رئيس منظمة الصهيونية العالمية حاليا

٧٠ — المصدر السابق ، ص ١٠

٧١ — ل. شتاين ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ — ١٢٧

٧٢ — كروسمان ، **A Nation Reborn** ، ص ١٤ — ١٥

شديدا بامكانية اقامة محمية بريطانية او بالرغبة فيها » . قال غراي : « ربما يكون ممكنا تحييد البلاد » . وأجاب صموئيل على هذا وكأنه لا يتحدث باسم الصهيونيين بل باسم عرب فلسطين الذين يؤلفون « خمسة أسداس السكان » والذين « عبر عن شكه » في أنهم « يمكن ان يقبلوا بحكومة كهذه » . وتابع صموئيل قوله : « وأكدت له خطر أن تملك فلسطين اي دولة غير انكلترة وخطر أن ينتهي قيام حكومة دولية فيها بسيطرة احدى الدول الاوروبية .

وقام صموئيل ببضعة لقاءات اخرى ، بعضها مع لويد جورج ووايزمن ، استنتج منها أن « فكرة الدولة اليهودية كانت غير عملية ... طالما كان العرب يشكلون غالبية السكان » لان « فرض حكومة أقلية يهودية قد يؤدي الى تناقض تام مع احد الاهداف الرئيسية التي أعلن الحلفاء انهم كانوا يقاتلون من أجلها . وفي الوقت نفسه لم يكن ضروريا قبول الموقف القائل بحق السكان المقيمين ، على قلة كثافتهم في اغلاق الباب » . وعليه « كان الراي يتبلور في صالح شيء من قبيل المحمية البريطانية (٧٣) » .

وهكذا تبرز الحقائق التالية من كلمات الرجل الذي خلق ميثاق ١٩١٧ أساسا جاءت المبادرة من الصهيونيين ، قبل منذ البداية بالتقاء المصالح الامبريالية الصهيونية والبريطانية التقاء تاما ، جعلت الغالبية العربية مسألة الدولة اليهودية في فلسطين خارج مجال البحث ، كانت المحمية البريطانية البديل الثاني الافضل ولكن لا يمكن للهجرة اليهودية بمقتضاها ان تغير الوضع الديموغرافي .

ومهما يكن وعلى الرغم من موقف صموئيل واصراره فان جهوده الاولى لم تؤد الى شيء بسبب الوضع العسكري في الشرق الاوسط . وفي أوائل عام ١٩١٧ عندما كان الجيش بقيادة اللنبي على وشك طرد الاتراك من فلسطين أخذ الصهيونيون المبادرة للمرة الثانية . وقدمت في اول شباط عام ١٩١٧ مذكرة الى السيرمارك سايكس مرفقة بطلب للسماح للمنظمة الصهيونية باستعمال البرق والتسهيلات الدبلوماسية في وزارة الخارجية فقبل الطلب على الفور .

وعقد المؤتمر الرسمي الاول بين سايكس وخمسة زعماء صهيونيين في السابع عشر من شباط عام ١٩١٧ مؤذنا باعتراف الحكومة البريطانية بالحركة الصهيونية . وعلى الرغم من انه لم تتخذ قرارات واضحة في هذا المؤتمر الهام الا انه تميز بالاتفاق الكامل في الآراء بين الممثلين البريطانيين والصهيونيين .

ما هي الافكار التي كانت تراود أذهانهم حول مستقبل فلسطين ؟ ماذا قدم الصهيونيون للبريطانيين ؟

أعلن الموقف الصهيوني في رسالتين بعث بهما وايزمن الى سي . ب . سكوت ، رئيس تحرير جريدة «المانشستر غارديان». كتب وايزمن في الثاني عشر من تشرين الثاني عام ١٩١٤ يقول : « اذا وقعت فلسطين داخل منطقة النفوذ البريطاني واذا شجعت بريطانية الاستيطان هناك ، كمنطقة تابعة لبريطانية ، يمكن ان يصبح لنا خلال عشرين او ثلاثين سنة مليون يهودي هناك وربما أكثر وهؤلاء يمكنهم تطوير البلد واعادة المدنية

---

٧٣ ــ هـ. صموئيل ، المذكرات ، لندن ، ١٩٤٥ ، ص ١٤٠ ــ ١٤٥ .

اليه وان يشكلوا حماية فعالة جدا لقناة السويس (٧٤) » .

وكتبت الرسالة الثانية في اذار عام ١٩١٥ وكانت اكثر تفصيلا ووضوحا . يبدأ وايزمن رسالته هذه بالاشارة الى تردد بريطانية في التورط في أي مسؤوليات جديدة ، كما يشير الى الفكرة القائلة بان فلسطين يجب الا تتبع أي دولة كبيرة . فهو يقترح «السبيل الوسط... (وهو) استيلاء اليهود على البلاد وتحملهم عبء التنظيم كله على أن يعملوا خلال العشر او الخمس عشرة سنة التالية تحت الحماية البريطانية المؤقتة ... ان وجود جماعة يهودية قوية على تخوم مصر يشكل مانعا فعالا في وجه اي خطر قد يأتي من الشمال ... وستجد بريطانية في اليهود افضل صديق ممكن وافضل مترجم قومي للافكار يشكل جسرا بين المدنيتين » .

ويشير وايزمن الى « استهزاء » آسكويث بهكذا مخططات كما يشير الى « تردد » غراي . ويختتم كلامه بقوله انه « من الواضح ان ارتباط انكلترة بفلسطين يرتكز على فكرة الوطن اليهودي في فلسطين ، ولكن لو كان الامر من اجل فكرة وطن يهودي لما رحبت انكلترة بفكرة المحمية ـ او الانتداب فيما بعد ـ في فلسطين . وباختصار شعرت انكلترة ان لا شأن لها بفلسطين باستثناء كونها جزءا من خطة لخلق وطن يهودي (٧٥) » .

وعليه اعتقد الزعماء الصهيونيون في السابع عشر من شباط عام ١٩١٧ ان عليهم اقناع بريطانية المترددة نوعا ما ، وبريطانية وحدها ، بالضغط من أجل الحماية على فلسطين لانه كان بامكانهم عقد صفقة معها تؤمن الهجرة اليهودية تحت حماية بريطانية وتؤمن الحماية اليهودية لقناة السويس الواقعة تحت الادارة البريطانية .

ولم يكن ممكنا عقد صفقة من أي نوع مع اي من الذين كان يمكن ان يصبحوا حكام فلسطين في المستقبل . وبكل تأكيد لم يكن ذلك ممكنا مع الاتراك ولا مع حكم دولي ولا مع الفرنسيين . فلم يكن هؤلاء بحاجة لحماية الصهيونية لاي من مصالحهم في الشرق الاوسط من أي خطر يمكن تصوره . ولم يكن لدى الصهيونيين شيء يقدمونه لهم فلماذا يعطون الصهيونيين أي اذن ، مثل الهجرة ؟ ولم يكن لدى الصهيونيين ما يقدمونه ليحصلوا مقابله على الدعم من غير البريطانيين الذين جعلتهم قناة السويس في حالة تشبه النوم المغناطيسي .

وقد أوضح الحاخام غاستر ، الذي تراس اجتماع شباط (الذي عقد في بيته) ، اساس الصفقة الصهيونية ـ البريطانية من وجهة النظر الصهيونية « ان ما اراده الصهيونيون المقيمون في انكلترة وفي كل مكان هو محمية بريطانية يتمتع فيها اليهود بكامل الحقوق في تطوير حياتهم القومية (٧٦) » .

وكانت التوقعات البريطانية متعددة الجوانب كما كانت طويلة الامد وقصيرة الامد في الوقت نفسه . وكانت الاعتبارات الطويلة الامد تتعلق بوضع بريطانية الامبريالي في الشرق الاوسط . ومن حسن حظنا ان احد المشتركين البارزين في هذه الاحداث قد

---

٧٤ ـ وايزمن ، المصدر السابق ، ص ١٩١

٧٥ ـ المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .

٧٦ ـ شتاين ، المصدر السابق ، ص ٣٧٢

اوضح الحجة الامبريالية بشكل تام وصريح ، انه هربرت سايدبوثام المراسل العسكري لصحيفة « المانشستر غارديان » واحد اعظم الصحافيين نفوذا في ايامه بالاضافة الى انه كان صهيونيا متحمسا . وضم كتاب سايدبوثام « انكلترة وفلسطين » الذي صدر عام ١٩١٨ فصلا بعنوان « المصالح البريطانية في فلسطين » يقول : « ان ما يبدو اننا نطالب به، حسب التشبيه بالهند، من اجل دفاع افضل واقل عبئا عن مصر هو دولة تقوم بالنسبة لهذه الجبهة بما قامت به افغانستان بالنسبة للهند » . ان هذا الموقع الدفاعي المتقدم في فلسطين ، « اذا اقام فيه شعب على الدرجة نفسها من التطور السياسي التي نحن عليها ، قد لا يصبح عبئا بل مصدر قوة . ان اليهود وحدهم هم الذين يمكنهم ان يستعمروا فلسطين . وهم وحدهم يستطيعون ان يبنوا في المتوسط دومينيون جديد يرتبط بهذا البلد ، منذ البداية ، في العمل الامبريالي ويكون في الوقت نفسه وقاء في وجه الشرق الغريب ووسيطا بينه وبيننا ... مستهلا حياته الجديدة كأمة مدينة لهذا البلد كأب جديد له ... وكسب القدس ، عاصمة الديانة اليهودية وعاصمة دومينيون الامبراطورية البريطانية ايضا ، بقوة بريطانية يعطي هذا البلد نفوذا عظيما في كل بلدان العالم حيث توجد جماعة يهودية » .

وفكر سايدبوثام بامكانية الحصول على الحماية من دول اخرى . فقد عارض أي حكم مشترك أو تقسيم . « كان التدويل أقل شرا » . ومهما يكن فقد تطلع بلطف الى الاميركيين : « ينسجم اليهود والاميركيون معا جيدا ... فوجود اميركة في فلسطين لا يشكل خطرا على مصر ابدا » ولكنه شك في ان تهتم اميركة بالامر . وبذلك بقيت بريطانية البديل العملي الوحيد (٧٧) .

ولم تثر هذه المصالح الامبريالية البعيدة المدى اهتمام كل من في وزارة الحربية البريطانية . ويسجل وايزمن انه اضطر في اذار عام ١٩١٧ ان يشرح لبلفور ، الذي كان وزيرا للخارجية آنذاك ، « اهمية فلسطين من وجهة النظر البريطانية ، فبدا هذا المظهر جديدا عليه (٧٨) » . وظن بلفور وفقا للمصدر الرسمي ان قيمة التصريح الرئيسية كانت في اثره الدعائي : « يجب ان نقدر على مواصلة الدعاية المفيدة في كل من روسية واميركة (٧٩) » . وكان لهذه الحجة وزن لدى رئيس الوزراء لويد جورج ايضا ، والذي اقر فيما بعد : « كنا متلهفين ان نكسب تأييد اليهود في شتى انحاء العالم الى جانب الحلفاء ... كان تصريح بلفور يهدف الى ذلك الدعم القيم (٨٠) » . وتمنى البريطانيون أن يثير تصريح مؤيد لليهود حماسة اليهود الاميركيين الاغنياء والمتنفذين في سبيل المجهود الحربي ، وان يقنعوا الشيوعيين اليهود في روسية الا يعقدوا صلحا منفصلا مع المانية بالاضافة الى اقناع التجار اليهود في بولندة واوكرانية الا يبيعوا القمح الى المانيا عندما يتم عقد الصلح المنفصل نهائيا . (على الرغم من ان آسكويث نسب الى لويد جورج ايضا الرغبة في ابعاد فرنسة عن فلسطين) .

---

٧٧ ــ هـ. سايدبوثام ، **انكلترة وفلسطين** ، لندن ، ١٩١٨ ، ص ١٨٣ ــ ٢٢٤ .
٧٨ ــ شتاين ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .
٧٩ ــ المصدر السابق ، ص ٥٤٦ ــ ٥٤٧ .
٨٠ ــ هـ. سايدبوثام ، **المصالح البريطانية في فلسطين** ، لندن ، ١٩٣٤ ، ص ٤١ .

لقد ذكر ان بلفور ولويد جورج قد حركتهما ، بالاضافة الى العوامل الاخرى ، الاعتبارات الدينية النابعة من منشأهما البروتستانتي الذي يعتمد قصص العهد القديم . واعترف لويد جورج بتأثير الاعتبارات الدينية عليه (٨١) . اما بلفور فكان له دافع ديني اضافي وهو الشعور بالذنب المسيحي من جراء اضطهاد اليهود . وفي حديثه امام مجلس اللوردات عام ١٩٢٢ طلب بلفور من المجلس ان « ينظر فيما اذا كانت الحضارة الاوروبية كلها ، كل التنظيم الديني الاوروبي ، لم تجد نفسها مذنبة من وقت لآخر بارتكاب جرائم فظيعة ضد هذا العرق (٨٢) . »

كان هذا هو مجموع الافكار والدوافع المتشابكة في الجانب البريطاني في شباط عام ١٩١٧ ــ الدفاع والدعاية والدين والشعور بالذنب . وكما قال لويد جورج « لنكن صريحين تماما : كانت اهدافنا متنوعة ... ولن ادعي انه لم يكن فيها عنصر مصلحي معين ايضا (٨٣) » . ونستطيع ان نقول بالتأكيد وبشكل معقول ان المصلحة تأتي في المقام الاول اذا كانت الحكومة تقاتل في سبيل حياة بلدها واذا كانت عرضة لضغوط قاسية مثلما كانت حال بريطانية في العام ١٩١٧

ونعلم علم اليقين ان المصلحة اتت في المقام الاول في المفاوضات المباشرة بين الرسميين البريطانيين والصهيونيين . لقد كان سايكس امبرياليا الى جانب كونه في شباط عام ١٩١٧ بحاجة ماسة الى المساعدة الصهيونية للتقليل من النفوذ الفرنسي في الشرق . وقد اتضح مستقبل تقدم النفوذ الفرنسي في الاتفاقية التي وقع عليها سايكس نفسه قبل ذلك بشهور .

وعند هذه النقطة تحول العرض الصهيوني والقبول البريطاني من التقاء المصالح غير الفعال الى التعاون المباشر والفعال . ومع أن ميثاق ١٩١٧ صدر في تشرين الثاني من العام نفسه فقد كان عرضا معمولا به من شباط فصاعدا .

وفي ذلك الصباح من شباط كان سايكس وصموئيل ايضا في وضع محير بشدة لانهما وحدهما فقط كانا يعرفان ان مستقبل فلسطين ، الذي جرت المفاوضات حوله مع الصهيونيين ، قد تحدد في اتفاقية سرية ابرمت في ايار عام ١٩١٦ بين فرنسة وروسية القيصرية والتي كان سيدول معظم فلسطين بموجبها ، كانت هذه هي اتفاقية سايكس ــ بيكو المشهورة التي قسمت الامبراطورية العثمانية . ولم تلق تلك الاتفاقية كلمة ودية من احد وتذكر على انها مثال كلاسيكي على النفاق الدبلوماسي . ولكن البريطانيين لم يرضوا ، على اية حال ، عن البنود المتعلقة بفلسطين .

وحتى قبل توقيع الاتفاقية في نيسان عام ١٩١٦ كان سايكس يقترح وجوب حصول بريطانية على موقع في شرقي المتوسط عن طريق تحويل المنطقة الدولية في فلسطين الى منطقة خاضعة للسيادة الانكلو ــ فرنسية المشتركة . ومع حلول ربيع العام ١٩١٧ اتخذت الحكومة البريطانية موقفا ينوي فرض السيطرة البريطانية وحدها على

---

٨١ ــ غواديلا ، المصدر السابق ، الخاتمة ، من وضع لويد جورج ، ص ٤٧ .
٨٢ ــ ا. ج. بلفور ، **خطب حول الصهيونية** ، لندن ، ١٩٢٨ ، ص ٦٠ .
٨٣ ــ غواديلا ، المصدر السابق ، ص ٤٧ .

فلسطين (٨٤) . وهنا جاء دور الصهيونيين الذين لم يريدوا التعامل الا مع البريطانيين في فلسطين .

وفي اجتماع شباط شكا سايكس من رغبة الفرنسيين في ان تكون لهم كلمة في فلسطين في الوقت نفسه الذي « ليستوا فيه مؤهلين لاي شيء هناك » . وطلب من الصهيونيين ان يحاولوا « اقناع الفرنسيين بالتخلي (عن فلسطين) . » وسأل الزعماء الصهيونيون سايكس عما اذا كانت هناك اتفاقية مع فرنسة فأعطى اجوبة غامضة . ولذلك اجاب الصهيونيون ، عندما طلب اليهم ان يحدثوا الفرنسيين حول الموضوع ، ان ذلك يتوقف على البريطانيين .

ومهما يكن فقد عين سوكولوف ممثلا صهيونيا للاتصال بالفرنسيين ، وقدمه سايكس في اليوم التالي بالضبط الى بيكو . وعندئذ قال سوكولوف لبيكو بصراحة « ان اليهود كانوا يفكرون منذ زمن طويل بسيادة الحكومة البريطانية « التي دافعت عن قضيتهم » وكانت اعظم الدول الاستعمارية نجاحا وبذلك « اعظمها ملاءمة لتطوير مستعمرة جديدة (٨٥) » .

وحدث صراع شديد بين البريطانيين والفرنسيين من اجل الصهيونيين . وزايدت فرنسة فعلا على بريطانية بأن اعطت سوكولوف تصريحا في الرابع من حزيران يؤيد « بعث القومية اليهودية » في فلسطين . ولكن الفرنسيين لم يتخلوا عن فلسطين ولم يعط الصهيونيون اشارة الى استعدادهم لتحويل ولائهم عن بريطانية الى فرنسة ومهما يكن فقد حبذ الصهيونيون المعارضة الفرنسية جزئيا وتشجعت بريطانية بذلك على المضي في طريقها منفردة (٨٦) .

وبينما كان سوكولوف يبعد الفرنسيين كان وايزمن يناقش تفاصيل الميثاق مع الزعماء البريطانيين . واتفق لويد جورج ووايزمن في الثاني والعشرين من اذار عام ١٩١٧ على ان حكما مشتركا بين بريطانية وفرنسة غير مقبول وقال وايزمن ان « الادارة الدولية » اسوأ وان الادارة المشتركة مع الاميركيين مقبولة (٨٧) .

وفي مقابلة بين اللورد روبرت سيسيل ووايزمن في الخامس والعشرين من نيسان تم الاتفاق على الستراتيجية البريطانية — الصهيونية لخرق اتفاقية سايكس — بيكو بكل تفاصيلها . وكرر وايزمن ان الصهيونيين يفضلون بريطانية ويعترضون على الحكم المشترك والتدويل والادارة الفرنسية . وقال ان الفرنسيين « لن يدعوا اليهود يطورون طريقة حياتهم » وسيعتمدون على عناصر — مثل رجال الدين الكاثوليك والمسيحيين العرب — معادية لليهود . واجاب سيسيل انه اذا اعلن يهود العالم انفسهم الى جانب الحمية البريطانية فان هذا سيعزز الموقف البريطاني . ووافق وايزمن ووعد بالعمل في سبيل ذلك شرط ان يكون الهدف « فلسطين يهودية تحت حماية بريطانية » فقط (٨٨) . وهكذا تم الاتفاق .

---

٨٤ — شتاين ، المصدر السابق ، ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .
٨٥ — شتاين ، المصدر السابق ، ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .
٨٦ — المصدر السابق ، ص ٣٩٤ — ٤٢١ .
٨٧ — المصدر السابق ، ص ٣٨٣ .
٨٨ — المصدر السابق ، ص ٣٩١ — ٣٩٣ ، وايزمن ، المصدر السابق ، ص ٢٤١ — ٢٤٣ .

ولم تكن المفاوضات المعقدة التالية حول صياغة التصريح بالضبط ذات اهمية مباشرة . وقد اجلت المفاوضات من جهة والاحتجاجات التي تدمها يهود بريطانيون بارزون من جهة ثانية صدور التصريح . وقد حملت هذه الاحتجاجات وايزمن على كتابة رسالة الى وزارة الحربية البريطانية في الرابع من تشرين الاول عام ١٩١٧ اثر فيها الميثاق نهائيا . وذكرت الرسالة فيما ذكرته : « **عهدنا بمصيرنا القومي والصهيوني الى وزارة الخارجية ووزارة الحربية الامبراطورية** على امل ان ينظر في المسألة في ضوء المصالح الامبراطورية والمبدأ الذي يقوم التحالف من اجله (٨٩) . » وهذا ما جعل من الصعب للحكومة البريطانية ان تؤجل مسألة التصريح لفترة اطول .

ان مسألة من سيحكم فلسطين تحددت في ميدان القتال بعد الانتصارات العسكرية التي حققتها القوات البريطانية بقيادة اللنبي الذي دخل القدس في كانون الاول عام ١٩١٧ ، مما جعل من المؤكد قيام وطن قومي يهودي في فلسطين وذلك ، بالتأكيد تقريبا ، تحت الحماية البريطانية التي ارادها الصهيونيون .

وبعد صدور التصريح بقيت خدمة اضافية واحدة توقع البريطانيون أن يؤديها الصهيونيون ـــ والعكس بالعكس ـــ وهي المساعدة في الحصول على الموافقة الدولية في مؤتمر السلام في فرساي على الميثاق البريطاني ـــ الصهيوني وكان من المتوقع ان يكون الدعم الصهيوني على شكل تصريح واضح يبين ان الصهيونيين يفضلون انتدابا بريطانيا فقط يقف في وجه المزاعم والاعتراضات الفرنسية .

واعطى هذا الصهيونيين بعض النفوذ عند البريطانيين استخدمه وايزمن عندما وجد ان سلطات الاحتلال العسكرية البريطانية في فلسطين لم تكن مشجعة جدا لفكرة الوطن القومي اليهودي . وفي رسالة تحذيرية الى بلفور كتبت في ايار عام ١٩١٨ تحدث وايزمن عن مخططاته للدعوة الى مؤتمر يهودي يعقد في فلسطين الذي « لن يمر دون ان يسمع (صوته) في مؤتمر السلام. ولكن امكانية صياغة مطلب واضح وقوي ونموذجي ستتحقق فقط اذا عرف الشعب اليهودي انه قد وضعت اسس الوطن القومي في فلسطين خلال فترة الاحتلال البريطاني » . وادركت السلطات البريطانية في فلسطين بوضوح التهديد الذي تتضمنه الطريقة الجريئة التي تحدث بها وايزمن اذ كتب الجنرال كلايتون ، الضابط السياسي الرئيسي Chief Political Officer عند اللنبي ، عن خطر اغاظة الصهيونيين وبالتالي القاؤهم « بين اذرع اميركة ، واسوأ من ذلك ، بين اذرع المانية . وبذلك توجه الضربة القاضية الى الصهيونية المؤيدة لبريطانية وفي الوقت نفسه الى اي امل في كسب النفوذ الصهيوني في مؤتمر السلام الى جانب فلسطين بريطانيَّة (٩٠) . » وعلى حد قول كمشي « فكان لزاما على الامبراطورية العظيمة ان تتخذ من حاييم وايزمن مدافعا عنها (٩١) . »

وشكلت الامكانية الغامضة لقيام انتداب اميركي على فلسطين القوة البريطانية في وجه الصهيونيين . واضطرب الصهيونيون وبلغ قلقهم درجة اصدروا معها في اوائل

---

٨٩ ـــ وايزمن ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨
٩٠ ـــ ج. كمشي ، المصدر السابق ، ص ٦١ ـــ ٦٣
٩١ ـــ المصدر السابق ، ص ٧٨ .

العام ١٩١٩ كراسا بعنوان « فلسطين يهودية قضية اليهود في اقامة وصاية بريطانية » يهاجمون فيه مزاعم جميع الدول الاخرى . هذه هي حججهم ضد اميركة : اولا ، « ان لدى الاميركي العادي اعتقاد طبيعي بتفوق النموذج الاميركي » بحيث ان الحكومة الاميركية تميل « الى اضفاء الصورة الاميركية على الشعوب الخاضعة لها » . ثانيا ، ان الديموقراطية تعني عادة ايضا في اميركة حكم الاغلبية دونما اعتبار لتنوع الميزات او مراحل المدنية او الخلافات النوعية ... واذا طبق المفهوم الحسابي للديموقراطية الان او في مرحلة مبكرة في المستقبل على الظروف الفلسطينية فان الغالبية التي ستحكم ستكون الغالبية العربية ». وبذلك رفضوا مفهوم الصوت الواحد للشخص الواحد البسيط معلنين الحجة الثالثة الاكثر معقولية « لن يكون في صالح فلسطين اليهودية اجبار اليهود على التدخل لصالحها في السياسة الداخلية الاميركية » . واذا اخذنا بعين الاعتبار حقيقة ان التدخل اليهودي الهائل في السياسة الداخلية الاميركية اصبح فيما بعد عاملا اساسيا في شؤون الشرق الاوسط فان هذا الاعتراض الاخير يبدو ساخرا نوعا ما (٩٢) .

ولم يكن لهذه المخاوف الصهيونية اساس لان الاميركيين لم يكونوا مهتمين كما اذعن الفرنسيون مقابل اطلاق يدهم في سورية .

ويقدم كمشي في كتابه الحديث سببا آخر لايثار الصهيونيين بريطانية على غيرها . فهو يزعم بأن بريطانية وحدها تعترف بالقومية اليهودية لا الالمان ولا الفرنسيين ولا الاميركيين ، ذلك لان البريطانيين شعروا بأن اليهود كانوا دوما غرباء وبقوا دوما يهودا وبذلك ، ومهما تميزوا ، لم يقبلهم البريطانيون كبريطانيين . وهذا مثال اضافي على النظرية الصهيونية القائلة بأن اللاسامية يمكنها ان تفيد تقدم الصهيونية (٩٣) .

وفي الثالث والعشرين من شباط عام ١٩١٩ تقدم الصهيونيون من مجلس العشرة المنبثق عن مؤتمر السلام مطالبين بوطن قومي لهم في فلسطين واقترحوا ان تكون السيادة على فلسطين منوطة بعصبة الامم وان يعهد بفلسطين الى بريطانية العظمى منتدبة عن العصبة (٩٤) . وقبل هذا بالطبع .

ويزعم وايزمن في سيرته الذاتية التي نشرت في العام ١٩٤٩ ، وذلك بلمسة من الغرور ، ان « اليهود هم الذين اعطوا المادة والحقيقة لفكرة المحمية البريطانية على فلسطين ، والتي اتخذت فيما بعد شكل الانتداب (٩٥) . »

ذلك ادعاء عادل تماما لان الانتداب كان فعلا « مادة وحقيقة » الميثاق البريطاني — الصهيوني في العام ١٩١٧ .

ويبقى الآن ان نضع الميثاق في اطاره في غربي آسية داخل الاطار الافرو — آسيوي الاوسع .

وحتمي ان تظهر الاشياء مختلفة جدا . فامامنا هنا مشهد للصهيونيين يأخذون

---

٩٢ — شتاين ، المصدر السابق ، ص ٦١ — ٦٣

٩٣ — كمشي ، المصدر السابق ، ص ٧٠ .

٩٤ — شتاين ، المصدر السابق ، ص ٦١٦ . وايزمن ، المصدر السابق ، ص ٣٠٣ — ٣٠٦ .

٩٥ — وايزمن ، المصدر السابق ، ص ٢٤٣

المبادرة في جر بريطانية المترددة نوعا ما الى الشرق الاوسط ويعملون على اتم الود مع بريطانية لجعل ذلك ممكنا . وكانت بريطانية قبل ذلك منهمكة في « العمل الامبريالي » في مصر والهند ، ومع العام ١٩١٤ كانت تواجه مقاومة قومية قوية في كلا البلدين . وحسب اي وجهة نظر ، باستثناء وجهة النظر الانانية والقصيرة المدى ، كان واضحا انه من الافضل ابعاد بريطانية عن اي ورطات او ارتباطات جديدة في غربي آسية ، وكان هذا في الحقيقة رأي غراي ، وزير الخارجية ، في العام ١٩١٤ . ولكن الصهيونيين فضلوا بريطانية على الرغم من وجود خيارين آخرين امامهم — هما حكم دولي على فلسطين او انتداب اميركي وكانت ايدي الاميركيين انظف نسبيا من ايدي البريطانيين . ولم يحبذ الصهيونيون ايا من هذين الخيارين لانهما ديموقراطيان ويقومان على مبدأ تقرير المصير وينظران على الارجح الى غالبية عربية فلسطينية واقلية غير عربية لا الى يهود وغير يهود . ولم يكن للصهيونيين امل كبير في تغيير افكار حكم دولي او اميركي لانه ، كما سبق وذكرنا ، لم يكن للصهيونيين شيء يساومون على اساسه في حال تبني اي من هذين الخيارين في حين انهم استطاعوا ان يقدموا حماية للمصالح البريطانية في القنال .

وهناك قليل من الشك في انه كان من الممكن ابعاد بريطانية لو شارك الصهيونيون العرب في مقاومة الانتداب البريطاني . وصرح ممثلون عن الغالبية العربية الفلسطينية امام لجنة تحقيق اميركية (لجنة كنغ — كرين) انهم يفضلون المساعدة الاميركية على الحكم البريطاني اذا لم يكن الاستقلال التام ممكنا (٩٦) . وعندئذ فقط يمكن استخلاص مستقبل جزء من غربي آسية من شرك المصالح الامبريالية . ولكن الصهيونيين فعلوا العكس وخدموا وعززوا المصالح الامبريالية لانهم كانوا في اوطانهم داخل الانظمة الامبريالية الاوروبية .

لم تكن اقل المظاهر الغريبة لتصريح بلفور ، « الذي هو اكثر الوثائق استحالة في التاريخ (٩٧) » هو فشله الكلي في تحقيق اي من اغراضه القصيرة الامد . ربما كان ذلك لان التصريح جاء متأخرا جدا ، بسبب الوقت الطويل الذي استغرقته الصياغة — بعد ثمانية شهور صدر التصريح في ١٩١ كلمة — فلم يترك اي اثر على اليهود في روسية شيوعيين كانوا ام تجار قمح ، كما لم يثر حماس اليهود الاميركيين بشكل ملحوظ ، وفي حين انه اثار اليهود في بعض البلدان الاخرى الا ان هذا لم يساعد المجهود الحربي للحلفاء كثيرا . وقد ازيل النفوذ الفرنسي عن فلسطين لا على ايدي الصهيونيين بل بواسطة الوعود البريطانية المرتبطة بسورية . ولو تأخر التصريح ثلاثين يوما اخرى لاعتبر غير ضروري بسبب تقدم الجيش بقيادة اللنبي .

وبالاضافة الى ذلك فان خاصية اخرى من خصوصيات تصريح بلفور هي اعادة تفسير دوافع رعاته واصحابه وخاصة لويد جورج . وقد راينا صراحة تصريحات الزعماء الصهيونيين بأن دوافعهم كانت ردة فعل للاسامية واوضحناها كما فعلنا ايضا بالنسبة لرئيس وزراء بريطانية في ذلك الوقت . وكتب اسكويث يقول ان لويد جورج

---

٩٦ — هـ. هوارد ، لجنة كنغ — كراين ، بيروت ، ١٩٦٣ ، ص ١٠٢

٩٧ — كوستلر ، المصدر السابق ، ص ٤ .

« لم يهتم باليهود او بماضيهم او بمستقبلهم . » وبعد العام ١٩١٩ مباشرة اخذ شعوره بأهمية الصهيونية يقل . وبعدها صرح تصريحين رئيسيين اثنين فقط يتعلقان بأصول الصهيونية وتصريح بلفور ، جوهر احدهما هو ان التصريح صدر عرفانـــا بالجميل لاكتشاف الدكتور وايزمن مادة متفجرة في وقت كانت الذخيرة فيه قليلة بشكل خطر ، وثانيهما هو الادعاء بأن التصريح نشر مقابل العمل الدعائي وليس لاي سبب آخر (٩٨).
ورفض الصهيونيون والمؤيدون للصهيونية كلماته « ليتهموه ، كما اتهم نفسه ، بـــأن اهتمامه العابر الذي لا جذور له بالمسألة لا مبرر له (٩٩) » وهكذا برزت نظريتان :
اولاهما تحليلية ـــ نفسية تقول ان الدافع الرومنطيقي هو الذي حمله على دعـــم الصهيونية (١٠٠) ، وثانيهما تقول انه اعجب جدا بحل هتلر لمسألة البطالة لدرجة تحول معها عن الصهيونية (١٠١) .

وكجزء من محاولة اضفاء الاحترام على الصفقة « غير الرومنطيقية » اكـــد الصهيونيون ايضا على الجانـــب المسيحي للتصريح او على جـذوره في التفاني البروتستانتي تجاه العهد القديم (١٠٢) . وربما كانت هناك احلام خلاصية واثارات وجدانية في عقل وقلب كل من بلفور ولويد جورج ولكن من الاصح بالتأكيد ان نقول ، بكلمات الصهيوني الاممي البريطاني ، ان بريطانية « استثمرت ما كان في مصلحتنا تحيط به هالة من الواجب الدولي (١٠٣) » .

وكتب وايزمن في العام ١٩٢٤ رسالة الى تشرشل يعبر فيها عن ضيقه في وقت كان فيه مستقبل المنطقة قيد المراجعة ويذكره فيها انه على الرغم من « انكم قد اقمتم مملكة عربية كبيرة في بلاد الرافدين فانكم ستضطرون الى الاعتماد على اليهود كعنصر موال لكم . . . ومن الصعب فهم ايجاد ولاء عربي قريبا جدا من المواصلات الحيوية عبر برزخ السويس . وكل ما سمعناه عن الحركة العربية يؤدي بنا الى الاعتقاد انها معادية لاوروبة (١٠٤) » وقد جعلت هذه الآراء احد البريطانيين الذين كتبوا عن حياة وايزمن يشكو من انه « يفترض ان حماية المصالح الامبراطورية البريطانية على قناة السويس هي احدى مهام الامة اليهودية (١٠٥) » ولكن ثبت في العام ١٩٥٦ ان وايزمن كان محقا لان بريطانية وجدت ان في استطاعتها الاعتماد على اليهود « كعنصر موال » لها عندما بدا لها ان الحركة العربية « المعادية لاوروبة » تشكل تهديدا للقنال .

ولولا التواطؤ الاول في ميثاق ١٩١٧ لما حدث التواطؤ الثاني في معاهدة سيفر في العام ١٩٥٦

---

٩٨ ـــ سايكس ، المصدر السابق ، ص ١٢٠ ، ٢٣٢ .
٩٩ ـــ المصدر السابق ـــ ص ١٢١
١٠٠ ـــ كوستلر ، المصدر السابق ، ص ٤
١٠١ ـــ سايكس ، المصدر السابق ، ص ٢٣٣
١٠٢ ـــ زفي فيربلسكي ، **الازمنة الحديثة** ، ص ٣٩ .
١٠٣ ـــ سايدبوثام **المصالح الامبراطورية البريطانية في فلسطين** ، لندن ، ١٩٣٩ ، ص ٣
١٠٤ ـــ كروسمان ، المصدر السابق ، ص ١٢٥
[illegible] ٥٠١

واثناء ذلك الوقت ولمدة عشرين عاما كان هناك تواطؤ يومي اقل اثارة بين البريطانيين والصهيونيين في فلسطين تحت الانتداب

الانتداب البريطاني

سيذكر التاريخ بدون شك العشرين عاما بين الحربين العالميتين على انهافترةهامة جدا في القومية الآسيوية والافريقية الشمالية ففي هــذه الفترة عملت الحركات الجماهيرية بشكل كامل على كل الجبهات وخاضت أعظم معاركها ، عنيفة وغير عنيفة. ولم تتحقق خلال هذا الوقت انتصارات على القوى الاستعمارية لانه لم يحقق اقليم مستعمر واحد حرية حقيقية اذ أعطيت عدة بلدان استقلالا اسميا فقط ومع ذلك فان انهيار الحصون الاستعمارية بتتابع سريع يعود الى القصف والاستنزاف والالغام التي تعرضت لها خلال هذين العقدين .

واذا بدت فترة العشرين سنة بين الاعوام ١٩٠٠ ــ ١٩٢٠ مضطربة فقد كانت هادئة بالمقارنة مع الاضطراب الزلزالي الذي هز آسية وافريقية الشمالية من اقصاها الى اقصاها بين الحربين ، من الفيلبين واندونيسية الى تونس ومراكش . وعندما ندرك المدى والاسس التي امتد اليها هذا الاضطراب عبر القارات والاساس وداخلها ، لفترة ما بين الحربين تصبح هذه الفترة من أعظم بواعث الرعب في تاريخ العالم .

ان كرونولوجيا القومية في البلدان العربية مثيرة الى حد كاف . فقد بدأت مع الانتفاضة الواسعة النطاق في العراق في العام ١٩٢٠ . وفي العام ١٩٢١ بدأ عبدالكريم ثورته في مراكش ونفي زغلول من مصر . وبعد ثلاث سنوات أي في العام ١٩٢٤ اجبر زغلول على الاستقالة من منصب رئاسة الوزراء . وشهد العام ١٩٢٥ بداية ثورة الدروز وقصف دمشق على يد الفرنسيين ودام النضال في سورية خــلال السنتين التاليتين . وفي العام ١٩٢٦ أصبح لبنان جمهورية ، واستسلم عبد الكريم نهائيا . وحل البرلمان المصري في العام ١٩٢٨ بعد ان رفض معاهدة تقدمت بها بريطانية . ولاقى البرلمان السوري المصير نفسه على أيدي الفرنسيين في العام ١٩٢٩ . وفي العام ١٩٣٠ قاتل الليبيون الايطاليين ، واعلنت سورية جمهورية ، وانهارت المفاوضات المصرية ــ البريطانية حــول المعاهدة . وحدثت ثورة أخرى في مراكش في العام ١٩٣٢ والغي الدستور في مصر في العام ١٩٣٤ وفي العام ١٩٣٦ تحركت القوات البريطانية الى منطقة القنال ، وابرمت فرنسة معاهدتي الاستقلال مــع سورية ولبنان وحدث « اهتياج قومي » في مراكش في العام ١٩٣٧ وفي تونس في العام ١٩٣٨ (١٠٦)

كانت هذه الاحداث ذات اهمية خاصة كجزء من حركة ناشطة يوميا بشكل اوبآخر في بلد عربي أو في آخر .

ولم تستثن فلسطين العربية من الحركة القومية العربية العامة بل على عكس ذلك لانه لم يكن في فلسطين عدو واحد بل عدوان أجنبيان : البريطانيون والصهيونيون.

---

١٠٦ ــ ج. روســين ، **The Asian Century** ، لندن ، ١٩٦٢ ان العرض الكرونولوجي للقومية الاسيوية على الصفحة ٤١١ وما يتبعها مفيدة ومثيرة .

وكانت البلدان العربية منشغلة بنضالاتها فلم تقدم الا العون القليل لفلسطين فيما عدا قرب نهاية الفترة حين ازداد العون . ولكن الفلسطينيين أبلوا بلاء حسنا في القتال وحدهم وحققوا نجاحا سياسيا هاما في العام ١٩٣٩

وشهدت فلسطين العنف في السنوات ١٩٢٠ و١٩٢١ و١٩٢٩ و١٩٣٣ و١٩٣٦ ضد الصهيونيين أكثر من البريطانيين احيانا واحيانا ضد البريطانيين أكثر من الصهيونيين واحيانا أخرى ضد الاثنين معا . واستعمل رجال الدعاية الصهيونيون كلمة «مذبحة» المثيرة في وصف العنف العربي ولكن هذا كان بالنسبة للعرب نضالا مستقيما للحؤول دون اغتصاب الاجانب وطنهم . ويعتمد التفسير على وجهة النظر

ووصلت اعمال العنف في العام ١٩٣٦ حـدا وصفها معه مؤرخ بريطـاني بـ « الثورة العربية » (١٠٧) . فقد بدأت باضراب دام ستة اشهر قام به الفلسطينيون رغم البلاد ، ثم تبعته ثلاث سنوات من حرب العصابات : « ومع منتصف العام ١٩٣٨ وقعت مساحات شاسعة من فلسطـين العربيـة تحت سيطرة الثوار » وقدر البريطانيون الخسائر العربية بألف وست مئة قتيل في العام ١٩٣٨ وحده ، وهـذا بالتأكيد ليس رقما صحيحا اذ يميل الى التخفيف (١٠٨) .

وقـد وصفت ثورة ١٩٣٦ الفلسطينية بأنها « ثورة فلاحية تستمد حماسها وبطولتها وتنظيمها واصرارها من مصادر في داخلها (١٠٩) » .

وكتب مؤرخ في ذلك الوقت يصفها بهذه الكلمات : « أعلن عرب فلسطين اضرابا عاما في نيسان عام ١٩٣٦ دام قرابة ستة شهور على الرغم من كل المحاولات التي قامت بها السلطات البريطانية مـن خلال القوة العسكريـة والعمليات الانتقامية لتحطيمها . واقيمت معسكرات اعتقال ضخمة على الطراز النازي المشهور . وخلال الاشهر القليلة الاخيرة اتخذ هذا الوضع شكل حركة قومية ضخمة خاضت نضالا معاديا للحكم البريطاني وحلت محله تدريجيا في مناطق واسعة من فلسطين أصبحت تحت سلطة القوميين العرب ... واتبعت الحكومة البريطانية ولا تزال تتبع سياسة قاسية تقوم على التقتيل والتدمير هادفة بذلك الى تحطيم الشعب الذي يناضل في سبيل حريته . وقد ارتكب هؤلاء الناس أعمالا خاطئة وارهابية كثيرة ولكننا يجب ان نتذكر انهم يقاتلون أساسا من أجل الحرية القومية (١١٠) »

تلك كانت كلمات جواهر لال نهرو الذي نظر بالطبع الى هذه الاحداث من وجهة نظر آسيوية .

وربما يثار هذا السؤال : ماذا كان يفعل الصهيونيون ابان الانتداب البريطاني خلال العشرين سنة هذه ؟ يقول نهرو « لقد فضلوا ان يتخذوا جانب القوة الاجنبية

---

١٠٧ — ج. مارلو ، **The Seat of pilate** ، لندن ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٨ . وهذا افضل كتاب حول الانتداب في فلسطين

١٠٨ — مارلو ، المصدر السابق ، ص ١٥١ ، ومارلو ، **Rebellion in Palestine** ، لندن ، ١٩٤٦ ، ص ٢١٤ . ان الارقام الصغيرة جدا التي يستشهد بها سايكس في كتابـه **Crossroads to Israel** ص ١٨٥ ، تعتبر سخيفة جدا لو لم تكن منحازة بشكل واضح .

١٠٩ — المصدر السابق ، ص ١٣٧

١١٠ — ج. نهرو ، **ملامح من تاريخ العالم** ، لندن ، ١٩٤٢ ، ص ٧٦٦ — ٧٦٧ .

الحاكمة مساعدين اياها بذلك على منع الحرية عن غالبية الشعب (١١١) »
وتم التواطؤ البريطاني ـ الصهيوني على كل المستويات ، وذلك ضمن الاطار العام للدعم المشترك ، تم التواطؤ على صعيد الهجرة ، ومسائل الامن والمسائل العسكرية ، والادارة اليومية للبلاد ، والتشريع ، واستيطان الاراضي ، ومنح الامتيازات ، والسياسة .

وكانت الطائفة اليهودية في فلسطين هي الجماعة الوحيدة في آسية التي تعاونت علنيا وبمحض ارادتها مع دولة امبريالية ، فكراً وعملاً من خلال سياستها وزعمائها المعترف بهم .

وكان التعاون طبعا نتيجة حتمية لميثاق ١٩١٧ اذ لم يكن الانتداب شيئا أساسيا الا تنفيذا لهذا الميثاق وحتى الزعيم المرتد جابوتنسكي كان مؤيدا لبريطانية بشدة وعناد ووضع وايزمن ، الشديد الحب لبريطانية ، الخطوط العامة للتعاون البريطاني ـ الصهيوني وتمسكت الطائفة اليهودية بها في فلسطين بقيادة زعمائها المحليين مثل بن غوريون . وعلى الرغم من ان بن غوريون كان على الدوام يكره وايزمن « وموقفه اللين جدا تجاه البريطانيين » الا انه وافقه حول هذه السياسة الاساسية :
« ان التعاون مع الحكومة المنتدبة شرط اساسي لنمو شعبنا وازدياد قوتنا في البلاد (١١٢) » . وبعد انتهاء الاضراب العربي العام « قال بن غوريون عن الموقف البريطاني المؤيد للصهيونية بلهجة المنتصر انه أعظم نجاح سياسي منذ تصريح بلفور (١١٣) »

وكان تدفق المهاجرين اليهود اهم واعظم مظهر من مظاهر التواطؤ ، وهو ما سماه بن غوريون « نمو شعبنا » . وها هي الارقام تعبر عن نفسها . ففي العام ١٩١٩ خفضت تأثيرات الحرب عدد اليهود في فلسطين الى حوالي ٥٥،٠٠٠ أو ٨ ٪ من مجموع عدد السكان الذين قدر عددهم بـ ٧٠٠،٠٠٠ . وفي احصاء العام ١٩٢٢ بلغ عدد اليهود ٨٣،٠٠٠ او ١١ ٪ . وحسب احصاء العام ١٩٣١ بلغ عددهم ١٧٤،٠٠٠ أو ١٦ ٪ . وفي العام ١٩٤٢ ارتفع العدد الى ٤٨٤،٠٠٠ أو ٢٩،٩ ٪ (١١٤) . واصبح عددهم في العام ١٩٤٨ وقت التقسيم وخلق اسرائيل ٦٥٥،٠٠٠ أو ٣٦ ٪

وازداد عدد اليهود في فلسطين بما مقداره ٦٠٠،٠٠٠ زمن الانتداب بينهم ٤٨٤،٠٠٠ مهاجر (١١٥)

وهكذا ، وعلى الرغم من الاحتجاج الفلسطيني المرير ، فتح البريطانيون ابواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية فازداد عدد اليهود ثلاثة أضعاف من جراء تدفق اليهود

---

١١١ ـ المصدر السابق ، ص ٧٦٥

١١٢ ـ م. بار زوهر ، **النبي المسلح** ، **سيرة بن غوريون** ، لندن ، ١٩٦٧ ، ص ٤٢ . يجب اعتبار زوهر الكاتب الرسمي لسيرة الزعيم الاسرائيلي ، لانه اطلع اطلاعا تاما على مذكرات واوراق بن غوريون السرية .

١١٣ ـ المصدر السابق ، ص ٥٩ .

١١٤ ـ **فلسطين** ، **دراسة في السياسات اليهودية والعربية والبريطانية** ، مؤسسة اسكو ، جامعة بيل ، ١٩٤٧ ، المجلد الاول ، ص ٤٠٤ ، المجلد الثاني ، ص ٦٦٥ .

١١٥ ـ ج دي غوري ، **دولة اسرائيل الجديدة**، لندن ، ١٩٥٢ ، ص ٢٨

الاجانب الذين جاء ٩٠٪ منهم من اوروبة (١١٦) خلال العقد الاول و٨٠٪ خلال فترة ١٩١٩ ــ ١٩٤٨ كلها (١١٧)

حدث هذا التدفق الهائل الى مساحة فلسطين الصغيرة التــي لم يصل عدد سكانها الكلي في نهاية الانتداب الى المليونين . وكان ذلك ممكنا بفضل القوةالبريطانية فقط وخلال فترة الانتداب حقق الصهيونيون بمساعدة بريطانية تغييرا جذريا في الوضع السكاني لفلسطين اشتمل على جلب ما يقارب من نصف مليون انسان، وهي خدمة لا يعترف الصهيونيون بفضل البريطانيين فيها كما يجب .

ان أرقام الهجرة تحطم خرافتين من الخرافات الصهيونية المفضلة ، احداهما قديمة والثانية حديثة . أما الخرافة الاولى فهي « التوق القديم للعودة الى صهيون » وهي القاعدة العاطفية الاساسية للصهيونية . فقد راينا انه خلال العقد الاول من الانتداب حينما اطلقت الحرية التامة في الهجرة لم يستجب للدافع التاريخي للعودة الى صهيون الا ٧٧٠٠٠ يهودي من مجمل يهود العالم البالغ عددهم ١٥ مليونا . وبين العامين ١٩٢٠ ــ ١٩٢٤ ترك فلسطين ١٣٪ من المهاجرين كما غادرها أكثر من ٣٣٪ منهم بين العامين ١٩٢٤ ــ ١٩٢٨ (١١٨) . وفي العقد الثاني كانت اللاسامية ، تلك القوة الدائمة وحدها ، هي التي جاءت باليهود الى فلسطين . وكانت الهجرة منخفضة مع ان السنوات الاولى لم تشهد ضغطا ، فقد بلغ عدد المهاجرين ٩٠٠٠ فــي العام ١٩٣٢ ، وعندما خف الضغط انخفضت الارقام ثانية من ٦١٠٠٠ في العام ١٩٣٥ الى ٩٠٠٠ في العام ١٩٣٧ (١١٩) .

ان سبب عدم جاذبية صهيون هو ان ابواب اميركة الاكثر جاذبية كانت لما تزل مفتوحة . ففي الفترة بين الاعوام ١٩٣٣ ــ ١٩٤٢ ذهب الى اميركة ٧٥٠٠٠ يهودي من المانية والنمسة بينما ذهب ٥٠٠٠٠ الى فلسطين في الفترة نفسها

وبينما يحطم هذا جزئيا الخرافة الثانية القائلة بان الدولة اليهودية ضرورية لليهود كملجأ دائم لهم فان الخرافة تنهار كليا عندما نقارن الاعداد الحقيقيــة لليهود الذين جاؤوا الى فلسطين من مناطق الاضطهاد الحاد مثل المانية بالاعداد الحقيقية للذين قدموا من المناطق اللاسامية العامة مثل بولندة والبلقان . ان اضطهــاد اليهود على يد هتلر ، بعد « العودة » ، اصبح اعظم اسلحة الدعاية الصهيونية قوة مع ان اقل من ١٢٪ من المهاجرين الى فلسطين بين العامين ١٩٣٢ ــ ١٩٣٥ جاؤوا من المانية (١٢٠) . وارتفعت هذه النسبة الى أكثر من ٥٠٪ بقليل في العام ١٩٣٨ فقط (١٢١) . وخلال فترة الانتداب كلها بلغت النسبة ١٢٪ فقط في حين ان نسبة القادمين من بولندة بلغت ٣٦٪ ومن البلقان ١٥٪ للفترة نفسها (١٢٢) .

---

١١٦ ــ اسكو ، المجلد الاول ، ص ٤٠٧ .
١١٧ ــ دي غوري ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .
١١٨ ــ سايكس ، **Crossroads to Israel** ، لندن ، ١٩٦٥ ، ص ١١٠
١١٩ ــ اسكو ، المجلد الثاني ، ص ٦٦٥ .
١٢٠ ــ سايكس ، المصدر السابق ، ص ١٦٩
١٢١ ــ باربر ، المصدر السابق ، ص ٢٣٣ .
١٢٢ ــ دي غوري ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .

يقدم سايكس التفسير لهذا الوضع الغريب « بدا ان الجهد اليهودي الرئيسي يرتبط ، بلا ريب ، بتطور الامور في المانية كان معظم اليهود في فلسطين سلافيين ... وحافظت الغالبية السلافية بالا تفقد رجحان كفتها في الظروف التي تغيرت فجأة في العصر النازي (١٢٣) » وهكذا فان الصهيونيين لم يتحرروا حتى في اخطر الظروف مما يمكن وصفه (بانصاف) بالعنصرية .

وكان تدفق اليهود الى فلسطين ، تحت الحماية البريطانية القومية التي شعر العرب بعجزهم امامها ، أحد الاسباب الرئيسية لثورة ١٩٣٦ وباعث اليأس فيها

وكما يمكن ان نتوقع ، قدم اليهود مساعدة عسكرية للبريطانيين ضد العرب « وسلح البريطانيون الوف الشبان اليهود الفلسطينيين ونظموهم في وحدات اقليمية لحفظ النظام ليصبحوا بذلك نواة جيش يهودي رسمي » هذا ما كتبه كاتب سيرة بن غوريون الرسمية (١٢٤) . وبالاضافة الى ذلك كانت هناك « فرق ليلية خاصة » نظمها اورد وينغيت تلقى فيها « بضعة من ابرز قادة اسرائيل العسكريين بمن فيهم موشي دايان دروسهم العسكرية الاولى (١٢٥) » وأيا كانت الدوافع ، وأيا كان المبرر تبقى الحقيقة ، وهي ان اليهود قاتلوا جنبا الى جنب مع البريطانيين ضد عرب فلسطين

كان يتم التعاون العسكري البريطاني — الصهيوني احيانا وحسب مقتضى الامور . اما التواطؤ السياسي فكان بالضرورة مستمرا . ومرة أخرى نستشهد بكلمات بن غوريون في وصف اسلوب العمل الصهيوني العام فقد أجرى بن غوريون مفاوضات سرية مع بعض الزعماء الفلسطينيين انتهت « برفضه دعمهم في نضالاتهم ضد البريطانيين والفرنسيين . وقال باخلاص تام ... لن نقاتل ضد البريطانيين ، لقد ساعدونا ونريد الاستفادة من مساعدتهم لنا في المستقبل . نحن مخلصون لاصدقائنا .. وقد أعلم بن غوريون المندوب السامي البريطاني باجتماعاته دون ان يذكر اسماء ممثلي الطرف الآخر فشجع على الاستمرار في جهوده (١٢٦) »

رأينا ان الصهيونيين ، يهودا واميين ، قد عارضوا ، قبل صدور تصريح بلفور ، تطبيق مبدأ تقرير المصير واشتد اصرار معارضة الصهيونية لقيام نظام ديمقراطي وحكومة برلمانية على أساس ذلك المبدأ في فلسطين ايام الانتداب .

وجعلت هذه السياسة صهيونيي فلسطين غريبين في آسية من ناحية أخرى ، فعندما لم يلجأ القوميون الآسيويون الى أساليب العنف كان مطلبهم الاساسي هو التقدم الدستوري من خلال منح المجالس المنتخبة ديمقراطيا سلطات اوسع . اما الصهيونيون فقد عملوا بنشاط ضد أي اتجاه من هذا النوع وبما ان البريطانيين لم يعارضوهم في ذلك رغم كونهم أقلية ، لم تتقدم فلسطين باتجاه الحكم الذاتي ابان سنوات الانتداب . وعلى حد قول نهرو « ساعدوهم (ساعد الصهيونيون البريطانيين) على منع الحرية عن غالبية الشعب »

---

١٢٣ — سايكس ، المصدر السابق ، ص ١٢٩

١٢٤ — بار زوهر ، المصدر السابق ، ص ٥٩ .

١٢٥ — سايكس ، المصدر السابق ، ص ٢٢٢

١٢٦ — بار زوهر ، المصدر السابق ، ص ٥٥ .

اتخذت معارضة الصهيونيين لمبدأ تقرير المصير في فلسطين ، بعد تصريح بلفور ، شكل المطالبة بتمثيل متساو بين الفلسطينيين الذين بلغ تعدادهم آنذاك حوالي ٧٠٠،٠٠٠ والاثني عشر مليون يهودي المنتشرين في شتى انحاء العالم . وقال وايزمن، في رسالة كتبها الى تشرشل في العام ١٩٢١ ، انه « رفض اقتراحا لاقامة مؤسسات تمثيلية في فلسطين لانها تعني ، في الظروف الراهنة ، اكثرية هائلة في عدد الاعضاء العرب ... ان هذا الاقتراح لاقامة حكومة برلمانية يهزأ بنا » ، لان الغالبية العربية ستعلن نفسها بالطبع ضد الوطن القومي والهجرة اليهودية . ان ما يطالب به وايزمن هو « اعتراف بمبدأ التمثيل المتساوي بين العرب واليهود في فلسطين في اي نظام تمثيلي يقام كما يطالب بالادراك الواضح ان مصلحة اليهود في البلاد تشمل العالم بأسره وليست محصورة باعداد المستعمرين اليهود الحاليين (١٢٧) » الذين كانوا يشكلون آنذاك ١٠٪ من مجموع السكان

واصبح هذا الاقتراح الغريب سياسة صهيونية رسمية وطرح جديا في كتيب صدر في العام ١٩٢١ عن المنظمة الصهيونية في بريطانية العظمى . واستهل الكتيب بهذه الكلمات « ان احدى التوبيخات التي واجهت الصهيونية ، خاصة في دوائر العمال والليبراليين ، هي انها تعيق منح فلسطين عاجلا مؤسسات الحكم الذاتي . وهذا غير صحيح » ، اما ما اراده الصهيونيون فهو برلمان « يمثل كل العناصر التي يهمها الامر وليس فقط أولئك الذين ينصحون بوجودهم هناك ... ويوجد في الوقت الحاضر ملايين اليائسين الذين يتطلعون الى الاستيطان ويتوقون الى تكريس حياتهم لاعادة بناء فلسطين حالما تسمح لهم الظروف » . وكان من الواجب ان يؤخذوا بعين الاعتبار لانه بعد قبول الوطن القومي « اصبحت فلسطين مصلحة مشتركة بين طرفين : سكان البلاد الحاليين من جهة والشعب اليهودي ككل من جهة أخرى . ان برلمانا فلسطينيا.. يجب ان يمثل الطرفين . وتستطيع ادارة شجاعة ومستنيرة ان تجد بسهولة شكلا من مؤسسات الحكم الذاتي تتفق وهذا المبدأ (١٢٨) » . وكون الفكرة كلها خيالية الى حد القول بأن « ملايين » اليهود كانوا ينتظرون الذهاب الى فلسطين أفقد البريطانيين الجرأة على ايجاد وسيلة « بسهولة » تربط فلسطين بيهود وارسو ونيويورك في بناء دستوري .

ومع ذلك ترك هذا الاقتراح غير المخلص اثره المرجو في فرض فيتو . ولم يقترح البريطانيون ابدا ادخال مؤسسات تمثيلية في فلسطين ولكن هيئات استشارية فقط اعطت مظهر حكومة ديموقراطية ، وقد كان الصهيونيون مستعدين وراغبين في التعاون مع هذه المؤسسات واضعين العرب بذلك في موقف الرفض .

وفي العام ١٩٢١ قبل الصهيونيون مجلسا استشاريا عين جميع اعضائه تعيينا بينما رفضه العرب . وقبل الصهيونيون في العام ١٩٢٢ مجلسا تشريعيا رفضه العرب. وضم هذا المجلس اثني عشر عضوا عربيا منتخبا مقابل اربعة عشر عضوا بينهم ثلاثة يهود منتخبين انتخابا واحد عشر مسؤولا معينين تعيينا . ثم مضت عشر سنوات لم

١٢٧ ـ كروسمان ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ ، ١٣٢ .
١٢٨ ـ الصهيونية ، المصدر السابق ، المنظمة الصهيونية ، لندن ، ص ١٣

يفعل البريطانيون اثناءها شيئا على هذه الجبهة السياسية . وعبر المندوب السام الجديد واكهوب في العام ١٩٣٢ عن رغبته في التحرك باتجاه الحكم الذاتي في فلسطين الا ان رئيس الوكالة اليهودية اخبره ان الصهيونيين يرفضون احياء المسألة الدستورية وان المجلس التشريعي يتعارض والمصالح العربية واليهودية (١٢٩) !

الا ان غضب الصهيونيين ثار حقا عندما اصبح معلوما في كانون الاول من العام ١٩٣٥ ان المجلس المقترح ، رغم صلاحياته الضيقة او المحدودة ، سيضم اربعة عشر عربيا ، انتخابا وتعيينا ، واثني عشر عضوا بينهم سبعة يهود منتخبين وخمسة موظفين معينين (١٣٠) . كانت هذه مجرد خطوة اولى صغيرة جدا في اتجاه الحكم الذاتي ولكنها كانت خطيرة جدا بالنسبة للصهيونيين فاستنكرها المؤتمر الصهيوني حتى قبل عرض الخطة رسميا ، على اساس ان فلسطين لم تكن تهم يهـود فلسطين فحسب بل كل يهود العالم (١٣١) . وطلب العرب مهلة زمنية للنظر في هذا الاقتراح ولكن الحكومة البريطانية ، نظرا للفيتو الصهيوني ، تخلت فجأة عن المشروع كله واستمر حكم فلسطين كمستعمرة .

ان الآراء الصهيونية المطاطة والمناورة حول مبدأ الصوت الواحد للشخص الواحد ، ذلك المبدأ البسيط والمستقيم ، تظهر في شهادة وايزمن امام اللجنة الملكية في العام ١٩٣٧ . وطالب « الا يوضع فيتو على تحول فلسطين الى دولة يهودية اذا شكل اليهود الغالبية في فلسطين في الوقت المناسب » واليهود لم يسعوا للسيطرة على العرب . وعليه فانه اذا « اعطيت الاقلية اليهودية الحالية عددا من المقاعد مساويا لعدد مقاعد الغالبية العربية (في المجلس التشريعي) فلن يطالب اليهود ابدا ، من جهتهم ، بأكثر من عدد مساو مهما بلغت نسبة العرب لليهود في المستقبل (١٣٢) ان ما طرحه وايزمن هو العودة الى اقتراح ١٩٢١ الذي اعطى الصهيونيين والموظفين المعينين تعيينا ، والذين يمثلون اساسا الحكومة البريطانية المؤيدة للصهيونية ، اصواتا اكثر من اصوات الغالبية العربية .

وهكذا بينما شاركت فلسطين في الهياج القومي الذي اجتاح آسية في سنوات ما بين الحربين الا انها اختلفت عن آسية بأنها لم تحقق حركة باتجاه الحكم الذاتي واتخذت بعض الخطوات في ذلك الاتجاه في اماكن اخرى ، مهما كان ترددها وصغرها وكانت معارضة الصهيونيين لتقرير المصير فعالة لان البريطانيين اعتبروا هـذه المعارضة بمثابة فيتو وقبلوا بها كجزء من تفاهم عام وتعاون شامل بين البريطانيين والصهيونيين استمرارا في تحقيق ميثاق ١٩١٧

غموض الاهداف والحدود

اعلنت الحركات القوميـة الافرو — آسيوية مطالبها بوضوح في مواجهاتها ،

١٢٩ — سايكس ، المصدر السابق ، ص ١٧٥
١٣٠ — أسكو ، المجلد الثاني ، ص ٧٨٥ —٧٨٦
١٣١ — المصدر السابق ، ص ٧٨٢ — ٧٨٣
١٣٢ — المصدر السابق ، ص ٨٠١

القوى الامبريالية ، منادية بالحكم الذاتي او الحكم الوطني او الاستقلال ضمن حدود معينة ومعترف بها وخلال وقت معين وعادة حسب برامج زمنية دقيقة. اما الصهيونيون فلم يفعلوا ذلك ابدا

وليس الامر انهم لم يقدموا مطاليبهم حول حدود الدولة اليهودية ومركزها السياسي بل هو انهم قدموا مطاليب متعددة ومتضاربة للسلطات نفسها في الوقت نفسه وللسلطة نفسها في اوقات مختلفة وللسلطات المختلفة في الوقت نفسه . ونحن نعلم ان هذا السلوك السياسي غير العادي كان جزءا من سياسة مدروسة .

ان سياسة الغموض الانتهازي المرن لا تزال قائمة حتى يومنا هذا اذ لا يعلم احد خارطة الحدود التي تكون دولة اسرائيل مستعدة للقبول بها كحدود نهائية محددة .

والتقى في الثاني عشر من ايار من العام ١٩٤٨ عشرة من اعضاء « الادارة القومية » في تل ابيب لوضع المبادىء الاساسية والتنظيم الاداري للمناطق الواقعة تحت السيطرة اليهودية وكان مقررا ان ينتهي الانتداب بعد ثلاثة ايام ، وبسبب القتال بين العرب واليهود لم يستطع عضوان وصول تل ابيب من القدس كما كان عضو آخر خارج البلاد .

وكانت اهم مسالة امام المؤتمر للبت هي اما اعلان الدولة اليهودية او عدم اعلانها . ورغم انها كانت هدف الحركة الصهيونية منذ العام ١٨٩٧ الا ان الكثير من التردد قد وجد عند نقطة اجتياز العتبة الاخيرة . وقد نوقش البديل مطولا وهو قبول هدنة تجمد الوضع السياسي والعسكري ثم طرح على التصويت فعارضه ستة وايده اربعة ومعنى هذا اوتوماتيكيا هو ان الدولة آتية الى الوجود . وهكذا اتخذ القرار النهائي لخلق دولة اسرائيل ، بطريقة ملتوية وفي اجتماع سري وبأغلبية صوتين .

ووفقا للرواية (١٣٣) التي قدمها زئيف شريف ، سكرتير الحكومة الاسرائيلية ، عن الوقائع التالية فان الاجتماع قرر بعد بعض الوقت استعمال صيغة « على اساس قرار الامم المتحدة » وليس « ضمن اطار قرار الامم المتحدة » كما كان قد اقترح في الاصل . ثم جاءت مسالة حدود الدولة . فأيد بعض الاعضاء اعلان الحدود ، اما بن غوريون فعارض ذلك . ويقول شريف : « لم يكن لهذه النقطة اهمية واضحة » اذ انها ، عندما طرحت على التصويت ، نالت اربعة اصوات مؤيدة وعارضها خمسة ، فأسقطتها بذلك اغلبية صوت واحد فقط .

وتظهر رواية بن غوريون (١٣٤) نفسه لهذه الوقائع مناقشة الاشارة الى قرار الامم المتحدة كجزء من بحث مسألة الحدود كما كان يجب أن تكون بوضوح . وبكلمات بن غوريون « كانت المشكلة اما ان تعلن الدولة دون تعيين الحدود أو أن تعين الحدود كما ارستها الامم المتحدة . وكنت أعارض تعيين الحدود مشيرا الى ان اعلان الاستقلال الاميركي لم يعين اية حدود واكدت اننا لم نكن ملزمين بتعيينها . وقد قبلنا بالتأكيد قرار الامم المتحدة دون ان نعلم ما اذا كانت الامم المتحدة ستدعم قرارها في حال تعرضنا لهجوم أو ستتدخل في حال تعرضنا لهجوم من جيراننا وانتصارنا عليهم».

---

١٣٣ ــ زئيف شريف ، **ثلاثة ايام** ، لندن ، ١٩٦٢ ص ١٢٢ ــ ١٢٣ ، ١٣٢ ــ ١٣٣

١٣٤ ــ د. بن غوريون ، **اسرائيل : سنوات التحدي** ، لندن ، ١٩٦٢ ، ص ٤٠ ــ ٤١

وهناك رواية ثالثة (١٣٥) أحدث تضع لمسات اضافية الى صورة ما تقرر في الثاني عشر من ايار . كتب بار زوهار ، كاتب سيرة بن غوريون ، يقول : « بعد مناقشات كثيرة اتفق المجلس على اسرائيل » اسما للدولة بعد ان اقترح تسميتها بصهيون ويهودا). « وحصلت مناقشة حادة اخرى حول تحديد التخوم » فعارض بن غوريون تحديد التخوم بقوله « نحن لسنا ملزمين بتعيين حدود دولتنا . ان العرب يشنون حربا علينا . فاذا هزمناهم سيصبح الجزء الغربي من الجليل والمنطقة الممتدة على جانبي طريق القدس جزءا من الدولة . واذا كانت لدينا القوة ... لماذا نمنع انفسنا ؟ » ولم تكن لدى بن غوريون نية ، كما يقول كاتب سيرته ، في الحفاظ على الحدود الاقليمية للدولة اليهودية كما رسمتها الامم المتحدة . كما كان متأكدا ان الفرص ستسنح بتوسيع رقعة الارض وان اسرائيل ستحقق اهدافها الاولية في النهاية ولو بعد قرون . وبدل اطلاق تصريحات فارغة حول الحدود التاريخية للوطن اليهودي لم يقل بن غوريون شيئا ولكنه انتقل فيما بعد خطوة خطوة باتجاه اهدافه . ولكن لماذا توقف ؟ « يمكن ان يقول بعض الناس انه تنبعث من هذه الاهداف الخفية رائحة الامبريالية ولكن آخرين سموها اتجاها تاريخيا »

وهكذا نجد الصهيونيين في الساعات الحرجة من نضالهم مترددين ومنقسمين حول اعلان الدولة اليهودية أو عدم اعلانها . وبعد مناقشة وانقسام بينهم اعلنوا الدولة ، ورفضوا تعيين حدودها هازئين بذلك بقرار الامم المتحدة على الرغم من حقيقة ان الاساس القانوني للدولة هو قرار الامم المتحدة نفسه

وهاتان المسألتان — طبيعة الهدف السياسي المحددة وحدود اي دولة يهودية ممكنة في فلسطين — بقيتا غامضتين عن قصد على يد الحركة الصهيونية منذ بدايتها وكانت مقررات الثاني عشر من ايار في العام ١٩٤٨ والطريقة التي اتخذت بها تلك المقررات تتفق كليا والتاريخ الصهيوني في الخمسين سنة السابقة ولكنها كانت تختلف كليا عن اسلوب الحركات القومية الاسيوية في مواجهة هذه المسائل .

واعلن المؤتمر الصهيوني الاول الذي انعقد في بازل في العام ١٨٩٧ « ان هدف الصهيونية هو خلق وطن للشعب اليهودي في فلسطين يضمنه القانون العام » . ان في تعهد الحركة الصهيونية الاول هذا خداع مدروس .

يتضح جيدا من الكتيب الاصلي لهرتزل «دولة اليهود» ومن كتاباته الاخرى أنه كان يفكر بدولة قومية لها علمها وحكومتها وقواتها المسلحة وغيرها . ومع ذلك إعلنت الحركة الصهيونية ، بعد سنتين من ظهور كتيب هرتزل ، ان هدفها النهائي لم يكن « دولة » وانما « وطنا » . وتقع مسؤولية الصياغة الجديدة على ماكس نوردو الذي قال في تفسير التغيير : « عملت جهدي من اجل اقناع المطالبين بالدولة اليهودية في فلسطين اننا ربما نجد طريقة تعبر مواربة عن كل ما قصدنا ولكن بطريقة تجنبنا اثارة الحكام الاتراك في الارض المرغوب فيها . واقترحت انا كلمة « وطن » « **Heimstatte** » مرادفة لكلمة «دولة»... هذا هو تاريخ التعبير الذي اثار الكثير من التعليقات والذي كان ملتبسا ولكننا فهمنا معناه جميعا . فبالنسبة لنا اشار الى « الدولة اليهودية » انذاك

١٣٥ — بار زوهر ، المصدر السابق ، ص ١٣٣ — ١٣٤

ولا يزال يشير اليها الان . . . والان ليس هناك سبب لاخفاء هدفنا الحقيقي (١٣٦)» .
وكان هرتزل نفسه مطلعا علـى سر هـذا الخداع . وقال في السر : « لا حاجة للقلق (حول التعبير) . سيفهمها الشعب علـى انهـا « الدولة اليهودية » على اية حال (١٣٧) » .

وهناك بعض الشك حول من الذي كان يخدع . فآحاد هاعام لم يعتبر ان الحكومة التركية مخدوعة وانما اليهود الغربيون الذين روعتهم الشجاعة الطموحة لكلمة «دولة» .
وهكذا ولفترة العشرين سنة التالية بقي الاسهاب الملتبس حول « الوطن فـي فلسطين » هدف الصهيونية الواضح . ولكن ليس تماما . ففي ايار مـن العام ١٩١٧ وقبل تصريح بلفور بخمسة شهور قدم وايزمن هدفا آخر اكثر غموضا . وصرح انـه لم يكن من « السياسة السليمة القول بان الصهيونيين ارادوا دولة يهودية في فلسطين ... ان خلق كومونولث يهودي في فلسطين هو مثالنا الاسمى . . . والطريق الى تحقيقه تكمن في سلسلة من المراحل التحضيرية (١٣٨) » .
ومهما كان معنى « الكومونولث اليهودي » فقد ترك هذا « المثال الاسمى » ليفسح المجال امام هدف آخر على الدرجة نفسها من الغموض .
وتطالب المذكرة التي قدمها الزعماء الصهيونيون بمن فيهم وايزمن الى سايكس في السابع عشر من شباط في العام ١٩١٧ « بالاعتراف (بفلسطـيـن) وطنا قوميـا يهوديا » . وهذا التعبير من وضع سوكولوف وقد اضيف اليه في تصريح بلفور ليصبح « وطنا قوميا للشعب اليهودي (١٣٩) » .
ماذا كان يعني « الوطن القومي » ؟ اعتمد ذلك كليا على الشخص الذي يستعمل الكلمات . واكد الزعماء الصهيونيون لسايكس انه لم يعن جمهورية يهودية . وقد اثر هذا التأكيد كثيرا على الوزارة البريطانية في صالح تصريح بلفور (١٤٠) . ولكن اثنين على الاقل من اعظم اعضاء الوزارة ، لويد جورج وبلفور ، كان لهما تفسيرات اخرى مختلفة تماما فقد نقل عنهما قولهما في العام ١٩٢١ « انهما كانا يقصدان بالتصريح دوما دولة يهودية في النهاية (١٤١) » .
تلك هي الاختلافات في التفسير بين الزعماء البريطانيين الذين كانوا على صلـة وثيقة بالصهيونيين ومنحازين لهم . ولكن الاكثر من ذلك تشويشا بالطبـع هي تلك التناقضات والتنوعات في التفسير في صفوف الصهيونيين انفسهم .
واحتج سوكولوف واضع التعبير في العام ١٩١٩ بان « المعادين للصهيونية كانوا يكررون بعناد مرارا ان الصهيونية تهدف الى خلق (دولة يهودية) مستقلة . ولكن هذا خداع تماما ، اذ لم تكن (الدولة اليهودية) ابدا جزءا من البرنامج الصهيوني (١٤٢)» .

---

١٣٦ ــ مقالة كتبها نوردو في العـام ١٩٢٠ واقتبسها سايكس في كتابه ، **Two Studies** ، ص ١٦٠ . وادلى نوردو باعتراف مشابه الى اسرائيل زانغويل ، **Jewish Standard**، ١٩٤٤/١/٢٨
١٣٧ ــ ج دي هاس ، **تيودور هرتزل** ، شيكاغو ١٩٢٧ ، المجلد الاول ، ص ١٩٤
١٣٨ ــ نقل في كتاب سايكس ، **Two Studies** ، ص ٢٢٦
١٣٩ ــ شتاين ، المصدر السابق ، ص ٣٦٩
١٤٠ ــ سايكس ، المصدر السابق ، ص ٢٢٥ .
١٤١ ــ ر . ماينرتسهيغن ، **Middle East Diary** ١٩١٧ ــ ١٩٥٦ لندن، ص ١٠٢ ــ ١٠٤
١٤٢ ــ سوكولوف ، **تاريخ الصهيونية** ، المجلدالاول ، ص ٢٤

وقال وايزمن في السنة نفسها امام مجلس العشرة المنبثق عن مؤتمر السلام بأن الصهيونيين يرجون لفلسطين « قومية يهودية بقدر ما كانت الامة الفرنسية فرنسية والامة البريطانية بريطانية . وعندما يشكل اليهود فيما بعد الاغلبية الكبيرة سيصبح باستطاعتهم اقامة دولة تستجيب ... لمظهم (١٤٣) » .

وفي السنة نفسها بعث صموئيل فكرة « الكومونولث » . « ربما تصبح (فلسطين) كومونولثا يحكم نفسه تماما برعاية غالبية يهودية راسخة (١٤٤) » .

وقبل ذلك بشهور اعطى وايزمن انطباعا للسلطات البريطانية في فلسطين في العام ١٩١٨ انه كان يأمل « بفلسطين يهودية تماما خلال خمسين سنة وبفلسطين يهودية وراء واجهة بريطانية بعض الوقت (١٤٥) » .

ومع ذلك اطلق وايزمن تصريحات كثيرة جدا مناقضة لذلك لدرجة ان احد اقسى نقاده اتخذ منها نقطة حمل عليه بسببها لان هرتزل كان مع فكرة الدولة بينما كان وايزمن ضدها (١٤٦) .

وليس من المدهش ان تصريح بلفور بغموضه هذا في الاساس لم ينشر رسميا كما لم يشر اليه رسميا في فلسطين خلال العامين ١٩١٨ و ١٩١٩ .

واعطت الحكومة البريطانية في العام ١٩٢٢ تفسيرا علنيا للتصريح وللوطن القومي اليهودي . وقال الكتاب الابيض ان هذا لم يعن « فرض القومية اليهودية على سكان فلسطين ككل » بل ان تصبح فلسطين « مركزا يجد فيه كل الشعب اليهودي مصلحة وفخرا على اساس الدين والعرق » .

ويمكن تفسير هذه الكلمات على انها تفرض قيودا هامة على المطامح الصهيونية ولكن المنظمة الصهيونية قبلت رسميا على اية حال بالكتاب الابيض (١٤٧) . واعاد الكتاب الابيض للعام ١٩٢٢ الصهيونية في الحقيقة الى فكرة آحاد هاعام في المركز الحضاري — الروحي . ومنذ ذلك الحين لم يتلاعب الصهيونيون بالكلمات لان البريطانيين سمحوا بالهجرة اليهودية ، وهي المهم حقا بالنسبة للصهيونيين .

وجاءت المناسبة الثانية التي اتيحت فيها الفرصة للصهيونيين ليعلنوا اهدافهم ويحددوا مطلبهم في العام ١٩٣٧ . وقال بن غوريون في شهادته امام اللجنة الملكية ان الصهيونيين لم يريدوا دولة يهودية لاسباب ثلاثة : ربما تتضمن الدولة اليهودية سيطرة الغالبية اليهودية على الاقلية ... (والدولة اليهودية) ترغب في ان تكون عضوا في الكومونولث البريطاني ... نحن لا نريد وليس في مصلحتنا تحمل مسؤولية الاماكن المقدسة (١٤٨) » .

وكانت آخر مرة حدد فيها الصهيونيون اهدافهم قبل خلق اسرائيل في المؤتمر الذي عقد في ايار من العام ١٩٤٢ في نيويورك والذي تبنى برنامج بلتمور . وتوصل المؤتمر الى اتفاق تام حول نقطة واحدة : يجب الغاء كل القيود المفروضة على الهجرة

---

١٤٣ — وايزمن ، المصدر السابق ، ص ٦٢٥ .
١٤٤ — المصدر السابق ، ص ٦٢٥ .
١٤٥ — ملاحظة سرية عن هوغرث ، آب — ايلول ١٩١٨ ، نقلها كمشي، المصدر السابق ، ص ٦٧
١٤٦ — رابينويتش ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .
١٤٧ — سايكس ، Crossroads ، ص ٩٢ .
١٤٨ — لسكو ، المجلد الثاني ، ص ٨٠١ —٨٠٢ .

(القيود التي فرضت في العام ١٩٣٩) ويجب جعل اليهود غالبية في فلسطين في اسرع وقت ممكن . وكان القرار السياسي « بجعل فلسطين كومونولثا يهوديا » . ولم تتحدد معاني هذه الكلمات الا انه اتضح من خطاب بن غوريون انها كانت تعني بالنسبة له دولة يهودية . ورفض بن غوريون المساواة مع العرب كما رفض قيام دولة ثنائية القومية على ان دولة من هذا النوع تقوم بحكم نفسها بدون دولة منتدبة تعني ورطة دائمة (١٤٩) . ان هذا الرفض بالاضافة الى المطالبة بغالبية يهودية يعني دولة يهودية فقط ، لكن احدا لا يصرح بهذا .

ويتساءل كاتب سيرة بن غوريون بحق : « لماذا كومونولث وليس دولة ؟ » ثم يجيب : « ان في ذلك غموضا ساعد بن غوريون التكتيكي المراوغ . وهناك ثلاثة معان ممكنة : جمهورية مستقلة ، ودومينون داخل اطار دولي ؛ وبلد في « اتحاد دول فيدرالي » وأي واحد من هذه المعاني كان يلقى قبولا عند بن غوريون (١٥٠) » .

يمكننا هذا التوضيح الرسمي « للغموض » الصهيوني ، في العام ١٩٤٢ ، من تحديد هذه الميزة الملازمة للحركة الصهيونية ببعض الدقة . وتشهد كل حركة قومية ، مثل الحركات القومية الافرو — آسيوية خلال الجيلين الماضيين ، تعرجات وتراجعات وانطلاقات الى امام ، « خطوتان الى الامام وخطوة الى الوراء » . اما هدف هذه الحركات فبقي دوما ثابتا وهو رغبة علنية واضحة في الاستقلال التام . اما في الحركة الصهيونية فقد تغيرت صورة الهدف نفسه بحيث سمي استقلالا في دولة يهودية أحيانا ، واحيانا اخرى شبه استقلال في وطن قومي واحيانا لم يسم دولة بالمرة بل وطنا حضاريا .

ولم يكن هذا محيرا فحسب بل خادعا ايضا لانه على الرغم من هذه التصريحات العلنية بقي هدف الحركة الصهيونية الحقيقي والسري دائما دولة يهودية في فلسطين . ولم تكن الاوصاف المتنوعة التي اطلقت على ذلك الهدف تكيفا مع الظروف المتغيرة وانما كانت تحولها للهدف الحقيقي . وقد كيف الصهيونيون انفسهم فعلا مع الظروف السياسية بطريقة واحدة : عندما كانت الظروف مناسبة وصفوا هدفهم باسمه الحقيقي اي الدولة اليهودية وعندما لم تكن الظروف مناسبة اسموه كومونولثا او وطنا قوميا .

ويتضح ان هذا الهدف لم يتغير، من حقيقة استمرار الهجرة اليهودية الى فلسطين. فالهجرة كانت أهم عامل في سبيل تحقيق الغالبية اليهودية وبالتالي قلب الوضع الديموغرافي قلبا اساسيا . ولم ينكر صهيوني ابدا ، عند السؤال ، هذا المبدأ الاساسي في معتقدهم والذي لم يوضع في المقدمة قبل نهاية الانتداب . ولم يستنتج الصهيونيون واصدقاؤهم طوعا النتيجة الواضحة وهي ان قيام غالبية يهودية في فلسطين يعني حتما سيطرة اليهود سياسيا واقتصاديا .

وسبب عدم التوصل الى ذلك الاستنتاج هو ان المهاجرين قدموا باعداد صغيرة بحيث بدا بلوغ الغالبية بعيدا جدا كما لم تكن هناك فائدة من تعزيز المخاوف العربية . الا ان اللاسامية ، على حد قول هرتزل ، عنيت في النهاية بذلك النقص في المهاجرين .

---

١٤٩ — اسكو ، المجلد الثاني ، ص ١٠٨٠ —١٠٨٥ .
١٥٠ — بارزوهار ، المصدر السابق ، ص ٦٨ .

ومن المسلم به الان ان الخداع قد مورس بشكل ثابت . فقد اشار نوردو في العام ١٩٢٠ الى « مراوغته » هو في العام ١٨٩٧ . كما اعترف الصهيوني المتحمس الحاخام سولومون شكتر في العام ١٩٠٦ ، عندما كان رئيسا لمعهد اللاهوت اليهودي في نيويورك : « كانت اللغة التي استخدمها الزعماء غامضة احيانا وغير محددة تماما في اعلان هذا المبدأ (الحياة القومية المستقلة في فلسطين) ، وذلك بسبب وضوح المسألة والبيئات التي نشأ فيها هؤلاء الزعماء حيث كان كل شيء يهودي بحاجة الى دفاع عنه، وليس بسبب اي شك حول الهدف النهائي للصهيونية ، كما اختمرت صورته في اذهان غالبية الصهيونيين (١٥١) » .

ويقول كريستوفر سايكس ، وهو كاتب شديد التأييد للصهيونية ، ان والده السير مارك سايكس ، وكان من اصدق اصدقاء الصهيونيين واعظمهم نفوذا على الاطلاق ، كان ضحية النفاق الصهيوني في العام ١٩١٧ (١٥٢) . ويقول بار زوهار ان«الغموض» في العام ١٩٤٢ ، ساعد بن غوريون في تكتيكاته .

وهكذا اتخذت الصهيونية منذ بدايتها مظهر « حركة مشكوك في استقامتها » في هدفها الاساسي ، هذا الهدف الذي لا تحتاج حركة قومية تستحق الاسم ان تكون مخادعة فيه .

ولكن هدف الصهيونية اضطرها ان تكون مخادعة وعلى نحو متزايد لانه بعد العام ١٩١٩ ولسنوات كثيرة قبل ذلك عارضت الغالبية العربية ان تتحول الى اقلية . كيف تجرأت الصهيونية ان تعترف علنا بأن ذلك هدفها في عصر الديموقراطية وتقرير المصير ومقاومة الاستعمار ؟ لقد حذر بنسكر في العام ١٨٨٢ : « وسنبقى نخطط من غير ان نستشير اصحاب العلاقة . اذ اي بلاد ستسمح لنا ان نشكل امة داخل حدودها ؟ (١٥٣) » ولم تكن فلسطين العربية بالتأكيد مستعدة للسماح بذلك

واختلفت الصهيونية لذلك السبب وربما ايضا بسبب « البيئة التي نشأ فيها هؤلاء الزعماء » عن الحركة القومية البسيطة والمستقيمة لكونها غير بسيطة وغير مستقيمة في هدفها الاساسي . ولذلك كان التردد في تل ابيب ، في ١٢ ايار في العام ١٩٤٨ ، صفة مميزة ومفهومة . ولم تكن الصهيونية اكثر صراحة حول رسم الحدود المفصلة للدولة اليهودية .

وبما ان الصهيونيين اعتبروا دوما وبلا شك ارض صهيون ملكا لهم لا ينتقل الى غيرهم — الم يقل هرتزل نفسه انهم « اصحاب الارض بالوراثة ؟ » — فانهم حاولوا دوما المطالبة بأوسع حدود ممكنة لها .

الا ان هذه الحدود كانت تتكيف مع الظروف . فقد امتدت حدود الدولة اليهودية وتقلصت وفقا لتطور الاحداث تماما كما كان الهدف الصهيوني يكشف ويحجب وفقا للتطورات .

وقد اعطى كاتب صهيوني صورة حية لمرونة المطالبة الصهيونية بالحدود . تل

---

١٥١ — شكتر في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٥٠٥

١٥٢ — سايكس ، **Crossroads** ، ص ٢٤

١٥٣ — بنسكر ، **التحرر الذاتي** ، ص ٤٠ .

نورمن بنتويتش : « قارن الحاخامون فلسطين بالايل الذي ينمو جلده عندما يغـــذى جيدا» ، (ويتقلص طبعا عندما لا يغذى جيدا) . « وهكذا ستنمو مساحة الارض ذاتها بازدياد السكان (١٥٤) » .

وقال اللورد بايكون الشيء نفسه بصراحة اكثر نوعا ما : « تنمــو الشهية بمـــا تتغذى به » .

وفاوض هرتزل نفسه وفقا لنظرية الايل . فعندما سئل في العام ١٨٩٨ حول مـــا اذا كانت حدود الدولة اليهودية في فلسطين ستصل بيروت شمـــالا او ستتجاوزها اجاب : « سنطلب ما نحتاج اليه ــ فكلمـــا كثر المهاجـــرون ازدادت الحاجة الى الارض (١٥٥) » . الا ان السؤال اثار تفكيره فناقش بعد ايام صديقا له حول المطالب الصهيونية ثم ابدى ملاحظة : « المساحة : من نهر مصر الى نهر الفرات (١٥٦) » .

وتتألف المطالب الاقليمية الصهيونية من ثلاثة انواع : دينية ، وتاريخية علمانية ، وصهيونية سياسية .

ينادي المطلب الديني بالمساحة التي ذكرها هرتزل والتي تمتد من وادي العريش الى الفرات . وهذه هي المنطقة ، على حد زعمهم ، التي « وعد » يهوه بها شعبه المختار ، ولا يزال ينادي بها الجناح الديني الاورثوذوكسي داخل الحركة الصهيونية . الا ان الحدود الجغرافية الدقيقة كانت ولا تزال موضع نقاش غير متناه بين رجال اللاهوت .

وينادي المطلب التاريخي العلماني الاساسي بالمنطقة الفلسطينية الممتدة من دان الى بئر السبع ، حيث عاش اليهود . ويرغب « الصهيونيون السياسيون » هذه المنطقة مثاليا بالاضافة الى المنطقة المجاورة لمواجهة الحاجات الحديثة مثل الاقتصاد الحيوي والامن العسكري . وتقول وجهـــة النظر الاقتصادية بضم منطقـــة حوران (في سورية حاليا) بسبب حقول القمح الخصبة فيها ، وكذلك منابع الاردن وثلوج جبل حرمون ونهر الليطاني ونهر اليرموك ومجرى جبوق (وجميعها الان في لبنان وسورية والاردن) لتقديم المياه للري والطاقة الكهربائية . وكانت منطقة جلعاد الواقعة شرقي نهر الاردن (الآن في الاردن) ستقع داخل هذه الحدود لانها مصدر الخشب الوحيد المتبقي ، واهتم بشرقـــي الاردن والنقب على انهما المنطقتان الوحيدتان اللتان تضمان مناطق غير مزروعة .

وتقول الاعتبارات العسكرية بضم ممر الغزو عبر شمالي البقاع (الآن في لبنان) وحوران واليرموك والمنطقة التي يخترقها خط حديد الحجاز القديم من عمان الى درعا ــ وخط الحديد هذا ضروري لتموين « الجبهة الشرقية (١٥٧) . » وشملت المطامع في الجنوب شرم الشيخ ومضائق تيران ، كما تغري اجزاء من سيناء ايضا بضمها لتشكل حصنا في وجه « العدوان المصري » .

ومن الممكن الاعتقاد بأن هذا يزيد جلد الأيل كثيرا باضافة مناطق تبلغ اضعـــاف

---

١٥٤ ــ نورمن بنتويتش ، «مستقبل فلسطين» في **Zionism and the jewish Future** ص ٢٠٢
١٥٥ ــ هرتزل ، **المذكرات** ، ص ٧٠١ .
١٥٦ ــ المصدر السابق ، ص ٧١١ .
١٥٧ ــ هـ. ف. فريش فاسر ــ رعنان ، **تخوم امة** ، لندن ، ١٩٥٥ ، ص ٨٦ ــ ٨٧ .

المنطقة الاصلية التي تمتد من دان الى بئر السبع ــ وكل ذلك لاسباب معقولة مثل الحصول على « تخوم طبيعية » او « حدود آمنة » للدولة اليهودية . وعلى سبيل المثال، اصر اسرائيل سيف (اللورد سيف حاليا) بغضب في العام ١٩١٦ على ان الدولة اليهودية ، بدون « حوران كلها وخط حديد الحجاز » ، تعني فلسطين محصورة « وليس لها اي امل في التوسع » وعرضة لتهديد العرب « مما سيجعل مركزنا شرقي الاردن مقلقلا كل الوقت (١٥٨) » .

واعتقد البعض انه يمكن ان يمتد جلد الأيل اكثر من ذلك ايضا . وسأل غراي ، وزير الخارجية البريطانية في العام ١٩١٤ ، صموئيل عما اذا كانت سورية ستتبع فلسطين . فأجاب صموئيل بحصافة ان بيروت ودمشق لن تقعا داخل الدولة اليهودية لانهما « تضمان عددا كبيرا من السكان غير اليهود لا يمكن تمثلهم (١٥٩) » .

وكان في العام ١٩١٦ آخرون تحركهم احلام الصهيونية الخلاصية على الرغم من انهم كانوا صهيونيين سياسيين . « لا حاجة لفلسطين اليوم ان تنحصر ضمن حدودها التاريخية ، وربما يشمل الاستعمار اليهودي كل المنطقة التي شملها الوعد ... من المتوسط الى الفرات ومن لبنان الى نهر مصر ... ويحتمل استصلاح نجاد جلعاد وموآب والسهول التي تمتد الى دجلة والفرات وذلك بواسطة المغامرة والنشاط اليهوديين » . هكذا كانت احلام نورمان بنتويتش (١٦٠) الذي عين بسببها او رغما عنها في المركز القضائي الاعلى الثاني في فلسطين اي نائبا عاما في حكومة الانتداب البريطانية . ويجب ان نضيف انه اختتم حلمه بهذه الكلمات : « وليس من المتوقع ان يتمكن اليهود من احتلال البلاد والاستيلاء عليها كلها » . ولا شك ان بنتويتش ، كمحام ، استخدم كلمتي « احتلال » و « استيلاء » متعمدا

وحث سايدبوثام ، الصهيوني الأممي الذي كان ينظر الى الامور من الناحية العسكرية ، على « وجوب حصول اليهود على حوران وبصرى (الآن في سورية) كمركز لحركة المرور من الشمال الى الجنوب ومن فلسطين الى بلاد الرافدين . وهنا يحتمل ان تجد الدولة اليهودية بديلا عن دمشق اذا تعذر الحصول على هذه المدينة الشهيرة (١٦١) » .

وحدد الصهيونيون ، في تشرين الثاني من العام ١٩١٨ ، على خرائط الدولة اليهودية في فلسطين منطقة تفوق مساحتها مساحة فلسطين التي خضعت للانتداب بكثير . وطالب الصهيونيون بما يعرف الآن بلبنان الجنوبي كله حتى نهر الليطاني ؛ ومصادر مياه نهر الاردن كلها ومنطقة حوران بكاملها في جنوب غربي سورية « حتى نقطة تقع جنوبي منطقة دمشق تماما » ، ومنها جنوبا ، ولكن غربي خط حديد الحجاز ، الى خليج العقبة ومنها الى العريش (١٦٢) .

وعلى الرغم مما تنم عنه هذه الخريطة من اطماع الا انها لم تكن الكلمة الاخيرة

---

١٥٨ ــ كمشي ، المصدر السابق ، ص ٢٧
١٥٩ ــ صموئيل ، **المذكرات** ، ص ١٤١
١٦٠ ــ بنتويتش ، المصدر السابق ، ص ٢٠١ .
١٦١ ــ سايدبوثام ، **انكلترة وفلسطين** ، ص ١٩٥ وما بعدها
١٦٢ ــ فريش لماسر ــ رعنان ، المصدر السابق ، ص ١٠١

في المزاعم الصهيونية . ثم امتد جلد الأيل مرة اخرى . فقد اقترح صموئيل حدودا ابعد شمالا في لبنان وقبل اقتراحه . وهكذا ابرزت الخريطة النهائية خطا يبدأ من نقطة جنوبي ميناء صيدا تماما ويمتد الى نقطة اخرى تقع « حوالي عشرين كيلومترا جنوبي دمشق » ومنها الى العقبة . وكانت الحدود الجنوبية ــ الغربية مثيرة للاهتمام اذ قالت المسودة المعدلة عنها ببساطة انه « يمكن تحديد هذا الخط عن طريق المفاوضات مع الحكومة المصرية » . لماذا ؟ لان الصهيونيين كانوا يأملون الا تقف الدولة اليهودية عند « نهر مصر » او عند وادي العريش بل ان تمتد لتشمل سيناء بكاملها (١٦٣) .

وقدمت هذه الخريطة الموسعة مفصلة الى مؤتمر السلام في العام ١٩١٩ لانها تبقى بلا ريب تقريبا الهدف النهائي للدولة اليهودية وهو هدف تحقق في حرب العام ١٩٦٧ والى حد بعيد . وهكذا تقدمت القوات الاسرائيلية ابان حرب حزيران وبعد اعلان وقف اطلاق النار على الجبهة السورية بسرعة واستولت على بعض منابع نهر الاردن وجزءا كبيرا من منطقة حوران . وبالطريقة نفسها تقدمت تلك القوات بعد وقف اطلاق النار على الجبهة المصرية لتتم احتلال ٩٩٫٩٪ من سيناء .

وفي الفترة بين تشرين الثاني ١٩١٨ واذار ١٩٢٣ حصلت مشادة بين البريطانيين والصهيونيين من جهة والفرنسيين والعرب من جهة ثانية حول مسألة الحدود . وقد عمل البريطانيون والصهيونيون كفريق واحد ــ فرض صموئيل الآراء الصهيونية على الوفد البريطاني ، وقابل فيلكس فرانكفورتر بلفور ، والح وايزمن على اللنبي ، كما دعي الفيلسوف اليهودي الفرنسي برغسون ليساعد في مسألة الحدود وكان التواطؤ البريطاني الصهيوني اوضح ما يكون في هذه المفاوضات وكان اساس التواطؤ بسيطا تماما ــ حث الصهيونيون البريطانيين على المطالبة بمزيد من الارض لمنطقة انتدابهم وذلك لان الصهيونيين كانوا سيستولون عليها في النهاية في الدولة اليهودية التي ارادوا لها مجالا واسعا للعمل ومصادر اقتصادية وحدودا يمكن الدفاع عنها . ولم يعارض البريطانيون بدورهم تعزيز نفوذهم في الشرق الاوسط من خلال الصهيونية بفرض حاجات حلفائهم الصهيونيين على فرنسة .

وهكذا اعلمت وزارة الحربية البريطانية في تشرين الثاني من العام ١٩١٩ سوكولوف بانها ستساعد في طرح قضية الحدود الشرقية . وبعد ان التقى بوايزمن « ارسل (اللنبي) برقية الى الوزارة يؤيد فيها المطامح الصهيونية في الحصول على الارض على اسس عسكرية (١٦٤) . » وحاول خبراء وزارة الخارجية البريطانية اقناع الفرنسيين بأن الاستعمار اليهودي « بحاجة الى اراض احتياطية واسعة في الجنوب والشرق والى مياه الشمال لاغراض الري والطاقة (١٦٥) » ووردت في الملاحظات الرسمية لهؤلاء الخبراء تعابير مثل « اذا ثبت ان مساومة اقليمية كهذه لا يمكن الوصول اليها يصبح من الممكن تحقيق الامنيات الصهيونية عن طريق اتفاق اقتصادي مع الفرنسيين (١٦٦) . »

---

١٦٣ ــ المصدر السابق ، ص ١٠٥ ــ ١٠٨

١٦٤ ــ المصدر السابق ، ص ١١٩ ــ ١٢٠

١٦٥ ــ المصدر السابق ، ص ١٢٣

١٦٦ ــ المصدر السابق ، ص ١٢٣

وفي المؤتمر الانكلو ــ فرنسي الذي انعقد في لندن ، ابتداء من الثالث والعشرين من كانون الاول ١٩١٩ ، لبحث الحدود قال الطرفان صراحة ان مناقشاتهم كانت اما مع الصهيونيين او ضدهم ولم تكن حول فلسطين التي ستقع تحت الانتداب البريطاني . واقترح المندوب الفرنسي برتيلو « ان يخصص للصهيونيين ثلث الطاقة المائية (من نهر الاردن) » واجاب كيرزون ، عن الجانب البريطاني ، « محذرا فرنسة بأن الصهيونيين ، الذين اصروا على حدود شمالية جيدة ، يصعب التعامل معهم وانهم يحتمل ان يثيروا المتاعب للفرنسيين بتدبير ما مع فيصل » وقال كيرزون انه من الضروري سد حاجات الاستعمار اليهودي في المستقبل وليس فقط متطلبات المستوطنات اليهودية الحالية وان الصهيونيين بحاجة الى الارض والماء وعلق برتيلو بقوله « انهم سيريدون دمشق عما قريب (١٦٧) » وفي محاولة لكسب الفرنسيين قابل سوكولوف رئيس الجمهورية الفرنسية ، وارسل برانديس ، القاضي الاميركي البارز ، بطلب من وايزمن الى لويد جورج برقية تحمل موافقة ولسون . واجاب لويد جورج معترضا على جغرافية برانديس ــ وهذه اشارة الى ان حماسة لويد جورج المبكرة للصهيونية اخذت تضعف الآن وان بريطانية تأكدت من ادخال فلسطين في نظامها الامبريالي (١٦٨) .

ويقول خبير صهيوني في هذا الموضوع انه كان بامكان الصهيونيين اجبار البريطانيين على النضال بشدة اكثر في سبيل الحصول على حدود افضل لو لم يهدد الصهيونيون بألا يطلبوا من عصبة الامم انتداب بريطانية على فلسطين . « ان الاساس الادبي والقانوني كله للمطالبة البريطانية بفلسطين يقوم على اتخاذها دور الحامي للوطن القومي اليهودي ، بطلب من الحركة الصهيونية ... ومهما يكن فان الزعماء الصهيونيين ملتزمون بحزم بالغ بدعم بريطانية في اي تحركات كهذه . ونتيجة لذلك اعتبرهم البريطانيون بلا جدل الى جانبهم وابتعدوا في الوقت نفسه تماما عن الفرنسيين الذين اخذوا يعتبرون الحركة الصهيونية اداة طيعة في يد الدبلوماسية البريطانية ... وكان الزعماء اليهود يعترفون حقا بالجميل لبريطانية لدعمها الوطن القومي ولم تبد هناك اي قوة اخرى يمكنها ان تكون مقبولة كمنتدبة على فلسطين (١٦٩) . » ولكننا يجب ان نتذكر ان الصهيونيين اعتمدوا على دعم بريطانية التي كانت تحتل فلسطين آنذاك من اجل الحصول على موطىء قدم لهم في البلاد . ولذلك فان ممارسة ضغط كبير جدا على البريطانيين كان من الممكن الا يكون كريها فحسب بل وخطيرا ايضا .

وهكذا عمل ميثاق ١٩١٧ في تفاصيله الدقيقة ضد مصلحة الصهيونيين لدرجة ان البريطانيين لم يكونوا على استعداد في النهاية للابتعاد عن فرنسة من اجل الصهيونيين.

ولم يكن الصهيونيون مستعدين للابتعاد عن فرنسة المعادية لهم من اجل فيصل. وقال البريطانيون لوايزمن في الفترة ١٩١٧ ــ ١٩١٨ ان فكرة الوطن القومي يمكنها ان تلقى قبولا اكثر لدى الرأي العام العالمي اذا استطاع (وايزمن) الحصول على وثيقة « عدم اعتراض » من العرب . وهذا ما بدا ان وايزمن ، باطلاقه تعريفا غامضا وغير سياسي

---

١٦٧ ــ المصدر السابق ، ص ١٢٥ ــ ١٢٦ .
١٦٨ ــ المصدر السابق ، ص ١٢٨ ــ ١٣٠
١٦٩ ــ المصدر السابق ، ص ١٣١ ــ ١٣٢

للوطن القومي ، قد حصل عليه من فيصل في ما عرف باتفاقية وايزمن ــ فيصل على الرغم من ان فيصل اشترط استقلال العرب ، وقد الغى هذا الشرط القيمة العملية للاتفاقية . الا ان توقيع الزعماء العرب والصهيونيين على بيان واحد جعل من الممكن للعالم اساءة تفسير الاتفاقية . واساء العالم تفسيرها فعلا على انها موافقة عربية .

وعليه ، عندما بدأ الصهيونيون رسم حدودهم اعلنوا انهم سيكونون حلفاء فيصل وسيضمنون طريقه الى البحر بين دمشق وحيفا . وتحول هذا العرض بسرعة الى وعد بمنطقة حرة في ميناء حيفا مقابل منحهم الحق في الطريق الى بلاد الرافدين (١٧٠) .

الواضح ان فيصل ، المحتار والدمث الاخلاق، استمر يؤمن باخلاص الصهيونيين. وارسل في كانون الثاني ١٩١٩ اثنين من مستشاريه الى الصهيونيين مقترحا ان « حلفا عربيا ــ يهوديا افضل بكثير من وصايات بريطانية وفرنسية في الشرق الاوسط وان على الشعوب السامية ان تحاول العمل بعيدا عن الغرب » . وعلى الرغم من التذكير المستمر فيما بعد من الجانب العربي لم يجب الصهيونيون على هذا الاقتراح الساذج جدا (١٧١).

وفي وقت لاحق من العام ١٩١٩ قدم فيصل الى وايزمن ثانية عرضا لمساعدة اليهود في فلسطين اذا اقنع وايزمن الفرنسيين بالتخلي عن مطالبتهم بسورية الداخلية . « من الواضح ان فيصل كان يداعب فكرة تحالف شعوب آسية في وجه القوى الامبريالية » واجاب وايزمن بأنه سيعمل جهده طالبا من فيصل « الا يتدخل بالفرنسيين في المناطق الساحلية من سورية قائلا انه يمكن اخراجهم منها فيما بعد (١٧٢) . » الا ان الفرنسيين ، ومن قواعدهم الساحلية ، اخرجوا فيصل من دمشق فيما بعد .

وهكذا وعلى الرغم من المعارضة الفرنسية القوية والحثيثة للمزاعم الاقليمية الصهيونية فضل وايزمن فرنسة على فيصل لان النزاعات بين بريطانية وفرنسة والصهيونيين كانت نزاعات عائلية « داخلية » . اما فيصل والعرب فكانوا « دخلاء » على آسية ولم يتعاون الصهيونيون معهم ابدا ، على الاقل في وجه اوروبة وبتحديد اكثر في وجه بريطانية التي كانت تقوم بما يؤيده الصهيونيون . وكانت ايماءة فيصل تلك ضربا من الجهل يرثى له .

يمكننا استخلاص نتيجتين من عرض مفاوضات التخوم هذه اولا ، كان عدم تعيين حدود دقيقة للدولة اليهودية سياسة صهيونية قديمة ومدروسة ابتدأت مع هرتزل نفسه . واحتفظ بتلك الحدود دوما مرنة وقابلة للمفاوضة : تزداد عندما تسنح الظروف السياسية او العسكرية وتتقلص عندما لا تكون الظروف مؤاتية . وشملت الخريطة التي قدمت الى مؤتمر السلام عنصرا واحدا غير محدد وهو الحدود مع مصر . وازدادت المزاعم الصهيونية كثيرا بين العامين ١٩١٨ ــ ١٩٢١ ولكنها تقلصت بين العامين ١٩٢٢ ــ ١٩٢٣ . وتوسعت الدولة اليهودية في العام ١٩٤٨ وراء الحدود التي رسمتها الامم المتحدة ، ووراء خطوط الهدنة في العام ١٩٥٦ ولكنها ما لبثت ان عادت الى خطوط الهدنة في العام ١٩٥٧ . وتوسعت في العام ١٩٦٧ مرة ثانية : انه

١٧٠ ــ المصدر السابق ، ص ٩٤ .
١٧١ ــ المصدر السابق ، ص ١٠٧
١٧٢ ــ المصدر السابق ، ص ١١٧

جلد الأيل جيد التغذية . وهذه بالتأكيد ليست نهاية التقلص والتمدد .
واذا كان هذا هو موقف الصهيونيين من الحدود قبل وبعد العام ١٩٤٧ فان رفض مؤسسي دولة اسرائيل تعيين الحدود عمدا في الثاني عشر من ايار من العام نفسه ما هو الا ظاهرة طبيعية . واسرائيل هي الدولة الوحيدة في آسية التي لا حدود معينة لها .

ثانيا ، استخدم الصهيونيون مدة خمس سنوات (١٩١٨ — ١٩٢٣) كل مواردهم المهمة للحصول على الحدود التي ارادوها . ولم تكن الحدود التي ناضلوا من اجلها حدود الوطن القومي او المركز الروحي لليهودية او مركز الحضارة اليهودية بل كانت حدودا ترتكز على الحاجات السياسية والاقتصادية والعسكرية للدولة اليهودية التي كانت لتبرز من انتداب بريطاني مؤقت . وعليه فان الزعماء الصهيونيين عندما قالوا ، من العام ١٩١٩ فصاعدا ، انهم لم يهدفوا الى اقامة دولة يهودية انما كانوا يحجبون هدفهم السياسي الحقيقي وراء ستار من الخداع المدروس . لقد كان هذا السلوك السياسي غريبا عن الحركات القومية الاسيوية لان هدف هذه الحركات في الاستقلال مفروض فيه ان يعلن صراحة ويحترم .

الموقف الصهيوني من العرب والشرقيين

ولم تكن ثقة الصهيونيين وتفانيهم في انطلاقتهم نحو تحقيق مهمتهم التي اختاروها للاستيلاء على فلسطين من أجل اقامة الدولة اليهودية نتيجة دافع الضرورة ، والضرورة الملحة جدا احيانا ، الى ايجاد ملجأ لضحايا الاضطهاد اللاسامي ولكن ايضا نتيجة ثقتهم التامة بتفوق اليهود والاوروبيين على الشعب الذي اعتزموا « اكتساب ارضه والاستيلاء عليها » . وشعروا في الحقيقة انهم يتفوقون على كل شعوب الشرق وتحدثوا عن تفوقهم بوضوح تام .

لنبدأ ، كما يجب ان نفعل دوما ، بالاب المؤسس . نجد ان هرتزل كان يحيل على العرب مهمة تجفيف المستنقعات التي تسبب الملاريا « فالعرب الذين لديهم المناعة ضد الحمى يمكن استخدامهم في هذا العمل (١٧٣) » . ووصف هرتزل الشرق وصفا محببا ومن الغريب انه كتبه بالانكليزية وليس بالالمانية . وبعد ان تحدث عن شراء الارض من اصحابها الحاليين اجاب عن سؤال حول هوية اصحاب الارض قائلا : « عرب ويونانيون وكل جماهير الشرق المختلطة » . وخلال زيارته لفلسطين كتب عن الطريق التي اصطف على طولها « جمهرة مختلطة من المتسولين والنساء والاطفال العرب (١٧٤) » . ومثله مثل الكثيرين من الصهيونيين ، لم يحتقر هرتزل السكان الاصليين الى حد عدم الاكتراث بمصالحهم : « العرب الذين لم يذكروا في « دولة اليهود » والذين بالكاد يشار اليهم في « المذكرات » يظهرون في « الارض القديمة — الارض الجديدة » (Altneuland) وكأنهم يريدون ويرغبون في الانضمام الى « الجمعية اليهودية » بسبب الفوائد المادية التي تنتج عن ذلك (١٧٥) » . وكان الميل الى اعتبار الشعوب المحلية كأشياء تنقل من

---

١٧٣ — هرتزل ، **المذكرات** ، ص ٧٤١
١٧٤ — المصدر السابق ، ص ٧٠١ ، ٧٤٣ .
١٧٥ — تالمون ، المصدر السابق

مكان الى مكان أساس احدى أفكار هرتزل الاكثر « اثارة » « وسنحتشد في قبرص ونذهب يوما ما الى أرض اسرائيل ونستولي عليها بالقوة مثلما اخذت منا منذ عهد بعيد (١٧٦) » . ومع ذلك تمتع هرتزل بالشعور بالعطف الابوي نحو المزارع العربي . فقد علق عندما كان في مصر بقوله : « ان بؤس الفلاحين لا يوصف انني اعتزم أن افكر بالفلاحين حالما امتلك القوة (١٧٧) » .

وتحدث زعماء صهيونيون آخرون بمثل هذه الصراحة تماما . قال بنسكر ان اليهود « مثل الزنوج والنساء وليسوا مثل كافة الشعوب الحرة يجب ان يتحرروا واسوا بالنسبة لهم ، على عكس الزنوج ، ان ينتموا الى عرق متقدم (١٧٨) » . وقد سبق ورأينا زعم نوردو بان اليهودي « أكثر نشاطا من الاوروبي العادي » ، دع عنك الافريقي والآسيوي الخامل (١٧٩) » . ويشكو شكتر من ان اليهود لا يستثنوا أيضا من « مهانة وسخرية القبلية والشرقية (Orientalism) (١٨٠) » .

انه ادعاء متلطف ان الزعماء الصهيونيين الذين تمتعوا بذكاء وحساسية أحسوا بشيء من وخز الضمير عندما كانوا يفكرون بالاستيلاء على وطن الآخرين . ربما كان هذا تفسيرا لما اعتاد الصهيونيون ان يقولوه عن فلسطين في معرض دفاعهم عن الصهيونية وهو انها « أرض قاحلة لا أثر فيها للسكان » . وطبيعي ان يبعث على ارتياح الضمير ويفيد في الدعاية القول بالذهاب الى اقليم قاحل لتحسينه وانه ليس في ذلك تشريد لاي شخص آخر اذ لا يوجد هناك احد .

ان الخرافة الصهيونية القائلة بان المستوطنين اليهود جعلوا الصحراء تزهر مثل الورد تنهار لولا ان الصهيونيين لا يزالون يستخدمونها في اوساط الذين يجهلون الحقائق . قام المستوطنون اليهود بأعمال جيدة في بعض المناطق مثل وادي الحولة حيث جففوا المستنقعات . وبذلوا كذلك جهودا هائلة في كل مكان لاعادة التشجير . ولكن فلسطين ككل لم تكن صحراء ابدا . فقد كانت دوما جزءا من الهلال الخصيب الذي سمي كذلك بسبب خصوبته . ويشهد كثيرون من الرحالة الاوروبيين في القرن التاسع عشر على الفرق المدهش بين خصوبة فلسطين وقحل الاراضي الواقعة شرقيها وجنوبيها . ولدينا قبل كل شيء شهادة أعظم من كتب جغرافية فلسطين . يقول السير جورج آدم سميث في كتابه « الجغرافية التاريخية للارض المقدسة » : « ان ليست فلسطين أرض احراج انها أرض بساتين » ... « وتختلف البلاد بكاملها حتى في فصل الانحطاط السنوي في الخصوبة عن الصحراء » . كتب هذا في العام ١٨٩٤ . وفي العام ١٩١١ كتب الجغرافي الاميركي العالمي الشهرة الزورث هنتنغتون عن « الجزء الخصيب والمروي بالمياه من السهل الساحلي الفلسطيني » في كتابه « فلسطين وتحولها » .

وكتب السير مورنس مونتيفيوري في العام ١٨٣٩، وهو في الحقيقة من اقدم الزعماء الصهيونيين واكثرهم احتراما ، ان المستوطنين اليهود « في الارض المقدسة سيجدون

---

١٧٦ ـ المذكرات ، ص ٩٤٢

١٧٧ ـ المذكرات ، ص ١٤٥٤ .

١٧٨ ـ بنسكر ، المصدر السابق ، ص ٢١ .

١٧٩ ـ بن هورين ، المصدر السابق ، ص ٢٤١ .

١٨٠ ـ شكتر في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٥٠٧ .

أملا اكبر في النجاح . وسيجدون هنا آبارا محفورة وزيتونا وكرمة مزروعة وأرضا خصبة تحتاج قليلا من السماد » .

ويقع الزعماء الصهيونيون أحيانا طبعا في تناقض عندما يقولون ، مثلما فعل بوروشوف الاشتراكي ، انه كان لزاما على اليهود الذهاب الى فلسطين على انها البلد الوحيد القليل السكان الذي يتمتع بمناخ جيد وتربة جيدة والذي كان في « متناولهم » .

ولا أزال أذكر الدهشة التي ظهرت على وجه الجنرال دايان عندما سألته ، ايام كان وزيرا للزراعة ، عن سبب بقاء حجم صادرات الحمضيات في العام ١٩٥٨ على ما كان عليه قبل عشرين عاما حسب الاحصاءات الاسرائيلية علما ان الحمضيات هي الانتاج الرئيسي . ليس معنى ذلك ان اسرائيل كانت متقاعسة في الانتاج بل معناه ان فلسطين كانت خصبة في العشرينات . والمعروف ان شجر الحمضيات لا يثمر بين ليلة وضحاها.

والحقيقة هي أن الصهيونيين جاؤوا الى فلسطين لا لانها كانت قاحلة بل لانها كانت خصبة . وعندما يكتب الشاعر الاسرائيلي بياليك عن الحاجة الى « تطهير ارض الجذام المهجورة هذه من صخورها وعفونة مستنقعاتها » انما يكتب شعرا وليس جغرافية صحيحة . وصاغ زانغويل الشعار المدوي: « ارض بلا شعب لشعب بلاأرض». ولاقى هذا الشعار نجاحا كبيرا على صعيد الدعاية الشعبية . أما بالنسبة للاكثر اطلاعا فقد احتاج العائق الذي سببه وجود سكان في البلاد الى ايضاح يروق نوعا ما ذوي الثقافة الرفيعة . ومن الممكن طبعا اطلاق تعابير تحاول التقليل من اهمية وجود سكان في فلسطين بل وتتجاهلهم تماما : « بلغ عدد السكان العرب حوالي النصف مليون ، واعتبرت البلاد (مع ذلك) غير مأهولة فعليا (١٨١) » . الا انه من النظرة الاولى تبدو كلمات كهذه غريبة لانه لا يختفي نصف المليون بطريقة سحرية . وبذلك تم اللجوء الى لعبة الارقام .

وهكذا كتب بنتويتش في العام ١٩١٦ معترفا بأن كثافة السكان في فلسطين بلغت ٧٠ شخصا في الميل المربع . وطرح سكان المدن من مجموع السكان فصارت الكثافة ٢٥ شخصا في الميل المربع من الريف (١٨٢) . وقورن هذا الرقم بعد ذلك بكثافة السكان في صقلية في ذلك الوقت حيث بلغت ١٤٣ في الميل المربع ، وعندما ارتفعت كثافة السكان في فلسطين الى ٦٠ في الميل المربع في العام ١٩٤٠ بقيت اقل من كثافة السكان في ايطالية حيث بلغت ١٣٨ في الميل المربع . (الا انه لم يرد ذكر ما اذا كانت ارقام صقلية وايطالية تدل على الكثافة السكانية في الريف هناك (١٨٣)) . والمحزن أن يبدو أن اليهود الصهيونيين لا يرون عيبا في الدفاع عن اقامة المستعمرات على أساس الحاجة الى مجال حيوي . واذا كانت الحجة الصهيونية بأن قلة السكان والفراغ يبرران استعمارهم فلسطين فان مطالبة هتلر بمستعمرات ألمانية ومطالبة موسوليني بليبية والحبشة تجد مبررا لها أيضا على اساس ذلك المنطق نفسه .

وتماما كما انتج الصهيونيون نظرية « الزيادة الحرجة » في مسألة اللاسامية ـ

---

١٨١ ــ مقدمة لبنسكر ، المصدر السابق ، ص ١١ ، ملاحظة .

١٨٢ ــ بنتويتش ، المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

١٨٣ ــ دوف بارنير ، **الازمنة الحديثة** ، ص ٤٥٣

وهي أن اللاسامية تحدث اوتوماتيكيا عندما تتجاوز نسبة اليهود بين السكان عددا معينا ــ يبدو انهم اقترحوا نظرية « الانخفاض الحرج » التي تقول انه اذا انخفض عدد سكان بلد ما عن نقطة معينة يعتبر البلد « غير مأهول فعليا » ويعتبر أيضا مفتوحا للاستعمار . ومن البين أن فلسطين بقيت ملائمة للهجرة سواء اكانت كثافة السكان ٢٥ في الميل المربع (١٩١٦) أو ٦٠ في الميل المربع (١٩٤٠) دون ان يغير نمو عدد السكان شيئا بالنسبة للمشاريع الصهيونية في الهجرة .

وجاء نوردو الذي يصعب التنبؤ حوله بحل سريع « العرب هم الغالبية . ماذا نفعل ؟ يجب ان نلقي على الاقل بـ ٥٠٠,٠٠٠ يهودي في فلسطين دون تأخير . هذا هو شرط العلاقات الودية مع جيراننا العرب وشرط السلام وشرط اعداد البلد ليصبح الوطن القومي اليهودي (١٨٤) » .

ومع ذلك ربط وايزمن بالطريقة غير المرجحة ذاتها بين الهجرة الجماعية والعلاقات الطيبة مع العرب . وقد أخبر بلفور في كانون الاول من العام ١٩١٨ أن هدف الخطة هو استيطان « حوالي أربعة أو خمسة ملايين يهودي خلال قرن » وأكد لبلفور أنه على الرغم من هذا فان مصالح غير اليهود ستكون مضمونة (١٨٥) . وقد شارك اناس آخرون بلفور شكوكه اذ وجه البابا الى سوكولوف سؤالا في العام ١٩١٧ « هل هناك مجال في فلسطين لتنفيذ خطتك ؟ » فأجاب سوكولوف ببراعة ومراوغة « هناك امكانية في الوصول الى غايتنا » . واستفسر البابا بعد ذلك : هل يرجح ان يستوطن فلسطين كثير من اليهود ؟ » واجاب سوكولوف متهربا ببراعة : « افضلهم واكثر من عانى بينهم (١٨٦) » .

واجرى وايزمن تغييرات في تخميناته عن عدد المهاجرين بلغت الملايين خلال شهر واحد . وآخر تخمين (ورد اعلاه) هو اقل التخمينات الاخرى حذرا على الرغم من انه ، في الوقت الحاضر وبعد جيلين من العام ١٩١٨ ، يوجد قرابة ثلاثة ملايين يهودي في فلسطين . ومن الواضح أن الزعماء الصهيونيين لم يكونوا يعرفون ما يقولون حول هذا الموضوع البالغ الاهمية اي عدد المهاجرين . فلم تكن لديهم فكرة عن عدد المهاجرين الذين كانوا سيذهبون الى فلسطين ، ولذلك لجأوا الى التخمينات . كان يتوجب عليهم أن يعرفوا لانه حتى العام ١٩١٨ ، وبعد مرور عشر سنوات على عمل المنظمة الصهيونية وبعد حوالي ثلاثين عاما من المجهود الصهيوني المتقطع ، لم يستوطن فلسطين الا ١٢,٠٠٠ صهيوني فقط . واتضح أنه لن يحدث اي اندفاع في حركة الهجرة الى فلسطين ، ولم يحدث ذلك فعلاً .

وعزز الحديث الغامض عن ملايين المهاجرين هدفين جعل الدولة اليهودية تبدو ضرورية أكثر من قبل ، وأجاب على مسألة التوفيق بين الفلسطينيين والتدفق اليهودي بواسطة ادخال عدد هائل من اليهود بسرعة . وفشل الصهيونيون ، كما قال كروسمان ، في تسوية المسألة بسرعة بادخال نصف مليون مهاجر (١٨٧) في

---

١٨٤ ــ بن هورين، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .
١٨٥ ــ وايزمن ، المصدر السابق ، ص ٦٣٧ .
١٨٦ ــ سايكس ، **Two Studies** ، ص ٢٠١ ــ ٢٠٢
١٨٧ ــ انظر الصفحة ٢٤ من هذا الكتاب .

السنوات القليلة الاولى .

وكان من الواضح انه اذا لم يتم التفوق على العرب عددا فانهم سيبدأون المقاومة — مثلما يمكن ان يفعل سكان اي بلد اذا هددهم تدفق مهاجرين على هذا النطاق ووفقا لهذه الاسس والأهداف . (وخير مثل هو ردة فعل البريطانيين للهجرة من الكومونولث الى بريطانية والتي كانت على نطاق اضيق بكثير من الهجرة اليهودية الى فلسطين) . ولكن الزعماء الصهيونيين ، باستثناء عدد غير قليل منهم ، لم يريدوا مواجهة امكانية ظهور مقاومة عربية ، وفسروا ذلك ببضع طرق .

وتميزت « خطة نوردو » بأنها اشارت الى ان مسألة السكان في فلسطين لم تكن ديموغرافية بل سياسية . ولم تكن مسألة عرب اقل ويهود اكثر بل مسألة علاقات جيدة او سيئة بين العرب واليهود .

ولم يكن هناك مبرر لتهرب الصهيونيين من مسألة السكان الاصليين اذ حذرهم منها كثيرا على الاقل صهيوني يهودي واحد بارز جدا . كما حذرهم ايضا بضعة صهيونيين امميين .

ان كلمات احد هاعام الحكيمة والنبوئية تستحق ان تسجل . فقد كتب في العام ١٨٩١ : « نحن في الخارج نظن ان فلسطين اليوم صحراء تقريبا وبرية غير مزروعة وان اي شخص يستطيع ان يشتري من الارض حسب رغبته ومناه . ولكن هذه ليست في الحقيقة هي الحال . فمن الصعب ايجاد أي ارض غير مزروعة في البلاد . . . نحن في الخارج نظن ان العرب متوحشون وعلى مستوى الحيوانات ولا يعرفون ما يدور حولهم . ولكن ذلك خاطىء تماما . ان العرب ، وخاصة اهل المدن ، يرون نشاطاتنا في بلدهم واهدافنا ولكنهم يصمتون ولا يتحركون لانهم لا يرون الان خطرا على مستقبلهم في ما نحن بصدده . ولكن اذا حان الوقت وطور شعبنا حياته في فلسطين لدرجة تجعل السكان الاصليين يشعرون بضيق فانهم عندئذ لن يفسحوا الطريق أمام شعبنا بسهولة (١٨٨) » . ثم كرر الملاحظة نفسها بعد عشرين عاما : « ان كثيرين من اهالي فلسطين الذين اخذ وعيهم القومي بالنمو منذ الثورة التركية ينظرون شزرا ، وهذا طبيعي تماما ، الى بيع الاراضي « للغرباء » ويعملون جهدهم لوقف هذا الاثم (١٨٩) ».

وتحدث عدد غير قليل من الصهيونيين صراحة (١٩٠) الا أن التحذيرات الملحة حقا جاءت من الصهيونيين الامميين المؤيدين .

قال صموئيل لغراي في اول محادثة بينهما في العام ١٩١٤ أن العرب يشكلون خمسة اسداس السكان ، فحذر غراي الصهيونيين من هذه الحقيقة بعد سنتين . وفي لقائه الاول مع الزعماء الصهيونيين في العام ١٩١٧ قال لهم سايكس انه سيترتب عليهم

---

١٨٨ — أحد هاعام ، نقلا من ملاحظة على الصفحة ١٢٦ من كتاب هـ. كوهن
Nationalism and Imperialism in the Hither East
لندن، ١٩٢٣ . المصدر الاصلي هو **Am Scheidewege, Judischer Verlag** ، برلين ، المجلد الاول ، ص ٨٦ وما بعدها .

١٨٩ — نقل في شتاين ، المصدر السابق ، ص ٩٠ .

١٩٠ — انظر م. بيرلمان ، « فصول من الدبلوماسية العربية — اليهودية ، ١٩١٨ — ١٩٢٢ » في **Jewish Social Studies** ، نيويورك ، المجلد السادس ، العدد الثاني ، ص ١٢٣ — ١٥٤

« التعامل بحذر مع العرب » . كما حذرهم مرارا من الشوفينية وحثهم على العمل من اجل التعاون مع العرب والنظر الى الامور « بمنظار عربي (١٩١) » . وصرح سايدبوثام المؤيد العظيم للصهيونية بانه « سيترتب على اليهود في فلسطين ان يتعاونوا مع العرب . فالعلاقات الودية بين الطرفين تجعل كل شيء ممكنا لفلسطين الجديدة . وغياب هذه العلاقات الودية لا يثمر شيئا غير الفشل (١٩٢) » .

والمؤسف أن هؤلاء الصهيونيين الاميين أنفسهم مع كثيرين غيرهم أعطوا اليهود الصهيونيين أحيانا حسا مبالغا فيه بأهميتهم . كتب سايدبوثام نفسه يقول : « وقد كان من الممكن نقل عرب فلسطين المتمردين الى بلاد الرافدين في العام ١٩١٧ (١٩٣) » . وتحدث سمطس عن الرسالة التمدينية ليهود العالم .

وكان الصهيونيون يستمعون الى الاصوات الاكثر اطراء لهم متجاهلين النصائح التحذيرية حول علاقاتهم مع العرب . وحاولوا أول الامر أن ينكروا وجود العرب هناك . ولكن عندما جعل العرب وجودهم ملموسا من خلال العنف وغيره من الوسائل الاخرى اقترحت موجة هجرة كبيرة . ومع ان البريطانيين لم يستدعوا المهاجرين الا انهم تركوا باب الهجرة مفتوحا امام الصهيونيين ، وتغاضوا عن استياء العرب وانكروه . وقال اينشتاين بعد زيارته لفلسطين في العام ١٩٢٢ انه « لم يشعر بأي عداء عربي لليهود في فلسطين (١٩٤) » . ويمكننا أن نعذر لاينتشتاين عدم ملاحظة الحقائق الدنيوية هذه . ويقول نوردو أن « ليس هناك معارضة حقيقية من العرب ، وأن الفلاح مسالم » . واكد آرثر روبين ، أعظم خبير صهيوني بفلسطين ، أن « ليس هناك شيء هام يخاف منه في يقظة العرب القومية (١٩٥) »

وبما أنه كان لزاما توضيح الهياج العربي ضد الصهيونيين فقد القي اللوم ، حسب التعابير الاستعمارية الكلاسيكية ، على « المحرضين » ، وكتب نوردو : « ان الهياج من صنع الديماغوجية المستهترة يقوم بها عملاء مأجورون » . ويقول نوردو عن الفلسطينيين أن « المحرضين المعادين للسامية في سورية كانوا يسممون عقولهم (١٩٦) » .

وعانى وايزمن ايضا من هذا الغباء . فقد كتب من فلسطين في العام ١٩١٨ معربا عن اقتناعه بانه لن يكون هناك اضطراب من جانب العرب لان « مركز جاذبيتهم السياسي في طريقه الى الحجاز » . وجاء الاضطراب من « العرب المسيحيين او المدعوين سوريين » الذين كانوا معادين للصهيونية نتيجة اثارتهم على يد اليسوعيين والممولين الفرنسيين واليهود الاتراك المزيفين (١٩٧) . ان هذا الوهم المخيف ينم عن ادراك ضئيل لحقائق السياسة العربية مما يجعلنا ندرك ملاحظة احد المعجبين بوايزمن

---

١٩١ — شتاين ، المصدر السابق ، ص ٦٢١ ، ٢٨٣ — ٢٨٤

١٩٢ — سايدبوثام ، انكلترة وفلسطين ، ص ١٩٤ .

١٩٣ — سايدبوثام ، المصالح الامبراطورية البريطانية ، ص ٤

١٩٤ — اينشتاين ، المصدر السابق ، ص ٤٢ .

١٩٥ — بن هورين ، المصدر السابق ، ص ٢٠١ .

١٩٦ — المصدر السابق ، ص ٢٠٢

١٩٧ — وايزمن ، المصدر السابق ، ص ٦٣٠ — ٦٣١ .

التي تقول انه ربما كان وايزمن أكثر حكمة لو لم يتجاهل الزعماء العرب (١٩٨) .

واكد كاتب صهيوني في العام ١٩٢٧ قائلا : « لم تكن فلسطين ابدا مركزا عظيما بالنسبة للعرب ولهـا أهميـة حضارية وروحية ضئيلـة بالنسبة للشعوب العربية (١٩٩) » . وأكد أحد مؤرخي الامبريالية بذكاء ان الامبرياليين هم عادة أعظم الناس جهلا حول ممتلكاتهم الامبريالية (٢٠٠) . ان القدس هي في النهاية واحدة من أعظم الاماكن المقدسة الثلاثة في الاسلام وقـد قاتلت المناطق العربية الداخلية الصليبيين مدة مئتي سنة من اجل فلسطين » .

وعندما لم تقلل كل التفسيرات والمراوغات من حجم المقاومة العربية بقي شيء واحد يقولونه وهو ان العرب كانوا غير عقلانيين قال جابوتنسكي أمام اللجنة الملكية : « لا أنكر ان العرب سيصبحون أقلية في فلسطين كما لا أنكر صعوبة ذلك (٢٠١) » .

ولم يقل موقف الصهيونيين من الفلسطينيين عن كونه رفضا للواقع . ربما لان الواقع كان بشعا ومزعجا . وبالتأكيد بدا الصهيونيون مصممين على رؤية ما أرادوا ان يروه فقط . وقدمت لهذا الانطواء الذاتي تفسيرات أخرى من وجهـة النظر الصهيونية .

ويروي زفي فيربلوسكي (Zwi Werblowsky) نقلا عن بوبر بان ماكس نوردو ، عندما سمع للمرة الاولى بوجود سكان عرب في فلسطين ، هرع الى هرتزل وقال له : « انني لم اعرف ذلك . نحن اذا نقوم بعمل جائر (٢٠٢) » . ولكن نوردو تغلب على تردده تماما فيما بعد .

ربما يكمن تفسير قصر النظر الصهيوني في استجابة عاطفية بسيطة . كتب هانس كوهن بتبصر عظيم : « كانت فلسطين بالنسبة لليهود ، وخاصة جمـاهيرهم الشعبية في اوروبة الشرقية ، البلد اليهودي ، وارض اسرائيل ، وصورة احلامهم ورغباتهم ، وملجأ أرواحهم عبر الفي سنة . انها أرض توقف التاريخ فيها . ونادرا ما أثرت في الوعي اليهودي حقيقة ان البلاد لم تكن قاحلة وانها كانت مأهولة لثلاثة عشر قرنا . وفجأة ، ولشد ما كانت دهشتهم صادقة ونقمتهم عارمة عندما وجد هؤلاء اليهود وطنهم الذي وقفوا أخيرا عند ابوابه بعد هجرة الف سنة محتلا من قبل غرباء نازعوهم حقهم فيه (٢٠٣) » .

يحتمل ان يكفي الايضاح التالي لاعطاء صورة عن اليهودي العادي في اوروبة الشرقية قبل الحرب العالمية الاولى : كان غارقا في اورثوذوكسيته الضيقة وربما كان يحلم احلاما خلاصية بفلسطين الخالية من العرب . ولكن الزعماء الصهيونيين لا يغفر لهم عدم معرفتهم بالوجود العربي خاصة وقد وجهت اليهم التحذيرات وزاروا فلسطين بأنفسهم . واستغل هؤلاء الزعماء اللاادريين في معظمهم الحماس الديني بين يهود

---

١٩٨ — برلين ، المصدر السابق ، ص ٤٣ .
١٩٩ — ب٠ هورويتس ، **المسألة اليهوديـة والصهيونية** ، لندن ، ١٩٢٧ ، ص ٧٠ .
٢٠٠ — تورنتون ، المصدر السابق .
٢٠١ — في هرتزبرغ ، المصدر السابق ، ص ٥٦٢ .
٢٠٢ — فيربلوسكي في **الازمنة الحديثة** ، ص ٣٩١ .
٢٠٣ — كوهن ، المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

اوروبــة الشرقية جاعلين منه قوة دافعة للصهيونية وضاربين بأحلام اليهود الدنيوية عرض الحائط ، اذ كيف يستطيعون ان يخبروا اتباعهم بعد تعلئتهم بانهم سائرون نحو ارض يقطنها أناس يكرهون قدومهم ؟

وهكذا قالوا في العلن وبطرق مختلفة : هناك قليل من العرب ، ان لم يكن احد منهم ، العرب ليسوا معادين ، ان المعادين بينهم اقلية فقط ، عداء العرب لا يؤثر . ونجد ان البريطانيين والفرنسيين قالوا الشيء نفسه تقريبا عن سكان مستعمراتهم .

وكشف اليهود الصهيونيون الاوروبيون في احاديثهم الخــاصة عــن فكرتهم الحقيقية عن العرب. وعندما سأل اينشتاين وايزمن، الذيأدركاخيراوجودالعداءالعربي عما كان ينوي عمله بشأن العرب أجاب وايزمن : « أي عرب ؟ » وفي العام ١٩١٧ طلبت الحكومة البريطانية الى حاخام بريطانية الاكبر ابداء رأيه في مسودة تصريح بلفور . وقد وافق الحاخام طبعا خاصة على الاشارة الى « الطوائف غير اليهودية الموجودة (في البلاد) » والتي قال عنها انها تتفق والتشريع الموسوي الذي فرض على اليهود محبة « الغريب » واكثر من ذلك « الغريب الذي يقيم » بينهم . كان هذا في وقت عاش فيه حوالي ٣٥،٠٠٠ يهودي صهيوني بين ٧٠٠،٠٠٠ عربي في فلسطين . ولكن الفلسطينيين اوضحوا قبل ذلك بسنوات كثيرة انهم لم يحبوا اولئك الغرباء الجدد الذين عزموا على جعل الفلسطينيين « غرباء » في فلسطين .

كان الفلسطينيون طبعا ابناء الارض . وفي الوقت الذي كانت فيه شعوب آسية كلهــا ترفض ان تعاملها الحكومات الاوروبيــة المستعمرة « كسكان محليــين » (Natives) * لم يقل الفلسطينيون بمعاملة مشابهة مــن الصهيونيين حتــى وان كان هؤلاء يدركون جيدا انهم قدموا من أوروبة .

---

* يشير بها المستعمرون الى المستعمرين باعتبارهم عرقاغير متمدن (المترجم) .

الفصل الرابع

الرفض

رد الفعل العربي المبكر

من مزاعم الصهيونيين القول بان الصهيونية ولدت الوطنية الفلسطينية . ذلك تبجح مؤسف بعض الشيء لكنه صحيح الى حد ما . وقد أخذ بهذا الزعم عموما حتى وقت قريب عندما اثبت نفيل ماندل باقناع ان المعارضة الفلسطينية للصهيونية على الصعيد المحلي سبقت بوقت طويل دخول المنظمة الصهيونية رسميا الى البلاد في العام ١٩١٨ (١) . فقد بدأت المقاومة الفلسطينية الاولية على مستوى ابسط وأكثر انسانية واساسية انها مقاومة الفلاح غير السياسية للاجانب الذين رآهم يشترون أرض بلده . وكون المقاومة غير سياسية في البداية يعطيها اهمية أكبر لان ذلك يدل على ادراك المزارع الفلسطيني العادي غريزيا لخطر الاستعمار الصهيوني ولم ينقل له ذلك الادراك زعماؤه الذين نبهتهم المقاومة الفلاحية من الصهيونية .

واتخذت تلك المقاومة شكل مضايقة ومهاجمة كاملة للمستعمرات اليهودية الجديدة . وهناك وثائق عن مثل هذه الهجمات ترجع الى العام ١٨٨٦ . وقد دفعت هؤلاء المستوطنين الى فلسطين مذابح ١٨٨١ التي شهدتها روسية . الا ان الحكومة العثمانية اوقفت هذا التدفق المفاجىء في العام ١٨٨٤ . ومهما يكن فقد استخف اليهود باستمرار بالقوانين التي تقيد هجرتهم الى فلسطين وذلك بمساعدة المسؤولين الفاسدين ودعم ممثلي الدول الاوروبية في فلسطين الذين سهلوا قدوم يهود بلدانهم تحت ستار الامتيازات التي كان يتمتع بها الرعايا الاجانب . وهكذا كانت هناك علاقات حماية خاصة من الحكومات الاوروبية لليهود في فلسطين .

برز أول احتجاج فلسطيني رسمي ضد التدخل الصهيوني في الرابع والعشرين من حزيران عام ١٨٩١ عندما بعث بعض وجهاء القدس عريضة الى القسطنطينية يطالبون فيها بمنع اليهود من دخول فلسطين وشراء الاراضي فيها . فما كان من الحكومة العثمانية الا ان اصدرت قوانين تمنع الهجرة اليهودية وشراء الاراضي ولكن احتجاجات الدول الاوروبية حدت من تلك القوانين .

لم تلاحظ الصحافة الغربية عموما اهمية المؤتمر الصهيوني الاول . الا ان المصلح

---

١ — نفيل ماندل ، « الترك والعرب والهجرة اليهودية الى فلسطين ١٨٨٢ — ١٩١٤ » ؛ مجلة « شؤون الشرق الاوسط » ، العدد الرابع ، اكسفورد ، ١٩٦٥ ، ص ٧٦ — ١٠٨ ، « محاولات اقامة اتفاق عربي صهيوني ، ١٩١٢ — ١٩١٤ » ، مجلة « دراسات الشرق الاوسط » ، لندن ، ١٩٦٥ ، المجلد الاول ؛ العدد الثالث ، ص ٢٣٨ — ٢٦٧ . ويعتمد هذا القسم الى حد بعيد جدا على دراسة السيد ماندل الرائدة والهامة ، ولذلك لن تقدم الحواشي بالتفصيل .

الاسلامي رشيد رضا تنبأ بان اليهود قد « يمتلكون بلدكم ويستعمرونه » . وبعد سنة من ذلك ، عام ١٨٩٩ ، قال احد وجهاء القدس في رسالة بعث بها الى الزعماء الصهيونيين ان سكان فلسطين اليوم ليسوا يهودا وطلب اليهم ان يتركوا فلسطين في سلام .

ويمكن اعتبار رفض الحكومة المصرية في العام ١٩٠٢ تزويد مشروع استيطان العريش في سيناء بمياه النيل دليلا مبكرا على معارضة العرب للصهيونية .

وقد رأى نجيب عازوري في وقت باكر الصراع بين الصهيونية « ويقظة الامة العربية » في كتابه « اليقظة العربية » الصادر في العام ١٩٠٥ : « ومن المحتم أن تتقاتل هاتان الحركتان باستمرار حتى تهزم احداهما الاخرى » . وبسبب الشكاوى العربية استبدل حاكم القدس العثماني في العام ١٩٠٦ بحاكم آخر وضع القيود على الهجرة اليهودية موضع التنفيذ بشدة .

وبعد قيام ثورة تركية الفتاة في العام ١٩٠٨ عين الصهيونيون ممثلا عن المنظمة الصهيونية في القسطنطينية حيث صدرت صحيفة يدعمها الصهيونيون .

والآن أخذت الصحافة العربية تشارك في الجهود المعادية للصهيونية . فقد هاجمت « الاهرام » القاهرية الصهيونيين في العام ١٩٠٩ . وصدرت في العام ١٩٠٨ صحيفة في حيفا تعلن ان هدفها مقاومة الصهيونية . وصدرت صحيفتان في كل من بيروت ودمشق واشتركتا في العام ١٩١٠ في مقاومة الصهيونية بشدة . واكتسبت مقاومة الصهيونية بذلك صبغة عربية في معظمها . وفي السنة نفسها (١٩١٠) انتشرت الدعاية ضد الصهيونية انتشارا واسعا من خلال الصحافة والنشرات والرسوم الكاريكاتورية . وظهر اول كتاب بالعربية حول الصهيونية في حيفا عام ١٩١١ . واهم من ذلك تأسيس جمعية باسم « حزب الوطن » في السنة نفسها بهدف اعاقة التقدم الصهيوني في فلسطين .

ونظرت جمعية الاتحاد والترقي في عهد تركية الفتاة بعطف اكثر بعض الوقت الى الصهيونيين كمصدر للحصول على العون المالي للخزانة التركية المفلسة . وعليه ، وعلى الرغم من الاعتراضات العربية الشديدة خففت القيود المفروضة على الهجرة وشراء الاراضي في وجه اليهود في العام ١٩١٣ . ولكن هذه الخطوات ادت الى نتيجة على عكس ما كان متوقعا ومنتظرا ، فقد ازداد العنف ضد الصهيونيين في فلسطين وتألفت في العام ١٩١٤ الجمعيات المناوئة للصهيونية في القدس ويافا وحيفا والقاهرة والقسطنطينية .

وابرم بعض الزعماء القوميين العرب اتفاقا مؤقتا للدعم المشترك مع المنظمة الصهيونية في العام ١٩١٣ دام اقل من ستة اشهر . ثم جرت محاولة في العام ١٩١٤ لعقد اجتماع بين ممثلين عن الصهيونيين والعرب الا ان تميز الجانبين بالحذر والشك ادى الى الفشل في تحقيق اللقاء .

وعلى اية حال ، ادت هذه المناورات الى جلاء الموقف العربي من الصهيونية بوضوح والى قيام امكانية للتفاهم . فقد كتب حقي بك العظم في العام ١٩١٣ يقول ان العرب على استعداد لفتح أبواب بلدهم أمام اليهود شرط (١) أن يتخذ هؤلاء من اللغة العربية لغة لهم (٢) ، والا يكونوا منغلقين على انفسهم اقتصاديا (٣) ، وان يصبحوا

رعايا عثمانيين حقيقيين (٤) وان يتجنبوا السياسة (٥) وان يأخذوا في الحسبان الامة العربية « التي ستقوم ثانية اليوم أو غدا » . وباختصار ، طلب من الصهيونيين أن يحرروا انفسهم من الصهيونية ويصبحوا مجرد مستوطنين يهود . وتجاهل الصهيونيون هذا الطلب بالطبع .

وحضر سوكولوف في العام ١٩١٤ الى فلسطين بهدف تفحص العلاقات العربية ـ الصهيونية . واثار اثناء ذلك الحجج الصهيونية المألوفة القائلة بان اليهود أخوة ساميون « عائدون الى وطنهم » وان باستطاعتهم افادة العرب في تحسين الارض وانهم سيحترمون الحضارة العربية . ورد عليه زعيم عربي بقوله ان كلمات سوكولوف « جميلة جدا جدا » وان اليهود لم يعملوا وفقا لها : فقد كانوا يشكلون تهديدا اقتصاديا للسكان الاصليين وخطرا سياسيا ايضا كطليعة لغزوة دولة كبرى (٢) والتقى سوكولوف ببضعة زعماء عرب في فلسطين ودمشق وبيروت ، ولكن تلك الزيارة لم تؤد الى أي شيء عملي .

يتضح من هذا الكلام عن المقاومة الفلسطينية للصهيونية ان العرب أدركوا منذ البداية بوضوح خطر الصهيونية واعدوا خططا جيدة لمواجهتها وحاولوا التوصل الى اتفاق معها . ولكنهم لم يتوصلوا أو لم يكن بامكانهم ان يتوصلوا الى اتفاق بسبب تضارب المصالح الصهيونية والفلسطينية تضاربا كليا .

وعلى الرغم من ان المقاومة العربية الصهيونية لم تكن سياسية في البداية فانها لم تلبث ان اصبحت سياسية ترتكز « على اسس وطنية ، ووسعت نفوذ الدول الكبرى في الامبراطورية العثمانية وجازفت بخسارة مقاطعة أخرى (٣) » . وقد رأى العرب دائما بصورة واضحة الروابط الصهيونية ـ الاوروبية .

والجدير بالملاحظة ان المسيحيين العرب لم يقلوا أهمية عن المسلمين في مهاجمة الصهيونيين خاصة في الصحافة ، وهذه لا تزال ميزة الحركة العربية المعادية للصهيونية حتى وقتنا الراهن .

وكانت اخبار كافة اشكال المعارضة العربية والفلسطينية المتنوعة والكثيرة ترد فورا كاملة الى المركز الرئيسي للمنظمة الصهيونية في برلين عن طريق المكتب الصهيوني في القسطنطينية . ومما يدل على ذلك حقيقة ان معظم المادة الجديدة التي استعملها السيد ماندل ليست من مصادر عربية وانما من الارشيف الصهيوني المركزي ومن ترجمات نشرتها الصحافة اليهودية في ذلك الوقت .

وعليه لم يعد هناك مبرر منذ العام ١٩٠٨ فصاعدا لاي زعيم صهيوني ان يزعم انه لم يكن في فلسطين الا عدد قليل جدا من العرب في فلسطين أو انه لم تكن هناك مقاومة عربية جدية ضد الصهيونية : لقد كانت المقاومة منظمة تنظيما حسنا وصريحا جدا وموجودة في مصر ولبنان وسورية وفلسطين .

وهكذا عندما كان الصهيونيون يعبرون عن دهشتهم للمقاومة العربية كانوا في الحقيقة يغرقون في الخداع والتضليل من اجل الا يوضحوا الامر لاتباعهم ويزيلوا الشك

---

٢ ـ تظهر هذه النظرة البصيرة بصورة خاصة في كتاب **محاولات** ، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .
٣ ـ **الهجرة** ، ص ١٠٧ .

من اذهان اصدقائهم الامميين .

وقد رأى أمميان اثنان على الاقل الوضع في فلسطين بوضوح . قال ت . اي . لورنس في العام ١٩١٥ في تقرير بعث به الى دائرة الاستخبارات : « يقف خلف هؤلاء اليهود الصهيونيين الالمان عدوهم ، الفلاح الفلسطيني (٤) » . وكتب الصهيوني المخلص سايدبوثام في العام ١٩١٨ يقول : « ويشعر العرب ازاء البعث اليهودي في فلسطين كما يمكن ان تشعر انكلترة ازاء بعث سيطرة ويلز القديمة على بريطانية (٥) » .

ولكن الصهيونيين لم يهتموا كثيرا للمقاومة العربية بسبب الدعم الغربي القوي لهم . فقد أهملوا نصيحتين حكيمتين نصحهم بها زعماء عرب : « يجب أن يأخذوا بعين الاعتبار صداقة جيرانهم التي هي افضل من صداقة الغريب البعيد (٦) » ، وان « الحكومات عابرة ومتقلبة ، الشعب هو العامل الثابت ويجب الاتفاق مع الشعب (٧) » . وتصلح هذه النصائح لاسرائيل اليوم مثلما كانت تصلح للصهيونيين قبل خمسين سنة .

الرفض الآسيوي : غاندي ونهرو

حدثت أول اشارة رفض عندما القي اول حجر بيد فلاح فلسطيني على اول مستوطن يهودي على أرض فلسطين ، ربما في مرتفعات الجليل ، لان الفلاح لم يعجب بنظرات المستوطن . وكانت تلك الاشارة نذيرا بصعوبات عظيمة يمكن ان تعيق العلاقات بين الصهيونية والقومية الآسيوية .

يؤدي تفحص الروابط بين الصهيونية والحركات القومية الآسيوية الى نتيجة سلبية : فقد كانت هناك روابط عداء فقط وليس روابط صداقة . ويعود هذا ، من جهة ، الى صلة الصهيونية العدائية بالعرب ورفضهم لها الا انه يعود ، من جهة ثانية ، الى حقيقة ان الصهيونيين ، وعلى الرغم من الفرص العديدة التي اتيحت لهم ، لم يسعوا الى اقامة علاقات مع القوميين الآسيويين ، وبما ان الصهيونيين ، على الاقل ، لم يشعروا بان المعسكر نفسه يجمعهم مع الآسيويين فقد كانوا اوروبيين يعملون مع الاوروبيين الآخرين أو يناورونهم في حين ان الآسيويين كانوا يقاتلون الاوروبيين .

ولم يكن الصهيونيون مهتمين باقامة علاقات صداقة مع حركات آسيوية أخرى لانهم لم يقوموا بذلك مع انه كان ممكنا ، على الرغم من الرفض العربي ، قبل الحرب العالمية الاولى . ومع غياب ذلك الاهتمام أصبح الرفض العربي بمرور الوقت فيتو أدبي على أي علاقات صداقة بين الصهيونية وآسية القومية .

واذا كان البريطانيون قد فتحوا ابواب فلسطين امام الصهيونيين فقد قام العرب بحراسة الابواب المؤدية الى آسية من دخول الصهيونية لان الصداقة مع الصهيونيين بعد العام ١٩١٨ أصبحت تعني تنكرا لصداقة العرب . ولم يستطع آسيوي يسعى وراء صداقة الصهيونيين ان يتجاهل احتجاجات العرب المدوية ضد كونهم يطردون على ايدي هؤلاء الاوروبيين واصدقائهم من الاوروبيين .

---

٤ ـ شتاين ، المصدر السابق ، ص ٦٢٨
٥ ـ سايدبوثام ، **انكلترة وفلسطين** ، ص ٢١١ .
٦ ـ ماندل ، **الهجرة** ، ص ٩٩ ـ ١٠٠
٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٥

وربما كسب الصهيونيون مع ذلك صداقة العربي الذي يحرس بوابة آسية او تخلصوا من عدائه لو انهم استغلوا مناسبات معينة اتيحت لهم . الا ان فرص قيام صلات ناجحة بين العرب والصهيونيين لم تكن براقة أبدا واصبحت صفرا بسبب عدم اهتمام الصهيونيين حقا بصداقة العرب اذ كان لهم اصدقاء أقوى من العرب بكثير .

ليس بوسعنا معرفة الخط الذي ربما سار فيه تاريخ الشرق الاوسط لو استمر هرتزل باتصالاته مع الزعيم القومي المصري مصطفى كامل الذي قام بزيارة هرتزل في ٢٤ اذار عام ١٨٩٧ في فينه . وهذا ما يقوله هرتزل عن ذلك اللقاء الذي كان يحتمل أن يصبح لقاء تاريخيا : « ها هو يقوم بزيارة اخرى لخلق شعور ودي تجاه قضية الشعب المصري الذي يريد أن يخلص نفسه من السيطرة البريطانية . ويترك هذا الشاب الشرقي انطباعا ممتازا : فهو مهذب وانيق وذكي وبليغ . وأكتب عنه لانه قد يلعب يوما ما دورا في سياسة الشرق حيث يمكن أن نلتقي ثانية . ان حفيد الذين استغلونا في السابق في مصر يندب الان آلام العبودية ويأتي الي انا اليهودي سعيا وراء مساعدتي الصحافية . وبما انني لا استطيع ان افعل له شيئا في الوقت الراهن اكدت له تمنياتي الطيبة . انني اشعر ، مع انني لم أقل له ذلك ، ان اجبار الانكليز علـــى مغادرة مصر هو في صالح قضيتنا ، لانهـــم سيضطرون عندئذ الى البحث عن طريق اخرى الى الهند بدل قناة السويس التي سيفقدونها أو ستصبح غير آمنة . وهنا ستصبح فلسطين يهودية حديثة وسيلة تخدم هدفهم بسبب الخط الحديدي الذي يصل يافا بالخليج الفارسي (٨) »

لقد كان بوسع هرتزل ان يقدم عونا صحافيا للنضال المصري ولكن الدعم الصهيوني للاهداف المصرية يفقد الصهيونيين آمالهم في الحصول على حماية بريطانية لانفسهم . وبذلك سار المصريون والصهيونيون في طريقين منفصلين ليلتقيا في الشرق ثانية كأعداء . تكشف هذه الحادثة الصغيرة وتقديرات هرتزل هذه لدى وقوع الصهيونية في شرك المصالح الامبريالية الاوروبية ، ذلك الشرك الذي لم تقدر الصهيونية ان تتخلص منه وتتحالف مع الذين يحاولون تحطيم النظام الامبريالي .

ان ما ينبغي ان يلاحظ بصورة عابرة ، وباندهاش ، هو ان هرتزل ينسب نفسه الي ابناء اسرائيل في ظل موسى وينسب مصطفى كامل الى الفراعنة ايام حكم رمسيس الثاني ، ان ثقل عبء الذكريات اليهودية كبير حقا

وسنحت الفرصة الثانية للتعاون العربي ــ الصهيوني في أيار عام ١٩١٣ عندما عقد الصهيونيون وبعض الزعماء القوميين العرب ، وكلاهما مستاء من حكم تركية الفتاة ، اتفاقا شفويا ، في القاهرة . واعترف الجانبان بالبندين التاليـــين « تبادل خدمات » استعدادا لاتفاق شامل . الا ان الخلافات الاساسية بين الحركتين والتي لم تذكر في الاتفاق ما لبثت ان ادت الى الانشقاق وفشل الاتفاق . لقد كان ذلك الاتفاق باكمله وسيلة مريحة الى حد بعيد جدا أو خطوة تكتيكية من الجانبين عاجزة عن ان تؤدي الى أي نتيجة (٩) .

أما المثال الثاني على التعاون العربي ــ الصهيوني فهو اتفاق فيصل ــ وايزمان

---

٨ ــ المذكرات ، ص ٥٢٧

٩ ــ ماندل ، محاولات ، ص ٢٤٤ ــ ٢٥٢ .

الذي جرى في العام ١٩١٩ . فقد كان الصهيونيون ، كما ذكرنا ، بحاجة الى وثيقة « عدم اعتراض » من العرب وكان فيصل يأمل بالدعم المالي والديبلوماسي الصهيوني . وحصل الصهيونيون على وثيقة مشروطة نوعا ما من فيصل الذي تميز بالحيرة والثقة بالصهيونيين دون ان يحصل على شيء في المقابل . فعندما طلب فيصل من الصهيونيين دعمه ضد فرنسة فضل هؤلاء فرنسة عليه في الوقت الذي كان يحاول فيه التوصل الى تحالف مع اليهود ضد الاوروبيين ، وعلى الرغم من معارضة فرنسة للحدود التي طالب بها الصهيونيون . ومهما اشتدت المساومة على الحدود فقد بقي الهدف المشترك بين الفرنسيين والصهيونيين هو معاداة القومية العربية . ومرة ثانية آثر صهيون اوروبة .

وربما ضاعت آخر فرصة للتعاون الصهيوني ــ الفلسطيني في العام ١٩٣٤ عندما رفض بن جوريون الاقتراح الذي قدمه زعماء عرب للعمل على دعم العرب ضد بريطانية وفرنسة .

ولم يحاول الصهيونيون بعد فشلهم في التعاون مع العرب القيام باتصالات مباشرة مع اي من الحركات القومية الآسيوية غير العربية في فترة العشرين عاما التي مرت بين الحربين علىالرغم من الفرصة الذهبية التي قدمها مؤتمر القوميات المضطهدة الذي عقد في بروكسل عام ١٩٢٧ .

وكان مؤتمر بروكسل أهم لقاء معاد للاستعمار يعقد قبل مؤتمر باندونغ في العام ١٩٥٥ . ومن الذين حضروا المؤتمر ولمع اسمهم فيما بعد الباندييت نهرو وهوشي منه ومحمد حاتا (الذي اصبح نائبا لرئيس اندونيسية) وليوبولد سنغور (رئيس السنغال حاليا) . ويذكر نهرو في التقرير الشامل الذي قدمه الى حزب المؤتمر الوطني الهندي ان ١٧٥ مندوبا حضروا المؤتمر نيابة عن ١٣٤ منظمة . ومن البلدان التي تمثلت في المؤتمر من آسية وافريقية واوروبة واميركة الشمالية والجنوبية كل من مصر وايران وسورية ومراكش وافريقية الشمالية الفرنسية ولم يذكر نهرو اسم فلسطين . ومع ذلك لا بد أن يكون وفد صهيوني من اوروبة أو فلسطين قد حضر المؤتمر لان نهرو يقول : « وكانت اللغات الرسمية هي الفرنسية والانكليزية والالمانية . ومن اللغات الاخرى التي استعملت العربية والصينية . وقد أوقفت محاولة للتحدث بالعبرية لقصر الوقت من جهة ولانه ان وجد من يفهمها فقلة ، من جهة ثانية » . وقد أراد الصهيونيون وحدهم استعمال العبرية . ولكن لا بد انهم شعروا بأنفسهم في غير مكانهم في هذا اللقاء المعادي للغرب والمؤكد اساسا على « التعاون بين حركات التحرر الوطني في البلدان المضطهدة (١٠) » . والمؤكد ان الصهيونيين الذين حضروا المؤتمر لم يحافظوا على الاتصالات التي اجروها مع الوفود الاخرى في بروكسل في حين ان الزعماء الآسيويين واصلوا اتصالاتهم . وبينما يذكر هذا المؤتمر في تواريخ معظم الحركات القومية الآسيوية فانه لا يظهر في تاريخ الصهيونية .

ولم يجتذب وجود وفود عن يهود الهند والصين في المؤتمرات الصهيونية عيون الصهيونيين الاوروبيين الى آسية على الرغم من ان وفدا عن يهود شانغهاي حضر

---

١٠ ــ **Indian Annual Register** كلكته ، ١٩٢٧ ، المجلد الاول ، ص ٢٠٤ ــ ٢٠٥ ، والمجلد الثاني ، ص ١٥٢ ــ ١٥٩ . وايضا بودين ونورث ، **روسية السوفيتية والشرق** ، ستانفورد ، ١٩٥٧ ، ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦

المؤتمر الصهيوني السادس في العام ١٩٠٣ (١١) . وبالفعل عندما اطلق نداء في العام ١٩٣٣ من اجل المساعدة على احياء الطائفة اليهودية الصينية القديمة والمؤلفة من ٢٠٠ يهودي بالمولد نسوا اليهودية لم تفعل المنظمة الصهيونية شيئا فاختفى اليهود الاصليون في الصين نهائيا (١٢) .

كان على الصهيونيين ان يهتموا بالصين وحركتها القومية لسبب خاص . فقد كان الدكتور صن يات صن ، مؤسس الصين الحديثة وحزب الكومنتانغ بالاضافة الى كونه بروتستانتيا يميل الى العطف على عودة « الشعب المختار » الى فلسطين ، يعطف على الصهيونيين . وفي رد له على يهودي بارز من شانغهاي كتب الدكتور صن يات صن في نيسان عام ١٩٠٤ يقول : « لقد قرات باهتمام كبير رسالتك ونسخة **رسول اسرائيل**، واود ان أؤكد لك عطفي على حركتكم التي هي من اعظم حركات الوقت الحاضر . ولا يسع كل أحباء الديمقراطية الا ان يدعموا الحركة لبعث أمتكم التاريخية الرائعة التي قدمت الكثير للمدنية في العالم والتي تستحق بحق مكانا شريفا في أسرة الامم (١٣) » . ويمد في هذه الرسالة الحارة زعيم اكبر امة آسيوية يد الصداقة الى الصهيونيين . ولكن الصهيونيين لم يستجيبوا لا في ذلك الوقت ولا عندما أصبح صن يات صن رئيسا للصين . وما فشلهم في انتهاز هذه الفرصة الذهبية الا برهان مقنع على ان الصهيونية المنغلقة على ذاتها الاوروبية لم تهتم حقا بالقومية الآسيوية في حد ذاتها .

ورغم العقبات التي أقامتها الدول المستعمرة قامت خلال العشرينات والثلاثينات اتصالات بين الحركات القومية الآسيوية كتلك التي قامت بين الهند وبعض الدول العربية وبين الهند والصين وبين الهند وبورمة . وفي العام ١٩٣٨ التقى نهرو بزعماء حزب الوفد في مصر وفي العام التالي أرسل الحزب وفدا الى الهند (١٤) .

واذا كان باستطاعة القوميين الآسيويين عمل الكثير من اجل الاتصال فيما بينهم رغم الصعوبات والعقبات التي واجهتهم فقد كان بامكان الصهيونيين عمل أكثر من ذلك بسبب مواردهم الاكثر واتصالاتهم العالمية . فقد مثل بن غوريون الاتحادات العمالية الصهيونية في بضعة لقاءات اشتراكية دولية خلال هذين العقدين الا انها عقدت جميعها في اوروبة ولم يسافر بن غوريون باتجاه الشرق ابدا

وبعد اهمال الصهيونيين الاستفادة من صداقة صن يات صن حاولوا وفشلوا في كسب صداقة المهاتما غاندي ، أبو الهند الحديثة .

قد يبدو غريبا من الصهيونيين الذين اظهروا في السابق قليلا من الاهتمام بالحركات القومية الآسيوية ان يحاولوا كسب غاندي لمجرد نفوذه في آسية ولكنهم فعلوا ذلك لكثرة مؤيديه في الغرب . فقد كانت آراء المهاتما قيمة ومحترمة لدى اصدقائه واعدائه ، واعتبره كثيرون قديسا ، وتأييده للصهيونية قد يعطي الحركة وزنا اخلاقيا وادبيا معينا. الا ان غاندي لم يكن مستعدا لتأييد الصهيونية او حتى للتعبير عن العطف على اهدافها.

١١ — هـ. ديكر ، **Wanderers and Settlers in the Far East** نيويورك ، ١٩٦٢ ، ص ٦٧ .

١٢ — و. س. وايت ، **اليهود الصينيون** ، نيويورك ، ١٩٦٦ ، ص ١٥٧

١٣ — هـ. ديكر ، المصدر السابق ، ص ٦٨

١٤ — يعالج هذا الموضوع بشكل مطول في الفصل الاول ، « الاتصالات المبكرة بين الحركات القومية » ، من كتاب وضعه صاحب هذا الكتاب بعنوان **افرو آسية وعدم الانحياز** ، لندن ، ١٩٦٦

فقد رفض غاندي كليا فكرة الصهيونية التي ادت الى قيام دولـــة اسرائيل وبقي على موقفه هذا عشرين عاما رغم تعرضه لاشكال ذكية ومتنوعة من الضغط والاقناع .

قد يدهش البعض كون ردة فعل المهاتما سلبية تماما للصهيونية لانهم يظنون ان الرجل الذي ناضل في سبيل كسب المساواة للمنبوذين الهنود سينتقل بدافع الشفقة الى العطف على اليهود ، منبوذي المجتمع الاوروبي وسيدعم بالتالي الدولة اليهودية . الا ان هذا لم يحدث لسببين .

اولا ، كان غاندي يؤمن بالنظر الى اي مسألة من كل جوانبها. ونتيجة لذلك رفض غاندي فكرة اقامة دولة يهودية في فلسطين العربية دون الاخذ بعين الاعتبار السكان الاصليين رغم ان اليهود كانوا يضطهدون في اوروبة .

ثانيا ، لم ينجح الصهيونيون الذين تقربوا من غاندي في الربط بين مصير يهود اوروبة وقيام دولة اسرائيل في فلسطين بصورة يقبل بها ذهن المهاتما . لقد كان تقييمه لمسألة اللاسامية والبعث اليهودي في اوروبة يقوم على اساس خبرته الذاتية في اللاعنف في جنوبي افريقية اولا ثم في الهند بعدها وعلى اساس ايمانه بمجتمع متعدد الديانات .

ومن المدهش الى حد ما رفض المهاتما للصهيونية بتلك الصورة القاطعة لان اثنين من اقرب زملائه في نضالاته السياسية في جنوبي افريقية كانا يهوديين وصهيونيين هما هيرمان كالينباخ وهـ . س. ل. يولاك . وقد جعلت تلك الصلة المبكرة والحميمة غاندي يقول لمبعوثين صهيونيين بعد سنوات عديدة : « انا شخصيا نصف يهودي » .

وابتعد يولاك عن غاندي بينما بقي كالينباخ عزيزا عليه وقـــال عنه غاندي ان العاطفة الصهيونية كانت قوية فيه بحيث أعطاها جزءا كبيرا من ثروته . وفوق ذلك ؛ قرأ غاندي كل المنشورات الصهيونية التي كانت في حوزة كالينباخ فجاء رفضه بذلك عن معرفة جيدة بالصهيونية .

وأثار في العام ١٩٠٦ مسألة الوطن القومي اليهودي في مجلته « الرأي الهندي » وذلك في سياق نقد للطائفة اليهودية الهندية . قال ان هذه الطائفة التي تتألف بشكل رئيسي من مهاجرين تركوا اوروبة الشرقية نتيجة للمذابح لم تساعد اقلية أخرى مضطهدة في جنوبي افريقية وتتألف من هنود جنوبي افريقية . ولم يدركوا المقارنة بين وضعهم السابق في المناطق الاوروبية المعادية للسامية ووضع الهنود في جنوبي افريقية .

وبما أن الفترة التي قضاها غاندي في جنوبي أفريقية كانت عبارة عن السنوات الحاسمة في حياته يحتمل ان يكون هذا الامتناع اليهودي قد اثر في موقفه النقدي من المطامح الصهيونية في فلسطين فيما بعد الا أن لذلك الموقف الذي اتخذه المهاتمـــا ما يبرره . فلو عاش غاندي بعد العام ١٩٤٨ لتعزز موقفه المعارض لموقف يهود جنوبي افريقية من مسألة العنصرية هناك بسبب حقيقة أن اسرائيل لم تؤيد قرارات الامـــم المتحدة التي تدين التفرقة العنصرية في جنوبي افريقية الا في العام ١٩٦٢ ، وهو وقت متأخر .

وحاول الصهيونيون ما لا يقل عن خمس مرات منفصلة اقناع غاندي باصدار تصريح يؤيد قضيتهم في فلسطين . واجرى المحاولة الاولى هيرمان كالينباخ الصهيوني المتفاني والصديق القريب جدا من غاندي . فقد زار كالينباخ غاندي في الهند في العام

١٩٣٧ وحاول خلال اسابيع اقناع المهاتما بتأييد القضية الصهيونية ولكنه فشل لاسباب واضحة ومقنعة ذكرها غاندي في مجلته « هاريجان » في السادس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٣٨ .

قال غاندي في مقالته تلك ان عواطفه كلها كانت مع اليهود الذين عرفهم معرفة وثيقة في جنوبي افريقية والذين اصبح بعضهم اصحابا له طوال حياته فعرف من خلالهم الكثير عن اليهود وما عانوه من الاضطهاد القديم جدا : « لقد كانوا منبوذي المسيحية . ووجه الشبه بين معاملة المسيحيين لهم ومعاملة الهندوس للمنبوذين قوي جدا . فقد كان الدين في الحالتين مبررا لتلك المعاملة غير الانسانية » . وقال غاندي ان هناك سببا اعم واشمل لعاطفته نحو اليهود من الصداقة . ولكن هذه العاطفة يجب الا تحجب متطلبات العدالة . واعتقد غاندي انه يجب على اليهود ، مثلهم مثل بقية شعوب الارض ، أن يصروا على ان البلد الذي يولدون فيه هو وطنهم بدل المطالبة ببلد شعب آخر .

« فلسطين ملك للعرب مثلما بريطانية ملك للبريطانيين وفرنسة للفرنسيين ومن الخطأ واللاانسانية فرض اليهود على العرب . وما يدور في فلسطين اليوم لا يبرره اي قانون اخلاقي للسلوك . وليس للانتدابات مبرر غير الحرب الاخيرة . وهي جريمة بالتأكيد ترتكب بحق الانسانية أن يقهر ويكره الشعب العربي الابي في فلسطين بحيث يمكن اعادة فلسطين الى اليهود كليا او جزئيا كوطن قومي لهم .

« هناك خط أنبل هو الاصرار على معاملة اليهود معاملة عادلة حيث يولدون ويربون . ان اليهود المولودين في فرنسة فرنسيون بالضبط مثلما المسيحيون المولودون في فرنسة فرنسيون . اذا كان ليس لليهود وطن غير فلسطين هل يستسيغون فكرة اجبارهم على مغادرة بقية اجزاء العالم التي يقيمون فيها ؟ ام هل يريدون وطنا مزدوجا فيبقون حيث يريدون ؟ ان هذه الصرخة من أجل وطن قومي تبرر ظاهريا طرد اليهود على يد الالمان » .

واعترف غاندي بأن اضطهاد الالمان لليهود لم يسبقه مثيل في التاريخ . وكتب يقول ان النازية تبشر بدين جديد ينادي بقومية استثنائية غير متسامحة ، واذا وجد مبرر للحرب فان حربا ضد المانية لوقف اضطهاد اليهود لها ما يبررها (١٥) . ولكن غاندي اقترح بديلا للعنف ضد النازيين : مقاومة يقوم بها يهود المانية تتميز بالجرأة واللاعنف . « لو كنت يهوديا مولودا في المانية واعيش فيها لقلت ان المانية هي وطني مثلما قد يقول اطول الماني غير يهودي ولتحديته أن يطلق النار علي او ان يلقي بي في السجن . وانني ارفض أن اطرد أو اخضع لمعاملة مميزة » . وكان مقتنعا انه لو بادر حتى عدد صغير في اليهود الالمان الى سلوك هذه الطريقة لتبعهم الباقون بسرعة . واشار الى ان اليهود الالمان في وضع افضل من وضع هنود جنوبي افريقية لان اليهود جماعة متماسكة متجانسة يمكن لاحتجاجاتها أن تلقى دعم الراي العالمي بأسره (١٦) . وكان غاندي متأكدا من انه كان بامكان هتلر التوصل الى اتفاق مع اليهود لو انهم مارسوا

---

١٥ ـــ اللاعنف ، ص ١٧٠ وما يليها
١٦ ـــ المصدر نفسه ، ص ١٧٢

الـ « ساتيا غراها » (المقاومة السلبية) بصورة جماعية (١٧) ، مع أن هذا قد يعني في البداية التضحية بمئات الارواح اليهودية (١٨) .

ويتلخص موقف المهاتما بعد الحرب في حديث له مع لويس فيشر حيث يقول ان اليهود ارتكبوا خطأ الاستسلام بخنوع لهتلر . وعندما أجابه فيشر بأن اليهود لم يستطيعوا أن يفعلوا اي شيء آخر اكد غاندي ان قتل اليهود على يد هتلر كان افظع جريمة شهدها العصر . ومهما يكن فقد كان على اليهود الا يتقدموا الى سكين الجزار بل « كان عليهم ان يلقوا بأنفسهم في البحر » او أن يقوموا بالهراكيري (طريقة يابانية في الانتحار ببقر البطن بخنجر تخلصا من العار) بدلا من الاستسلام . وعندما سأله فيشر ان كان يعني وجوب اقدام اليهود على الانتحار انتحارا جماعيا أجابه غاندي : « (لو حدث ذلك) لكان بطولة وأنار العالم والشعب الالماني على شرور عنف هتلر خاصة في العام ١٩٣٨ ، قبل الحرب . ولكنهم أذعنوا على اية حال بالملايين (١٩) » .

ومن أجل ألا يعتبر هذا الحكم حكما قاسيا جدا يجب أن تلاحظ انه أثناء محاكمة ادولف آيخمان قامت الحكومة الاسرائيلية بحملات تثقيفية في المدارس الاسرائيلية حول حرق اليهود ، الا أن هذه الحملات لم تؤثر في الجيل الصغير الذي استفسر استفسارا فقط ، يصحبه شعور بالغضب والعار ، عن سبب عدم رد اليهود الالمان على ابادتهم بالجملة .

ان كلام غاندي وكلام الاسرائيليين الشبان ما هو الا ترديد لآراء وعواطف زعماء الصهيونيين الاوائل . كتب احاد هاعام بعد مذبحة كيشينيف في العام ١٩٠٣ يقول : « واعتقدت أننا يجب أن نرى الحقيقة هذه المرة واعتقدت ان واجبنا الاول هو أن نكون رجالا نلقي العبودية بعيدا ونرفض أن نذبح مثل الخراف وان نبين لاربابنا واسيادنا ان خمسة ملايين انسان قوة يحسب لها حساب عندما يعوا أنهم بشر لا حيوانات بكم تنظر الى الجزار ملتمسة عطفه . ولكن أملي كان عقيما ... انني محاط ببكاء العبيد وصخب الحمقى (٢٠) » . ويحتقر بياليك في قصيدته ألتي كتبها بعد الحادث المأساوي نفسه عدم المقاومة اليهودية بقوله « العار فظيع (٢١) » . ولم يكن غاندي اقسى في كلامه عن الحالة المشؤومة خلال الثلاثينات وبعد الحرب عندما عرف مدى الفظائع الوحشية النازية من احاد هاعام في حديثه اثر مذبحة ١٩٠٣ او اقسى من الاسرائيليين الشبان في العام ١٩٦١ .

وحملت مناقشة غاندي القضية الصهيونية من الجانبين الروحي والسياسي عالمين يهوديين بارزين كانا يستوطنان فلسطين على الرد عليه في شباط ١٩٣٩ في ردين يعبران عن ألمهما وضيقهما .

واشهر الاثنين هو الفيلسوف الشهير مارتن بوبر الذي كان استاذا للفلسفة والاجتماع في الجامعة العبرية في القدس . تحدث بوبر عن الصلة بين اليهود وفلسطين:

---

١٧ ــ المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ــ ١٧٩

١٨ ــ المصدر نفسه ، ص ٢١٨

١٩ ــ غاندي وستالين ، ص ٥٠ .

٢٠ ــ احاد هاعام ، المصدر السابق ، ص ٢٨١ .

٢١ ــ مقتبس في شكتمان ، متمرد ورجل دولة ، المجلد الاول ، ص ٧٨ .

« ان الارض نفسها مقدسة وليست مجرد قطعة جغرافية   ان تشتت شعب من الشعوب بدون قلب حي يجعله مريضا ... ليس مبرر الصهيونية فقط او بالضرورة في الكتاب المقدس » . وحاول بوبر ان يثبت أن عودة اليهود الى أرض فلسطين قد تحل مسألة وازمة عدم الايمان في صفوف اليهود . وتساءل بوبر عن سبب وكيفية اعتبار فلسطين « ملكا » للعرب ، قد تكون فلسطين ملكا لهم بحق الفتح الا أنها شهدت فاتحين كثيرين بعد العرب ، اما اليهود فقد استخدموا وسائل بعيدة جدا عن الفتح في استيطان فلسطين ومع ذلك لم يعتبروا اصحاب اي حق في ملكية فلسطين . وتابع بوبر قوله بأن هناك مكانا في فلسطين للشعبين: « انها جزء قد يصبح حرا دون أن يتجاوز الى مجال الاخرين الحيوي ــ انها وطن قومي يستطيع شعبه ان يعيش كأمة » . واستخدم بعدذلك حجة « الرسالة التمدينية » مشيرا الى « حالة الزراعة الفلاحية الراهنة والبدائية بصورة ميئوس منها » . ومن هنا انتقل الى الحجة الصوفية حول انتظار الله ليرى ماذا فعل الشعب بالارض التي اعطاه الله اياها . واختتم بوبر رده متوسلا الى غاندي : « ساعدنا أن نهدي قلب العرب » . واكد بوبر ان اليهود لم يكونوا بحاجة الى حماية بريطانية : « نحن لا نريد القوة . يجب ان نقدر حتى على القتال من اجل العدالة وان نقاتل بمحبة » .

وزعم الثاني ، يهودا ماجنس الذي كان رئيسا للجامعة العبرية ، ان الساتياغراها لو مورست في المانية لما نجحت لعجز الدعاية عن انارة الراي العام . ثم أشار ، بسبب خلطه بين المعاناة واللاعنف ، الى ان التاريخ اليهودي حافل بالاستشهاد وأن اليهود اظهروا استعدادهم للمعاناة . واعترف بأن العرب كانوا يشكلون غالبية سكان فلسطين بمعنى ان معظم المزارعين واصحاب الاراضي كانوا من العرب وان العربية هي اللغة المحكية الرئيسية . ولكنه قال ان فلسطين تختلف عن انكلترة بكونها بلدا مقدسا لدى اديان ثلاثة وأن اليهود يتوقون الى فلسطين . وتابع قوله : « ستبقى الحياة اليهودية دوما تفتقد الى عنصر أساسي من مكوناتها طالما لا تملك اليهودية والشعب اليهودي مركزا روحيا وفكريا في فلسطين » . ولكنه اضاف ان هذا المركز « يجب أن يتخذ ميزات وطن قومي ... وهكذا لا يمكن ان يتألف هذا المركز اليهودي من رجال دين وعلماء فقط بل يجب أن توجد فيه كل مسائل الحياة من سياسية واجتماعية ودينية وروحية » . وقال بما أن اليهود استصلحوا الارض وبعثوا اللغة العبرية « فان الارض من هذه الناحية (ملك) لهم أيضا » .

وأضاف ماجنس قائلا : « يبين السجل أن القوات اليهودية الشرعية في فلسطين لم ترتكب في أي حادثة عملا عدوانيا » . وقال ايضا ان اليهود لم يريدوا الانتداب وما كانوا بحاجة لحماية بريطانية ثم يعترف في الوقت نفسه أن وحدات الدفاع اليهودية « اندمجت » في القوات التي شكلتها بريطانية في البلاد .

وقال انه لكي يكون اللاعنف فعالا يجب أن يمارس في وجه سلطة شرعية لا في وجه لصوص هائمين . واختتم ماجنس كلامه بقوله : « هناك كثيرون جدا يتفقون واياك اننا يجب ألا (نخضع) العرب . واذا كنت افهم ماذا تعني بكلمة (يخضع) فانني اقول

رايي ، بعد ان تضيت سنوات كثيرة في فلسطين ، بأن العرب لم يخضعوا (٢٢) » .

لم يجب غاندي على هاتين الرسالتين اذ سبق له ان بحث النقاط الواردة فيهما في عدة مناسبات .

فبالنسبة للنقطة الاولى التي اثارها بوبر حول « حق » الفلسطينيين العرب في فلسطين ، اعتبر غاندي الفلسطينيين سكانا لا فاتحين واعتبرهم « السكان الوطنيين » الذين واجههم الصهيونيون عند وصولهم في ثمانينات القرن الماضي

ثانيا ، عرف بوبر « الوطن القومي » بأنه « وطن قد يعيش فيه الشعب (شعب فلسطين) كأمة » . ويدل هذا على أنه توقع أن يجعل جزء كبير من الشعب اليهودي وطنه في فلسطين واذا تحقق توقعه هذا يصبح توكيده على امكانية وجود مجال أمام كل من عرب فلسطين واليهود في فلسطين غير عملي ، وقد كان المهاتما يدرك جيـــدا حجم فلسطين وكثافة سكانها .

ثالثا ، حاول بوبر اقناع غاندي « بالرسالة التمدينية » لليهود في فلسطين . ولكن غاندي كان قد رفض مثل هذه الرسالة التي ادعى البريطانيون القيام بها في الهند واختار استقلال بـــلاده .

رابعا ، ذكر كل من بوبر وماجنس نقاطا متضاربة حول « حماية بريطانية » يقول الاثنان ان اليهود لم يريدوا الحماية البريطانية ثم يعود ماجنس فيعترف بأن اليهود « دمجوا » قواتهم في القوة العسكرية البريطانية في فلسطين . وما قول ماجنس بأن الصهيونيين لم يريدوا الانتداب الا خطأ تاما .

خامسا ، ان تأكيد ماجنس ، كما بينا ، على توق اليهود لفلســطـــين يتناقض وارقام الهجرة .

سادسا، يقول ماجنس ان اليهود لم يكونوا طرفا في اي حادث عنف في فلسطين . ان هذا عبارة عن ادعاء يثبت عكسه اشتراك اليهود في الفرق الليلية الخاصة التي شكلها ونغيت (Wingate) خلال ثورة ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩

واخيرا ، أتهم ماجنس العرب بأنهم « لصوص » تستحيل ممارسة الساتياغراها امامهم . ولو أجاب غاندي لقال ان العنف لا ينجح في اقناع العرب بالحق الادبي للقضية الصهيونية الذي أراد ماجنس اثباته .

وحاول داعية اللاعنف الاميركي الشهير جون هاينز هولمز في وقت متاخر مـــن الثلاثينات ، وبطلب من الحاخام ستيفن وايز ، ان يحصل على تصريح من غاندي يؤيد الصهيونية الا انه انتهى الى الفشل ايضا .

وقام بالمحاولة الثانية لكسب غاندي الى الصهيونية سيدني سلفرمان ، عضو البرلمان البريطاني المشهور بدفاعه عن قضية استقلال الهند . ولكنه تعرض لاستجواب شديد يذكرنا بأن غاندي كان محاميا متمرسا قبل كل شيء .

بدأ غاندي حديثه مع سلفرمان بالتعبير عن عطفه واوضح له انه لم يأت الى الشخص المناسب . وقد لا يكون غاندي ذهب بعيدا في دعمه لليهود فيما يتعلق بالاساليب التي كانوا يستخدمونها في فلسطين . وقال سيلفرمان ان جماعات صغيرة من المتهورين

---

٢٢ ــ مارتن بوبر ويهودا مغنيس ، رسالتان الى غاندي ، القدس ، ١٩٣٩

الطائشين والارهابيين في فلسطين كانت تقوم بنشاطات خاطئة . وقال غاندي انه ما لم يفعل الصهيونيون شيئا لكسب دعم المسلمين الهنود فلن يكون من الممكن الا عمل شيء ضئيل . ثم تساءل سيلفرمان ما اذا كان غاندي يعطف على المطامح الصهيونية في اقامة وطن قومي في فلسطين على اساس أن اليهود هم الامة الوحيدة على وجه الارض التي لا تملك وطنا لها .

وتساءل المهاتما « دعني أحاول فهم المسألة ، لماذا تريدون وطنا قوميا في فلسطين ؟ » .

« هناك سببان . اولا ، لقد بلغ عدد اليهود الذين يستوطنون هناك ٦٥٠٫٠٠٠ نسمة ، ولا نستطيع أن نبدأ من جديد . ثانيا ، ليس هناك اي مكان آخر نستطيع الذهاب اليه » .

وسأل المهاتما : « الا توجد اماكن خالية مقفرة كافية في العالم لاستقبالكم ؟ » .

أجاب سيلفرمان « كانت فلسطين نفسها منطقة خالية مقفرة عندما ذهبنا اليها . وهكذا حصلنا عليها في العام ١٩١٧ ، ولم يكن يريدها أحد غيرنا . اما الان وقد طورناها فانهم يريدون طردنا منها . وماذا يضمن عدم حدوث الشيء نفسه في مكان آخر ايضا ؟ ان القصة هي نفسها في كل مكان ، في كنده وانكلترة واميركة الجنوبية . اننا نعامل كغرباء لا يرحب بهم . »

« عذرا لجهلي ! اتسمح لي ان اسأل : ما هو موقف روسية من اليهود ؟ » .

« ان اليديشية لغة معترف بها ولليهود كامل حقوق المواطنة . وربما تكون روسية البلد الوحيد حيث يعاقب التبشير بالعنصرية » .

« لنفترض ان روسية استوعبت جميع اليهود . هل يحل ذلك مسألتكم ؟ »

« لا يحل ذلك اكثر مما تحله الحرية التي يتمتع بها اليهود في الاستيطان في الولايات المتحدة . وروسية لا توافق على اي هجرة جماعية لليهود . ان موقفها من تلك المسألة يشبه تماما موقف اي دولة أخرى » .

« اذن أنت تقصد أن تقول انكم لستم امة ولكنكم تحاولون أن تصبحوا أمة . ماذا عن العرب » ؟

« نحن مثل نبتة مقتلعة تعيش وجودا مشوها . نريد ان نستعيد ما فقدناه . ولا يخسر العرب بذلك شيئا . نحن نستطيع أن نعيش مع السكان العرب . ولا يوجد فرق بين العامل العربي والعامل اليهودي . ان المشكلة تخلقها الجامعة العربية » .

« دعني أفهم اكثر . هل ستسمحون للعرب بدخول فلسطين بحرية » ؟

« نعم . ولكن شرط الا يلغي ذلك الهدف المعلن لاقامة وطن قومي يهودي في فلسطين » .

« اذن تريدون جعل الغالبية الغربية اقلية » ؟

واعترف سيلفرمان بأن مركز العرب تأثر الى ذلك الحد وان ظلما سيحل بهم . ولكنه أصر أنه وان فقد العرب مركزهم في فلسطين فانهم سيجدون خمس ممالك يمكنهم اعتبارها لهم بالاضافة الى سورية ولبنان . « يعني ذلك ان يحل ٥٪ من الظلم بالعرب لتجنيب حرمان اليهود من العدالة كلها » .

« وهكذا يخسر العرب شيئا » ؟
« شيئا لم يكن لهم أبدا » .
« شيئا كان لهم بالتأكيد قبل بدء الهجرة اليهودية الى فلسطين في العام ١٩١٧ » .
« نعم ! ولكن ذلك أيام الحكم التركي » .
« وهكذا تريدون من العرب ان يضحوا بشيء تريدونه لانفسكم » ؟
«نحن نريدهم أن يضحوا قليلا فقط ليمكن انصاف الوضع العام » .

وبعد استمرار الحديث قليلا اختتم المهاتما حديثه بقوله : « استطيع أن آمل فقط بأن يوجد حل عادل يرضي اليهود . ولكنني بعد كل حديثنا لا اقدر ان أعود عن رأيي الذي اعطيتك اياه في البداية (٢٣) » .

أما المحاولة الخامسة والاخيرة لكسب غاندي الى جانب الصهيونية فقد قام بها لويس فيشر الذي رجع الى رسائل بوبر — ماجنس ومقابلة سيلفرمان . ويروي فيشر عن غاندي قوله : « ان اليهود أصحاب قضية عادلة . واذا كان للعرب قضية في فلسطين فان لليهود حق الاولوية » . وقد نقل فيشر نبأ التحول الهائل جدا ، ان حدث ذلك التحول فعلا ، الى الصهيونيين فورا . الا ان ذلك يلغي نفسه بنفسه . ففي الاشارة الى حديثه مع فيشر اكد غاندي بصورة اشد في مقالة اخرى نشرت في « هاريجان » في آب ١٩٤٧ على تأييد الجانب العربي . كتب غاندي يقول « لقد اخطأ اليهود خطأ فظيعا بسعيهم فرض انفسهم على العرب بمساعدة اميركة وبريطانية والان باللجوء الى الارهاب الفاضح . لماذا يعتمدون على الاموال الاميركية من أجل تثبيت انفسهم بالقوة على أرض لا ترحب بهم ؟ لماذا يلجأون الى الارهاب لتحقيق نزولهم ارض فلسطين بالقوة (٢٤) » ؟

لا يستطيع الانسان ان يخفي اعجابه باصرار الصهيونيين واختيارهم الاذكياء للتحدث باسمهم . فقد تمت المحاولة الاولى لسلب عقل غاندي بواسطة صديق له قريب منه جدا هو كالينباخ ، ثم تبع كالينباخ فيلسوفان بارزان هما بوبر وماجنس وبعدهما هولمز واخيرا سيلفرمان ، أفضل اصدقاء الهند في البرلمان البريطاني ، وفيشر ، الصحافي المتنفذ . وهدف الصهيونيين من كل تلك المحاولات هو كسب غاندي الا أن محاولاتهم باءت بالفشل . لقد كانت الاتصالات الجانبية محدودة ولم تصل بعيدا لان غاندي أصر من البداية الى النهاية على أن الصهيونية مخطئة أدبيا وسياسيا .

نبع عداء غاندي للصهيونية ، ذلك العداء الذي لم يعرف المساومة ، من تبصره ورؤيته أن هذه الحركة كانت واقعة في مأزق لم تعرف له حلا . وقال في مقابلة صحافية له في أيار من العام ١٩٤٦ « اذا كانت توقا سياسيا فقط فانني اظن أن لا قيمة لها . لماذا يتوقون لفلسطين ؟ . . . اذا كانت توقا دينيا لا يبقى بالتأكيد اذن مجال للارهاب . يجب عليهم ان يجتمعوا مع العرب ويصادقونهم والا يعتمدوا على المساعدة البريطانية أو الاميركية أو اي مساعدة اخرى باستثناء ما يأتي من يهوه . » وهكذا رفض غاندي

---

٢٣ — انني مدين بالمعلومات حول هذه المناقشة الى السيد بيار بلال الذي كان لسنوات كثيرة صديقا وسكرتيرا للمهاتما غاندي .
٢٤ — اللاعنف ، المجلد الثاني ، ص ١١٧

هدف الصهيونيين واساليبهم العنيفة واعتمادهم على الدعم الخارجي . (٢٥) ربما يبدو استخدام غاندي كلمة « توق » قاسيا ولكن اخرين استعملوها في الموضوع نفسه . فقد كتب الاستاذ الذي يدرس التاريخ في جامعة اكسفورد قائلا : « اذا كانت الصهيونية هي توق اليهود القديم الى الارض المقدسة فان ذلك التوق قد اصبح علمانيا . » (٢٦)

ارتكز رفض غاندي للصهيونية على ثلاثة مواقف اساسية . فهو كزعيم قومي آسيوي لم يستطع ان يقبل بدولة تفرض على آسية بالقوة ويسكنها مهاجرون غير آسيويين . وكهندي رفض غاندي الزعم الصهيوني الذي لاقى نجاحا في صفوف الليبراليين والذي قال بوجوب مشاركة العالم كله في دفع ثمن اضطهاد المانية النازية لليهود لان الهند لم تعرف اللاسامية ابدا . وكهندوسي يؤمن بالسوادهارما (الخلاص الذاتي) رفض اعتماد الصهيونيين الكلي تقريبا على الدعم السياسي والمالي الاوروبي والاميركي . الا ان الصهيونيين لم يردوا ولا يردون على هذه المواقف .

وهناك دوافع اخرى تفسر اصرار غاندي على عدائه للصهيونية . وقد ذكر كاتب اميركي أربعة منها (٢٧) : حساسيته نحو شعور المسلمين الهنود ، اعتراضاته على الاساليب الصهيونية التي لم تتفق واسلوبه في اللاعنف ، أنه « وجد الصهيونية متناقضة مع قوميته التعددية » التي ترفض تأسيس دولة ترتكز على ديانة واحدة فحسب او بصورة رئيسية ، وأخيرا اعتقاده بصورة واضحة ان من غير الحكمة تعقيد علاقاته مع البريطانيين المنتدبين بقبوله الصهيونية .

كان غاندي سياسيا وقديسا ايضا . ولكن السبب الاخير ــ علاقته مع البريطانيين ــ غير مرجح سياسيا لانه لم يحدث عداء مباشر بين الصهيونية وبريطانية قبل العام ١٩٤٥ ولان غاندي كان قد هدم الجسور بينه وبين بريطانية بحركته التي رفعت شعار «اتركوا الهند» في العام ١٩٤٢ . وفيما يتعلق بشعور المسلمين الهنود يمكننا فقط ان نتذكر ان غاندي قال لسيلفرمان ان يتصل بالمسلمين الهنود حول فلسطين لانه يفترض فيهم الارتباط مباشرة بمصير اخوانهم في الدين في ذلك البلد . ولكنه يقول فيما يتعلق بالحجة القائلة بتأثره بحساسيته نحو مشاعر المسلمين الهنود : « لقد قلت باستمرار انني لا أبيع الحقيقة من اجل خلاص الهند . ولا افعل ذلك لكسب صداقة المسلمين التي هي أقل مرتبة من خلاص الهند (٢٨) » .

كان الصهيونيون مهتمين فقط بالحصول على دعم غاندي بشهرته العالمية ، فهم لم يحاولوا الاتصال بالمؤتمر الوطني الهندي وهذه حقيقة تؤكد عدم اهتمامهم بالقومية الاسيوية في حد ذاتها . ونتيجة لذلك ابرز المؤتمر صلته وقربه من الحركات القومية العربية في غربي آسية بصورة تامة . وفي وقت مبكر يعود الى العام ١٩٢١ أعلن المؤتمر في قرار له أن منطلق سياسته الخارجية منطلق آسيوي عام : « ان مصير شعب الهند مرتبط حتما بمصير الامم والقوى الاسيوية المجاورة » . وابان المؤتمر

---

٢٥ ــ كانت المقابلة مع احد مراسلي رويتر ، **اللاعنف** ، المجلد الثاني ، ص ٢٤٣

٢٦ ــ تريفور ــ روبر ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .

٢٧ ــ ب. ف. بور ، **غاندي وشؤون العالم** ، واشنطن ، ١٩٦٠ ، ص ٧٤ وما يليها .

٢٨ ــ **اللاعنف** ، المجلد الاول ، ص ٢١٩ .

في العام ١٩٢٢ انه ما لم تتحرر جزيرة العرب (العالم العربي) من كل السيطرة غير الاسلامية لن يكون سلام ورضى في الهند » . وظهر تعاطفه مع مصر في العام ١٩٢٤ وكذلك تعاطفه التام في العام ١٩٢٨ مع مصر وسورية وفلسطين والعراق في نضالهم ضد الامبريالية الغربية . وأعلن القوميون الهنود يوم السابع والعشرين من أيلول عام ١٩٣٦ « يوم فلسطين » فجرت فيه اللقاءات وانطلقت التظاهرات في سائر انحاء الهند. وفي العامين ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ بالتحديد ادينت امكانية تقسيم فلسطين ثم قال حزب المؤتمر آنذاك : « نطلب الى اليهود الا يسعوا وراء حماية الانتداب البريطاني والا يسمحوا لانفسهم أن يستغلوا لمصلحة الامبريالية البريطانية (٢٩) » . ونتيجة لبعض المعارضة داخل المؤتمر استصدر نهرو في العام ١٩٣٩ قرارا من المؤتمر يدين المذبحة التي قام بها هتلر واقترح على اللاجئين اليهود ملجأ في الهند ، الا انه أعرب في الوقت نفسه عن أسفه لان اليهود « اعتمدوا على القوات المسلحة البريطانية لتعزيز امتيازاتهم الخاصة في فلسطين مما جعلهم في صف الامبريالية البريطانية (٣٠) » .

ربما ترجع الاهتمامات العالمية الشاملة لدى الحركة القومية الهندية بصورة رئيسية الى جواهر لال نهرو الشاب الذي ذهب بتعاطفه وتاييده مدى بعيدا . ففي رسالة كتبها في أيار عام ١٩٣٣ في السجن الى ابنته (نشرت فيما بعد في كتابه « ملامح من تاريخ العالم ») أعرب نهرو عن أرائه حول اليهود والصهيونية والمسألة الفلسطينية بشكل شامل . قال نهرو « اليهود شعب بارز جدا ... كانوا مغرورين نوعا ما ويعتقدون انهم الشعب المختار . ولكن كل الشعوب تقريبا انغمست في هذا الغرور » . وبعد وصفه القرون الطويلة من الاضطهاد في اوروبة وصف الصهيونية بقوله « صرخة الماضي هذه هي التي تجتذب اليهود الى القدس وفلسطين » . ويقول عن تصريح بلفور : « أعلن هذا التصريح لكسب ود يهود العالم . كما كان مهما من الناحية المالية . وقد رحب به اليهود . وكان في التصريح نقص صغير اذ اغفل حقيقة ليست غير هامة ، ففلسطين لم تكن برية ولا مكانا خاليا غير مأهول . فقد كانت وطنا له أصحابه ... وقد احتج كل شخص غير يهودي بشدة على التصريح » . هذا وتتبين في تحليل نهرو التالي ميوله الاشتراكية : « كانت المسألة اقتصادية حقا ... كانوا خائفين من أن يأخذ اليهود الخبز من أفواههم والارض من فلاحيهم » . ويتابع نهرو كلامه : وكانت النتيجة نزاعا : فالبريطانيون « يدعمون اليهود عموما ... والعرب ... يطالبون بتقرير المصير والحرية التامة » . ثم يورد نهرو عن العرب قولهم بأن الزعماء الصهيونيين المسؤولين اكدوا ان الدولة اليهودية ستحمي طريق بريطانية الى الهند بمقاومتها القومية العربية . وعلق نهرو بقوله « تبرز الهند فجاة في اماكن نائية ! » ويختتم كلامه بقوله أن البريطانيين يلعبون باليهود ضد العرب ، ويبدو أن اليهود ينتظرون اليوم الذي يصبحون فيه الطائفة المسيطرة في فلسطين » . وحاول العرب التعاون

---

٢٩ ــ د. شاكرا بارتي . و س. بهاتاشاريا ، **Congress in Evolution** ، كلكته ، تاريخ النشر غير معروف ، وايضا ب. براساد ، **اصول السياسة الخارجية الهندية** ، كلكته ، ١٩٦٢ ، ص ١٢٩ وما يليها .

٣٠ ــ د. نورمان ، نهرو ــ **السنوات الستون الاولى** . لندن، ١٩٦٥ ، المجلد الاول ص ٦١٩ .

معهم (مع اليهود) في النضال من أجل الحرية الوطنية واقامة الحكم الديمقراطي لكنهم رفضوا هذه المحاولات وفضلوا الوقوف الى جانب القوة الاجنبية الحاكمة مساعدين اياها بذلك على منع الحرية عن غالبية الشعب (٣١) » .

وعندما بدأ الاضطهاد النازي لليهود في العام ١٩٣٨ يثير الضمير العالمي عرض نهرو آراءه في مقابلتين صحافيتين فشجب الفاشيين شجباتاماولكنه ظل متابعا اصول القضية الفلسطينية : « كان ممكنا أن يذهب عدد معين من اليهود الى فلسطين ويستوطنون فيها في جو من السلام والود ولكن ذلك لم يعد ممكنا ولم يلق اليهود ترحيبا من العرب لانهم ذهبوا وهدفهم السيطرة على البلاد » . وقال نهرو ان المسألة الفلسطينية اساسا مسألة قومية : كان العرب يناضلون ضد الحكم الامبريالي وسيطرته « وكان من المؤسف أن يقف يهود فلسطين الى جانب الامبريالية البريطانية بدل الوقوف الى جانب ذلك النضال (الفلسطيني) ويعملون تحت حمايتها ضد سكان البلاد » . وكرر في مقابلته الثانية اتهام الصهيونيين بالتواطؤ . قال : « فهم بقيامهم بذلك لم يخدموا حتى مصالحهم هم لان الامبريالية البريطانية مضى يومها وهي الان على طريق الزوال . فلم يكن من الحكمة ان يجازف اليهود باثارة استياء العالم الاسلامي بأسره واستياء معظم بلدان آسية ايضا مقابل هذا الدعم الزائل (٣٢) » .

لقد عبرت كلمات هذا الزعيم القومي الاسيوي الشهير افضل تعبير عن التناقض الاساسي بين الصهيونية والقومية الاسيوية . وكان نهرو ليبراليا ايضا يعطف كثيرا على آلام اليهود . ولكنه ، مثل غاندي ، لم يرض ابدا بالظلم الذي ارتكب ضد العرب في فلسطين . الا ان نهرو لم يتوقع ، على الرغم من بعد نظره ، ان يدخل الصهيونيون تحت حماية مظلة غربية أخرى هي المظلة الاميركية فور اغلاق مظلة الامبراطورية البريطانية

وجاء بعض اللاجئين اليهود ، خاصة من الاطباء ، من أوروبة الى الهند واستوطنوا فيها . وفي احدى المرات ايد نهرو فكرة انشاء جامعة جديدة يدرس فيها مفكرون كلهم أو جلهم من اللاجئين . ولكن تباطؤ الادارة البريطانية حال دون متابعة تلك الفكرة التي انتظر لها مستقبل مرموق .

واذا كان شجب الزعماء القوميين الاسيويين للصهيونية في محله فان سبب ذلك هو انهم لم يصابوا ابدا باللاسامية فلم تعيقهم عقدة الذنب في احكامهم السياسية حول هذه المسألة

وهكذا نجد في العقدين العظيمين من النضال الوطني في آسية دعما وتعاونا متزايدين ببطء بين مختلف الحركات القومية لم تشهد الصهيونية أي أثر من نوعهما بينها (في أوروبة أو في فلسطين) وبين الحركات الآسيوية . ويرجع ذلك الى الاختلاف الاساسي بين هذه الحركات (الحركات الاسيوية والحركة الصهيونية) . وقد عبر عن ذلك الاختلاف العداء الثابت للصهيونية لدى زعماء آسيويين مثل غاندي ونهرو .

---

٣١ — ج. نهرو ، **لمحات من تاريخ العالم** ، لندن ، ١٩٤٢ ، ص ٧٦٢ — ٧٦٥

٣٢ — نهرو في مقابلات مع صحيفة **الهندوسي** ، مدراس ، ١ — ٥ — ١٩٣٨ و ١٧ — ١٢ — ١٩٣٨ .

القول بان الصهيونية حركة معادية للاستعمار

لا يعترف الصهيونيون طبعا بوجود اي اختلاف اطلاقا بين حركتهم والحركات القومية الاسيوية . وعلى عكس ذلك ، فقد اكدوا خاصة في السنوات العشر الاخيرة ان الصهيونية قومية في مبادئها وبكونها ظاهرة اوروبية وانها معادية للاستعمار وغير استعمارية كما اظهر نشاطها في الساحة الفلسطينية .

لقد عالجنا الجانب « القومي » في الصهيونية الاوروبية ويبقى الان ان نتفحص مزاعمها الاخيرة المرتكزة على سجلها في فلسطين .

يقوم الزعم القائل بأن الصهيونية معادية للاستعمار على اساس حقيقة ان اليهود خاضوا في فلسطين حملة عنف ضد الادارة البريطانية مدة ستة عشر شهرا امتدت من تشرين الاول عام ١٩٤٥ الى شباط عام ١٩٤٧ . وينطلق الزعم القائل بعدم استعمارية الصهيونية من الميزة العامة للمجهود الصهيوني في فلسطين .

وتوجد أحدث المناقشات واكثرها اقناعا ضد الصهيونية ومعها كحركة معادية للاستعمار وغير استعمارية في مقالتين نشرتا في كتاب « النزاع العربي ـــ الاسرائيلي » الذي صدر عن « الازمنة الحديثة » . كتب المقالة الاولى مكسيم رودنسون بعنوان « اسرائيل : هل هي واقع استعماري ؟ » وكتب الثانية روبرت مزراحي بعنوان « التعايش او الحرب » . والكاتبان يهوديان فرنسيان .

والاحداث التي ادت الى الصدام البريطاني الصهيوني في العام ١٩٤٥ هي التالية: حاولت الحكومة البريطانية تعديل الميزان في الكتاب الابيض الصادر في العام ١٩٣٩ بعد محاولة ادارة انتداب غير عملي ومواجهة تهديد عربي متزايد للمصالح البريطانية الاساسية جدا من سياسية واقتصادية في الشرق الاوسط وبعد انزعاجها من ان تصريح بلفور قد يكون عملا ظالما . واعلن الكتاب الابيض في نصوصه الاساسية عدم تقسيم فلسطين وعدم قيام دولة يهودية او عربية بل دولة فلسطينية مستقلة ثنائية القومية خلال عشر سنوات ، وسمح بدخول ٧٥،٠٠٠ مهاجر يهودي خلال السنوات الخمس التالية على ألا يسمح بالهجرة اليهودية بعد ذلك « الا اذا كان العرب على استعداد للقبول بها » ، وفرضت القيود نوعا ما على شراء اليهود للاراضي .

رحب العرب عموما بالكتاب الابيض . أما الصهيونيون فاستقبلوه بالغضب والرعب . ومبرر هذه المشاعر الصهيونية هو ان الكتاب الابيض (١٩٣٩) كان عبارة عن تغيير من طرف واحد في الميثاق البريطاني ـــ الصهيوني الذي تم التوصل اليه في العام ١٩١٧ ، وهذا ما حمل « اليهود على وصفه « بالخيانة » ، وادى الى شيوع هذا الوصف وبقائه حتى اليوم (٣٣) » .

وانتقد الصهيونيون على وجه الخصوص الجزء المتعلق بالهجرة . فقد سمحت بريطانية بين العامين ١٩٢٠ ـــ ١٩٢٩ بزيادة صافية في عدد اليهود في فلسطين بلغت ١٠٠،٠٠٠ شخص ، وبفضل بريطانية ورعايتها بلغت الزيادة الصافية عن طريق الهجرة بين العامين ١٩٢٩ ـــ ١٩٣٩ ما مجموعه ٢٢٢،٥٠٠ شخص ، وقرر الكتاب الابيض اضافة ٧٥،٠٠٠ مهاجر مما يجعل عدد السكان من اليهود عن طريق الهجرة في فترة

---

٣٣ ـــ سايكس ، **Crossroads** ، ص ٢٣٧

العشرين عاما ٣٩٧،٥٠٠ بالاضافة الى ٥٦،٠٠٠ يهودي كانوا في فلسطين في العـــام ١٩١٩ . ولم يكف هذا الصهيونيين لان الزيادة الطبيعية في الغالبية العربية أبقت اليهود دائما اقلية .

ان ما حمل الصهيونيين على محاربة هذا القرار البريطاني المتاخر هو عدم السماح بان تصبح الغالبية العربية اقلية عن طريق الهجرة اليهودية غير المحدودة .

ادرك نشوب الحرب التطورات في فلسطين . وبما ان الحرب شنت ضد مضطهد اليهود الرئيسي ، المانية الهتلرية ، وقع الصهيونيون في مأزق مزعج ادى الى طرح شعار يبدو متناقضا انتجته بنات افكار بن جوريون كمخرج من المأزق : « سنقاتل مع بريطانية العظمى وكأن ليس هناك كتاب ابيض وسنحارب الكتاب الابيض كأن ليس هناك حرب» .

معنى هذا في الحقيقة العملية ان الطائفة اليهودية تعاونت بنشاط مع البريطانيين في مجهودهم الحربي بينما فعل العرب ذلك بطريقة سلبية . ومع نهاية الحرب دخـــل القوات البريطانيـــة ٢٧،٠٠٠ يهودي . وكان اليهود يدركون ادراكا واضحا ان هؤلاء سيتدربون ليصبحوا نواة الجيش اليهودي في المستقبل .

وعلى الجبهة السياسية تخلى الصهيونيون في العام ١٩٤٢ ، حسب برنامج بلتمور عن هدفهم في الوطن القومي اليهودي بهدف تحويل فلسطين الى كومونولث يهودي .

وسرعان ما انتهت الحرب ورفض وزير الخارجية الجديد بيفـــن اتخـــاذ قرار مستعجل ونهائي بشأن مستقبل فلسطين حتى بدأت القوات اليهودية السرية حملتها في تشرين الاول من العام ١٩٤٥ من اجل تحطيم حكومة الانتداب او حملها على تحويل سياستها نحو تعزيز المصالح اليهودية . وخلال الستة عشر شهرا التاليـــة أنزلت الحركبات السرية خسائر فادحة في صفوف الجنود البريطانيين . وفي العام ١٩٤٦ استطاعـــت جماعتان مسلحتان يهوديتان هما ارغون وشتيرن ان « تفاخرا، وقد كانتا من النوع الذي يفاخر بالجريمة ، بأنهما قتلتا ٣٧٣ شخصا في فلسطين بينهم ٣٠٠ مدني (٣٤) » .

كان هذا هو النضال « القومي » لليهود الصهيونيين في فلسطين . وهو نضـــال انتهى بمؤتمر التقى فيه البريطانيون بالصهيونيين والعرب كلا على حدة في لندن في كانون الثاني من العام ١٩٤٧ . وجرت محاولة اخيرة في اجتماع نهائي بين بن جوريون ووزير الخارجية البريطانية بيفن لاحياء ميثاق ١٩١٧ على الاساس القديم والمعتاد وهو الحماية اليهودية للمصالح الامبراطورية البريطانية .

ويصف كاتب سيرة بن جوريون الرسمية المناقشات الختامية . قال بيفـــن ان بريطانية تسعى فقط لحفظ السلام في الشرق الاوسط . فأجاب بن جوريون : « والنقب الا تهمكم ؟ » واعترف بيفن بوجود النفط في النقب وبوجود خطة لبناء قناة . . . « ولكننا كلما نبدأ في التنقيب او الحفر تأتون وتتدخلون وتقيمون القرى الزراعية هناك » . وكان بن جوريون على استعداد لان يقسم بأن الدولة اليهودية ستحفظ المصالح البريطانية . ولكن فقدان الامل في التوفيق بين وجهتي النظر كان واضحا (٣٥) . فقررت بريطانية عند ذاك احالة المسألة الفلسطينية الى الامم المتحدة .

---

٣٤ ــ المصدر السابق ، ص ٣٦٦ .
٣٥ ــ بار زوهار ، ص ٩٤ .

ربما لم تكن هذه المحادثة بين بن جوريون وبيفن النتيجة المتوقعة بعد حملة معادية لبريطانية وللاستعمار لانهـا تبين ان الصهيونيين لـم يريدوا حتى النهاية الابتعاد عن بريطانية ابتعادا كليا ، فقد كان البريطانيون هم الذين ابتعدوا عن الصهيونيين . وربما كان الصهيونيون يرضون تماما بالعودة الى شيء يشبه الوضع الذي كان قائما قبـل العام ١٩٣٩ عندما كان البريطانيون لا يزالون يستولون على فلسطين ويفتحون ابوابها امام اليهود . فالصهيونيون لم يطالبوا بصورة واضحة بشيء جديد مثل الاستقلال التام عن الحكم البريطاني .

وحدث بين العامين ١٩٤٢ ـــ ١٩٤٥ تراجع كبير من فكرة الكومونولث اليهـودي الواردة في برنامج بلتمور الذي لقي معارضة وايزمن واطراف بارزة بين الصهيونيـين في فلسطين واميركة .

ووفقا لذلك لم يقدم الصهيونيون ، عندما جرت المساومة الحاسمة في لنـدن ، مطلبا واحدا بالاستقلال بل اقترحوا خيارا من ثلاثة بدائل : دولة يهودية في فلسطـين بأسرها ، استمرار الانتداب كما كان قبل العام ١٩٣٩ ، التقسيم .

ووفقا لمـا يقوله المؤرخ الصهيوني هاري ساكر ، فان الصهيونيين لم يرغبوا في احالة المسألة على الامم المتحدة . « كانوا يفضلون كثيرا ان يصلوا الى اتفاق مـع الحكومـة مباشرة . وقد حدد بن جوريون هدفيهم في بدء المحادثات : تأمـين البعث القومي اليهودي وسلامة فلسطين واستقلالها ، اعـادة الصداقـة البريطانية ــ اليهودية . وافضل امل بدا له هو البديل الثاني الذي ينص على تنفيذ الانتداب بروحه وهدفه الحقيقيين . وكان يريد اغفال ذكر الدولة اليهودية كهدف وترك النتيجة للزمن. ولكن هذا لم يكن مقبولا لدى الحكومة (٣٦) » . وهكـذا ووفقا لرواياتهـم لم يختر الصهيونيون الاستقلال ، وكان البريطانيون هم الذين لم يتركوا لهم بديلا آخر

وعليه فان السؤال الحاسم في تقييم الصفة « القومية » للحملـة اليهودية فـي فلسطين ليس « ضد من شنت ؟ » ولكن « من اجل ماذا كانت ؟ » كانت ضد القيـود البريطانية على الهجرة ومن اجل الهجرة غير المقيدة التي يفضل ان تكون تحت انتداب بريطاني مستمر .

لم يكن نضال اليهود اذن نضالا قوميا يخوضـه مستعمرون بل تمردا قام بـه مستعمرون مستاؤون . فمنذ العـام ١٩٤٥ حدث تمردان متشابهان : تمرد المستعمرين فـي الجزائر ضـد فرنسة في العام ١٩٦٢ وتمرد المستوطنـين البريطانيين فـي روديسية ضد بريطانية في العام ١٩٦٥ . وكون اليهود ليسوا بريطانيين لا يغير في الامر كثيرا ، فقد كانوا مستوطنين اوروبيين ، لا سكانا وطنيين ، استوطنوا في البلاد بفضل قرار اتخذته دولة اوروبية لم يكن مثل ذلك الاستيطان ممكنا لها

وبناء على ذلك لا يمكن اعتبار وصف رودنسون لقتال اليهود ضد البريطانيـين خطأ : كان قتالهم مثالا على كيفية بروز التوترات بين السلطة المتروبولية والمستعمـرة حيث يكون المستعمرون عادة مستائين من القوانين التي تفرضها عليهم تلك السلطة من خلال التشريع الخارج عن ارادتهم ، ليس كليا على الاقل، ومن كون تلك القوانين تبدو لهم

٣٦ ــ هـ. ساكر ، اسرائيل : اقامة دولة ، لندن ، ١٩٥٢ ، ص ٧٢ .

باستمرار غير مكيفة مع الظروف المحلية . ويحدث هذا خصوصا عندما تضطر السلطة المتروبولية في رسم سياستها الدولية على نطاق عالمي الى أخذ آمال ومصالح السكان المحليين في الحسبان ، والمستعمرون ليسوا جزءا من السكان المحليين (٣٧) .

ويزعم مزراحي بأن الحركة الصهيونية في فلسطين لم تكن استعمارية لانها كانت معادية لبريطانية (وقد عالجنا هذه النقطة آنفا) ولان الارض لم تؤخذ بالقوة بل تــم شراؤها من العرب ولان العرب لم يستغلوا ولان الحركة الصهيونية تميزت بالصبغــة الاشتراكية .

يجيب رودنسون بقوله ان كثيرا من الانظمة الاستعمارية لا تنغمس في مصــادرة الاراضي ــ فالبريطانيون لم يفعلوا ذلك في افريقية او الهند . ومع ذلك قامت اسرائيل بعد قيامها بمصادرة الاراضي العربية على نطاق واسع

وليس استغلال السكان الوطنيين مباشرة ايضا عاملا ضروريا في الامبريالية ــ فذلك لم يحدث في استرالية او نيوزيلندة او اميركة الشمالية . ويقول رودنســـون ان العلاقة بين العربي واليهودي لم تكن علاقة استغلال بقدر ما كانت علاقة سيطرة .

وسنناقش في وقت لاحق الى اي حد تعتبر اسرائيل اشتراكية حقا .ومر رودنسون مرورا عابرا على ذكر الراي العربي القائل بأن اسرائيل تبدو جزءا من نظام امبريالــي عالمي يستغل العالم الثالث اقتصاديا ويعمل جنبا الى جنـــب مع البلدان الصناعيــة الاوروبية ــ الاميركية واليابان ، وتعتمد اسرائيل اقتصاديا بصورة هائلة علــى الدول الراسمالية الاوروبية ــ الاميركية (٣٨) .

رأينا انه لا يمكن اثبات الزعم بأن الصهيونية شبيهة بالحركات القومية الاسيوية لانها خاضت مثلهم حملة « معادية للاستعمار » . ولا تلبث الحجج الصهيونية المتعددة التي تحاول ان تثبت ان الصهيونية غير استعمارية ايضا ان تتحطم عند حقيقة ثابتة : اصبح قيــام دولة اسرائيل ، وليدة الصهيونية ، ممكنا عندما تم تحويل الغالبية العربية الى اقلية ، ولم يقبل الفلسطينيون بهذا التحول وحاربوه قدر استطاعتهم . ان وصــف الحركة التي اوجدت ذلك الوضع بأنها غير استعمارية يفقد الكلمات كل معانيها

مؤتمر العلاقات الآسيوية ــ ١٩٤٧

بدا في ربيع العام ١٩٤٧ وكأن الدولة اليهودية في فلسطين قد تلقى ترحيبـــا في الاسرة الاسيوية . وعلى الرغم من كل الاشياء القاسية ، ولكن الحقيقية ، التي قالها حزب المؤتمر الهندي وزعماء مثل غاندي ونهرو فقد دعي وفد يمثل يهود فلسطـــين لحضور اول لقاء اسيوي يعقد في هذه القارة وهو مؤتمر العلاقات الاسيوية الذي عقد في دلهي من ٢٣ آذار الى ٢ نيسان .

كان من الممكن للصهيونيين ان يغفر لهم وينسى كل ما بينهــم وبين القوميــة الاسيوية الا ان الاحداث خيبت هذه الامال . ففي هذا المؤتمر نفسه كررت الهنـــد معارضتها للوجود الصهيوني في فلسطين ولم تعد اسرائيل بعد ذلك تدعـــى الى اي مؤتمر آسيوي او افرو ــ آسيوي رسمي او شبه رسمي .

---

٣٧ ــ رودنسون ، **الازمنة الحديثة** ، ص ٥٥ .

٣٨ ــ مزراحي ، المصدر السابق ، ص ٥٤٥ ــ٥٥٤ ، رودنسون ، ص ٧٨ ــ ٨٢ .

وكان مؤتمر دلهي في الظاهر ثقافيا فكريا غير رسمي ، وهذا ما يفسر القاء مهمة تنظيمه علـى هيئة علمية محايدة هي المجلس الهندي للشؤون العالمية . والحقيقة ان المؤتمر كان رسميا تماما . وكان نهرو الروح المحركة للمؤتمر وكان قد اصبح منذ وقت قريب رئيسا لوزراء الهند ووزيرا لخارجيتها ، وضم الوفد الهندي ما لا يقل عن ستة وزراء . وضمت وفود اخرى العديد من الرسميين . وقد حضر المؤتمر ممثلون عن ما لا يقل عن سبع وعشرين دولة آسيوية بالاضافة الى مصر (بسبب روابطها بآسية) .

ولا شك ان الدعوة لحضور مؤتمر هام من هذا النوع قد بدت كسبا سياسيا حقيقيا وغير متوقع بالنسبة للصهيونيين خاصة في وقت احاط فيه مستقبلهم غموض شديد . وفي شباط القت بريطانية مستقبل فلسطين بين يدي الامم المتحدة التي ادركها آذار ونيسان ولما تقرر ماذا تفعل . وفي حزيران تم الاتفاق على ارسال لجنة تحقيق اخرى ايضا الى فلسطين . ولا بد ان تكون الدعوة التي وجهتها الهند الوطنية الى مؤتمر العلاقات الاسيوية الذي عقد في دلهي ، في وقت كان فيه وضع الهند حرجا جدا ، قد بدت بالنسبة للصهيونيين فرصة لتغلغل سياسي ودعائي رئيسي .

وتفسير هذا التحرك غير المتوقع كما ذكره منظمو المؤتمر في السجل الرسمي(٣٩) هو : « ضرورة وجود وجهات نظر مختلفة في المؤتمر ، كان هاما بصورة واضحة ، على سبيل المثال ، معرفة وجهات النظر العربية واليهودية في فلسطين وكذلك معرفة وجهات نظر الكومنتانغ والشيوعيين في الصين » . ويكفي هذا التفسير اذا عرفنا ان نهرو تميز بمقدرة دائمة على رؤية مختلف وجهات النظر في اي مسألة .

ولم تقل الدهشة التي اثارها غياب العرب عن تلك التي اثارها حضور اليهود . فقد بلغ عدد اعضاء الوفد الصهيوني العشرة بينما بلغ عدد المندوبين العرب عن سبع دول عربية ستة مندوبين ، خمسة عن مصر وواحد عن جامعة الدول العربية يمثل الدول الست الاخرى .

والاكثر دهشة في تغيب العرب هو ان فكرة عقد مثل ذلك المؤتمر صدرت اول ما صدرت عن مندوبيهم في اول مؤتمر للامم المتحـدة في سان فرانسيسكو في العـام ١٩٤٥ (٤٠) . لماذا لم يحضروا اذن ؟ ربما ازعجهم توجيه الدعوة الى الصهيونيين او اغضبهم ان بعض دولهم تلقت دعوات متأخرة مع انها كانت اول من اقترح عقد المؤتمر . والسبب الاكثر احتمالا انهم لم يحضروا لعدم اهتمامهم بالحضور . وحتى الفلسطينيين العرب لم يحضروا تاركين بذلك المجال مفتوحا امام وفد الصهيونيين الذي ضم علماء بارزين مثل الدكتور هيوغو بيرغمان والدكتور الفرد بون .

وعلى العكس من الوفد الصهيوني ، تميز المندوبون العرب بمستوى معتدل من الكفاءة باستثناء مندوبة في الوفد المصري . ولم يعرف ممثل الجامعة العربية الانكليزية فلم يفهم الا القليل مما قيل في المؤتمر نظرا لعدم وجود تسهيلات للترجمة .

وفي الجلسة المكتملة النصاب في اليوم التالي اخترقت جو الحماس المتميز بالنشاط

---

٣٩ ــ Asian Relations ، نيودلهي ، ١٩٤٨ ، ص ٥

٤٠ ــ يعالج مؤتمر العلاقات الاسيوية بشكل مطول في الفصلين الثاني والثالث من كتاب افرو - آسية وعدم الانحياز للمؤلف.

والانتعاش الذي ساد المؤتمر حتى ذلك الوقت الخصومات الشديدة والقاسية حول النزاع الفلسطيني . وتحدث الدكتور بيرغمان في خطابه الرسمي عن اليهود قائلا انهم « شعب آسيوي قديم » « يستوطن في وطننا القديم — الجديد » . وقال ان اليهود تعلموا في اوروبة ان « يقدروا ويتذوقوا التفكير المنطقي والمنهجي » ولكن اوروبة لم تعلمهم التعاون بين الاديان والاجناس . وتابع القول : « ونأمل على الرغم من المصاعب الراهنة الا تسير فلسطين على الطريق الاوروبية في « حل » المسائل بتشريد السكان». وهذا هو بالضبط ما فعله شعبه بمليون فلسطيني بعد مضي سنة فقط على هذا الكلام . وكرر بيرغمان الزعم الصهيوني المالوف بأنهم جعلوا الصحارى القاحلة خصبة واشار الى بعث العبرية ، ثم اختتم كلامه بأن اعرب عن امله في أن يبدأ المؤتمر فصلا جديدا في التاريخ الانساني .

واشار ممثل الجامعة العربية في خطاب موجز عن فلسطين بقوله انها « مضطهدة اكثر من اي بلد آخر » . وكانت الطائفة اليهودية « تحاول الاستفادة من كونها اقلية ذات صفة خاصة تدافع عنها الحراب البريطانية . نحن نعارض ذلك ونأمل ان تقفوا الى جانب الحق معنا »

وجاء الرد الحقيقي على الدكتور بيرغمان من المندوبة المصرية التي رحبت باليهود كمستوطنين في الشرق الاوسط ، وقالت « لكننا لا نريد ان يحل حكم الصهيونيين الاوروبيين محل الحكم البريطاني . نحن نعارضهم بصفتهم غرباء ، بصفتهم أوروبيين، لا لانهم يهود . لا بد ان يعيش العرب في فلسطين التي لا يمكن ان تكون بعد الان ملكا لسكانها الاوائل (اليهود) (٤١) » .

وطالب الدكتور بيرغمان بحقه في الرد ، وهو مطلب معقول تماما . الا ان نهرو ، رئيس الجلسة ، رفض طلبه فجرى بينهما اخذ ورد حادان خرج على اثرهما الدكتور بيرغمان ووفده . فلحق بهم بعض المندوبين الهنود بسرعة واقنعوهم بالعودة ففعلوا وصافح بيرغمان المندوب المراقب عن جامعة الدول العربية . (٤٢) .

واشار نهرو الى فلسطين في اختتامه جلسة ذلك اليوم معربا للمرة الثانية عن عطفه على معاناة اليهود ، ثم اضاف قائلا : « من الواضح في الوقت نفسه ايضا ... ان الشعب الهندي قال دائما لاسباب متعددة بالضرورة ، لن اخوض فيها ، ان فلسطين اساسا بلد عربي ولا يمكن اتخاذ قرار بدون موافقة العرب » . واعرب عن امله بأن تسوى المسألة الفلسطينية ، بعد انسحاب « الطرف الثالث » ، بالتعاون بينهما وليس بالتوسل الى اي طرف خارجي او الاعتماد عليه (٤٣) » .

كانت هذه بداية مشؤومة بالنسبة للصهيونيين ولكنها لم تمنعهم من القيام بدور نشيط في المناقشات مع الوفود خارج الجلسات حيث عملوا جهدهم بالطبع في القيام بالدعاية للانجازات الصهيونية في فلسطين خاصة لدى المهتمين بمعالجة مسائل «التنظيم الزراعي » و « التطور الصناعي » . وتركت هذه المناقشات اثرا دعائيا جيدا برز في التقرير الذي عند الحديث عن « تدني وسائل التصنيع » في آسية ، استثنى بعض

---

٤١ — **Asian Relations** ، ص ٥٦ — ٥٨ ، ٦٣ — ٦٤ ، ٦٤ — ٦٥

٤٢ — تقارير صحافية .

٤٣ — **Asian Relations** ، ص ٧٠ .

البلدان مثـــل « الجمهوريات الآسيويـــة (فـــي الاتحاد السوفيتي) وتركية واجزاء من فلسطين واجزاء من الشرق الاوسط » (٤٤) . الا انه حتى الان لا يوجد في اسرائيل الا تصنيع خفيف فقط كان اقل مما هو عليه الان في العام ١٩٤٧

وهناك ظاهرة ثانوية غريبة وهي ان الدكتور بون دافع بحماس وجراة عـــن الاسبرانتو ، اللغة الدولية الجديدة ، لغة السلام والاخوة (٤٥) .

ومقابل هذه المكاسب حلت بالوفد الصهيوني نكسة اخرى عندما وجه المهاتمـــا ، الذي حضر بعض جلسات المؤتمر ،نصائح الى العرب واليهود . فقد وجه نداء الـــى العرب يطلب منهم فيه محاولة كسب اليهود ، ثم طلب الى اليهود الكف عن حركتهـم الارهابية لانه « كان متاكدا انهم لن يصلوا الى نتيجة عن طريق العنف (٤٦) »

وقـــد كانت ردات فعل الصهيونيين لهـــذا المؤتمر مزيجا من الرضى وخيبة الامل . كتبت « الزيونست ريفيو » تقول ان « حضور يهود فلسطين يبين حقيقـــة ان ارض اسرائيل في آسية وان لليهود دورا هاما يلعبونه في تجديد القارة » . ولكن « تصريح الباندبت نهرو . . . يشير الى الحاجة الى عمل الكثير جدا لجعل الشعوب الاسيويـــة تدرك الحقائق عن فلسطين، وهي ان الارض المقدسة لا تنفصل عن شعب اسرائيل(٤٧)».

بدا ان مؤتمر ١٩٤٧ فتح الباب الى آسية امام الصهيونيين . ولكن ذلك الباب لم يفتح اكثر مما فتحه المؤتمر بل اغلق قليلا ، فالهند لم تستقبل وفدا صهيونيا بعد ذلـــك ابدا . وقد كان الصهيونيون يرغبون خاصة في الحصول على قبول هند غاندي ونهرو بهم.

لم يعد باب آسية يفتح اكثر مما فتحه المؤتمر . وهكذا لا يعتبر هذا المؤتمر هاما في علاقات اسرائيل بالقارة من وجهة النظر الصهيونية . وبعد ذلك بقيت اسرائيـــل الصهيونية خارج الخط الرئيسي للبلدان الاسيوية المستقلة بصورة ثابتة .

العدوان في عصبة الامم والامم المتحدة

تقرر مصير فلسطين بعد العام ١٩٢٠ خارج فلسطين وخارج ارادة الفلسطينيين، خارج آسية وخارج ارادة الآسيويين . تقرر مصيرها على يـــد حكومات اوروبـــة والاميركتين الشمالية والجنوبية في عصبة الامم في جنيف اولا ثم في الامم المتحدة فـــي نيويورك بعد ذلك .

ارتكب العمل العدائي في عصبة الامم بقبولها في العام ١٩٢٢ القرارات التي تنص على ربط تصريح بلفور بالانتداب على فلسطين وتعيين بريطانية دولة منتدبة عليها .وقد تم ذلك اصلا في مؤتمر سان ريمو في العام ١٩٢٠

وارتكب العمل العدائي في الامم المتحدة بتبنيها قرار تقسيم فلسطين في تشريـــن الثاني من العام ١٩٤٧ .

ربما يقال ان كلمة « عدائي » لا تنطبق على هذه القرارات التي هي من صلاحيات مثل تلك المنظمات الدوليـــة الموجودة في الحقيقة من اجل اتخـــاذ قرارات كهذه . وهذا

---

٤٤ ــ المصدر السابق ، ص ١٥٠ وما يليها .
٤٥ ــ المصدر السابق ، ص ٢٠٤ ؛
٤٦ ــ تندولكار ، **المهاتماغاندي** ، بومباي ، ١٩٥٣ ، المجلد السابع ، ص ٤٣١
٤٧ ــ **Zionist Review** ، لندن ، ٢٨ ــ ٣ ــ ١٩٤٧

القول في حد ذاته مشكوك فيه للغاية . الا ان ما لا يقبل النقاش هو ان العصبة والامم المتحدة اتخذتا في هاتين الحالتين قرارات فريدة من نوعها ولم تتكرر بعد ذلك ابدا .ففي الحالة الاولى قبلت العصبة تصريحا سياسيا هدفه تغيير التوازن الديموغرافي في بلد معين ليؤدي ذلك في النهاية حتما الى تغيير في السيادة عليه وفي الحالة الثانية نص القرار على تقسيم ذلك البلد . وفي كلتا الحالتين اهملت رغبات غالبية سكان المنطقة الذين يتعلق الامر بهم مباشرة . واهملت ايضا رغبات غالبية دول المنطقة والقارة التي يتعلق بها الامر . لقد بدات عملية فرض الكيان السياسي الغريب على آسية في عصبة الامم وانجزت في الامم المتحدة على يد حكومات قارات ثلاث غير آسية وضد رغبات هذه القارة . ليس من الظلم اذن وصف تلك العملية بانها عدوان « بين القارات » *.

من المهم ان نميز ، هذه المرة على الاقل ، بين القول بان هذه القرارات اتخذت « في » العصبة « وفي » الامم المتحدة والقول بانها اتخذت « من قبل » العصبة « ومن قبل » الامم المتحدة لانه لم يكن هناك في الواقع شيء يسمى « العصبة » او « الامم المتحدة » . فقد كان يوجد في الهيئتين امانة دولية وامين عام لا يتمتعان بصلاحيات تقريرية اي القدرة على اتخاذ القرارات . فقد كانت القرارات تتخذ من قبل الدول الاعضاء التي يتمتع بعضها ، رغم المساواة في التصويت ، بوزن اكثر من غيرها ويميل ذلك البعض الاكثر وزنا الى فرض ارادته . وهذا ما حدث بالتأكيد بالنسبة لفلسطين في المنظمتين العالميتين : فرضت بريطانية ارادتها في عصبة الامم وتبعتها الولايات المتحدة بفرض ارادتها في الامم المتحدة ، وذلك عن طريق الحصول على دعم دول من كل القارات عدا آسية التي تتأثر بتلك القرارات مباشرة . ومن الظلم والخطأ لوم منظمة بأكملها بسبب قرارات اتخذها بعض اعضائها ، ولكن هذا يعود الى غموض في التعبير بصورة رئيسية اذ ان القول المأخوذ به عموما هو ان « الامم المتحدة خلقت اسرائيل » او ان « الامم المتحدة قسمت فلسطين » . لا شيء ابعد عن الحقيقة من هذا القول لكن التوصل الى الحقيقة يمكن ان يتم بتغير لفظي طفيف جدا : « خلقت اسرائيل « في » الامم المتحدة » وليس « من قبلها » .

كانت مهمة بريطانية في فرض ارادتها على العصبة اسهل بكثير من مهمة الولايات المتحدة في فرض ارادة على الامم المتحدة فيما بعد لان العصبة كانت هيئة اصغر بكثير من الامم المتحدة واكثر منها طواعية . وكانت العصبة بأسرها تقريبا ناديا للرجل الابيض . ومن المفاجيء ان ندرك في عصر الشمولية هذا كم كانت عضوية ما يسمى عصبة الامم تخيرية . وخلال مناقشات الامم المتحدة في العام ١٩٤٧ عاد الممثلون الصهيونيون الى قرار العصبة حول تصريح بلفور ليقولوا انه « لا يمكن الهزء بالعهد الخطير الذي قطعته ٥٢ دولة (٤٨) » . تلك دعاية خادعة لان العصبة لم تكن تتالف عندما اتخذت قرارها حول الانتداب الا من ٤٠ عضوا فقط . وبلغ مجموع العضوية التاسيسية في العصبة ٣٢ عضوا منهم ستة افرو ــ آسيويين فقط هم : الهند (احدى خمسة ممثلين عن الامبراطورية البريطانية) والصين واليابان

---

* Inter - Continental

٤٨ ــ هورويتس ، المصدر السابق ، ص ٢٤٣

وليبيريه وسيام والحجاز (التي سقطت على جانب الطريق) . ومن البلدان الاخرى التي دعيت الى الانضمام الى العصبة بلد آسيوي واحد هو ايران . وبذلك اتخذ القرار المتعلق بفلسطين في العام ١٩٢٢ في وقت لم يكن في العصبة الا ستة اعضاء افرو ــ آسيويين فقط . أي فرصة كانت اذن امام العصبة لتوافق فيها على طلب الوفد الفلسطيني في العام ١٩٢١ باختيار حكومة منتدبة على اساس التصويت الشعبي في فلسطين (٤٩) ؟ واول بلد عربي قبلت عضويته هو العراق في العام ١٩٣٢

وكان الرقيب على الدول المنتدبة في العصبة، اللجنة الدائمة للانتدابات التي تألفت من احد عشر عضوا بينهم عضو أفرو ــ آسيوي واحد هو اليابان .

وعند نهاية حياتها الناشطة في العام ١٩٣٨ بلغ عدد الاعضاء الافرو ــ آسيويين أحد عشر عضوا فقط من مجموع اعضاء العصبة الذي بلغ اثنين وخمسين . وهكذا لم تكن هناك امكانية في ان تسود بالتحديد وجهة النظر العربية او الاسيوية حول فلسطين داخل عصبة الامم التي غلبت عليها السيطرة الاوروبية والاميركية الشمالية والجنوبية مما جعل الراي في صالح الصهيونية .

وخلال السنوات الاولى من عمر المنظمة العالمية بعد الحرب العالمية الثانية لم تكن الامور افضل بكثير جدا من وجهة النظر الافرو ــ آسيوية . وبعد العام ١٩٥٠ فقط جعل الاسراع الثابت في عملية القضاء على الاستعمار الامم المتحدة اكثر تمثيلا للعالم كله بصورة مطردة . فقد حضر اثنا عشر وفدا أفرو ــ آسيويا مؤتمر سان فرانسيسكو في العام ١٩٤٥، والذي حضره خمسون وفدا ، لمناقشة الشكل التنظيمي الذي ستتخذه الامم المتحدة . وبعد ذلك بسنتين صوت سبعة وخمسون بلدا على قرار التقسيم بينها خمسة عشر بلدا افرو آسيويا . لقد كانت المنظمة العالمية لا تزال مجرد ناد للرجل الابيض الا انه اقل تخيرا عن ذي قبل .

هكذا كان التوزيع القاري للعضوية داخل الامم المتحدة لكنه ليس مدهشا اذ ان عضوين آسيويين اثنين فقط ــ الهند وايران ــ كانا اعضاء في لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين UNSCOP والمؤلفة من احد عشر عضوا للنظر في مجمل المسألة الفلسطينية . وارسلت اللجنة الى فلسطين في حزيران من العام ١٩٤٧ . لقد افترض في هذه اللجنة فعلا ان تمثل العالم : السويد وهولنده عن اوروبة الغربية ، كنده واسترالية عن الكومونولث البريطاني ، البيرو والاروغواي وغواتيمالا عن اميركة اللاتينية . والواضح ان حصول آسية على ١٨ ٪ من التمثيل اعتبر نسبة عادلة في العام ١٩٤٧ . الا انه يصعب ان يعتبر كذلك الان .

وانقسمت لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين حسب القارات . فعندما قدمت اللجنة نتائج عملها في تقريرين في آب ١٩٤٧ : الاول قدمته الغالبية وايدت فيه التقسيم، والثاني قدمته الاقلية واقترحت فيه اقامة دولة فدرالية مستقلة . وتألفت الغالبية من سبعة اشخاص هم ممثلو اوروبة والاميركتين الشمالية والجنوبية . اما الاقلية فألفها ثلاثة هم ممثلو يوغسلافية من اوروبة والهند وايران من آسية . وامتنعت استرالية عن اتخاذ موقف لها .

---

٤٩ ــ اسكو ، المجلد الاول ، ص ٤٧٧

لقد اشرنا (٥٠) الى ان الاصوات الثلاثة الاميركية اللاتينية ، من بين الاصوات السبعة التي ايدت تقرير الغالبية ، شكلت اكثر من ٤٠ ٪ من التأييد الذي لقيه التقسيم . وهكذا فان اميركة اللاتينية التي تبعد ٨٠٠٠٠ ميل عن فلسطين ويفصل بينهما بحر ومحيط ، تلك القارة التي لم يكن لها صلة بالمسألة اليهودية ، لعبت دورا رئيسيا في التصرف باقليم آسيوي .

واغرب جوانب ما توصلت اليه لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين هو التوصية العامة الثانية عشرة والاخيرة . فقد ايدت غالبية سبعة اعضاء خلق دولة يهودية وهو ما سعى اليه الصهيونيون منذ العام ١٨٩٧ كحل للمسألة اليهودية . ولكن اللجنة حطمت بغالبية تسعة اعضاء ، باستثناء الاورغواي وغواتيمالا ، اكثر المبادىء أهمية في كل الايديولوجية الصهيونية . فقد نصت التوصية الثانية عشرة على ما يلي : « يجب ان نقر في تقييم المسألة الفلسطينية بما لا يقبل الجدل ان أي حل لمسألة فلسطين لا يمكن اعتباره حلا للمسألة اليهودية عموما » . بهذه الكلمات فصلت غالبية اعضاء لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين بين عنوان الوثيقة الاساسية للحركة الصهيونية « دولة اليهود » (كتيب هرتزل) وبين عنوانها الفرعي « محاولة حل عصري للمسألة اليهودية» . ان ما ادركه اعضاء اللجنة افضل مما ادركه هرتزل قبلهم بخمسين سنة . وهكذا فان الاعضاء الخمسة من الغالبية الذين صوتوا الى جانب التوصية الثانية عشرة صوتوا ايضا الى جانب قيام دولة يهودية رافضين بذلك ، وفي الوقت نفسه ، مبرر وجودها الصهيوني . هناك أمثلة قليلة افضل من ذلك على اللامنطقية السياسية .

مثل الهند في لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين قانوني بارز هو السير عبد الرحمن . وقد اتضحت مشاعر الصهيونيين نحوه في وصف هورويتس ، ضابط الاتصال بين الوكالة اليهودية واللجنة ، له بقوله : « كان الهندي سمينا وبليدا ، خشن الملامح بصورة بارزة ويؤيد العرب بصراحة وقوة . وكان في تصرفه صريحا لا يعرف التردد وتعوزه اللباقة . وتميزت معالجته للمسائل بأسلوب قانوني ضيق (٥١) » .

أتضح وتأكد رفض آسية للدولة اليهودية أكثر من قبل اثناء مناقشة تقرير لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين في الامم المتحدة . يقول هورويتس : « كانت الكتلة الآسيوية سلبية بشكل راسخ وموحد . وآلمني خاصة عزلنا التام في هذه القارة التي كنا نطمح الى الاندماج في حياتها ، فرحت أحاول متلهفا التغلب على الوضع الغريب(٥٢)» .

هذا هو « الوضع الغريب » : بحثت الجمعية العامة التي اجتمعت كلجنة خاصة حول فلسطين اتخاذ قرار يهدف الى احالة المسألة برمتها الى محكمة العدل الدولية بشأن ما اذا كان للامم المتحدة اي صلاحية في وضع قرار التقسيم موضع التنفيذ بدون استشارة او ضد رغبات اهالي فلسطين ، ولكن القرار خسر التصويت بفرق صوت واحد فقط .

كان ذلك الوضع « غريبا » تماما . واغرب منه ايضا التصويت الذي جرى في

---

٥٠ ــ اي. ب. غليك ، اميركة اللاتينية والمسألة الفلسطينية ، نيويورك ، مؤسسة هرتزل ، ١٩٥٨ ، ص ٧٠ .

٥١ ــ ج. هورويتس ، المصدر السابق ، ص ١٦٥

٥٢ ــ المصدر السابق ، ص ٢٥٨

اللجنة الخاصة على خطة التقسيم . انتهى التصويت بأغلبية بسيطة فقط ــ ٢٥ ايدوا، ١٧ امتنعوا ، ١٣ عارضوا ــ ولكن غالبية الثلثين كانت ضرورية في الجمعية العامة بالنسبة لمسألة على هذا المستوى من الاهمية .

واثناء التصويت في هذه اللجنة لم تقف دولة آسيوية او افريقية واحدة الى جانب خلق الدولة اليهودية . وكانت جميع الاصوات السلبية أفرو ــ آسيوية باستثناء كوبه. وكانت بين البلدان السبع عشرة التي امتنعت عن التصويت كل من الصين والحبشة وليبيرية .

وقد كان الضغط على البلدان الافرو ــ آسيوية حتى في مرحلة عمل اللجنة الخاصة شديدا من جانب الدول المؤيدة للصهيونية خاصة الولايات المتحدة . فلم تصوت الفيليبين على سبيل المثال في اللجنة لان مندوبها الجنرال كارلوس روميولو تغيب عمدا عن الإجتماعات مدة ثلاثة أو اربعة ايام « كي لا يتمكن احد من الامساك به (٥٣) » واضطراره على التصويت بطريقة لا يرضىبها ولكنه وعد بحضور التصويت فيالجمعية. وكان مندوب تايلاند في وضع حرج ايضا لان انقلابا حدث في بلده ولم يعرف ما اذا كانت الحكومة الجديدة تقبل به ممثلا لها . فتوقف هو ايضا عن حضور اجتماعات اللجنة لبضعة ايام ولكنه اقتنع فيما بعد بالحضور ، فحضر وصوت ضد التقسيم .

بعد التصويت في اللجنة الخاصة حيث لحقت الهزيمة بقرار التقسيم وقبل التصويت عليه في الجمعية العامة استهدف الضغط الصهيوني والاميركي ستة بلدان هي هايتي وليبيرية والفيليبين والصين والحبشة واليونان . ونجح الضغط اذ ان اليونان وحدها بقيت متمسكة بمعارضتها وانتقلت ، في الحقيقة ، من الامتناع في اللجنة الى التصويت ضد التقسيم في الجمعية . اما الصين والحبشة فواصلتا امتناعهما بينما انتقلت ليبيرية من الامتناع الى التصويت مع القرار . وانتقلت الفيليبين من التصويت ضده الى التصويت معه .

ولم تصوت تايلاند بسبب وصول برقية في الوقت المحدد تطالب بسحب اوراق اعتماد ممثلها . وعن هذه الحادثة كتب السير محمد ظفرالله خان ، ممثل باكستان ، يقول:«لا ندري ما اذا كانت البرقية قد جاءت من حكومة تايلاند او من مصدر آخر(٥٤)». وهذه الكلمات تعكس الاعتقاد العام بأن وسائل مريبة للغاية كانت تستخدم في الضغط على الوفود للتصويت ضد ما تمليه حكمتهم وضمائرهم .

كانت الولايات المتحدة المصدر الرئيسي للضغط ولولاها لما وافقت الجمعية العامة على الدولة اليهودية بالاغلبية المطلوبة . وتشهد على هذا كلمات هورويتس، الديبلوماسي الصهيوني الكبير الذي شارك في هذه النشاطات : « وقد سار خط العمل الاميركي في اتجاه جديد . ونتيجة لتعليمات الرئيس (ترومان) انتهجت وزارة الخارجية الان خطا مفيدا وعظيم الاهمية لمصلحتنا . وحمل تحسن الجو عددا من البلدان المترددة على تحديد مواقفها . والقت الولايات المتحدة بثقل نفوذها في الساعة الاخيرة تقريبا **ويجب ان تعزى نتيجة التصويت النهائي الى هذه الحقيقة** * . وابعد تدخلها تأثير

٥٣ ــ السير محمد ظفرالله خان ، **فلسطين في منظمة الامم المتحدة** ، كراتشي ، ١٩٤٨ ، ص ١٩
٥٤ ــ المصدر السابق ، ص ٩ ، ١٩
* التشديد من المؤلف .

الاصوات الثانوية علينا (٥٥) » .

ويدلنا على المدى الكبير « لممارسة التاثير » الى جانب الصهيونية مقارنة خطاب وفد الفيليبين بصوته . كان الجنرال روميولو طيبا مثل كلمته . فقد حضر اخيرا الى الجمعية والقى خطابا قويا ضد التقسيم واصفا اياه بأنه تحرك باتجاه « التفرقة السياسية والتجزئة الاقليمية » التي قد « تقودنا الى الوراء على الطريق الى المبادىء الخطيرة التي تقول بالاستثنائية العنصرية وبالمبادىء القديمة التي تنادي بحكومات ثيوقراطية » وتبعدنا على « الاتجاه الحديث نحو التعاون بين الاجناس ونحو الديموقراطية العلمانية » . واختتم خطابه بادانة « البتر الاقليمي للارض المقدسة(٥٦)» وبعد ان انهى الجنرال روميولو ، الذي اضطر لمغادرة نيويورك ، خطابه ترك تعليمات مكتوبة لمن سيليه تقول بالتصويت ضد التقسيم . وبعد ثلاثة ايام صوت وفد الفيليبين مع التقسيم .

وسار وفد هايتي في عملية التحول الغريبة نفسها ، فبعد خطاب يرفض التقسيم بصورة واضحة عاد الوفد وصوت مع التقسيم .

ومن خلال تلك الظواهر المريبة استطاعت الدولة اليهودية كسب التصويت الى جانبها في الامم المتحدة . وفي ذلك الاقتراع الاخير صوتت مع القرار كل من ليبيرية والفيليبين فقط من بين البلدان الافرو ــ آسيوية ، وامتنعت الصين والحبشة عن التصويت . اما الاصوات الثلاث عشرة التي كانت ضد القرار فقد ضمت أحد عشر صوتا أفرو ــ آسيويا ، اما الصوتان المتبقيان فجاءا من كوبه واليونان .

لسنا بحاجة الى بينة أخرى لاثبات ان الدولة اليهودية فرضت على آسية ، ضد رغبات أفرو ــ آسيوية ، من قبل قارات أخرى هي أوروبة والاميركتين الشمالية والجنوبية . انه عدوان « بين القارات » واضح .

كانت أوروبة متحدة حول هذه المسألة ، بشرقيها وغربيها ، بمعسكريها الشيوعي والمعادي للشيوعية . فمن أجل اخراج بريطانية من منطقة حساسة بصورة خاصة في الشرق الاوسط تحولت روسية وشركاؤها الصغار عن عدائهم العقائدي الراسخ للصهيونية الى سياسة تؤيد التقسيم وخلق دولة يهودية . وما ان ولدت الدولة اليهودية حتى عادوا الى المعارضة .

أما «الانذال» الحقيقيون ، من وجهة النظر الافرو ــ آسيوية ، في المسرحية التي دارت في الامم المتحدة فليسوا الاوروبيين او الاميركيين الشماليين بل الاميركيين اللاتينيين . يمكن تفسير تصويت اوروبة واميركة الشمالية الى جانب الصهيونية ، مع انه لا يمكن تبريره او العفو عنه ، على انه تكفير عن ذنبهم المعادي للسامية . الا ان ذلك التفسير لا ينطبق على اميركة الجنوبية . وقد عزا كاتب صهيوني التأييد الاميركي الجنوبي للصهيونية الى الايمان بالانسانية والكثلكة وحق الشعوب في تقرير مصيرها والمساواة في السيادة وفي الناحية القانونية بين الدول وشمولية عضوية الامم المتحدة (٥٧) . اذا صح هذا التفسير يصبح من الممكن اتهام الاميركيين اللاتينيين

---

٥٥ ــ هورويتس ، المصدر السابق ، ص ٣٠١ .
٥٦ ــ سجلات الامم المتحدة ، الجلسة ١٢٤ للجمعية العامة ، ٢٦ ــ ١١ ــ ١٩٤٧
٥٧ ــ غليك ، المصدر السابق ، المقدمة .

بالنفاق الذي لا يطاق . وربما يكون أفضل التفسيرات انهم بسبب خلفيتهم الاسبانية كانوا اكثر من معظم الاخرين عرضة للدونكيشوتية وتأثرا بها . ومع ذلك وسواء اكانوا دونكيشوتيين أم لا فقد كان صوتهم في الاقتراع حاسما . لقد اصابت نشرة صهيونية عندما وصفت دعمهم بأنه «العمود الفقري للكتلة المؤيدة للصهيونية في الامم المتحدة(٥٨)»

ويجب ان يكون واضحا انه لم تكن جميع دول اميركة اللاتينية مؤيدة للصهيونية. فقد صوتت كوبة في الاقتراع ضد القرار وامتنعت عن التصويت كل من الارجنتين وتشيلي وكولومبية والسلفادور وهندوراس والمكسيك .

ولاحظ مندوب كولومبية بوضوح ان التصويت كان عدوانا «بين القارات» : لا غرو ان الخطة اضطرت لعبور الاطلسي سعيا وراء المؤيدين الذين فشلت في الحصول عليهم في البلدان المتاخمة لفلسطين شرقي المتوسط وفي غربي اوروبة او في البر الاسيوي البعيد (٥٩) » .

ويمكن توجيه تهمة النفاق الى جميع الوفود ، تقريبا ، التي ايدت الصهيونية في الامم المتحدة في العام ١٩٤٧ وليس الى الاميركيين اللاتينيين فقط . فأثناء المناقشات التي جرت حول مستقبل فلسطين قدم قرار يطلب الى كل الدول قبول اللاجئين اليهود حسب نظام الكوتا (الحصة النسبية) . الا ان هذا القرار خسر الاقتراع : ايده ١٥ ، رفضه ١٨ ، وامتنع ٢٢ عن التصويت . وكان التوزيع الجغرافي في هذا الاقتراع الانساني على عكسه تماما تقريبا في الاقتراع السياسي حول التقسيم . فالبلدان التي صوتت مع التقسيم امتنعت عن التصويت على قرار قبول اللاجئين اليهود ، اما البلدان التي صوتت ضد التقسيم فقد وافقت على قرار قبول اللاجئين اليهود . ان ذلك ما هو الا احدث تعبير عن هذا الترابط الواضح : المعادون للسامية يؤيدون الصهيونية باستمرار ، والمعادون للصهيونية مع السامية باستمرار. ولم يشك الصهيونيون من هذه النتيجة . فقد قال هورويتس : « شجب (القرار) على انه مقامرة على مصير اللاجئين المرير » (٦٠) .

وكان الصهيونيون ومؤيدوهم باتخاذهم موقفا سلبيا كهذا من مسألة اللاجئين اليهود في العام ١٩٤٧ يكرسون مواقف تبنوها قبل ذلك بعشر سنوات تقريبا . فقد عقدت احدى وثلاثون دولة مؤتمرا في تموز من العام ١٩٣٨ لبحث مسألة اللاجئين اليهود لم يحضره أي بلد افرو ــ آسيوي . وكانت جمهورية الدومينيك الصغيرة الدولة الوحيدة التي ابدت استعدادها لاستقبال مئة الف يهودي بين جميع الدول المجتمعة . أما الولايات المتحدة فوافقت على استقبالهم ضمن حدود كوتا الهجرة العادية المخصصة للالمان اي ٣٠٫٠٠٠ شخص في السنة ، ووعدت بريطانية بقبول عدد مشابه ، ووافقت استرالية على قبول ١٥٫٠٠٠ مهاجر يهودي . كان ذلك كل شيء . الا ان تلك البلدان نفسها التي رفضت استقبال المهاجرين اليهود في العام ١٩٣٨ وصوتت ضد استقبالهم في العام ١٩٤٧ كانت اشد الدول حماسة لخلق دولة يهودية في غربي آسية .

---

٥٨ ــ اقتبس في غليك ، المصدر السابق ، ص ١٦ .
٥٩ ــ سجلات الامم المتحدة ، الجلسة ١٢٧ للجمعية العامة ، ٢٨ ــ ١١ ــ ١٩٤٧ .
٦٠ ــ هورويتس ، المصدر السابق ، ص ٣٠١ .

ولاقت هذه النتيجة في العام ١٩٣٨ رضى نوعين من الناس هما النازيون والصهيونيون (٦١) ، رضي عنها النازيون لانها كشفت نفاق الديمقراطيات ، ورضي الصهيونيون عنها لانه « اذا قامت الاحدى وثلاثون دولة بواجبها وابدت حسن وفادة لاولئك الذين كانوا في حاجة ماسة لخف الضغط من أجل الوطن القومي ولانخفض الحماس الصهيوني المرتفع داخل فلسطين . وحتى في الايام التالية الاشد عسرا لم يكتم الصهيونيون ، حتى في حديثهم الى الاميين ، حقيقة انهم لم يريدوا النجاح لمستوطنات يهودية خارج فلسطين (٦٢) » ونتيجة لعدم اهتمام الصهيونيين هذا باللاجئين غير الصهيونيين في العام ١٩٣٨ لم ينج عشرات الالوف ، وربما مئات الالوف، من اليهود الذين كان ممكنا انقاذهم

وارتكزت الاصوات التي تم تجنيدها بالتأثير والنفوذ في الأمم المتحدة في العام ١٩٤٧ — مما ادى الى بروز اسرائيل الى الوجود — على قسوة الصهيونيين بقدر ما ارتكزت على النفاق للصهيونية . وليس عجيبا أن العرب ومؤيديهم الافرو — آسيويين لم يتمكنوا من الحؤول دون نجاح العدوان بين القارات الذي شن ضدهم . انهانقطةجديرة بالتأمل اليوم — والامم المتحدة تمثل العالم فعلا اكثر من قبل — أن اقتراعا مثل ذاك الذي ادى الى خلق اسرائيل أمر غير وارد اطلاقا

القبول المتردد

ولم يقدر الافرو — آسيويون أن يمنعوا الصهيونيين من شق طريقهم ، ومنع الآخرين من شقها لهم ، الى المجال الحيوي الافرو — آسيوي ولكنهم استطاعوا الاحجام عن دعوة الصهيونيين الى الاستقرار فيه وكأنه وطنهم . وظهر هذا في تردد الدول الآسيوية في اقامة علاقات ديبلوماسية مع اسرائيل .

ولم تعترف أي دولة آسيوية باسرائيل سنة ١٩٤٨ ، سنة ولادتها . واعترفت بها في العام ١٩٤٩ أربع دول آسيوية هي : سيلان وفورموزه والفيليبين وبورمة . ثم حذت حذوهم الهند وتايلاند (١٩٥٠) واليابان (١٩٥٢) ونيبال (١٩٦٠) .

وطور الطرفان علاقاتهما الديبلوماسية ببطء شديد مع أن اسرائيل كانت بالطبيعة أسرع في ذلك من الاسيويين . فقد اقامت اسرائيل قنصليات لها في الفيليبين عام ١٩٥٠ وفي الهند في العام ١٩٥١ . ثم أقامت بعد ذلك مفوضيات لها في اليابان (١٩٥٢) وبورمة (١٩٥٣) وتايلاند (١٩٥٤) . واقيمت أول سفارات اسرائيلية في آسية في بورمة (١٩٥٧) وتايلاند (١٩٥٨) ، أي بعد قيام الدولة بعشر سنوات .

ولم ترسل أي بلدان آسيوية بعثات ديبلوماسية لها الى اسرائيل قبل العام ١٩٥٥ وأول من قام بذلك بورمة واليابان على مستوى المفوضية . وتشكل هاتان البعثتان (ارتفعتا الان الى مستوى السفارة) بالاضافة الى سفارة الفيليبين مجموع التمثيل الديبلوماسي الاسيوي في الدولة اليهودية .

وهكذا بقيت آسية مجافية ديبلوماسيا لدولة أدركت منذ وقت مبكر انها جسم غريب .

---

٦١ — سايكس ، **Crossroads** ، ص ٢٢٣ — ٢٢٨

٦٢ — سايكس ، المصدر السابق ، ص ٢٢٨

الفصل الخامس

الصين والهند تديران ظهريهما

لقد اضطرت اسرائيل الى دفع ثمن العون المباشر والهائل الذي قدمته لها الولايات المتحدة داخل الامم المتحدة وخارجها بصورة اكبر . ذلك الثمن هو الرفض التام لاقامة علاقات مع اكبر دولة اسيوية وهي الصين الشيوعية التي اصبح عداؤها الشديد لاسرائيل من صلب السياسة الصينية .

وكانت الفرصة ضئيلة امام تطور العلاقات العادية بين اسرائيل وثاني اكبر دولة آسيوية اي الهند بسبب العداء الثابت الذي اظهرته الحركة الوطنية الهندية ضد الصهيونية . ولكن ربما اختلفت الامور بالنسبة للصين الشيوعية : فقد فرضت اميركة فيتو صارما وضع حدا لاية امكانية في تطوير العلاقات بين اسرائيل والصين الشيوعية .

اعترفت اسرائيل بنظام حكم بيكين في كانون الثاني من العام ١٩٥٠ اي بعد مضي عدة شهور على اعلان الجمهورية الشعبية في تشرين الاول من العام ١٩٤٩ . حدث هذا عندما كانت سياسة عدم الانتماء الى اي من المعسكرين في الحرب الباردة لا تزال سياسة رسمية للحكومة الاسرائيلية . ومع ذلك ايدت اسرائيل الولايات المتحدة في الامم المتحدة ومن خلالها تأييدا كاملا في اعمالها في الحرب الكورية التي نشبت في صيف العام ١٩٥٠ والتي كانت موجهة بصورة رئيسية ضد الصين . واسقط هذا بالطبع امكانية تطوير اي علاقات بين الصين واسرائيل

صوتت اسرائيل على سبيل المثال مع المقررات التي تخول قوات الامم المتحدة اجتياز خط العرض ٣٨ لوصم الصين بالاعتداء ولفرض حظر على شحنات المواد الحربية الى الصين وكورية الشمالية . وعلى الرغم من ذلك فقد بعثت الحكومة الصينية برسالة متأخرة في العام ١٩٥٢ الى الحكومة الاسرائيلية تهنئها فيها بعيد استقلالها وتتمنى لها « النصر في نضالها من اجل الاستقلال الوطني والديموقراطية والحرية (١) » ، هذه اشارة اولى الى ان الصين كانت في البداية متفتحة الذهن تجاه دولة اسرائيل .

وقد جرت محاولات لاقامة علاقات تجارية بين الصين واسرائيل وقام وفد اسرائيلي تجاري بزيارة الصين في شباط ١٩٥٥ الا ان حدثين وضعا حدا لاي امكانية من ذلك النوع . اولهما امتناع اسرائيل عن التصويت في الجمعية العامة للامم المتحدة في العام ١٩٥٤ الى جانب نظام الحكم في بيكين كممثل للصين في المنظمة الدولية (كانت اسرائيل تصوت على ذلك ايجابيا في العامين ١٩٥٠ — ١٩٥١) . ولم يكن ذلك الرفض حاسما لان الصين اعربت في وقت لاحق عن املها في اقامة علاقات مع اسرائيل . اما الحدث الثاني الذي كان حاسما فهو رفض الحكومة الاسرائيلية العمل بسرعة وفقا

---

١ — وكالة الصين الجديدة للانباء ، ٢٨ — ٥ — ١٩٥٢

لاقتراحات هاكوهين (٢) المتكررة من اجل ارسال سفير الى بيكين .

وهاكوهين مقتنع ان هذين الحدثين ــ الموقف السلبي في التصويت في الامم المتحدة وعدم العمل وفقا لاقتراحات هاكوهين ــ كانا نتيجة للضغط الاميركي على الحكومة الاسرائيلية (٣) . وشعر هاكوهين في رانغون نفسها بهذا الضغط بعد عودته مع الوفد التجاري من بيكين عندما تهرب هو من الاجتماع بوزير الخارجية الاميركي فوستر دلس الذي كان يقوم بزيارة رانغون آنذاك ، واجتمع مرافقو دلس الرسميون بهاكوهين ونصحوه بأنه « لم يكن جديرا بالاهمية » ان تقيم اسرائيل علاقات مع نظام « وشيك السقوط » ، ولكن هاكوهين لم يوافق على هذا الراي . وقال هاكوهين ان الذي جعل اسرائيل عرضة للضغط الاميركي بصورة خاصة هو حقيقة ان سفير اسرائيل في واشنطن كان في الوقت نفسه ايضا ممثلها في الامم المتحدة فلم يستطع قول او عمل اي شيء في نيويورك يسيء الى مهمته في واشنطن .

وعلى اية حال فانه لم يتم عمل شيء حول اقامة علاقات قبل مؤتمر باندونغ في نيسان ١٩٥٥ . وقد فات الاوان بعد المؤتمر . فقد وقع شو ان لاي في مؤتمر باندونغ على قرار معاد لاسرائيل .

وقد تضررت العلاقات بين اسرائيل والصين بصورة يصعب اصلاحها نتيجة لتطور آخر في باندونغ : ذلك هو الاتصالات الاولى التي جرت بين شو ان لاي ومجموعة من الزعماء العرب بينهم الكولونيل ناصر آنذاك . وفجأة ادركت الصين ان العرب كثيرون وانهم يمكن ان يكونوا قوة وانهم ارادوا علاقات صداقة مع الصين . واهم من ذلك ان الصين ادركت ان الانظمة العربية الجديدة انظمة قومية تريد ضرب سيطرة الامبريالية الغربية على الشرق الاوسط .

ولم يكن ممكنا لاسرائيل المرتبطة ارتباطا وثيقا بأميركة مــا كان ممكنا للعرب فقررت الصين الوقوف مع الجانب العربي في النزاع العربي الاسرائيلي .

ولم تبدأ الحكومات العربية بزعامة القاهرة اقامة علاقات ديبلوماسية مع الصين قبل مرور اكثر من عام على مؤتمر باندونغ لان تلك الحكومات ايضا كانت تخضع للضغط الاميركي . وتقول احدى النظريات ان هذا التحرك الذي قامت به مصر حمل دلس على الغاء العرض الاميركي من اجل المساعدة في بناء السد العالي مما ادى بالنهاية الى الهجوم الاسرائيلي ــ البريطاني ــ الفرنسي على السويس عام ١٩٥٦ وايدت الصين مصر في ذلك الوقت تأييدا كاملا وتطورت العلاقات السياسية والتجارية في السنوات القليلة التالية بين الدول العربية والصين بسرعة . واتخذت الصداقة ، او على الاقل التعاون العربي ــ الصيني شكلا رسميا محددا عندما قام شو ان لاي بزيارة

---

٢ ــ د. هاكوهين ، **Burma Diary** ، تل ابيب ، ١٩٦٢ وتقوم هذه الرواية على اســـاس مقتطفات مترجمة نشرت في مجلة **New Outlook** ، تل ابيب ، المجلد السادس ، العدد التاسع ، ١٩٦٣ ، ص ٢٩ ــ ٤٤ . وبما ان الصينيين لم ينشروا اي شيء حول هذا الحدث الديبلوماسي الغريب يبرز التساؤل حول ما اذا كنا نستطيع التسليم بأن رواية هاكوهين صحيحة اظن اننا نستطيع اعتبارها رواية صحيحة لان هاكوهين نفسه شخصية صريحة ، وايضا لانــه لم يكن من المرجح في العــام ١٩٥٢ ان تتخذ اسرائيل الخطوة الاولى باتجاه الصين لانها كانت بعيدة جدا عن المسرح الاسيوي .

٣ ــ في محادثة مع الكاتب جرت في القدس في تشرين الثاني من العام ١٩٦٥ .

خمسة بلدان عربية في اواخر العام ١٩٦٣ واوائل العام ١٩٦٤

ومنذ ذلك الحين تبنت الصين سياسة معادية لاسرائيل علنا وذلك بتقديمها عونا عسكريا وماليا لمنظمة التحرير الفلسطينية التي نادت بتدمير البنية السياسية لدولة اسرائيل

وعندما اصبح التقارب العربي ـ الصيني حقيقة راسخة بعد العام ١٩٥٦، استمرت اسرائيل في الامتناع عن التصويت مع تمثيل الصين الشيوعية في الامم المتحدة . وصوتت اسرائيل ايجابيا مرة واحدة فقط في العام ١٩٦١ ولكن هذا كان وسيلة ديبلوماسية مكشوفة لان اسرائيل ايدت قبل هذا الاقتراع بقليل اقتراحا امريكيا مؤداه ان التغيير في تمثيل الصين يتطلب تأييد اغلبية الثلثين ، وعندما صوتت اسرائيل ايجابيا كانت متأكدة من انه لم تكن هناك غالبية مؤيدة تبلغ الثلثين . وعند اقتراب التصويت على هذه المسألة في العام ١٩٦٥ انتقلت اسرائيل من الامتناع الى التصويت ضد الصين الشيوعية والحجة الاسرائيلية الجديدة هي انها تحبذ الآن تمثيل كل من الصين الشيوعية وفورموزه معا : « ان مبدانا القائل بأن الامم المتحدة يجب ان تعكس الواقع الراهن ينطبق على الصين وفورموزه والحقيقة ان هناك نظام حكم معين في البر الصيني ولكن هناك حقيقة اخرى هي وجود نظام حكم معين في جزيرة فورموزه ايضا (٤) » هذا هو الموقف الاسرائيلي كما عبر عنه وزير الخارجية الاسرائيلية ابا ايبان .

وبتصويتها ضد الصين الشيوعية في الامم المتحدة ابتعدت اسرائيل عن الخط الذي سارت عليه معظم البلدان الافرو ـ آسيوية ولكنها راعت بذلك مصالحها الوطنية : فقد استمرت في ارضاء الولايات المتحدة ولم تسىء الى فورموزه التي اتبعت سياسة محايدة الى حد ما بين العرب واسرائيل في مجلس الامن الذي هي عضو فيه .

وقد اعرب عن بعض الاسف في اسرائيل (بالاضافة الى اسف الاحزاب اليسارية) لكون العلاقات المتبادلة بين اسرائيل والصين الشيوعية متسمة بالعداء . قال بن جوريون في العام ١٩٦٣ « ربما تصبح الصين بعد عقد من الزمن في مصاف اعظم بلدان العالم اهمية » ثم قال في العام ١٩٦٥ ان « الطريق الى السلام في الشرق الاوسط يمر عبر بيكين (٥) . » ولكننا نجد من خلال كلمات بيكين ومهاجمتها الشديدة للسياسة الاستعمارية الجديدة الاسرائيلية خاصة بعد حزيران ١٩٦٧ لن السلام الذي يسعى اليه الاسرائيليون لن يلق دعم الصين ابدا .

ان شعور الاسرائيليين بالاسف لرفض الصين الدولة اليهودية يتحول الى خيبة امل مريرة بل الى استنكار غاضب عندما يتحدثون عن رفض الهند لدولتهم منذ العام ١٩٤٨

ويصعب ان يفهم الهندي خيبة امل اسرائيل اذ ان اي شخص مطلع على آراء غاندي ونهرو حول الصهيونية ، تلك الآراء التي عبرا عنها باستمرار ، سيفترض ان الهند المستقلة والمسترشدة بهذين الرجلين ستكون لها علاقات غير ودية مع دولة

---

٤ ـ أ. س. ايبان ، **اسرائيل في العالم** ، لندن ، ١٩٦٦ ، ص ٤٢ .
٥ ـ تقارير صحافية ، ٩ ـ ٦ ـ ١٩٦٣ ، ٢٩ ـ ٦ ـ ١٩٦٥

اسرائيل وليدة الصهيونية .

ربما برزت خيبة امل اسرائيل من رغبتها الكبيرة في ان تلقى قبولا لدى الهند ولو وافقت هند غاندي ونهرو على اسرائيل لكسبت هذه مكانة ادبية معينة ولكانت ، بكلمات اكثر عملية ، حظيت ايضا بعضوية كاملة ومحترمة في الاسرة الآسيوية مما يحقق لها قبولا دوليا ودعما ديبلوماسيا . ولقد اثارت دعوة اسرائيل الى مؤتمر العلاقات الآسيوية في العام ١٩٤٧ بلا شك آمالا زائفة ايضا . واثارت آراء بعض الممثلين الديبلوماسيين الهنود الشخصية وغير الممثلة للاتجاه الرسمي في الامم المتحدة في العام ١٩٤٧ آمالا كتلك التي اثارها مؤتمر العلاقات الآسيوية ، يسجل هورويتس (٦) القول بأن الوفد الهندي بزعامة السيدة بانديت استاء عندما طلب اليه التصويت ضد قرار التقسيم .

ان سياسة الحكومة الهندية تجاه اسرائيل منذ العام ١٩٤٨ وحتى وقتنا الحاضر متمشية برمتها مع الآراء التي عبر عنها كل من غاندي ونهرو في العقود السابقة فهما لم يوافقا على الفكرة الاساسية لاقامة دولة يهودية وتمنيا الا تأتي الى الوجود . وادركت الهند منذ قيامها تلك الحقيقة بشكل واقعي ، فلم تكتف بعدم الموافقة فحسب بل اعربت عن رفضها الشديد لسياسة اسرائيل العدوانية والتوسعية ضد جيرانها العرب الذين تحسنت ، من ناحية ثانية ، علاقاتهم الودية بصورة مطردة مع الهند .

صوتت الهند ضد التقسيم وضد قبول اسرائيل ايضا عضوا في الامم المتحدة على اساس انها دولة خلقت « بقوة السلاح وليس عن طريق التفاوض » .

ترددت الهند كثيرا قبل اعلان الاعتراف باسرائيل في ايلول ١٩٥٠ وعندما اعترفت بها اعلنت ان ذلك لا يعني اعتبار حدود اسرائيل في ذلك الوقت حدودا نهائية . واعطى البيان الرسمي عددا معينا من الاسباب التفسيرية غير الضرورية لذلك العمل ذاكرا على وجه الخصوص ان عدم الاعتراف « قد يحد من امكانية لعب حكومة الهند دور الوسيط بين اسرائيل ودول اخرى » . تبين هذه الكلمات ان الهند كانت تأمل دون الاستناد الى اساس بالمرة ان تكون مصلحا محتملا بين اسرائيل والعرب . وفي الوقت نفسه صدرت بيانات نسفت اي احتمال لان تكون مصلحا بقولها ان الاعتراف لم يؤثر باي شكل على صداقة الهند للعرب او على سياستها حول المسالة الفلسطينية .

كانت الهند قلقة من بروز ردة فعل عربية معادية لدرجة انها لم توضح ما اذا كان الاعتراف اعترافا بالامر الواقع او اعترافا قانونيا او الاثنين معا ، ولا يزال الغموض يكتنف هذه النقطة الى اليوم . وبما انها لم تتحدد فقد كان الاعتراف في الحقيقة اعترافا قانونيا واعترافا بالامر الواقع في آن معا .

ومهما كانت الآمال التي علقتها الهند على دورها في الشرق الاوسط فان السبب المنطقي والمعقول لاعترافها باسرائيل يرتبط بالشرق الاقصى . فقد كانت الهند تحاول في ذلك الوقت نشر الفكرة القائلة بأن الصين يمكن ان تغدو اقل ميلا للحرب اذا قبل العالم بها وان هذا يمكن تحقيقه بسهولة باعتراف كل دولة بها لان الاعتراف الديبلوماسي لا يعني موافقة ادبية بل مجرد قبول بالواقع . ولو امتنعت الهند بصورة واضحة عن

---

٦ ــ هورويتس ، المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

القبول بواقع وجود اسرائيل لبدا من غير المنطقي ان تتكلم الهنــد بهذه الطريقة عن الصين . وهكذا كان اعتراف الهند باسرائيل من قبيل القبول بالامر الواقع لا من قبيل الموافقة والرضى .

ويدل على احجام الهند عن الموافقة والرضى رفضها اقامة علاقات ديبلوماسية مع اسرائيل رغم الجهود الاسرائيلية الحثيثة ودعم الولايات المتحدة الذي يساوي تلك الجهود شدة واصرارا . وبعد عام من الاعتراف سمح لاسرائيل باقامة قنصلية لها في بومباي ولكن المحاولات التي تمت منذ ذلك الحين لنقلها الى العاصمة نيودلهي ورفعها الى مستوى قنصلية عامة باءت بالفشل بسبب معارضة الحكومة الهندية .

لقد انتقد الاسرائيليون والاميركيون المؤيدون للصهيونية بشدة رفض الهند التقرب من الدولة اليهودية واستنكروا ذلك الرفض على انه ضرب من الجبن والنفاق والتشكيك وعلى انه ايضا خيانة لعدم الانحياز وللزعم القائل بالنظر الى المسائل بطريقة موضوعية. ولكن بتبنيها موقفا مجافيا لاسرائيل قامت بالضبط بما يلي : نظرت الى المسألة بطريقة موضوعية واستنتجت من حيث المبدأ والمصلحة القومية الهندية انه من الافضل الاحتفاظ بأقل قدر ممكن من العلاقات مع اسرائيل .

ان اعتبار المبادىء والمصالح هو ما تريده اسرائيل لنفسها وتنكره على الهند لا يظن احد انه من السخرية ان تعطي اسرائيل الولايات المتحدة اهمية أكثر مما تعطي للجبار الآسيوي ، الصين الشعبية . ولكن السخرية يراها البعض عندما تضع الهند في حسابها ان ١٣ دولة عربية اهم من دولة اسرائيل وحدها التي تملك دعاية عظيمة والتي لها دور مقلق ومزعج مساو لحجم تلك الدعاية التي لا تملك اسرائيل اكثر منها ومن دور الاقلاق والازعاج بكثير

هناك اسباب كثيرة قوية من وجهة النظر الهندية لان تفضل الهند علاقاتها مع الدول العربية على علاقاتها مع اسرائيل . وقد اورد كتاب اسرائيليون وصهيونيون تلك الاسباب بصورة شاملة تماما (٧) .

وهذه الاسباب هي التنافس مع باكستان في سبيل الحصول على دعم او على الاقل تحقيق حياد البلدان العربية الاسلامية خاصة في النزاع على كشمير ، آخذة بعين الاعتبار حقيقة ان مسألة كشمير مدرجة في جدول أعمال الامم المتحدة حيث يبلغ عدد اصوات الكتلة العربية ١٣ صوتا ، مواصلات الهند البحرية والجوية الحيوية مع الغرب ومرورهما عبر الاراضي العربية ، فقناة السويس خصوصا مهمة جدا بالنسبة للهند ، تحصل الهند على النفط بصورة رئيسية من البلدان العربية في منطقة الخليج العربي ، وهناك جاليات كبيرة من التجار الهنود المنتشرين في العالم العربي والذين لاقى معظمهم نجاحا وثراء ، وفي السياسة الداخلية لا تستطيع اي حكومة تمثيلية ان تتجاهل المشاعر المؤيدة للعرب بقوة لدى ٨٠ مليون مسلم هندي ، وهناك بضع دول عربية مثل مصر وسورية والعراق والجزائر تؤيد باصرار سياسة عدم الانحياز التي تعزى

---

٧ ـ R. V. Kozicki ، « الهند واسرائيل، مسألة في السياسة الاسيوية » ، مجلة شؤون الشرق الاوسط ، نيويورك ، ايار ١٩٥٨ ، M. Medzini ، دولة اسرائيل والامم الاسيوية ، ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ، اطروحة قدمت في جامعة جورج تاون ولم تنشر ، واشنطن ، حزيران ١٩٦٠ ، ص ٥٢ ـ ٥٤

الى الهند ، وهناك اخيرا ، وربما اعظم الاسباب اهمية ، التجارة المتزايدة والعلاقات التجارية المتزايدة بين الهند والمنطقة العربية اذ تشكل البلاد العربية التي يبلغ عدد سكانها مئة مليون شخص سوقا ضخمة لصناعات الهند النامية ، وفي الوقت نفسه تشتري الهند من العرب كميات كبيرة من القطن والقمح والرز والتمر والفوسفات ، بينما تستطيع ان تشتري من اسرائيل بعض انواع السماد والماس الصناعي والاسنان الاصطناعية فقط مما لا يشكل اساسا لعلاقات تجارية واسعة . لندع ارقام التجارة تتحدث بنفسها : صدرت الهند الى البلاد العربية في العام ١٩٦٤ بضائع بقيمة ٥٠٠ مليون روبية مقابل ما قيمته ٨٠٠ الف من البضائع الى اسرائيل . وقدرت قيمة ما استوردته الهند من البلدان العربية بـــ ٨٤٠ مليون روبية مقابل ٤ ملايين روبية من اسرائيل .

تعرف الهند قيمة العالم العربي بالنسبة لها وترسم سياستها في غربي آسية ونقا لذلك . ويأمل العرب من دولة آسيوية مثل الهند اكثر مما يأملون ، على سبيل المثال ، حتى من دولة اوروبية صديقة مثل يوغسلافية التي هي زبون جيد لاسرائيل ، ولذلك يستاء العرب بشدة اذا قامت الهند بأية تحركات ودية تجاه اسرائيل ، الا انه ليس في مصلحة الهند الاساءة الى العرب .

ولكن حتى لو لم يكن الامر خيارا بين اثنين اي بين العرب واسرائيل لكان من الممكن تماما ان تبقى الهند حتى الآن بدون علاقات ديبلوماسية مع الدولة اليهودية لان هناك بضعة بلدان اكبر واكثر اهمية منها بالنسبة للهند ولم تقم الحكومة الهندية معها تبادلا ديبلوماسيا لاسباب اقتصادية . وتزعم اسرائيل ان لها دورا خاصا واهمية خاصة في العالم ولكن لا تشاركها هذا الزعم كل دولة اخرى خاصة في آسية .

وحسب الرواية الاسرائيلية (٨) اوشكت اسرائيل في احدى المناسبات ان تتوصل الى اقامة علاقات ديبلوماسية كاملة مع الهند مثلما سبق وحدث مرة بين اسرائيل والصين . ففي اوائل العام ١٩٥٢ قام المدير العام لوزارة الخارجية الاسرائيلية انذاك السيد ايتان بزيارة الى نيودلهي . وبعد محادثات مع نهرو وآخرين تم الاتفاق علـى انشاء بعثة ديبلوماسية هندية في اسرائيل . الا ان الهنود زعموا ان قرار نهرو لم يحصل على موافقة الوزارة الهندية . يبدو هذا غير مرجح ضمنيا لانه لم تكن في ذلك الوقت مسألة لا تلقى موافقة الوزارة الهندية اذا كان نهرو يراها مهمة الى درجة ان يفرض مـن اجلها سلطته . واذا حدث تغيير في القرار فانه صادر عن نهرو وليس عن الوزارة .

لقد كانت العلاقات الرسمية بين الهند واسرائيل معدومة فعليا منذ العام ١٩٥٢ . وقد جرى تبادل العديد من الطلاب بين البلدين . وقامت بعثة هندية بدراسة اتحاد العمال وحركة الكيبوتز في اسرائيل واستنتجت ان الكيبوتز لا يناسب الهند « ان التجربة الاسرائيلية غير ملائمة من جهة ومضللة من جهة اخرى . »

وقام احد الوزراء الاسرائيليين (وزير العمل) بزيارة الهند بينما لم يقم اي وزير هندي بزيارة اسرائيل .

وتجعل القوانين الهندية في الواقع من الصعب للمواطنين الهنود زيارة اسرائيل ، ومنعت الحكومة باستمرار وفودا من مختلف الانواع من الذهاب الى اسرائيل . ومع

---

٨ — و. ايتان ، **السنوات العشر الاولى** ، نيويورك ، ١٩٥٨ ، ص ١٨١ وما يليها .

ذلك تعمل القنصلية الاسرائيلية في بومباي بنشاط كبير في مجال الدعاية وتبدي سخاء في توجيه الدعوات . وتحاول الحكومة الهندية الى حد بعيد تعطيل عمل القنصلية والعكس بالعكس ، ان الذوق وحده ، او القصور الذاتي ، هو ما يفسر استمرار وجود هذا المكتب في بومباي .

وكانت الحكومة الهندية ترفض ايضا عروضا للمساعدة تقدمت بها الحكومة الاسرائيلية : عرضت اسرائيل في العام ١٩٦٤ اقامة مستوطنة زراعية نموذجية ، وفي العام ١٩٦٥ تعليم اساليب زراعية متقدمة ، وفي العام ١٩٦٦ تزويد الهند بالسمادات .

ولم يكن من غير الطبيعي ان تنظر الصحافة والحكومة الاسرائيليتين الى انتخاب الهند لعضوية مجلس الامن في تشرين الثاني ١٩٦٦ نظرة تعبر عن مشاعر متنوعة ومضطربة . ففي العام ١٩٦٧ ادانت الهند الاعمال الاسرائيلية في مجلس الامن مثلما فعلت في العام ١٩٥٦

ومع ذلك لم يكن موقف الحكومة الهندية من اسرائيل معاديا ابدا بقدر عداء الصين الشديد لها . ونصحت الهند الدول العربية في العامين ١٩٥٨ و١٩٦٧ بوجوب القبول بوجود اسرائيل الجغرافي والتاريخي دون الاعتراف بها ديبلوماسيا بالضرورة . ولكن هذه النصيحة لم تلق ترحيبا كبيرا لدى العرب .

الا ان تطورا واحدا سبب دهشة متميزة بخيبة الامل والانتقاد لاسرائيل في الهند . ذلك هو التذمر المستمر من سوء المعاملة الذي قوبل به اليهود الهنود الذين هاجروا الى اسرائيل .

بلغ عدد اليهود في الهند عام ١٩٥١ حوالى ٢٠،٠٠٠ هاجر منهم ٨،٠٠٠ الى اسرائيل (٩) ، بدافع ديني واقتصادي .

ونجح الرسميون الصهيونيون الذين ارسلتهم المنظمة الصهيونية الى الهند قبل اقامة القنصلية في اقناع اليهود في بومباي (حيث يسمون بني اسرائيل) ، وفي كوشين بالذهاب الى اسرائيل . ويلاحظ الخبير البارز في شؤون يهود الهند ان « الكثير من بني اسرائيل كانوا يأملون ان تؤدي الهجرة — التي قد تفسر في حال عدم وجود اجراءات عدائية ضد اليهود في الهند على انها تعبير عن تضامن اليهود وحبهم للارض المقدسة — الى تحقيق قبول لدى يهود آخرين غيرهم . ولكن الهجرة لم تحقق غايتها حتى الآن (١٠) . » وهناك تفسير آخر اميل الى المادية يقول ان الدعاية الصهيونية تقدم اسرائيل على انها تؤمن حياة ايسر واسهل من تلك التي تؤمنها البيئة الهندية القاسية (١١) .

وجد معظم المهاجرين الهنود مكانا لهم في المجتمع الاسرائيلي . الا انه كان هناك في اوائل الخمسينات عدد كبير منهم يشكو بشدة من سوء المسكن وسوء الطعام ومن العمل غير المناسب في الاماكن الاكثر تخلفا في اسرائيل . واكثر من ذلك انهم زعموا بأن هذه المشاق فرضت عليهم نتيجة للشعور العنصري عند « المتغطرسين البيض » او

---

٩ — S. Strizower **Exotic Jewish Communities,** ، لندن ١٩٦٢ ، ص ٤٨ وما يليها .

١٠ — S. Strizower « بني اسرائيل في اسرائيل » ، **دراسات الشرق الاوسط** ، لندن ، المجلد الثاني ، العدد الثاني ، كانون الثاني ١٩٦٦ ، ص ١٢٣ — ١٤٣

١١ — اقتبس في Strizower ، « بني اسرائيل » ، ص ١٣٢ .

اليهود الاوروبيين . واستخدم اليهود الهنود التكتيك الهندي المألوف في المقاومة السلبية فاعتصموا عن الطعام امام مكتب الوكالة اليهودية في القدس مطالبين بالعودة الى الهند. وروجوا مظالمهم ايضا في الصحافة الهندية تماما في الوقت الذي كانت تحاول فيه اسرائيل اقامة علاقات ديبلوماسية مع الهند . وكان تذمرهم محرجا لدرجة ان الحكومة الاسرائيلية وافقت في النهاية على اعادة بضع مئات منهم الى الهند .

ولكن التذمر لم ينته . فعندما التقيت في العام ١٩٦٠ بيهود هنود في بئر السبع تذمر بعضهم من انهم كانوا يعطون « اعمال مساجين » واعربوا عن رغبتهم في العودة الى الهند .

واضيف التمييز الديني في العام ١٩٦٠ الى مظالم بني اسرائيل الذين اصدر كبير حاخامي الطائفة السفردية تعليمات خاصة لاجراء تحقيقات حولهم ، بسبب شكوك بصحة يهوديتهم ، « تعود الى التاريخ قدر الامكان » باحثة عن اصلهم بحثا ينظر في تزاوجهم مع طوائف يهودية اخرى . اما القول بعودة التحقيق «الى التاريخ قدر الامكان» فقد انحصر في بني اسرائيل وحدهم مما يظهر ضربا من التمييز (١٢) . ومرة اخرى جرت اضرابات عن العمل مع ملازمة مكانه واضرابات عن الطعام في القدس . ومرة اخرى ظهر انتقاد اسرائيل في الصحافة الهندية . وتحت ضغط هائل عدل كبير الحاخامين تعليماته بما يرضي بني اسرائيل بعد ان يذكرهم مرة اخرى بأنهم ليسوا يهودا بكل معنى الكلمة في اسرائيل .

وجدير بالملاحظة ان احد اسباب عجز اليهود الهنود عن التكيف في اسرائيل هو انهم : « يسمعون بالاضطهاد سمعا فحسب ، فهم لم يعانوه ابدا . وعاشوا قرونا كثيرة على وفاق ممتاز مع الهندوس والمسلمين والمسيحيين (١٣) . » وباختصار لا يكفي الحماس الصهيوني الصرف لجعل الانسان يشعر بأنه في وطنه في اسرائيل اذ ان هناك عنصرا جوهريا آخر لذلك الشعور ، هو المعاناة من اضطهاد اللاسامية .

واسرائيل الآن اكثر وعيا من ذي قبل لاهمية الهند والصين في آسية وفي العالم . فقد نظر بن غوريون الى المستقبل متنبئا « تصعد آسية مع غياب اوروبة . ففي (آسية) يقيم اكبر عرقين عددا في العالم هما الصيني والهندي ويشكل الاثنان معا نصف الجنس البشري كله تقريبا . وهما عظيمان ليس عددا فقط بل ايضا حضاريا ، فحضارتهما عريقتان اصيلتان (١٤) » ولكن الصين والهند ادارتا ظهريهما للدولة اليهودية .

وعليه لن تستطيع اسرائيل ابدا ان تشعر بأنها جزء حقيقي من القارة الآسيوية ما لم تحظ بقبول اكبر بلدين آسيويين بها كل على حدة او كلاهما معا . وكل ما فعلته اسرائيل امام رفض الصين والهند لها هو انها لجأت الى اقامة علاقات غامضة ومتقلبة مع البلدان الواقعة على اطراف آسية من اجل كسر الطوق المضروب حولها في غربي آسية .

---

١٢ ــ المصدر السابق ، الملاحظة رقم ٢٠ ، ص ١٤٣

١٣ ــ المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

١٤ ــ بن غوريون ، **بعث ومصير اسرائيل** ، لندن ، ١٩٥٩ ، ص ٤٥٤ .

الفصل السادس

الغريب كانه في وطنه

الاختراق الجزئي

عندما أطل زعماء اسرائيل بعد ان حققوا قيام دولتهم شرقا على القارة التي تضمهم عرفوا انهم يواجهون مهمة هائلة هي مهمة تحقيق القبول لانفسهم ، ولكنهم عرفوا أيضا ان عليهم القيام بالمحاولة أو الرضى بوضع جسم غريب غير مرغوب فيه وهو وضع لم يكونوا على استعداد للقبول به . وادركوا في ذلك الوقت ان آسية على طريق ان تصبح قوة هامة فعلا في الشؤون العالمية . ومهما كان التمازج الفكري والعاطفي الطبيعي بين الصهيونية والقومية الآسيوية فان اسرائيل لم ترد قيام كتلة آسيوية معادية لها في المستقبل . ولكنها أرادت صيغة تسمح لها بالحفاظ على مظهرها الاوروبي العام وعلى روابط وثيقة بالدول الغربية الرئيسية وعلى كسب قبول آسية بها ايضا . فهي لم تكن مهتمة بالقيام بأية محاولة لاتخاذ مواقف قومية آسيوية من الغرب او من العنصرية أو من النضالات المعادية للاستعمار في العالم بأسره . وأقل من كل ذلك لم تقدم اسرائيل اي تنازلات في موقفها من حقوق عرب فلسطين على الرغم من أن هذا يمكن ان يجعلها مقبولة في بقية آسية اكثر من أي شيء آخر . ونتيجة لذلك لم يكن وشيكا قبول الحكومات القومية الآسيوية باسرائيل .

وقد أدرك بن جوريون أول رئيس لوزراء اسرائيل والدارس للفكر الشرقي، ادرك بصورة خاصة اهمية سياسة اسرائيل في آسية والمصاعب التي تواجهها كتب بن جوريون يقول: «يمكننا نحن الاسرائيليين اقل من جميع الآخرين انغمض عيوننا على نهضة آسية وشعوبها »، ولكن « يجب أن نرفض تراثنا الاوروبي ولا حق لنا بذلك(١)».
ولم يكن بمقدور اسرائيل أبدا ان تهرب من هذا الشعور الاساسي بأوروبيتها .

قال بن جوريون في صبيحة اليوم التالي للعدوان على السويس عندما كانت آسية بأسرها لا تزال تدين اسرائيل « يجب أن ندرك ان شعوب الشرق الاقصى لا تعرف شيئا عن الكتاب المقدس ولا عن اسرائيل . لقد حصلوا على حريتهم وحرروا أنفسهم من أوروبة منذ وقت قصير جدا ، وهم يشتبهون بكل انسان أبيض (٢) » . وبعد ذلك بعدة شهور علقت غولدا مئير ، وقد كانت وزيرة للخارجية الاسرائيلية فترات طويلة ، بقولها : « تعتبر اسرائيل نفسها جزءا متمما من القارة الآسيوية . ولا مجال

---

١ ــ بن جوريون ، بعث ومصير اسرائيل ، ص ٤٥٦
٢ ــ جيروساليم بوست ، ٥ ــ ١٢ ــ ١٩٥٦

للافرو ــ آسيويين ان يكونوا ضدنا ، ربما تكون خطيئتنا الوحيدة ان بشرتنا بيضاء (٣) » .

اننا نجد الاسرائيليين يذكرون مرارا عديدة المبررات السطحية نفسها للرفض الآسيوي أي انهم يذكرون التحامل العنصري وغياب الخلفية التوراتية .

ويجب أن نشير هنا الى ان الآسيويين لا يشعرون بتحامل عنصري على الاقل تجاه دولة اوروبية واحدة هي بلا شك يوغسلافية لانها تتبع ما يعتقده الآسيويون سياسة صحيحة أي سياسة دعم القومية الآسيوية التي تلقى معارضة اسرائيل كما سنرى

ويبدو ان دعاة اسرائيل والمدافعين عنها لا يجدون شيئا غريبا في مثل هذه الكلمات : « لقد نجحت اسرائيل عموما في اقناع الاوروبيين الذين نشأوا على الكتاب المقدس بحق اليهود في تقرير مصيرهم القومي في الارض المقدسة (٤) » ، كما لا يجدون غرابة في القول : « ان اسم « اسرائيل » نفسه جزء من التراث المسيحي ... وعندما اقيمت الدولة اليهودية ودعيت اسرائيل لم تكن بحاجة الى توضيح نفسها الا في آسية (٥) » . ولا يبدو ان الاسرائيليين يستغربون أو يرون انه انتقاص من قدرهم ان يزعموا بان اوروبة تقبل اسرائيل لا عن استحقاق وانما لان ديانة اسرائيل اندمجت في ديانة أوروبة .

ويرى بعض الصهيونيين ايضا ان هناك دوافع سياسية معاصرة لعدم فهم آسية لاسرائيل ، ويرون انها نتيجة النقص من جانب آسية . وهذه الدوافع هي (٦) : تجربة السيطرة الاستعمارية ، الشعور بعدم الكفاية والانحطاط في الناحيتين الاقتصادية والتقنية ، عدم الاستقرار العام والاشتباه بكافة الدول الكبرى ، التضامن مع البلدان الآسيوية الاخرى ، تفان خاص نحو الامم المتحدة . أما ارتباط اسرائيل نوعا ما بعجلة الدول الكبرى الاستعمارية ومعارضتها للامم المتحدة فهما بحد ذاتهما ضارين ، ومع ذلك فان هناك العديد من المؤيدين للصهيونية الذين يقولون بان معارضة آسية لاسرائيل هي نتيجة لحقيقة ان الآسيويين يرون انها وليدة الامبريالية الغربية وان مصالحها تدفعها الى دعم الدول الاوروبية ضد المطالب الآسيوية بحق تقرير المصير (٧) .

ولكن التفكير الاسرائيلي عموما يرى ان عدم رغبة آسية في قبول اسرائيل يرجع الى مواطن ضعف ذهنية وعاطفية آسيوية ، وهذا يسيء الى آسية .

يجد الاسرائيليون مسألة محددة في تحديد هويتهم في آسية . ولا يوافق كثيرون منهم على التحديد الصريح التالي « هل نحن اوروبيون قادمون الى آسية أم نحن آسيويون عائدون من اقامة طويلة في اوروبة ؟ الجواب ببساطة هو لا هذا ولا ذاك . نحن اسرائيليون ــ شعب متحدر من اصل آسيوي وذو نشأة اوروبية في معظمها تربطه روابط تاريخية باليهود الذين يعيشون في الولايات المتحدة الامريكية وامريكة الجنوبية

---

٣ ــ المصدر نفسه ، ٣ ــ ٣ ــ ١٩٥٧

٤ ــ المصدر نفسه ، « يمكن ان تكون اسرائيل شباك آسية على الغرب » ، مقالة كتبها **I. Ben Zvi** ٢٥ ــ ٢ ــ ١٩٥٦ .

٥ ــ ايتان ، المصدر السابق ، ص ١٨١ .

٦ ــ اي . بن هورين ، « ملخص اساسي لموقف اسرائيل في آسية » ، **Hamizrah Hehadash, The New East, Quarterly of the Israel Oriental Society,** المجلد السابع ، العدد الرابع ، ١٩٥٧ .

٧ ــ وضع هذه النقاط الاخيرة بن زفي وبن هورين .

والاتحاد السوفياتي (٨) » .

ولا يقبل بن غوريون نفسه بهذا التحديد فهو يرى ان « دولة اسرائيل جزء من الشرق الاوسط من الناحية الجغرافية فقط وهذا عنصر جامد بصورة رئيسية . فاسرائيل من نواحي الدينامية والخلق والتطور الاساسية الفاصلة جزء من يهود العالم (٩) » . ويذكرنا هذا التعريف الرسمي الى حد ما بالنبتة المزروعة هايدروفونيا والتي تسبح جذورها في محلول كيماوي ولا تغرز في الارض . واذا كانت اسرائيل في الشرق الاوسط جغرافيا فقط فهي في آسية جغرافيا فقط ايضا .

ومهما يكن فقد حاولت اسرائيل ، بسبب اهمية آسية ، أن تصادق بعض البلدان الآسيوية فأصابت درجات متفاوتة من النجاح .

لقد لاحظنا ان قبول آسية بالدولة اليهودية سار ببطء وتردد . فبعد مضي أربع سنوات على قيام الدولة ، أي في العام ١٩٥٢ ، أصبح لاسرائيل ٤٢ بعثة ديبلوماسية او قنصلية في اوروبة والاميركتين واثنتان فقط في افريقية واثنتان أخريان فحسب في جنوبي وجنوب شرقي آسية ، قنصلية في مانيله واخرى في بومباي .

ربما يكون من المصادفة او لا يكون ان تحقق اسرائيل اسرع واسهل تغلغل لها في بلدان متحالفة عسكريا مع الغرب وخاصة مع الولايات المتحدة . حدث شيء من هذا النوع في بلدين اسلاميين في غربي آسية هما تركية وايران اللذين أقامت معهما اسرائيل علاقات قبل ان تحقق اي شيء في جنوبي وجنوب شرقي آسية بأربع سنوات .

صوتت تركية وايران ضد خطة التقسيم ولكنهما اعترفتا باسرائيل كحتيقة قائمة. حدث هذا في وقت كانت فيه ايران وتركية (الى حد ابعد) تعتمدان كليا على اميركة . وعلى الرغم من المحاولات الاسرائيلية الناشطة لتطوير كافة اشكال علاقاتها بتركية وخاصة التجارية منها فان الاتراك لم يكونوا أبدا مطمئنين كثيرا في علاقاتهم بالدولة اليهودية . وفي السنوات التي تلت العام ١٩٤٨ مباشرة كانت تركية تذكر كمثال على قدرة اسرائيل على العيش بانسجام مع الدول الآسيوية . واعطى عدوان السويس فرصة للاتراك لسحب مفوضهم من اسرائيل ، ومنذ ذلك الحين اصبح ممثل تركية في اسرائيل قائما بالاعمال ذا مرتبة ثانوية نوعا ما .

واهم علاقات تقوم بين اسرائيل وبلد آسيوي هي تلك التي تربطها بايران والتي يكتنفها الغموض والسرية . فعندما كنت أبحث عن المعلومات المفصلة في اسرائيل حول العلاقات المتبادلة بين البلدين قال لي المسؤولون الاسرائيليون في القدس انني اقيهم حرجا اذا حولت اهتمامي الى بلد آسيوي آخر .

ومن الواضح ان الجانبين متفقان على عدم الاعلان عن العلاقة الوثيقة بينهما : ذلك من أجل ان ترضي اسرائيل ايران ومن أجل الا تثير ايران استياء البلدان الاسلامية الاخـرى .

ان قصة العلاقات الديبلوماسية بين البلدين غريبة تماما . فقد اعترفت ايران باسرائيل على اساس الاعتراف بالامر الواقع في اذار ١٩٥٠ وحضر ديبلوماسي ايراني

---

٨ ــ جيروساليم بوست ، الافتتاحية ، ٢٠ ــ ٤ ــ ١٩٥٨

٩ ــ بن جوريون ، المصدر السابق ، ص ٤٨٩ .

الى اسرائيل تحت اسم غريب : دعي اولا « مبعوثا فوق العادة الى فلسطين » وسمي بعد ذلك « ممثلا خاصا في دولة اسرائيل » . وعندما تسلم مصدق السلطة بعد ذلك بعام اغلقت ايران قنصليتها العامة في القدس وسحبت الاعتراف بالامر الواقع واعلنت بان جميع اليهود الموجودين في ايران سوف « يعادون جبرا »

واستؤنفت العلاقات بسرعة بعد اسقاط مصدق وجرت منذ العام ١٩٥٣ سلسلة كاملة من الاتفاقات بين اسرائيل وايران . فايران تزود اسرائيل بكل ما تحتاجه من النفط وتقوم اسرائيل في ايران مقابل ذلك بشق الطرق وتشييد الابنية وزيادة محاصيل الشمندر والقطن واصلاح المناطق المصابة بالزلازل وبناء شبكات المجارير . هذا وتمر الطريق الجوية غير المباشرة والشديدة الالتفاف بين اسرائيل وجنوبي افريقية عبر طهران .

ويستحيل اكتشاف حجم التجارة بين البلدين لان كل ذكر لايران قد الغي من الاحصاءات الشاملة التي تصدر عن الحكومة الاسرائيلية منذ العام ١٩٦١

والواضح ان هذه الدرجة من التعامل لا يمكن تحقيقها بدون شكل من اشكال التمثيل الديبلوماسي . فقد اعلن الشاه في العام ١٩٦٠ ان ايران لم تتوقف ابدا عن الاعتراف باسرائيل وهناك اشارات متفرقة الى البعثة الاسرائيلية في ايران حيث توجد جالية اسرائيلية كبيرة لها مدرسة خاصة لاطفالها

وقال الشاه في العام ١٩٦١ ان العلاقات بين ايران واسرائيل « تشبه الحب الحقيقي بين شخصين خارج نطاق الزوجية . ان ايران تعزز علاقاتها باسرائيل ولكنها لاسباب سياسية لا تستطيع الاعتراف بها اعترافا قانونيا (١٠) » . ان مشاعر الشاه الحارة نحو اسرائيل مفهومة لان احد برامج العون التقني الاسرائيلي لايران هو تقديم التوجيه ذي المستوى العالي من الخبرة للبوليس السري الايراني الذي هو احد الدعائم الرئيسية لحكومة الشاه .

وستستمر العلاقات بين اسرائيل ونظام حكم الشاه جيدة لانها ترتكز على العداء المشترك للقومية العربية . ولكن هذه العلاقة لا توجد بالضرورة على الصعيد الشعبي ، فقد خرجت مظاهرات عنيفة في ايران ضد التعاون مع اسرائيل في حزيران ١٩٦٣ .

قامت اسرائيل بالتسلل الحقيقي الى آسية خارج المنطقة الغربية من القارة من خلال المؤتمر الاشتراكي الآسيوي الذي بدأ ضعيفا وانتهى ميتا في وقتنا الحاضر . وقد طرحت فكرة لقاء الاشتراكيين الآسيويين لاول مرة في العام ١٩٤٧ في اجتماع نيودلهي الا ان شيئا لم يحدث في ذلك الاتجاه قبل اذار ١٩٥٢ عندما اجتمع ممثلون عن الاحزاب الاشتراكية من بورمة والهند واندونيسية في رانغون وقرروا الدعوة الى مؤتمر .

اخذت بورمة تبدي بعض الاهتمام باسرائيل على اساس انهما البلدان الآسيويان الوحيدان اللذان تتسلم فيهما السلطة احزاب اشتراكية . وقام السكرتير العام للحزب الحاكم في بورمة بزيارة لاسرائيل في العام ١٩٥٢ فتركت تلك الزيارة انطباعا عظيما لديه عن اسرائيل . وبما ان بورمة استضافت المؤتمر الاشتراكي الآسيوي كان من الطبيعي ان تدعى اسرائيل اليه الى جانب الهند وباكستان واندونيسيه ولبنان والملايو واليابان

---

١٠ ـ جيروساليم بوست ، ٢١ ـ ١٢ ـ ١٩٦١

وفيتنام . وقد ترأس الوفد الاسرائيلي الى المؤتمر موشي شاريت وروبين بركات اللذان عرفا بمقدرتهما الشخصية من جهة وبمقدرتهما على التحدث باسم الحكومة الاسرائيلية من جهة ثانية مما جعل الوفد الاسرائيلي يقوم بدور بارز في المباحثات .

ان ما قد يبدو مدهشا لاول وهلة في هذا المؤتمر الآسيوي الاول ، مع انه لم يكن رسميا ، هو ان الاشتراكيين الاسرائيليين لم يقللوا باي شكل من الاشكال من شأن ارتباطهم بأوروبة بل اكدوه . وبدل ان يندمجوا في الحركة الاشتراكية الآسيوية حاولوا دمج الاشتراكيين الآسيويين بالاممية الاشتراكية التي تخضع للهيمنة الاوروبية . وكانت هذه المسألة احدى المسألتين الرئيسيتين اللتين بحثهما المؤتمر في رانغون واللتين اتخذت اسرائيل منهما موقفا يتعارض مع الخط الآسيوي (١١) .

وافترض الاشتراكيون الآسيويون في اجتماعهم اقامة تنظيم لهم : فقد ذكر المؤتمر الاولي في اذار هذا الافتراض على انه الهدف الاساسي للمؤتمر التالي . ولكن اسرائيل اوشكت ان تفسد تلك الخطة الاشتراكية عندما اقترح وفدها وجوب اندماج اي تنظيم اشتراكي آسيوي في الاممية الاشتراكية بان يصبح عضوا اقليميا فيها . وبما ان الاممية اقدم زمنا واكبر واغنى وافضل تنظيما فانها ستبتلع في الواقع الاشتراكيين الآسيويين . وقد أيد ممثلو الملايو والحزب الياباني اليميني الفكرة الاسرائيلية في حين ان الاشتراكيين الهنود والمصريين واللبنانيين والباكستانيين (بدرجة اقل) والاندونيسيين والبورميين انفسهم عارضوها بشدة .

ترتكز هذه المعارضة على شعور آسيوي صادق مع اعتقاد بان الاممية الاشتراكية تقع تحت السيطرة الاوروبية بشكل رئيسي وهذا ما لم يجعلها تتخذ خطا صارما تماما حول العداء للاستعمار والحيادية . وبلغ الشعور ضد الاممية حدا اقترح معه فعلا منع الاشتراكيين الآسيويين من الانضمام الى عضوية الاممية الاشتراكية .

وتوصل المؤتمر الى حل وسط بين هــذا الاقتراح والاقتراح الاسرائيلي بنادي بتشكيل منظمة اشتراكية آسيوية قائمة بذاتها ولكنه قرر وجوب وجود اتصال على كافة المستويات بين الهيئتين .

شكلت الحيادية الموضوع الرئيسي الثاني الذي جرى بحثه في رانغون . وكان للاشتراكيين الآسيويين ، أو على الاقل اشتراكيي جنوبي آسية ، موقفهم المميز من هذه المسألة ، فقد نادوا بعدم الانحياز المنظم اي كتلة ثالثة منظمة وفقا للخطوط التي تقوم عليها الكتلتان الاخريان في العالم .

وارادت بعض الوفود في رانغون اصدار تصريح واضح يربط بين الاشتراكية الآسيوية وعدم الانحياز ، الا ان الاسرائيليين واليابانيين اليمينيين عارضوا ذلك ايضا . ثم تمت الموافقة على تسوية غامضة اخرى تقول بان على البلدان الآسيوية الا تنتسب الى « ما يسمى حركات السلام » أو الى اي نظام عسكري بل ان تقوي نفسها وتكــون آراءها حول مسائل السلم العالمي .

واقام مؤتمر رانغون مكتبا دائما ليسير قدما بعمل المؤتمر كما تقرر . وضم المكتب

---

١١ ــ ثلاث سنوات من المؤتمرات الاشتراكية الاسيوية ، بومباي ، ١٩٥٦ ، و س. روز ، الاشتراكية في جنوبي آسية ، اكسفورد ، ١٩٥٩ ، الفصلان الاول والثالث عشر .

الدائم ممثلين عن بورمة والهند واندونيسية واليابان والملايو والباكستان واسرائيل بالاضافة الى مندوبين عن كل من يوغسلافية والاممية الاشتراكية ، واعلمت الاممية الاشتراكية الآسيويين بان بركات عضو الوفد الاسرائيلي يمثلها فيما يتعلق بالمنشورات المشتركة التي تصدر عن المكتب .

وعلى الرغم من فشل الاسرائيليين في محاولتهم تحويل الحركة الاشتراكية الآسيوية عن مسألتين اساسيتين فانهم استطاعوا السيطرة على الحركة في السنوات القليلة التالية بفضل تفوق مواردهم المالية التي عاد استثمارها بمكاسب سياسية على شكل اتصالات سياسية مع بضعة بلدان آسيوية . وكانت تلك المكاسب مبررا قويا لذلك الاستثمار (١٢) .

لقد راينا تعليق هرتزل بقوله ان من الممكن بالتأكيد شراء الجمهوريات الاميركية اللاتينية . اما الاسرائيليون فلم يشتروا الحركة الاشتراكية الآسيوية تماما ولكنهم مولوا بلا شك الكثير من نشاطاتها . ولم يكن هذا مجرد دعم اخوي بدافع الشعور بالرفاهية الاشتراكية لان الاشتراكيين الاسرائيليين حاولوا في المؤتمر الاول في رانغون حمل الاشتراكيين الآسيويين على عمل شيء لا يرغبون فيه كما حاولوا في المؤتمر الثاني في بومباي حملهم على الا يعملوا شيئا كانوا يريدون فعله .

عقد المؤتمر الاشتراكي الآسيوي الثاني والاخير في اسوأ وقت بالنسبة للاسرائيليين. كان ذلك في ٣ تشرين الثاني ١٩٥٦ اي بعد بدء العدوان الثلاثي على مصر بأربعة ايام . وكان المندوبون في هذا المؤتمر على مستوى عال جدا الا ان مظهر الاهمية هذا كان زائفا تماما لان المؤتمر لم يحقق شيئا ذا قيمة عملية كبيرة . فقد ترأس وفد بورمة رئيس وزرائها كما تحدث رئيس وزراء سيلان امام المؤتمر . وكان على راس الوفد الاندونيسي رئيس وزراء سابق كما ترأس وفد اسرائيل شاريت للمرة الثانية وهو ايضا رئيس وزراء سابق . وحضر المؤتمر ايضا وفد يوغسلافي ونائب الرئيس النمساوي وعضو من الحزب الاشتراكي الشعبي في تشيلي . وحضر المؤتمر هذه المرة ممثل عربي واحد من الجزائر ، ربما لان أزمة السويس كانت في ذروتها خلال فترة انعقاد المؤتمر .

وقد شغلت هذه الازمة طبعا دورة انعقاد المؤتمر . ووردت في المسودة الاصلية التي وضعتها الهند وبورمة واندونيسية واليابان ادانة اسرائيل الى حد ان الوفد الاسرائيلي رفض تلك المسودة . فجاء الرفض الاسرائيلي بمثابة فيتو ليس فقط بسبب الرغبة في المحافظة على التضامن الاشتراكي بل ايضا لان المؤتمر الاشتراكي الآسيوي، في سنواته السابقة ، « اعتمد اعتمادا كبيرا جدا على الجانب الاسرائيلي (١٣) » ، فلم يعد الاشتراكيون الآسيويون يستطيعون الاساءة الى الاسرائيليين او طردهم . وعندما خففت لهجة المسودة وافق الاسرائيليون على الامتناع ، وامتنع الباكستانيون ايضا احتجاجا على التخفيف ، واعترض اليوغسلاف ايضا عليه بشدة .

ومع ان الحكومات الآسيوية وشعوبها أدانت المعتدين بشكل عفوي في عواصمها

---

١٢ ـ لقد اثبت R. Barkatt في محادثة مع كاتب هذا الكتاب جرت في القدس في تشرين الثاني من العام ١٩٦٦ ان اسرائيل مولت الى حد بعيد جدا المؤتمر الاشتراكي الآسيوي .

١٣ ـ س. روز ، المصدر السابق ، ص ٢٤٨

وفي الامم المتحدة ومن خلال المظاهرات التي خرجت الى الشوارع فان كل ما استطاع الاشتراكيون الآسيويون قوله هو : « على الرغم من التطورات السابقة فان المؤتمر يستنكر بشدة انتهاك القوات الاسرائيلية حرمة اراض مصرية واحتلالها ويطلب الى الحكومة الاسرائيلية سحب قواتها الى داخل حدودها » . وهكذا اصبح هجوم بلغ طوله ٣٠٠ ميل في الاراضي المصرية « انتهاكا لحرمتها » فاستوجب « الاستنكار » . وهذا دليل على سيطرة الاسرائيليين على الاشتراكيين الآسيويين .

وحاول الاسرائيليون تعزيز سيطرتهم باقتراح قرار حول التنظيم الحزبي ينص على اقامة مركز لتدريب الكوادر وانشاء صندوق خاص لتعزيز الاتصالات والتبادل بين الاعضاء . وأكد الوفد الاسرائيلي للمجتمعين الذين أبدوا ترددا وارتيابا بانه « يشعر بالثقة بان المال سيأتي من مصادر أخرى غير معينة (١٤) » . وقبل المشروع من حيث المبدأ لكنه انتهى الى نتيجة ضئيلة .

وبلغ النفوذ الاسرائيلي قمته ، الى حد السيطرة تقريبا ، في الحركة الاشتراكية الآسيوية في اجتماع لمكتب السكرتارية عقد في كاتمندو في نيسان ١٩٥٨ . وعلى الرغم من مضي ١٨ شهرا فقط على لزمة السويس فقد صدر قرار يحيي اسرائيل في الذكرى السنوية العاشرة لقيامها بينما رفضت جميع القرارات التي تحيي الجمهورية العربية المتحدة . ودعا قرار آخر الى اندماج اسرائيل في الشرق الاوسط ثم أدان بعض الجوانب السلبية في سياسة الجمهورية العربية المتحدة . وتقرر أيضا ارسال وفد الى الشرق الاوسط لدراسة الاوضاع هناك تحدد خطة رحلته وصلاحياته بالتشاور مع حزب الماباي الذي يمثل اسرائيل في الحركة الاشتراكية الآسيوية . وقبل ذلك طلبت باكستان في اجتماع مكتب السكرتارية طرد اسرائيل من الحركة فأيدتها يوغسلافية واليابان . الا انه عند نهاية الاجتماع تم ابعاد المراقب اليوغسلافي وصار الباكستانيون يتحدثون عن تسوية عربية — اسرائيلية ، يتضح من هذا ان الاسرائيليين استطاعوا حمل ثمانية احزاب اشتراكية على الاقل ممن حضروا الاجتماع على قول ما أراد الاسرائيليون لهم قوله بالضبط .

ربما ارتكب الاسرائيليون فيمؤتمر كاتمندو الخطأ الذي هممعرضون الى الوقوعفيه بصورة خاصة اذ انهم أخفقوا في تحقيق غايتهم نتيجة رغبتهم الشديدة في كسب أكثر مما ينبغي لان الموقف المتحيز الذي اتخذه المشتركون في المؤتمر من المسألة العربية الاسرائيلية لم يكن واقعيا لدرجة تثير الاستغراب والسخرية . ومهما كان السبب فان الاسرائيليين لم يستطيعوا في أية مناسبة أخرى بعد ذلك توجيه الاشتراكيين الآسيويين بمثل تلك الفعالية تماما . والحقيقة ان الحركة الاشتراكية الآسيوية اضمحلت تدريجيا مع انها حققت الهدف الاسرائيلي بتركها أثرا عاطفيا قويا مؤيدا لاسرائيل في موقف الاشتراكيين الآسيويين من غربي آسية .

وقامت اسرائيل باتصالات مع الاحزاب السياسية الآسيوية ليس فقط من خلال حزب الماباي المعتدل والاشتراكيين الآسيويين بل ايضا من خلال الاحزاب الاسرائيلية

---

١٤ — المصدر السابق ، ص ٢٥٣

الاقرب الى اليسار مثل أحدوت هاعفودا . ومن الغريب جدا ان أحدوت هاعفودا حاول اقامة علاقات مع حزب المؤتمر الهندي المعتدل . وتم التوصل بينهما الى اتفاق قليل الاهمية في العام ١٩٥٩ لم يؤد على ما يبدو الى اية نتيجة . واعرب بيغال الون ، ممثل أحدوت هاعفودا ونائب رئيسة الحكومة حاليا ، عن اسفه لان حزب المباي والهستدروت (اتحاد العمال) قاما باتصالات مع الحزب الاشتراكي الهندي الصغير والقليل الاهمية (١٥) . وقد اثبتت محاولة سابقة لاقامة جسور سياسية بواسطة اليساريين الاسرائيليين فشلها بشكل غريب . وفي نيسان ١٩٥٥ وقبل مؤتمر باندونغ مباشرة عقد اجتماع أفرو ـ آسيوي يساري منافسة له بصورة واضحة ، وادى الى بروز حركة التضامن الافرو ـ آسيوية . ومثل اسرائيل في هذا الاجتماع حزب المابام وحزب أحدوت هاعفودا والحزب الشيوعي ووافقوا موافقة واضحة على قرار يدين « السياسة العدوانية التي تمارسها الدوائر الحاكمة في اسرائيل » ، واعلن ان القرار اتخذ بالاجماع. الا ان هذه الاحزاب الثلاثة واجهت بسبب تلك الموافقة نقدا شديدا في اسرائيل مما قد يفسر عدم اجراء اي اتصالات اخرى بين اسرائيل وآسية على صعيد الاطراف اليسارية. وقد كان شيوعيو آسية « وتقدميوها » دائما معادين لاسرائيل بشدة على الصعيد الايديولوجي .

وبعد انفتاح ابواب بورمة امام اسرائيل في مؤتمر رانغون غطى النفوذ والتجارة والمساعدة الاسرائيلية ذلك البلد . ويترك ذلك انطباعا على ان اسرائيل كانت مصممة على جعل بورمة نموذجا عن مدى فائدة أقامة علاقات مع اسرائيل بالنسبة للبلدان الآسيوية . وبعد عشر سنوات من العام ١٩٥٣ (اي قبل قيام العلاقات الديبلوماسية بين اسرائيل وبورمه بعامين) تحققت بسرعة على كل صعيد وفي كل مجال اتصالات متنوعة تنوعا مذهلا . فذهب الى اسرائيل في زيارات وبعثات تدريبية سياسيون وموظفو دولة وضباط ورجال ونساء في القوات المسلحة وعمال اجتماعيون ومزارعون وفنيون واشخاص من الاتحادات العمالية وعمال صناعيون بورميون . وقامت اسرائيل بتطوير مليون فدان لزراعة الجوت والذرة وفول الصويا كما ساعدت في تخطيط الري في المناطق وفي استخدام النبات في صناعة الدواليب والزجاج والخزف والدهان ، ووافقت اسرائيل ايضا على القيام بمسح جيولوجي لبورمة وعلى اقامة خط مشترك للنقل البحري وايفاد الخبراء والاطباء والعلماء الى بورمة لتدريب الطلاب هناك . وتم بينهما اتفاق تجاري في العام ١٩٥٥ ينص على تبادل سنوي قيمته مليون دولار تقدم اسرائيل على اساسه بضائع اسرائيلية الصنع مقابل الحصول على الرز من بورمة . وباعت اسرائيل لبورمة صفقة من الطائرات المقاتلة القديمة ووافقت في العام ١٩٥٨ على تزويدها بمدافع البازوكا والهاون . وعلى الصعيد الشخصي كان يونو أول رئيس دولة يزور اسرائيل (تمت الزيارة في العام ١٩٥٥) حيث استقبل استقبالا حماسيا خاصة لانه الغى زيارة كان مقررا ان يقوم بها الى مصر بسبب انتقادها ذهابه الى اسرائيل ؛ ورد رئيس الدولة الاسرائيلي هذه الزيارة في العام ١٩٥٩ وبعد عامين تبعه في زيارة بورمه بن غوريون

---

١٥ ـ جيروساليم بوست ، ١٣ ـ ٧ ـ ١٩٥٩

تميز الفلسفة البوذية الذي قضى ثمانية ايام في التأمل في دير بوذي . وفور مغادرته الدير قام بزيارة الكنيس المحلي ولكن هذا لم يقلل من حدة انتقادات الاحزاب الدينية اليهودية له في اسرائيل ، تلك الاحزاب التي لم يهدئها ايضاحه أهمية بورمة الخاصة كمركز للبوذية التي تشكل « قوة روحية هائلة في آسية (١٦) » .

ومن اجل طمأنة العرب قام يونو بعد انتهاء زيارة بن جوريون بقليل بزيارة للقاهرة حيث حث في بيان مشترك مع الرئيس عبد الناصر على تسوية المسألة الفلسطينية على اساس ميثاق الامم المتحدة واستعادة حقوق الشعب العربي الفلسطيني كاملة . ولم يكن هذا ينسجم ومزاج اسرائيل اطلاقا خاصة وانه صادر عن افضل صديق آسيوي لاسرائيل في ذلك الوقت . ووصف بن جوريون انذاك ذلك بأنه « مفاجأة بغيضة » ثم قال فيما بعد ان عبد الناصر « خدع » يونو .

وسواء كان ذلك خدعة أم لا فقد كان غمامة في سماء الصداقة الاسرائيلية البورمية الصافية .

ومن الناحية الزمنية كانت اليابان هي البلد الآسيوي التالي الذي حاولت اسرائيل مصادقته . وقد احتلت اليابان دور بورمة واصبحت الان افضل صديق آسيوي لاسرائيل .

وكانت اسرائيل من اوائل الدول التي اعربت عن استعدادها لاقامة علاقات دبلوماسية مع اليابان قبل توقيع معاهدة السلام في سان فرانسيسكو في ايلول ١٩٥١ ، « خاصة وأن ايا من الدول العربية لم تتحرك نحو البدء بأي نشاط لها في اليابان . والواضح انه كان من الاسهل ايضا التعامل معاليابان لانه لا يوجد فيها مسلمون (١٧) » . وفي نهاية العام ١٩٥٢ اقيمت مفوضية اسرائيلية في اليابان التي لم تقم بالمثل الا بعد ما يزيد على العامين .

وكانت المبادلات التجارية مع اليابان من الاهداف الاسرائيلية الرئيسية . وقد بلغت قيمة التجارة بينهما في العام ١٩٦٥ حوالي ٥٠ مليون دولار .

وربما ادهش الاسرائيليين تفوق العلاقات الثقافية أهمية على العلاقات التجارية تقريبا بينهم وبين اليابان . وحدث هذا التطور الى حد بعيد جدا نتيجة لنفوذ الامير ميكاسا ، أحد أشقاء الامبراطور الصغار وهو استاذ جامعي مختص في اللغة العبرية وتاريخ التوراة . وهناك الان « جمعية الصداقة اليابانية ــ الاسرائيلية » التي تصدر مجلة خاصة بها ، وهناك ايضا « منظمة رعاية النساء الاسرائيلية اليابانية » « ومركز الجالية اليهودية » في طوكيو وجماعة صغيرة من اليابانيين الذين يعتنقون اليهودية . واغرب شيء هو « جمعية الكيبوتز اليابانية » التي اوفدت مئتي شاب ياباني الى اسرائيل لدراسة حركة الكيبوتز . وقد أقيمت ايضا روابط بين الاتحادات العمالية والاحزاب الاشتراكية في البلدين .

---

١٦ ــ وردت التفاصيل الكاملة للمبادلات الاسرائيلية ــ البورمية في المصادر التالية : M. Medzini المصدر السابق ، ص ٦٣ ــ ٧١ ، R. J. Kozichi ، « بورمة واسرائيل : دراسة في العلاقات الاسيوية الودية » ، شؤون الشرق الاوسط ، نيويورك ، آذار ١٩٥٩ ، والجيروساليم بوست ، خاصة في شهري ايلول وتشرين الاول ١٩٦١ .

١٧ ــ M. Medzini ، المصدر السابق ، ص ٥٧ .

أما الفيليبين فهي البلد الاسيوي الوحيد الذي تربطه باسرائيل معاهدة صداقة ، وقد وقع المعاهدة الرئيس غارشيه في شباط ١٩٥٧ ثم أرسلت الى مجلس الشيوخ ليقرها . وبسبب طلبات زعماء الطائفة الاسلامية في الفيليبين تأخر التوقيع النهائي على المعاهدة بين الطرفين المتعاقدين مدة تزيد على السنة . وعلى الرغم من هذه المعاهدة فان العلاقات بين البلدين ، مع انها علاقات وئام ، لا تصل الى المستوى الذي بلغته العلاقات بين اسرائيل وبلدان آسيوية اخرى . وقد قدمت اسرائيل عددا معينا من خبراء الري وحفظ التربة والارشاد الزراعي العام الى الفيليبين .

نشطت علاقات اسرائيل وازدهرت مع تايلاند وكمبودية ولاوس في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات . فقد أقام الخبراء الاسرائيليون في تايلاند مزرعة نموذجية قرب بانكوك بالاضافة الى برامج تدريبية في التعاون والتطوير الاجتماعي والادارة المحلية ، كما انشأت ايضا مزارع تجريبية في لاوس وكمبودية . وارسلت اسرائيل خبراء في شؤون الريف الى كمبودية للعمل في وزارتي التجارة والصناعة وفي البنك الوطني وفي الحركة التعاونية وفي حقل السياحة . وبالاضافة الى مسح الموارد الطبيعية في كمبوديا تشارك اسرائيل في مشاريع تجارية لانتاج المشروبات الخفيفة والملح والتبغ . ويعمل الخبراء الاسرائيليون ايضا في مشروع وادي الميكونغ خاصة في المناطق الكمبودية واللاوسية .

وكانت الاشتراكية هي الصلة التي تربط بين اسرائيل ونيبال اللتين تطورت العلاقات بينهما بسرعة بعد اعتراف الثانية بالاولى عام ١٩٦٠ . وقد أرسل الخبراء الاسرائيليون الى نيبال للتوجيه والتدريب في مواضيع مثل التعاون والارصاد الجوية والحرف اليدوية . وتعهدت شركة بناء نيبالية ــ اسرائيلية بانشاء المدارس وكلية وفندق ومطار كاتمندو ويقوم الاسرائيليون ايضا بمشروع لازالة الغابات ومشروعي اسكان كل واحد منهما لايواء الف عائلة هذا وقد تلقى مظليون نيباليون تدريبهم في اسرائيل (١٨) .

اثبتت العلاقات الاقتصادية على ما يبدو انها اشد الروابط أثرا بين اسرائيل وأحدث صديق آسيوي لها ، أعني سنغافورة . وقد توجهت هذه الجمهورية التي تقوم على جزيرة صغيرة الى اسرائيل من اجل أن تزودها هذه ببعثة عسكرية لتدريب قواتها المسلحة .

وبما أن عدد الخبراء الذين تستطيع اسرائيل ارسالهم الى الخارج محدود بالضرورة فانها تستطيع أن تدرب على أرضها عددا من الفنيين الافرو ــ آسيويين يفوق كثيرا عدد الذين تستطيع تدريبهم في الخارج . ففي العام ١٩٦٥ قدر عدد الاشخاص الذين يتدربون في اسرائيل في أي وقت من الاوقات بحوالي ٣٠٠٠ شخص ، وهذا رقم مدهش بالنسبة لصغر حجم اسرائيل .

أما الهيئة التي تنسق معظم البرامج التدريبية فهي المعهد الافرو ــ آسيوي للعمل والاقتصاد والتعاون الذي بدأ عمله في تل ابيب في العام ١٩٦٠ . وبغض النظر

---

١٨ ــ المصدر نفسه ، ص ١٠٤ ــ ١٢٠ . وايضا المعلومات المقدمة من وزارة الشؤون الخارجية الاسرائيلية .

عن التنسيق فان المعهد نفسه يقدم دورات تدريبية مدة كل منها ستة شهور في مجالات التعاون وتنظيم الاتحادات العمالية . وفي العام ١٩٦٥ بلغ عدد المتدربين ٨٧٥ شخصا قدموا من ٦٢ بلدا وحضروا عشر دورات دولية وخمس عشرة حلقة دراسية في المعهد .

أصبح المعهد الافرو ــ آسيوي مفخرة اسرائيلية مع أنه في الحقيقة نتيجة للجهد الاميركي ــ الاسرائيلي المشترك . ولم تكن الاموال الضرورية لادارة المعهد متوفرة لدى اسرائيل نفسها ، وهكذا « تقرر أن يقام المعهد ويدار بالتعاون بين الهستدروت وحركة النقابات العمالية في الولايات المتحدة واختير السيد جورج ميني ، رئيس مجلس اتحاد العمل الاميركي ومؤتمر المنظمات الصناعية ليكون واحدا من الرؤساء المساعدين ويضم مجلس المعهد عددا من الاكاديميين الاسرائيليين البارزين ... وكذلك السيد والتر رويثر وغيره من الزعماء النقابيين الاميركيين (١٩)».

ولدينا هنا أيضا اتفاق مصلحي لكنه ، هذه المرة ، على الصعيد شبه الرسمي بين اسرائيل وبلد غربي . بعد الحرب العالمية الثانية كان زعماء الحركة النقابية الاميركية المتفتحين ذهنيا على العالم قلقين جدا من امكانية وقوع اتحادات العمال الاوروبية ثم اتحادات العمال في العالم الثالث تحت السيطرة الشيوعية . وهنا تبرز الفائدة الهائلة للتدريب النقابي الذي تقدمه اسرائيل فهي ليست في آسية فحسب بل هي غير شيوعية وتتظاهر بالاشتراكية . ان الافكار التي تقدمها اسرائيل ومعهدها الافرو ــ آسيوي جذابة من وجهة النظر الافرو ــ آسيوية ومأمونة تماما من وجهة النظر الاميركية .

وهكذا لعبت اسرائيل حتى في برنامج المساعدة الخيري الذي تقوم فيه بدور الرفيق المساعد للغرب عن قصد ودراية . ولم يكن هذا ، كما سنرى فيما بعد ، المثل الوحيد على مساعدة اسرائيل لافرو ــ آسية وللغرب في آن معا .

عملت اسرائيل جهدها من أجل الحفاظ على علاقاتها الاسيوية في حالة جيدة عن طريق تبادل الزيارات بين اصحاب المراكز المرموقة في كل من اسرائيل والبلدان الاسيوية . فقد دعي ملك نيبال ورئيس وزرائها ورؤساء وزراء بورمة المتتابعين لزيارة اسرائيل . وقام رئيس الدولة الاسرائيلي بزيارة كل من بورمة ونيبال ، كما قام شاريت بجولة في جنوبي وشرقي آسية في العام ١٩٥٦ تلتها جولات مشابهة قامت بها وزيرة خارجية اسرائيل جولدا مئير في العام ١٩٦٢ ووزير الخارجية أبا ايبان في العام ١٩٦٧ . وذلك مرده جزئيا الى الضغط الاميركي ، هذه حقيقة لا ريب فيها لان اميركة حاولت أكثر من مرة وفشلت في ممارسة الضغط على الهند لحملها على اقامة علاقات صداقة مع اسرائيل . وهناك خمس دول آسيوية على الاقل عرضة للضغط الاميركي هي تركية وايران وتايلاند والفيليبين واليابان . ولكن ذلك ما هو الا جزء فقط مما يفسر نجاح اسرائيل . الا أن اسرائيل تستطيع تقديم المشورة الفنية ، ويختلط خبراؤها بسكان البلاد التي يجعل صغر حجمها الدعم فوق الشك في الظاهر . والواقع أن اسرائيل جعلت من صغر حجمها حجة في اغراء واستجلاب بلدان صغيرة أخرى مثل نيبال

١٩ ــ New Outlook تل أبيب ، المجلد الرابع ، العدد الثالث ، كانون الثاني ١٩٦١ ، ص ٦٠ ــ ٦١ .

وكمبودية ولاوس وسنغافورة . وقد ساعدتها روابط الاشتراكية في نيبال وبورمة واليابان وسنغافورة . واستخدمت اسرائيل في علاقاتها مع سنغافورة نقطة الشبه بينهما وهي انهما محاطتان ببلدان كل شعوبها معادية لهم مغايرة عرقا ودينا (الاسلام في الحالتين) . ويرى أحد المختصين بشؤون بورمة أن خضوع بورمة واسرائيل للحكم البريطاني في وقت ما ترك لهما ارثا مشتركا في « طرائف الادارة والوسائل التربوية وتنظيم الخدمات »(٢٠) وهذا ما يفسر جزئيا « العطف الغريب » المتبادل بينهما . وتسعى اسرائيل الى اقامة الشبه بينها وبين اليابان على اسس اقتصادية وذلك بقولها ان البلدين يعملان بجد وكدح ويتمتعان بمعدل عال من النمو وحجم مرتفع من الصادرات (٢١) . واعتبرت اسرائيل البوذية اساسا ملائما للصداقة مع بورمة ، وقيل عن جنوب شرقي آسية : « ان اللطف والمسالمة البوذيين والخلفية الحضارية الفرنسية تؤدي الى فهم متطور وأفضل لمخططات اسرائيل ومشاكلها (٢٢) » .

وعلى الرغم من أن مساعي اسرائيل لكسب صداقات آسيوية تعددت جوانبها وتمت بذكاء ونشاط فان محاولاتها اختراق عزلتها في غربي آسية حققت نجاحا جزئيا فقط لان اسرائيل لم تستطع فتح طريق لنفسها الى الدول الاسلامية غير العربية (باستثناء ايران وتركية) ولا الى الصين والهند ، وابدى حتى بعض اصدقائها ترددا

ان ما حرم اسرائيل من اي اساس صلب للصداقة مع آسية هو حقيقة وقوفها الى جانب الغرب ضد آسية في المسائل السياسية الرئيسية التي ملكت على القارة عقلها ومشاعرها . والقى هذا الاختلاف حول الاساسيات بالشك حتى على برنامج المساعدة الاسرائيلي .

الاصوات والمواقف المؤيدة للاستعمار

ليس من غير المألوف بالمرة في عالم اليوم القاسي والرهيب ان تقدم حكومة ما عونا لحكومة أخرى لا تعطف عليها عطفا حقيقيا بل وتفتقد مثل هذه العاطفة لدرجة انها تحاول اسقاطها ان المصلحة القومية تغلب عادة على الصداقة وتتجاوز الايديولوجية . وهكذا نرى الدول الشيوعية تقدم المعونة بما فيها السلاح الى انظمة حكم ملكية اقطاعية او الى حكومات عسكرية يمينية ، وتسعى هذه الانظمة بدورها وراء تلك المساعدة في الوقت الذي يعمل فيه كل من الطرفين جهده لمنع انتشار مبادىء الطرف الاخر ان لم يكن للقضاء عليها .

وتحاول الدول الشيوعية الفصل ، على الاقل ، بين مساعدة نظام ما والعمل على تدميره ، وليس هذا الفصل دائما فصلا محكما ، فالمساعدة تعتبر أمرا بين الدول بينما تدمير الانظمة (قلبها أو اسقاطها) هو مهمة الحزب الشيوعي المحلي أو الدولي . وبذلك يخف التناقض بين مساعدة النظام ومحاربته .

---

٢٠ ــ هـ. تنكر ، اتحاد بورمة ، اكسفورد ، ١٩٦١ ، ص ٣٦١ . وايضا W. C. Johnstone سياسة بورمة الخارجية ، هارفارد ، ١٩٦٣ .

٢١ ــ Japan Times طوكيو ، ١٥ ــ ٥ ــ ١٩٦٧ .

٢٢ ــ جيروساليم بوست ، ٦ ــ ١ ــ ١٩٥٧

أما في علاقة اسرائيل بالبلدان الاسيوية فلا يوجد مثل ذلك التخفيف في التناقض : فالحكومة الاسرائيلية التي تقدم المساعدة تقوم هي نفسها بمقاومة الافرو ــ آسيويين في قضايا القضاء على الاستعمار والحرب الباردة والتمييز العنصري ونزع السلاح ، اي في كل قضية دولية رئيسية تتعلق بالافرو ــ آسيويين . ويجب ان نلاحظ ان الكتلة الشيوعية تدعم الافرو ــ آسيويين في جميع هذه القضايا

لا تملك حتى الدول الامبريالية السابقة ولا حتى أميركة الراسمالية سجلا ثابت العداء للافرو ــ آسيويين مثل سجل اسرائيل

ان البلدان الوحيدة التي تتمتع بسجل مشابه لسجل اسرائيل في التصويت في الامم المتحدة هي جنوبي افريقية والبرتغال وبعض البلدان الصغيرة ذات الانظمة العسكرية الاميل الى اليمين في اميركة اللاتينية .

الا أن جنوبي افريقية والبرتغال وهذه البلدان الاميركية اللاتينية لا تقوم بتقديم المساعدات الى أفرو ــ آسية وان فعلت فان الافرو ــ آسيويين يرفضونها بسخط ونقمة أما المساعدة الاسرائيلية فلا تقابل بالرفض نتيجة لعامل عملي ودعائي . الاعتبار العملي هو أن افرو ــ آسية بحاجة الى مساعدة ، والاعتبار الدعائي هو مقدرة اسرائيل ليس على التقليل من أهمية سجلها المؤيد للاستعمار فحسب بل ايضا على اعطاء الانطباع بأن برنامج المساعدة الذي تقوم به له من الدوافع انبلها .

لقد رأينا ان الحركة الصهيونية بيهودها وأمميها توقعت منذ وقت مبكر جدا من تاريخها ان تلعب الدولة اليهودية في فلسطين دورا من نوع الوساطة بين الشرق والغرب أي أن تكون جسرا بين أوروبة وآسية . ورأينا ايضا أن بضعة زعماء صهيونيين فسروا هذا الدور على انه حمل « المدنية » الاوروبية الى الشرق « البربري » على يد اليهود . ولكن هذه الالفاظ لم تعد تستعمل بعد قيام اسرائيل في عصر ما بعد الاستعمار . ويقال ان اسرائيل جسر بين البلدان المتقدمة والبلدان النامية ، بين أوروبة المتقدمة تكنولوجيا وأفرو ــ آسية الاقل تقدما تكنولوجيا ، وهكذا يجعلون من خلفية اسرائيل الاوروبية فائدة ايجابية لافرو ــ آسية وليس عائقا في طريقها .

وعلى حد قول بن جوريون : « تعتبر اسرائيل أنه امتياز تاريخي لها وبالتالي واجب عليها أن تساعد الشعوب المتحررة حديثا (٢٣) » . وكل اسرائيلي له علاقة ببرنامج المساعدة يردد هذه الكلمات العاطفية . وتوجد في هذه التصريحات الاسرائيلية عادة نغمة ، وان كانت متغيرة ، تتميز بروح الرعاية ، الا أننا اذا تركنا ذلك جانبا نجد صورة محدثة ومعلمنة لخرافة الشعب المختار القديمة ، ذلك الشعب الذي له « رسالة » خاصة يؤديها في العالم . أما الان فلم تعد الحقيقة الدينية التي تنادي بالوحدانية هي رسالة اسرائيل انما هي الحقائق العلمية للتقدم التكنولوجي ، واسرائيل بصفتها البلد الوحيد لاناس اوروبيين في آسية ، فهي مؤهلة بصورة فريدة لحمل الرسالة الجديدة الى العالم الثالث .

يبدو أن الافرو ــ آسيويين قد قبلوا بهذا الدافع الرفيع تعليلا لبرنامج المساعدة

---

٢٣ ــ م. بيرلمان ، بن غوريون ينظر الى الوراء ، لندن ، ١٩٦٥ ، ص ١٧٩

الاسرائيلي لانهم لا يشعرون بالريبة وتأنيب الضمير في قبول مساعدة اسرائيل رغم الموقف الاسرائيلي المعادي تماما لافرو ـ آسية في الامم المتحدة . ولكن لماذا تريد اسرائيل ، وهذا موقفها ، ان تساعد بلدانا هي على خلاف معها بالاساس ؟ من الواضح انذلك لا يعود الىالشعور برسالة الايثار علىالنفس،بللانالمساعدة تفيد،كأداةسياسية في كسب صداقة المعارضين الافرو ـ آسيويين . ويصح القول على الحكومات مثلما يصح على الافراد بأن المساعدة تقدم الى الاصدقاء بدافع المحبة وانها قد تعطى لمن تكره لاخفاء حقيقة الكراهية أو للحيلولة دون تبادل الكراهية . ولا شيء غير هذا يفسر التناقض الحاد بين مساعدة اسرائيل لافرو ـ آسية اقتصاديا ومقاومتها لها سياسيا .

من الواضح أن بن جوريون قصد ، عندما تحدث عن امتياز اسرائيل وواجبها في « مساعدة الشعوب المتحررة حديثا » ، المساعدة الاقتصادية فقط لان اسرائيل بذلت جهدها في الامم المتحدة للحيلولة دون حصول كثير من الشعوب الافرو ـ آسيوية على حريتها .

كانت أول مسألة كبرى في القضاء على الاستعمار واجهتها الامم المتحدة هي نضال الاندونيسيين ضد هولندة ، وقد اثارت هذه المسألة آسية بأسرها مما حمل نهرو على الدعوة الى عقد مؤتمر آسيوي خاص في دلهي في كانون الثاني ١٩٤٩ للنظر فيها . الا أنه بسبب « العلاقات التقليدية الطيبة بين الهولنديين والشعب اليهودي والموقف الباسل الذي وقفه الهولنديون أثناء الحرب العالمية الثانية بحيث ساعد كثيرون منهم اليهود معرضين بذلك حياتهم للخطر » ... « فضلت اسرائيل الامتناع عن المشاركة في النقاش الحاد حول المسألة الاندونيسية (٢٤) » . وامتنعت اسرائيل ايضا عن المشاركة في القرار الافرو ـ آسيوي الذي يدعم اندونيسية في قضية ايريان الغربية . لقد وجدت اسرائيل نفسها في مأزق صعب بسبب ارتباطها التاريخي بأوروبة وبسبب دورها تجاه يهود العالم . ان طبيعة الدولة اليهودية في حد ذاتها وهي أنها في آسية وليست منها جعلها تضحي بالتضامن الاسرائيلي مع حركات التحرر الوطني الاسيوية مقابل ضمان ارتباطها الوثيق والشديد بأوروبة وبمصالح الطوائف اليهودية في « الشتات » .

الا ان الاعتبار الثاني هو الذي حمل اسرائيل على الامتناع مدة ١٢ سنة عن ادانة سياسة التفرقة العنصرية التي تنتهجها جنوبي افريقية : فحتى ذكريات اليهود عن الاضطهاد العنصري لم تغلب على اعتبار مصالح الطائفة اليهودية الكبيرة التي تتمتع بأحوال مزدهرة جدا في جنوبي افريقية . ان رغبة الحكومة الاسرائيلية الشديدة وحدها في كسب الدول الافريقية الجديدة اجبرتها على التحول عن الامتناع الى ادانة التفرقة العنصرية التي كانت ، مع ذلك ، تلقى نقدا كبيرا في اسرائيل .

عارض الصهيونيون مبدأ تقرير المصير في العشرينات والثلاثينات في فلسطين ، ولكن ربما كان متوقعا أن يقبلوا به بعد قيام اسرائيل لانه لم يعد يشكل خطرا على الطائفة اليهودية . الا أنه من الواضح انهم لا يؤمنون بالمخاطرة باي شكل من الاشكال لان اسرائيل كانت واحدة من الدول الست التي امتنعت عن التصويت في العام ١٩٥٢

---

٢٤ ـ Medzini ، المصدر السابق ، ص ٧٥ ، ٧٧ .

عندما تبنت الجمعية العامة للامم المتحدة قرارا يؤيد مبدأ حق الشعوب في تقرير مصير (ايدت القرار اربعون دولة وعارضته اربع عشرة دولة اخرى) .

لم يقبل الصهيونيون قبل العام ١٩٤٧ مبدأ الصوت الواحد للشخص الواحد ولا يزالون يعارضونه حتى اليوم . ففي الجلسة السادسة عشرة للجمعية العامة التي انعقدت في العام ١٩٦١ امتنعت اسرائيل عن التصويت على قرار أفرو — آسيوي يدعو الى تطبيق هذا المبدأ الديمقراطي في روديسية الجنوبية .

وامتنعت اسرائيل كذلك عن التصويت على قرارات افرو — آسيوية أخرى تطالب بمنع استخدام الاسلحة النووية ووقف التجارب النووية وتجريد أفريقية من الذرة مما زاد مخاوف العرب من ان اسرائيل تعمل ذلك لاطلاق يدها في استعمال الاسلحة النووية التي يقال انها في طريق الصنع في مصنع اسرائيل النووي السري في ديمونة .

وعلى الرغم من ان اسرائيل ايدت فعلا القرارات المعادية للتفرقة العنصرية في جنوبي افريقية فانها تهزأ بالحظر الذي فرضته الامم المتحدة على التجارة مع جنوبي افريقية . والخطوط الجوية الاسرائيلية (العال) هي احدى الخطوط القلائل التي تصل الى جنوبي افريقية . ويأتي معظم الماس الذي يستخدم في صناعة الماس الاسرائيلية الهامة في جنوبي أفريقية .

ولسنا بحاجة للقول ان اسرائيل صوتت ضد كل القرارات الافرو — آسيوية المؤيدة لحركات التحرر في البلدان العربية في شمالي افريقية وهي المغرب والجزائر وتونس . ولم تظهر اسرائيل اي عطف حتى على الجزائريين الابطال ، فقد كانت فرنسة مورد الاسلحة الرئيسي لاسرائيل . ونتيجة لتلك المواقف الاسرائيلية في التصويت على القرارات الافرو — آسيوية تعرض اليهود في تلك البلدان الثلاثة للخطر . ولكن بينما وضعت اسرائيل يهود هولندة أو جنوبي افريقية فوق القوميين الاندونيسيين أو الافارقة وضعت فرنسة فوق يهود شمالي افريقية .

لقد تم تحليل سجل تصويت اسرائيل في الجمعيتين العامتين الخامسة عشرة (١٩٦١) والسادسة عشرة (١٩٦١ — ١٩٦٢) (٢٥) . ويظهر هذا التحليل أن اسرائيل تشغل المرتبة العليا الثانية فيتشابه تصويتها بتصويتالولايات المتحدة من بين كافة بلدان الشرق الاوسط وشمالي أفريقية (اذ تشغل تركية المرتبة العليا الاولى) ، واصوات اسرائيل ، من بين جميع هذه البلدان ، هي الاقل اتفاقا مع الكتلة الشيوعية ، وهي اقل بلد ان لم تكن ثاني اقل بلد (بعد تركية) في التصويت مع المجموعات الافرو — آسيوية : ففي الجلسة الخامسة عشرة صوتت اسرائيل ٦٩ مرة (في ١٤٥ اقتراع) مع الافرو — آسيويين (صوتت تركية ٨١ مرة) ، وفي الجلسة السادسة عشرة صوتت ٥٩ مرة في ١٢٥ اقتراع (صوتت تركية ٥٥ مرة) .

لا يمكن ان يكون هناك اثبات أكثر وضوحا وحسما على مدى بعد مصالح اسرائيل السياسية عن الافرو — آسيويين .

ويظهر برنامج المساعدة الاسرائيلي الى افرو — آسية أمام هذه الخلفية من

٢٥ — سجل الشرق الاوسط ، The Reuven Shiloah Research Center ، جامعة تل ابيب ، المجلدان الاول والثاني ، ١٩٦٠ ، ١٩٦١ .

الحقائق لا « كواجب » أو « رسالة » بل كثمن لمواطن النقص السياسية .
بلغ التنافر بين المصالح الاسرائيلية والمصالح الافرو — آسيوية في الامم المتحدة حدا صارت اسرائيل معه تعتبر هزيمة الافرو — آسيويين نصرا لها . فقد قال يزهار هراري ، عضو الكنيست وعضو الوفد الاسرائيلي الى الامم المتحدة ، بعد مؤتمر باندونغ « كان اهم تطور في صالحنا هو هزيمة بلدان مؤتمر باندونغ عمليا في كل قضية طرحوها امام الجمعية العامة (٢٦) » . وقد بقي ذلك صحيحا بالنسبة لاجتماعات الجمعية العامة التالية .

ولم تتردد اسرائيل حتى حول مسائل تتعلق ببلدان آسيوية معينة في اتخاذ مواقف مؤيدة للاستعمار عندما نجد أن ذلك يتفق ومصالحها . ومن الواضح انه بعد أن يئست الصحافة الاسرائيلية من كسب صداقة الهند لم تستطع أن توافق بأي شكل من الاشكال على سيطرة الهند عسكريا على غوا في كانون الاول ١٩٦١ . ومهما كان رأي بقية العالم في هذا العمل فقد اكتسب شعبية هائلة في سائر أرجاء أفرو — آسية . ولكن اسرائيل لم تشارك الافرو — آسيويين شعورهم هذا وكان موقف الصحافة الاسرائيلية ملتبسا حول جوهر المسالة ولكنها لامت الهند متهمة اياها بالنفاق وازدواجية المقاييس . (وكشفت الصحافة الاسرائيلية فيما بعد أن اسرائيل كانت تبيع أسلحة خفيفة الى البرتغال التي استعملتها بالتاكيد ضد المقاتلين من أجل الحرية في انغولا وموزمبيق) . وعندما هاجمت الصين الهند في تشرين الاول ١٩٦٢ نالت الهند عطف بلدان كثيرة بما فيها روسية . وكل ما فعلته الصحافة الاسرائيلية هذه المرة ايضا هو انها اتهمت الهند بازدواجية المقاييس .
وعلى الرغم من أصوات اسرائيل ومواقفها المؤيدة للاستعمار فانها لا تزال تحتفظ ببعض الاصدقاء الافرو — آسيويين . الا انه لا يمكن رد هذا الى برنامج المساعدة الاسرائيلي . وهنا لدينا دليل على قوة الدعاية الاسرائيلية وعلى مقدرتها في تصوير الخرافة أو بالاحرى الخرافات الاسرائيلية وكأنها حقيقية . ولم تظهر هذه القدرة على الاقناع بوضوح في أية مناسبة اكثر مما ظهرت عندما غفرت أفرو — آسية عموما لاسرائيل تواطؤها الصارخ مع فرنسة وبريطانية في غزو مصر في العام ١٩٥٦

التواطؤ في ازمة السويس

اصبحت الان معروفة كل قصة التواطؤ الوثيق والمنسق بين اسرائيل وفرنسة وبريطانية في هجومهم على مصر في تشرين الاول — تشرين الثاني ١٩٥٦ (٢٧) .
من الواضح جيدا الان أنه لولا الدعم العسكري الفرنسي والبريطاني لما قامت اسرائيل بهجومها الشامل عبر سيناء . وواضح ايضا انه لولا التواطؤ العسكري الاسرائيلي مع فرنسة وبريطانية لما قامت الدولتان الاخيرتان بالهجوم .

---

٢٦ — جيروساليم بوست ، ٢١ — ١ — ١٩٥٦
٢٧ — يقدم بار زوهار اكمل رواية موثوقة عن حادثة السويس في سيرة بن جوريون الرسمية ، النبي المسلح. وفيما يلي اكثر المصادر كشفا عن ازمة السويس: ت. روبرتسون Crisis, the Inside Story, of the Suez Conspiracy لندن ، ١٩٦٤ ، و ا. ناتنغ No End af A lesson, ، لندن ، ١٩٦٧ ،

اما الذي لا يزال غير محدد بصورة مطلقة فهو ما اذا اتخذت اسرائيل المبادرة بالطلب الى فرنسة الاشتراك في الهجوم أم ان المبادرة جاءت من فرنسة . ولا يوضح أنتوني ناتنغ هذه النقطة (٢٨). اما روبرتسون فيرى ان اسرائيل اتخذت الخطوة الاولى في ٢٣ ايلول ١٩٥٦ عندما ذهب الجنرال دايان الى باريس حاملا معه « دعوة صريحة الى فرنسة لتساعد اسرائيل على خوض حرب دفاعية » ، ثم يضيف « لقد سعت اسرائيل وراء المساعدة فوجدتها وصارت تفكر بحرب رادعة (٢٩) » . اما بار زوهر فيعزو الخطوة الاولى الى الفرنسيين الذين سألوا بيريس (عن وزارة الدفاع الاسرائيلية) في أوائل آب : « اذا قمنا بالحرب على مصر هل تكون اسرائيل على استعداد للقتال الى جانبنا » ؟ أجاب بيريس بدون تردد : « نعم » . ولكن هذا جواب على سؤال شرطي فقط .ويوافق بار زوهر روبرتسون في رايه بأن القرار الحاسم لم يتخذه أي زعيم فرنسي بل بن جوريون وذلك في برقية بعث بها الى بيريس عندما كان في باريس « في أواخر ايلول » « مما أدخل تحولا جديدا على المسألة برمتها . لقد اصبحت اسرائيل رسميا طرفا فيها (٣٠) » .

ويؤكد بار زوهر بشدة اكثر ايضا انه كائنا من كان الذي اتخذ الخطوة الاولى فان القرار الحاسم والنهائي اعتمد على بن جوريون : « كان (بن جوريون) في مركز قوي جدا . فقد اعتمد عليه ، على قراره ، ما اذا كانت ستقع حرب السويس أم لا . وهكذا استطاع أن يملي شروطه (٣١) » .

وفي المؤتمر السري الذي عقد في سيفر في ٢٢ تشرين الاول املى بن جوريون شروطه ثمنا للدور الذي ستلعبه اسرائيل كذريعة لفرنسة وبريطانية ، وقبلت الشروط الاسرائيلية خطيا ، فاتخذ بذلك القرار القاضي بشن حرب السويس .

اذا قورن التواطؤ الذي تجسد في معاهدة سيفر التي عقدت عام ١٩٥٦ بالتواطؤ الذي تم في ميثاق العام ١٩١٧ فان تواطؤ ١٩١٧ يبدو لعبة صبيانية . الا انه لولا تصريح بلفور لما كانت حرب السويس لان أحد بنود الاتفاقية الاولى ينص على حماية المصالح البريطانية في منطقة قناة السويس بواسطة دولة يهودية . وبعد ذلك بتسع وثلاثين سنة وفي ظروف مختلفة جدا قامت الدولة اليهودية بما استطاعت القيام به من أجل تقديم تلك الحماية ولكنها فشلت .

واذا فشلت المؤامرة الثلاثية في انتزاع السيطرة على قناة السويس من مصر فان ذلك يرجع ، الى حد بعيد ، الى احتجاجات بلدان العالم الثالث الصريحة والقوية جدا .

ومع ذلك استهدفت تلك الاحتجاجات الفرنسيين والبريطانيين اكثر من الاسرائيليين . وقد اعطى زعيم اشتراكي هندي صورة صحيحة لما حدث بايجاز : « على الرغم من أن اسرائيل بدأت الهجوم (على السويس) فانها لم تخسر باي شكل من الاشكال بل ، على العكس ، تعززت على الصعيد الدولي فكرة أن الدولة اليهودية

---

٢٨ — نتينغ ، المصدر السابق ، ص ٥٧
٢٩ — روبرتسون ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٧
٣٠ — بار زوهار ، المصدر السابق ، ص ٢١٩ ، ٢٢١ .
٣١ — المصدر نفسه ، ص ٢٢٥

وجدت لتبقى (٣٢) » .

لقد رأينا كيف ان الاشتراكيين الاسيويين لم يقولوا شيئا في المؤتمر الذي عقدوه في بومباي ابان أزمة السويس اكثر من انهم « يستنكرون » « انتهاك » القوات الاسرائيلية حرمة الاراضي المصرية . ولكنهم عندما انتقلوا الى بريطانية وفرنسة انتقدوا بعنف « التدخل السخيف الذي لا مبرر له » « والعدوان على مصر » بطريقة هي « انتهاك صارخ للسلم (٣٣) » وهذا افضل مثال على ازدواجية المقاييس في الحكم على الامور .

ولم تقف كل الحكومات الاسيوية وقوفا تاما الى جانب مصر في المسائل القانونية الناجمة عن تأميم القناة . ففي مؤتمر قناة السويس الذي عقد في آب ١٩٥٦ صوتت خمسة بلدان آسيوية ، هي باكستان وتركية واليابان والحبشة وايران (وجميعها حلفاء عسكريون للدول الغربية) ، مع القرار الغربي الذي يقول باقناع مصر بقبول رقابة دولية على القناة ، وقد نالت مصر تأييد ثلاثة بلدان هي الهند واندونيسية وسيلان .

وبالطبع ما أن بدا الهجوم العسكري على مصر حتى ازداد التأييد لها ولكن على شكل تهجمات على بريطانية وفرنسة لا على اسرائيل . يصح هذا على الصحافة في كل من الهند واليابان . وفي اجتماع عام دعي اليه حزب المؤتمر في دلهي تحدث زعيم الحزب دون أن يذكر اسرائيل وانتقد بشدة كلا من بريطانية وفرنسة فقط . ونفى السيد سي. رجاغوبالاشاري ، وهو شخصية وطنية هندية بارزة ، أن يكون هناك تواطؤ وطالب بضمان دولي لحدود اسرائيل .

هناك بضعة أسباب لهذا الانحراف الغريب في التهجمات الافرو — آسيوية التي ادانت العدوان . كانت المسألة من جهة مسألة عادة : فقد كان مألوفا أن يظن الناس اسوأ الظن بالامبرياليين السابقين وان يقولوا اسوأ القول فيهم ، وهذا ما حدث بالنسبة للموقف من عدوان السويس ومن جهة أخرى كانت هناك مسألة الحجم بدت اسرائيل عنصرا صغيرا بالمقارنة مع بريطانية وفرنسة ، ولذلك اعتقد أنه اذا كانت شريكا فقد كانت شريكا صغيرا جدا . ومن جهة ثالثة ، كانت المسألة مسألة نقص في المعلومات: فبعد مضي بعض الوقت فقط أصبح دور اسرائيل الرئيسي في المؤامرة معروفا الا أن النقمة كانت قد فترت عند انكشاف دور اسرائيل .

وهكذا لم يجر لوم اسرائيل لوما دائما بسبب الدور الذي لعبته في تقديم الذريعة او حتى في جر دولتين اوروبيتين فعلا الى مهاجمة دولة افرو — آسيوية . ورأى نهرو في عودة أوروبة الى غزو آسية من جديد رجوع التاريخ الى الوراء ، الا أن كثيرا من الافرو — آسيويين لم يشاركه تلك الرؤية التاريخية ، ومع ذلك لم يجرم نهرو اسرائيل بسبب الدور الذي لعبته .

والسخرية الاخيرة هي أن مسألة السويس لم تبعد افرو — آسية عن اسرائيل كما يجب وانما أبعدت اسرائيل بلا ريب عن العالم الثالث لان اسرائيل تخلت بعد العام

---

٣٢ — ج.ب. كريبالاين في مقدمة لكتاب ج. بلومنتال The Significance of Israeli Socialism. لندن ، ١٩٥٨ ، ص ٨ .

٣٣ — س. روز ، المصدر السابق ، ص ٢٤٩

١٩٥٦ عن كل زعم لها بالحياد وناضلت بشدة من اجل أن تجعل من نفسها رسميا وعلينا حليفا عسكريا للغرب .

اسرائيل تختار الغرب

كانت المحاولات التي قامت بها اسرائيل بعد العام ١٩٥٦ للاندماج في البنية العسكرية الغربية عبارة عن أحدث وربما انجح الجهود المتكررة التي بذلتها من اجل أن تصبح مركزا عسكريا أوروبيا متقدما . فقد حاولت اسرائيل منذ العام ١٩٥١ أن تقيم تحالفا عسكريا مع الولايات المتحدة وحدها ، وبعد ذلك مع بريطانية وحدها ، ومع كل من بريطانية وفرنسة معا ، ثم مع اميركة وبريطانية وفرنسة مجتمعة ، ثم مع حلف الاطلسي ، واخيرا مع ثلاثة من حلفاء الولايات المتحدة وهم الحبشة وايران وتركية بمباركة الولايات المتحدة وفرنسة . ويبدو من المعلومات المتوفرة ان المحاولة الاخيرة لاقت اكبر قدر من النجاح .

لقد نجحت الدولة اليهودية اخيرا في تحقيق اتفاق عملي ، ان لم يكن معاهدة دفاعية رسمية ، مع الولايات المتحدة ، ذلك حسب المعلومات غير المؤكدة ولكن وفقا لما يمكن تقديره من خلال التعاون الوثيق بينهما حاليا في المجالين الديبلوماسي والعسكري.

وليس من المدهش أن تحاول اسرائيل أن تصبح تابعا عسكريا للغرب — لان هذا كان حتميا — بل هو أن محاولاتها لم تلق نجاحا أكبر في وقت ابكر بكثير .

لقد ربط مجمل تاريخ الحركة الصهيونية اسرائيل ، بكتلة البلدان الغربية . وابعدها رفض الشيوعية لها عن الكتلة الشرقية . وعلى الرغم من دعم البلدان الشيوعية لخلق اسرائيل وتزويد تشيكوسلوفاكية لها بالسلاح في الوقت المناسب في العام ١٩٤٨ فقد ظل الصهيونيون والشيوعيون حذرين من بعضهما بعضا . كتب بار زوهار يقول : « لم تدم مغازلة (اسرائيل) للاتحاد السوفياتي اكثر من سنة ، اي سنة حرب الاستقلال (٣٤) » . ومع أن هذا تقييم مبالغ فيه للتغير في السياسة الشيوعية فانه مما لا شك فيه أن الدعم الشيوعي للصهيونية كان قصير الامد واستهدف ازالة الوجود البريطاني من فلسطين وبعد ذلك عاد الشيوعيون الى برودهم نحو الصهيونية واسرائيل .

لو تركنا جانبا كل الاعتبارات السياسية والتاريخية والثقافية والاجتماعية يبقى ان نذكر فقط مجموعة واحدة من الارقام لنبين ان اسرائيل لم تستطع ابدا أن تكون الا موالية للغرب . ففي الفترة ١٩٤٨ — ١٩٦٢ ، عندما ارتفع عدد سكان اسرائيل من ثلاثة أرباع المليون الى المليونين وثلث المليون نسمة، تلقت اسرائيل هبات من يهود اميركة بمقدار بليون دولار نقدا أو سلعا بالاضافة الى نصف بليون دولار ثمن سندات حكومية اسرائيلية وربع بليون دولار استثمرت في مشاريع داخل اسرائيل . وتلقت اسرائيل ايضا حتى الوقت الحاضر بليون ونصف بليون دولار على شكل تعويضات شخصية وثلاثة ارباع البليون على شكل تعويضات ايضا من المانية الغربية .

اذا اخذنا بعين الاعتبار اعتماد اسرائيل التام على هذه الصدقة الغربية الهائلة

---

٣٤ — بار زوهار ، المصدر السابق ، ص ١٨١ .

نجد انه من حسنات اسرائيل الى حد بعيد جدا انها حاولت لمدة سنتين (١٩٤٨ـــ١٩٥٠) أن تقوم « بمغامرة قصيرة في الحياد (٣٥) » . وتحت ضغط الحرب الكورية انتقلت اسرائيل من « الحياد » الى ما سمته « عدم الانتماء » . وعندما اشتد الضغط انتقلت من عدم الانتماء الى الانتماء الى الغرب . وايدت اسرائيل السياسة الاميركية في كورية تأييدا تاما .

ووفقا لما يقوله احد المدافعين الصهيونيين فانه « روي في كانون الاول ١٩٥٠ وتحت تأثير شبح الحرب الشاملة ان اسرائيل كانت تدرس امكانية اقامة تحالف مباشر مع الغرب (٣٦) » . الا أن ذلك « الشبح » لم يدفع ببلدان أخرى أكثر تعرضا للهجوم من اسرائيل الى أحضان الغرب ، لكنه دفع باسرائيل حقا الى احضان الغرب ، ففي أوائل العام ١٩٥١ « بدأت اسرائيل مفاوضات سرية من اجل معاهدتها العسكرية الاولى مع الغرب (٣٧) »

مثل الغرب في المفاوضات رئيس اركان حرب القوات البريطانية في الشرق الأوسط الذي اراد من اسرائيل ان تقدم تسهيلات لقواعد جوية وبحرية وأن تطور الترسانات وورشات التصليح الاسرائيلية . يقول بار زوهار ، كاتب سيرة بن جوريون : « جرت المفاوضات بروح ودية » . وكتب بن جوريون في ذلك الوقت الـــى وزير الخارجية البريطانية يقول بأن اسرائيل لم تستطع دخول الكومونولث « ولكننا نحب أن نقيم معكم علاقات مثل علاقاتكم بنيوزيلنده » ـــ وهذا هو الشيء نفسه . وما أن « بدا أن اسرائيل ستصبح حليف بريطانية الأول في الشرق الاوسط » حتى « انهار هذا الحلم الرائع » عندما حل المحافظون محل حزب العمال في الحكومة البريطانية اذ القى انتوني ايدن ، وقد كان مؤيدا للعرب آنذاك ، بمشروع التحالف العسكري مع اسرائيل جانبا (٣٨) .

وفي العام ١٩٥٤ وافقت الحكومة الاسرائيلية على عملية عسكرية سرية تنفذ في مصر (تركت فيما بعد أثرا عظيما على السياسة الداخلية الاسرائيلية من خلال « قضية لافون » الشهيرة) مستهدفة « منع البريطانيين من مغادرة منطقة القناة أو بالاحرى حملهم على تغيير رأيهم » لانهم رأوا أن انسحاب بريطانية لم يكن في مصلحة اسرائيل الا ان العملية أخفقت وانسحب البريطانيون .

وهكذا تحولت اسرائيل في السنة التالية عـــن بريطانية متوجهة نحـــو أميركة « واستمرت المحادثات . . . طوال العام ١٩٥٥ » . وعلى حد قول بار زوهار : « كان هناك أول الامر وميض أمل وكانت اسرائيل مستعدة لان تقدم قواعد عسكرية ولكنها أرادت مقابل ذلك ضمانات لحدودها وأمنها . واثبتت الولايات المتحدة في النهاية انها غير متحمسة . ان ما اراده الاميركيون فعلا هو اتفاق من طرف واحد يحصلون بموجبه على القواعد المطلوبة وعلى حق التدخل في السياسة العسكرية الاسرائيلية » .

---

٣٥ ـــ ن. سفران ، **الولايات المتحدة واسرائيل** ، كامبريـــدج ، مساتشوستس ١٩٦٣ ، ص ٢١٩ ومـــا يليهـــا .

٣٦ ـــ المصدر نفسه .

٣٧ ـــ بار زوهار ، المصدر السابق ، ص ١٨٢

٣٨ ـــ المصدر نفسه ، ص ١٨٢ ـــ ١٨٣

ولم تستطع حتى اسرائيل ان توافق على هذا (٣٩) . بدأت هذه المفاوضات سرية الا ان شاريت ، وزير الخارجية الاسرائيلية في ذلك الحين ، بدأ قبل نهاية العام ١٩٥٥ يتحدث عنها علنا بشكل بدا وكأنه محاولة للضغط على اميركة . وصرح في تشرين الأول بقوله : « نحن نشعر بالحاح أكثر من ذي قبل بحاجتنا الى معاهدة أمن مع الولايات المتحدة » وتحدثت جولدا مئير عندما خلفته عن « التماس » اسرائيل مثل هذه المعاهدة (٤٠) .

وفي العام ١٩٥٦ تحولت اسرائيل عن اميركة وعادت ثانية الى اوروبة فتواطأت مع بريطانية وفرنسة على السويس في ثالث تحالف عسكري ناجح ، وان كان مؤقتا ، بينها وبين الغرب .

وبعد مضي ستة شهور فقط على تبلور النتائج التي ترتبت نهائيا على عدوان السويس سار بن جوريون باسرائيل على نحو فاصل في علاقاتها بالعالم . وعلى الرغم من النجاحات العسكرية التي حققتها اسرائيل ادرك بن جوريون ان العداء العربي قد ازداد في النهاية ، فاضطرت اسرائيل الى البحث عن حام قوي لم يكن ليوجد الا في الغرب . وفي ذلك الوقت ربط بن جوريون اسرائيل بالمعسكر الغربي نهائيا .

لم تلق هذه السياسة تأييدا كليا داخل اسرائيل . فقد حبذ وايزمن عدم الانتماء ، وكذلك فعلت الاحزاب اليسارية ايضا . ولم تظهر التوترات الداخلية التي ولدتها مبادرة بن جوريون في السياسة الخارجية الاسرائيلية الى العيان قبل كانون الثاني ١٩٥٨ عندما استقال بن جوريون ثم اعاد تشكيل حكومته من جديد،نتيجة لازمة وزارية، متظاهرا بان ذلك يرجع الى فضيحة احدثها تسرب انباء عن خطة لشراء اسلحة من المانية الغربية ومهما يكن فان السبب الحقيقي للازمة كان مناقشة بين الفئات « المؤيدة لاوروبة » والفئات « المؤيدة للحياد » في الحكومة فيما يتعلق بالاتجاه الاساسي للسياسة الخارجية الاسرائيلية .

كانت تلك مواجهة حاسمة انتصر فيها مؤيدو اوروبة فساروا باسرائيل باتجاه الغرب والى خارج افرو — آسية بالضرورة .

ووصفت صحيفة « لوموند » ، الفرنسية المعروفة ، وجهات النظر والحجج المؤيدة والمعارضة بالتفصيل في ذلك الوقت في ثلاث مقالات تحت عنوان بارز : « اسرائيل : هل هي دولة غربية ؟(٤١) » قال بن جوريون للصحافي الفرنسي انه ادان الحياد واعاد الى الذاكرة التنافر بين الصهيونية والشيوعية مشيرا الى أن الحياد يعني الخضوع للسوفيات . وكان بن جوريون ضد تحييد الشرق الاوسط وضد حظر تزويده بالسلاح . ومن أجل الحصول على السلاح من الغرب ترتب على اسرائيل ان تؤيد الغرب ، اي ان تؤيد فرنسة في الجزائر والولايات المتحدة بقبول مبدأ ايزنهاور . وقال مؤيدو اوروبة ان اسرائيل « سواء شاءت أم ابت هي بحكم وضعها مركز دفاعي متقدم للغرب في الشرق الاوسط » ، « انها الحد الطبيعي للعالم الحر » . من يضمن اسرائيل اذن ؟

---

٣٩ — المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .
٤٠ — التايمز ، لندن ، ٢١ — ١٠ — ١٩٥٥ وجيروساليم بوست ، نيسان وايار ١٩٥٦ .
٤١ — لوموند ، ١ ، ٢ ، ٣ ، كانون الثاني ، ١٩٥٨ ، بقلم اريك رولو

بريطانية لا تضمنها ، ولا تضمنها الولايات المتحدة لان المحاولات السابقة التي قامت بها اسرائيل في سبيل الحصول على المساعدة الاميركية باءت بالفشل ، وفرنسة لم تكن واردة (بسبب الجزائر) . وعليه صار لزاما تجنب الناحية الجغرافية وامتداد المنظمات العسكرية الاوروبية الغربية لتصل الى الشرق الاوسط وتضم اسرائيل . ان ما ارادته اسرائيل هو تحالف شامل مع « منظمة حلف شمالي الاطلسي » ككل . ولم يستطع حلف بغداد احكام طوق اوروبة الغربية الجنوبي الشرقي على روسية لانه كان منظمة ضعيفة جدا . فصار ممكنا ان تسد اسرائيل تلك الفجوة .

اما المنادون بالحياد في اسرائيل فهم بشكل رئيسي من حزبي المابام واحدوت‌هاعفودا في اليسار ولهم بعض المؤيدين في الوسط واليمين . كان ناحوم غولدمان ، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي ، ولا يزال اشهر مناد بالحياد . ويقول هؤلاء بان التحييد يضع حدا لسباق التسلح المضني في الشرق الاوسط . ويجب الا يفترض ايضا ان روسية ستبقى معادية الى الابد فسياسة الحياد يمكن ان تحمل روسية على السماح ليهودها ويهود اوروبة الشرقية بالهجرة الى اسرائيل ، وقد سمح لمئات الالوف من اليهود بمغادرة اوروبة الشرقية في الفترة ١٩٤٨ ــ ١٩٥٠ عندما كانت اسرائيل تنتهج خطا حياديا .

ومن حسن الحظ ، أو من سوئه ، كان المنادون بالحياد في اسرائيل ضعفاء ومرتبكين . وغولدمان نفسه مواطن اميركي غير معروف جيدا في اسرائيل على الرغم من مركزه الهام . وقد ساوم حزبا المابام واحدوت هاعفودا على الحياد عندما لم يتركا حكومة بن جوريون بسبب أزمة السويس أو مبدأ ايزنهاور أو شراء السلاح من المانية الغربية . وقد اهمل المنادون بالحياد بسبب افتقارهم الى القيادة .

وعلى الرغم من استمرار هذا النقاش في الاشهر الاولى من العام ١٩٥٨ فقد حاول بن جوريون فعلا التقرب الى الغرب حوالي ستة شهور من انتهاء أزمة السويس في اواخر صيف العام ١٩٥٧ (٤٢) .

بدأ بن جوريون في آب حملته الديبلوماسية بان اقترح على دلس ان تشجع الولايات المتحدة تركية والعراق المؤيدتين للغرب على مهاجمة سورية التي كانت انذاك تحت نفوذ الشيوعيين المحليين نوعا ما .

وعندما هددت روسية بدورها تركية وأصدرت اميركة بيانا يضمن حدود تركية طالب بن جوريون واشنطن بضمان مشابه لحدود اسرائيل . واقترحت جولدا مئير في تشرين الأول على دلس وجوب قيام تنسيق بين اميركة وحلف الاطلسي واسرائيل ، اي ضمان لاسرائيل ، ضد مصر وسورية . وكانت اسرائيل مستعدة مقابل ذلك لتقديم موانىء ومطارات في حالة الطوارىء .

وفي الوقت نفسه طلبت اسرائيل من حلف الاطلسي عن طريق فرنسة ضمانا لحدودها . وشدد ممثلو اسرائيل على مطلبهم هذا في مجلس وزراء حلف الاطلسي الذي اجتمع في باريس في كانون الاول ١٩٥٧ .

الا ان اميركة وحلف الاطلسي رفضا الاقتراح الاسرائيلي .

---

٤٢ ــ هناك وصف مفصل لهذه الاحداث في بار زوهار ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦ ــ ٢٥٨ .

وهكذا كانت اعظم الخطوات اهمية قد اتخذت عندما أصبح النقاش علنيـا في اسرائيل حول سياسة بن جوريون الخارجية .

وتحول بن جوريون في الاشهر الاولى من العام ١٩٥٨، بلا خوف من الرد والرفض، عن فكرة الضمان الجماعي عن طريق حلف الاطلسي الى فكرة ممكنة اخرى هي عقد اتفاقات ثنائية مع بلدان اوروبية غربية . واعلن بن جوريون في الكنيست ان المفاوضات جارية مع بلدان ثلاثة احداها فرنسة (٤٣) .

وفي اذار ١٩٥٨ كان بن جوريون لا يزال يقول انه بما ان « بلدانا اخرى في الشرق الاوسط تتمتع بحدود مضمونة » مثل تركية فانه لا مبرر لعدم تمتع اسرائيل بحدود مضمونة أيضا (٤٤) .

وفي الوقت نفسه كان رئيس الوزراء الذي لا يعرف الكلل يقوم بمشروع آخر وبنجاح أكبر بكثير وبعد قيام الجمهورية العربيـــة المتحدة في شباط ١٩٥٨ توجه بن جوريون الى جميع البلدان الاخرى في المنطقة والتي تشعر بتهديد القومية العربية . ويروي بار زوهار نتيجة تأملات بن جوريون « اخـــذ ذعر الحبشة بالازدياد نتيجة سياسة ناصر التوسعية . وخافت تركية من عدوها العربي على حدودها الجنوبية ، وكانت ايران على نزاع اقليمي مع العراق . ويفوق عدد سكان هذه البلاد بالاضافة الى سكان اسرائيل مجموع عدد سكان دول الشرق الاوسط مجتمعة . لماذا لا نقيم تحالفا مشتركا ؟ (٤٥) » وجرت الاتصالات الضرورية وانتهت الى النتائج التالية « كانت جميعها تبعث على الامل رغم اظهار تركية بعض التردد » .

ومع ان الحبشة وتركية وايران بلدان أفرو ــ آسيوية فقد كانت المظلة الغربية لا تزال ضرورية في نظر اسرائيل وكان بالامكان بسطها فوق الدول الاربع (ثلاث منها حلفاء للغرب) ان لم يكن فوق اسرائيل وحدها .

وفي ايار ١٩٥٨ تحدث دايان الى المارشال مونتغومري حول هذه الغاية فوافق المارشال ووعد أن يحدث الرئيس ايزنهاور عنها . وفي تموز سعى بن جوريون وراء موافقة الرئيس ديغول : « اذا نظرت حكومتكم بعين العطف على هذه المحاولة فان ذلك سيكون مساعدة عظيمة » .

وطلب بن جوريون أيضا مباشرة دعم الولايات المتحدة العظيم الاهمية . فهو يقول في رسالة بعث بها الى ايزنهاور : « ان المراحل الاولى من هذه الخطة تلاقي الان نجاحا . الا ان شيئين يعتمدان على الدعم الاميركي : اولا ، العون الادبي والمالي والسياسي ، ثانيا ، اشعار ايران وتركية والحبشة بان جهودنا تلقى موافقة الولايات المتحدة » .

وارسل ديغول « جوابا غير ملزم . اما رد الولايات المتحدة فكان ايجابيا . لقـــد ولـــدت الاتفاقية الجانبيـــة (Peripheral pact) بـــدون اعلان رسمـــي او مراسم للتوقيع عليها . ولكن المهم هو الحقائق والافعال ، وكان مقدرا للمعاهدة ان تعيش طويلا » ، وكان الرد الاميركي مؤاتيا لانه بعد العام ١٩٥٧ ادركت الولايات

٤٣ ــ The Scotsman ، ١١ ــ ١ ــ ١٩٥٨ .
٤٤ ــ The Christian Science Monitor ، ١١ ــ ١ ــ ١٩٥٨
٤٥ ــ بار زوهار ، المصدر السابق ، ص ٢٦١ ــ ٢٦٣ .

المتحدة ان الرئيس عبد الناصر ، وعلى الرغم من الدعم الاميركي ابان أزمة السويس ، لم يكن ينوي التخلي عن موقفه غير المنحاز الى اميركة أو روسية .

ومع ذلك فقد كانت تلك المعاهدة خارجية فقط حتى وان نالت موافقة اميركة . وبعد خمس سنوات ، عندما وافقت كل من مصر وسورية والعراق في العام ١٩٦٣ على خلق « الاتحاد الثلاثي » القصير الامد ، حاول بن جوريون مرة أخرى الحصول على حماية الدول الغربية مباشرة . فكتب الى الرئيس كنيدي يقترح اقامة معاهدة دفاعية، وتزويد اسرائيل بكميات كبيرة من الاسلحة ، ونزع السلاح في الشرق الاوسط ، ويتناقض البند الاخير من الاقتراح مع البندين الاول والثاني .

ومرة أخرى تقرب من الرئيس ديغول سائلا ما اذا كان الوقت قد حان أم لا « لنعزز الصداقة العظيمة بين بلدينا بمعاهدة سياسية حول العون العسكري » . وأجاب الرئيسان بالنفي . وفي الوقت نفسه كانت اسرائيل تسعى ، على الجبهة السياسية ، لان تصبح عضوا أو عضوا مشاركا في مجلس أوروبة كما كانت تحاول في المجال الاقتصادي ان تصبح عضوا في السوق الاوروبية المشتركة أو أن ترتبط بها .

وعند هذه النقطة (١٩٦٣) التي انتهى بنا العرض اليها نتساءل : كيف نعرف وضع اسرائيل بالنسبة الى القارة التي وجدت نفسها فيها ؟ لقد ادخلت اسرائيل وترسخت على الطرف الغربي من آسية بدعم الغرب وتأييده . وبسبب العداء الذي يحيطها به جيرانها العرب مباشرة حاولت اسرائيل اقامة روابط صداقة مع المناطق الآسيوية الواقعة خارج الحزام العربي الذي يلفها . ولاقت اسرائيل في هذه المناطق أيضا رفضا من بلدان كبيرة وقوية وهامة هي البلدان الاسلامية والهند والصين . وعلى الرغم من برنامج المساعدة النشيط والمساعي الغربية لم تستطع اسرائيل الا ان تقيم علاقات جانبية في غربي آسية وشرقيها وجنوب شرقيها .

وهكذا تحولت اسرائيل عن افرو ــ آسيا لان العالم الثالث لم يحقق لها ما ارادت أي « تركيز القوى بصورة تعوض بما فيه الكفاية عن الكتلة الغربية او الكتلة السوفياتية في مسائل التهدئة والامن أو المساعدة والتقدم الاقتصاديين والتكنولوجيين (٤٦) » .

وتوجهت اسرائيل الى القارتين الام بالنسبة للصهيونية ، اوروبة واميركة الشمالية ، حيث بذلت جهودا متكررة لكسب الحماية العسكرية ، ولكنها حققت نجاحا محدودا لان الغرب أدرك أكثر من قبل اهمية افرو ــ آسية المتزايدة ، مما يجعلها أهم من اسرائيل ، بحيث انه لم يكن على استعداد للاساءة الى افرو ــ آسية عن طريق مصادقة اسرائيل التي صارت تعتبر بازدياد ووضوح جسما غريبا في افرو ــ آسية ومعاديا لها . ويمكن ان تكون اسرائيل قد اصبحت « حصنا دفاعيا غربيا » « دولة قومية مغربة وموالية للغرب تتمتع بفعالية عالية وثبات في الوضع المظلم المربك في الشرق الاوسط (٤٧) » . الا ان ذلك لم يكن كافيا بالنسبة لرجال مثل الرئيسين

---

٤٦ ــ بار زوهار ، المصدر السابق ، ص ٢٩٣ .

٤٧ ــ Shahtai Rosenne. ، « العناصر الاساسية في سياسة اسرائيل الخارجية » ، **India Quarterly** ، دلهي ، العدد الرابع ، ١٩٦١ .

كنيدي وديغول .

وتحدث ابلغ المدافعين عن اسرائيل ، ابا ايبان ، في العام ١٩٥٦ مصورا دولته وكأنها تفعل بمحض ارادتها ما هي مضطرة الى فعله على اي حال : « اذا كانت اسرائيل منفصلة الان عن الشرق الاوسط الان فاننا نعزو هذا الانفصال ليس فقط الى عداء جيراننا بل ايضا الى جوهر وطبيعة حركتنا القومية ذاتها . نحن منفصلون عن هذه المنطقة وسنبقى كذلك بفعل ارادتنا (٤٨) ». وهكذا فان حقائق الحياة السياسية تجبر اسرائيل على ادراك ان « جوهر وطبيعة » الصهيونية يفصلانها عن آسية .

اذا لم تكن اسرائيل جزءا من آسية ولا مركزا متقدما للغرب فماذا تكون اذن ؟ يجيب ابا ايبان : « اسرائيل لا كبلد شرق اوسطي بل كبلد متوسطي (٤٩) » . واسرائيل كبلد من بلدان البحر الابيض المتوسط تنظر عبر البحر غربا لا شرقا باتجاه آسية .

لقد كان التباعد بين آسية واسرائيل متبادلا . فحتى لو لم تدرك الحكومات الآسيوية الجهود المسعورة التي بذلتها اسرائيل في سبيل التحالف مع الغرب في حينه لابتعدت عن اسرائيل لانه كان واضحا لتلك الحكومات كون الدولة اليهودية الصهيونية غريبة في جوهرها واساسها ، وهذا ما حمل آسية فعلا على الابتعاد عن اسرائيل من العام ١٩٥٥ فصاعدا .

---

٤٨ ــ جون كونل ، اسرائيل : حصن دفاعي غربي ، Anglo Israel Association ، لندن ، ١٩٦٣ ، ص ٤ .

٤٩ ــ م. دايفز ، (محرر) . اسرائيل : دورها في المدنية ، نيويورك ، ١٩٥٦ ، « القومية والامية اليوم » ، بقلم ابا ايبان ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

الفصل السابع

آسية تبتعد

المؤتمرات الافرو ـ آسيوية ومؤتمرات عدم الانحياز

كان ابتماد بلدان آسية عن اسرائيل حصيلة العملية التي حاولت فيها هذه البلدان التقارب فيما بينها . بدأ هذا في العام ١٩٥٤ عندما اجتمعت خمسة بلدان في جنوبي آسية وجنوب شرقيها في كولومبو لمناقشة مسائل مشتركة . واقترحوا لقاء اكبر بين البلدان الافرو ـ آسيوية مما ادى الى مؤتمر باندونغ الشهير الذي عقد في العام ١٩٥٥ . وفي اواخر العام ١٩٥٤ عقد اجتماع تحضيري لمؤتمر باندونغ في بوغور قرب جاكارتا . وجرت في كل من كولومبو وبوغور وباندونغ مناقشة بل مشادة حول وجوب دعوة اسرائيل او عدم دعوتها . وبعد مؤتمر باندونغ اتفق على الا تدعى اسرائيل الى اي مؤتمر لبلدان افرو آسية او عدم الانحياز ، الا ان المؤتمرات اللاحقة شهدت مشادات حول درجة ادانة اسرائيل . واذا راجعنا الدور السلبي الذي لعبته اسرائيل في المناقشات التي جرت في هذه اللقاءات نلاحظ انها كانت دائما سببا للخلافات بين الافرو ـ آسيويين ، فهي رغم صغرها مؤثرة جدا بصورة لا تسمح بتجاهلها . والجدير بالملاحظة ايضا هو اشتداد اللهجة في ادانة اسرائيل في المؤتمرات المتتالية .

قدم السيد محمد علي رئيس وزراء باكستان مشروع قرار في كولومبو (١) يدين فيه اسرائيل من الاساس : فقد ادان اقامة دولة اسرائيل معتبرا ذلك خرقا للقانون الدولي ، وادان ايضا سياسة اسرائيل العدوانية تجاه جيرانها ، واعرب عن قلقه الشديد حول حالة اللاجئين العرب .

وقال نهرو تعليقا على مسودة القرار بأن الهند تعاطفت تعاطفا عظيما مع القضية العربية . الا انه من الصعب له بعد ان اعترفت الهند باسرائيل ان يقول بأن خلقها كان خرقا للقانون الدولي وعلاوة على ذلك فان مشروع القرار الباكستاني يضر بالمحاولات التي كانت جارية في الامم المتحدة لتسوية المسألة .

اما يونو ، رئيس وزراء بورمة التي تطورت علاقات الصداقة بينها وبين اسرائيل آنذاك كثيرا ، فقد اقترح تخفيف لهجة القرار الباكستاني . ولم تبد سيلان واندونيسية اي رأي بأي شكل من الاشكال .

---

١ ـ ان تفاصيل هذا المؤتمر الواردة ادناه مأخوذة من المحضر الرسمي الذي اعده الموظفون السيلانيون الذين الفوا سكرتارية المؤتمر . وقد وزعت الوثائق توزيعا خاصا

وعندئذ قال السيد محمد علي بانه يرضى بقرار بدين العدوان في فلسطين ويعرب عن عطفه على ضحاياه ، ثم احيل الامر الى لجنة الصياغة .

وفي المناقشة النهائية حول هذه المسألة الغى رؤساء الوزراء الخمسة فقرتين اقترحتهما باكستان واحتفظوا بشيء واحد فحسب هو التعبير عن عطفهم العميق على اللاجئين العرب . والمدهش هو انهم اعربوا في تلك المناقشة عن شكهم فيما اذا كانت الامم المتحدة قد توصلت الى قرار رسمي يقول بوجوب اعادة اللاجئين العرب الى بيوتهم الاصلية ، لقد اتخذت الامم المتحدة طبعا هذا القرار في العام ١٩٤٨ وكررته سنويا منذ ذلك الحين . وتقرر بذلك الغاء اية اشارة الى قرارات الامم المتحدة في البيان النهائي .

ونص البيان على ما يلي : « اثار تفحص الوضع في الشرق الاوسط اشد القلق لدى رؤساء الحكومات فيما يتعلق بما يقاسيه اللاجئون الفلسطينيون ، وهم يحثون الامم المتحدة على اعادة كامل الحقوق لهؤلاء اللاجئين في فلسطين . واعرب رؤساء الحكومات عن تفهمهم لوضع اللاجئين كما اعربوا عن املهم في الوصول الى حل عادل للمسألة الفلسطينية في اقرب وقت ممكن » .

وهكذا اوصى خمسة زعماء آسيويين بما اعتقدوا انه اقتراح اصلي حول فلسطين يضمن عودة « كامل حقوق » الفلسطينيين الى اصحابها ، واضطرت بورمة ايضا ان توافق على هذه الصيغة القوية . ان جهل هؤلاء الزعماء ومستشاريهم لحقيقة ان الامم المتحدة كانت قد قررت من قبل ما قرروه في مؤتمرهم دليل على عدم كفاءة الدعاية العربية التي فشلت في اعلام البلدان الصديقة للعرب عن المسألة العربية الرئيسية .

كان قرار ابعاد اسرائيل عن حضور اجتماعات المؤتمرات الافرو — آسيوية قد اتخذ فعلا في طائرة كانت تحلق في سماء شبه جزيرة كرا حوالي الساعة الواحدة بعد ظهر ٢٧ كانون الاول ١٩٥٤ (٢) .

وبعد ان وافق مؤتمر كولومبو على فكرة عقد مؤتمر افرو — آسيوي عام وافق رؤساء الحكومات على الاجتماع في بوغو لوضع التفاصيل العملية . وطار السيد نهرو الى اندونيسية على متن طائرة قديمة من طراز داكوتا توقفت في رانغون لتقل يونو . وخلال الرحلة ناقش الزعيمان المؤتمر المقبل وعالجا اثناء الغداء مسألة دعوة اسرائيل . وكانت الاجتماعات التمهيدية قد كشفت عن معارضة واضحة لحضور اسرائيل .

ومهما يكن فان الروابط « الاشتراكية » الوثيقة بين اسرائيل وبورمه جعلت يونو يقول للسيد نهرو انه اذا لم تدع اسرائيل ، وهي دولة في آسية ، الى المؤتمر الافرو — آسيوي فان بورمه قد لا تحضر المؤتمر . ووافق السيد نهرو على انه يتوجب دعوة اسرائيل ولكنه اشار الى ان العرب لن يحضروا المؤتمر اذا حضرته اسرائيل ، ومعنى هذا ان كل غربي آسية تقريبا لن تحضر المؤتمر . وعندئذ لن يكون المؤتمر ممثلا لآسية وبستعيد الهند النظر فيما اذا كان لحضورها هي اهمية . وبعد عرض الضغوط والضغوط المضادة هذه ادرك يونو انه على الرغم من ان بورمه كانت احدى اصحب الدعوة الى المؤتمر فانه لم يكن بالامكان دعوة اسرائيل بمجرد ان تطلب بورمة ذلك .

لقد حدثت خلافات في الراي حول توجيه الدعوة الى بلدين آسيويين اثنين فقط

---

٢ — تدم المعلومات حول هذه الحادثة عضو في حزب السيد نهرو يرغب في ابقاء اسمه مجهولا

هما الصين واسرائيل وبعد مناقشة تمهيدية (٣) الغيت مؤقتا مسألة دعوة اسرائيل بسبب عدم التوصل الى اتفاق عام عليها . وكانت بورمة وسيلان تؤيدان دعوة اسرائيل، اما باكستان واندونيسية فعارضتا الدعوة وقالت الهند انه على اساس المبدأ الجغرافي يجب دعوة اسرائيل الا انها « لم تكن مستعدة لمواجهة الاحتمال » اي عدم حضور العرب بسبب وجود اسرائيل في المؤتمر

حاولت الصحافة الاسرائيلية التهرب من هذه النكسة بتقديم الاسباب ، وقدمت من خلال ذلك اعترافا عظيم الاهمية . وكما قالت صحيفة « هآرتس » فان عدم دعوة اسرائيل الى مؤتمر باندونغ قد لا يعتبر خسارة لان مناقشات المؤتمر ستكون غامضة والمواضيع الوحيدة المحددة هي « الاستعمار والعنصرية والسيادة الوطنية » وجميعها ليست عظيمة الاهمية بالنسبة لاسرائيل ولكنها عظيمة الاهمية طبعا بالنسبة للافرو — آسيويين

أما مناقشة المسألة الفلسطينية فيمؤتمر باندونغفسنعرض لها عرضا مطولا(٤) لان هذا كان اللقاء الرسمي الوحيد لدول افرو — آسية (او دول عدم الانحياز) حيث عبر رؤساء الوفود عن آرائهم حول جوهر هذه المسألة التي تعرض لها الزعماء في كل اللقاءات اللاحقة بصورة عابرة اثناء مناقشة صياغة البيانات النهائية

بدأ النقاش بطرح مشروعي قرارين احدهما تقدم به ممثل افغانستان والآخر من ممثل باكستان ورئيس حكومتها محمد علي . وجاء النص النهائي مطابقا تقريبا لمشروع القرار الافغاني ، وطالب اقتراح باكستان في صورته الاصلية بتنفيذ قرار الامم المتحدة فقط حول « اللاجئين » الفلسطينيين . وايد الوفدان قراريهما بخطابات قوية وموجزة .

وقام بالعرض الرئيسي للقضية الفلسطينية شخص فلسطيني هو السيد احمد الشقيري الذي حضر المؤتمر بوصفه عضوا في الوفد السوري . ومن حسن الحظ ان السيد الشقيري ضبط في هذه المناسبة ميله الطبيعي الى الكلام المنمق الطنان والعبارات الرنانة فعرض وجهة نظره بتأثير واضح

استهل حديثه بالتساؤل : « ما هي طبيعة المسألة ؟ هل هي نزاع على حدود ؟ ام هي نزاع بين دولتين ؟ هل هي صراع بين ايديولوجيتين متضاربتين ؟ بالتأكيد لا المسألة هي مسألة شعب ووطنه انها مسألة الوجود القومي لشعب حلت به محنة لقد اخضع شعب فلسطين بأكمله لعملية افناء وهذه ليست مسألة تغيير نظام او تغيير حكومة او انقلاب . انها مسألة تشريد شعب . . . ان عرب فلسطين لهم الحق في ممارسة حقهم كاملا في تقرير المصير في وطنهم » وفي اشارته الى حق « اللاجئين » الفلسطينيين بالعودة الى وطنهم قال السيد الشقيري انه لم يركز ذلك على اساس قرار الامم المتحدة لان ذلك حق اصيل « الامم المتحدة لا تعيد هذا الحق بل تعترف به فقط . » ثم انتقل بعد ذلك الى القول بأن اسرائيل لم تكن في ذلك الوقت تمتلك قانونيا الا ٦ ٪ فقط من الاراضي الواقعة تحت سيطرتها . وعلق قائلا « أنا أعرف

---

٣ — تم الحصول على تفاصيل الجلسات المغلقة من مصادر رسمية متنوعة وغير معروفة

٤ — الاشارات الى والاقتباسات من المناقشة التي دارت حول فلسطين مأخوذة من نص حرفي اعدته سكرتارية المؤتمر ووزع توزيعا خاص

ان بعضكم أدهشه هذا التصريح ، انني أرى الدهشة بادية على وجوهكم » . وأبرز نقطة احصائية أخرى : « لقد خفضت نسبة الشعب العربي الفلسطيني خلال فترة ثلاثين عاما من ٩٤ ٪ الى ١٠ ٪ من مجموع السكان » . واضاف : « ان اسرائيل لا تنتمي الى آسية ولا الى افريقية » لانها نتاج الحركة الصهيونية التي هي حركة امبريالية ولدت في اوروبة . واختتم السيد الشقيري حديثه بقوله : « لا يقدر أي طالب أو عالم تاريخ ان يجد في اي فترة مأساة فريدة من هذا النوع يلقى فيها شعب بأسره خارج ارضه ويجبر على العيش في المخيمات كلاجئين » .

والقى مندوب العراق (الدكتور فاضل الجمالي) خطابه الذي تميز بالترديد والتكرار ، اما ممثل لبنان (الدكتور شارل مالك) فحذر (تحذيرا صار عاديا في مؤتمرات أخرى فيما بعد) من ان العرب لن يشعروا بأنهم جزء حقيقي من المؤتمر وانهم سيصبحون غرباء « عن المجموعة الافرو ـ آسيوية عموما » اذا لم يتخذ المؤتمر قرارا صريحا .

ونظرا للتطورات التالية كان خطاب المندوب الايراني (الدكتور علي أميني) قويا بشكل يبعث على الدهشة : « ان ما حدث في فلسطين لا يساوي الاستعمار فحسب بل يفوقه سوءا » لان الفلسطينيين « اقتلعت جذورهم » من أرضهم والقوا خارجها .

ثم تحدث مندوبو تركية والاردن ومصر بصورة موجزة . وقد مثل مصر في باندونغ الكولونيل عبد الناصر الذي كان لا يزال يرتدي بزته العسكرية . ومجمل ما قاله حول فلسطين ينحصر في جملتين : « حضرة الرئيس ، انني اتفق والوفد الاردني حول تعديل القرار الذي قدمته باكستان . ولا فرق بين القرارين الافغاني والباكستاني . وانا اؤيد قرار افغانستان » .

وتحدث بعد ذلك السيد نهرو مشيرا الى « المأساة المروعة » في فلسطين . ثم تساءل مرارا : « ماذا نستطيع ان نعمل بشأنها ؟ كيف نستطيع ان نساعد بغير التعبير عن ارائنا وتعاطفنا الادبي ؟ » واجاب بصراحة : « ... لا يستطيع المؤتمر عمل شيء بشأنها ... وليس لدي اقتراح اقدمه » ، ولم يشر الى قرارات الامم المتحدة على انها تقدم اي حل . وبطريقته الاستطرادية المعهودة أثار السيد نهرو مسألة القوى التي تقف وراء الصهيونية التي « ربما تعتبر حركة عدوانية ... وبالتأكيد لن يقول احد ان الامبريالية الصهيونية قوية وشديدة الى حد يكفي لزعزعة العالم رغم أنف كل انسان ؟ ... ماذا وراءها اذن ؟ ... من وراءها ؟ نحن لا ننظر بما فيه الكفاية الى هذا الجانب من السؤال . ربما تكون الصهيونية احيانا قوية ، وعدوانية كما هي في كثير من الاحيان ، ولكنها ليست بالتأكيد قوية الى حد يجعلها تستمر في هذا الموقف كل هذه السنوات الطوال . وعليه يجب ان ندرك القوى التي تقف وراء الحركة . وانا لن أشير الى هذه القوى » . واضاف : « من الواضح ان المسألة تصبح مسألة سياسة القوى وهي مسألة تهم الدول الكبرى سواء اكانت داخل الامم المتحدة او خارجها ... انها اكبر بكثير من كونها وضعا محليا » .

وبعد ثمانية عشر شهرا جاء جواب محدد وان يكن جزئيا على السؤال التالي الذي طرحه السيد نهرو : « ماذا وراء الصهيونية ؟ » جاء الرد عندما تواطأت بريطانية وفرنسة مع اسرائيل في الهجوم على مصر .

ثم تحدث مندوب بورمه يونو مجيبا اجابة متشائمة على سؤال نهرو « ماذا نفعل بشأن فلسطين ؟ » فقد تساءل يونو حول ما اذا كان باستطاعة « الاسيويين والافريقيين الضعفاء عسكريا واقتصاديا ان ينجحوا حيث فشلت الدول القوية » .لقد صمتت اميركة وبريطانية وروسية على عدم تنفيذ قرار الامم المتحدة الداعي الى عودة الفلسطينيين الى بيوتهم ، « لذلك اشك كثيرا بقدرتنا على النجاح حيث فشلت هذه الدول القوية » . وبناء على ذلك طلب الى المؤتمر ان يحصر نفسه بقرار وسط لا « يجبرنا على عمل ما هو اكبر من طاقتنا فعلا » لان لبورمة « ليس فقط علاقات ديبلوماسية باليهود بل ايضا روابط سياسية وثقافية واقتصادية كثيرة جدا تماما بقدر ما لنا روابط صداقة بالعرب » . واقترح قرارا وسطا ينادي « بمفاوضات مباشرة » .

وهاجم زورلو ممثل تركية يونو بحدة بسبب اقتراحه الانهزامي القائل بأن « القوة الادبية لهذه اللجنة لا تكفي لدعم الاقتراح . وهذا ليس صحيحا تماما ... ان القوة الادبية والطاقة اللتين نمثلهما لا يمكن الاستخفاف بهما والتقليل من شأنهما الى أبعد حد » .

وعند هذه النقطة اصبح النقاش أقرب الى المجادلة منه الى الحوار بين الوفود العربية والسيد نهرو . فقد اشار رئيس الحكومة الهندية في سياق حديثه اشارة عابرة الى خمسة ملايين يهودي قتلوا في المانية خلال الحرب العالمية الثانية . واعرب ايضا عن دهشته لقول السيد الشقيري بأن تسوية عن طريق المفاوضات غير ممكنة . ثم قال محاججا : « في وقت او آخر وسواء كنتم اعداء أم تحاربتم فانه لا بد من المفاوضات هناك دائما تسوية من نوع ما ... وفوق كل شيء فأنه يمكن تسوية الامور اما بالاكراه اي بالضغط واما بالمفاوضة »

ورد اول من رد من الوفود العربية الدكتور مالك الذي قال ان رواية المذبحة اليهودية مجرد « دعاية صهيونية » . وهكذا ايضا كان الزعم بان العرب يرفضون المفاوضة لانهم كانوا مستعدين تماما للمفاوضة على اساس قرارات الامم المتحدة .

ورد الشقيري على نهرو ردا مفصلا . فهو لم ينكر حقيقة اضطهاد اليهود :«انني اكرهها . ولكن السؤال هو : هل يعالج الاضطهاد بارتكاب ظلم صارخ ، باضطهاد آخر ... بطرد شعب من وطنه ؟ » ثم نفى وجود أي اساس للتفاوض مع اسرائيل حول ثلاثة عناصر في المسألة الفلسطينية : « مسألة اللاجئين والمسألة الاقليمية ومسألة القدس » . وقال ان اسرائيل رفضت بعناد اعادة « لاجيء » واحد ورفضت تدويل القدس وانها قالت فيما يتعلق بالارض : « ما اكتسبناه بالحرب لن نتخلى عنه الا بالحرب وحدها » . واختتم رده بقوله ان العرب يطلبون الى المؤتمر اعادة تأكيد حقوق الفلسطينيين الثابتة في تقرير المصير والعودة والملكية .

وهنا حدث نوع من التصدع في العلاقات الودية بين العرب والوفد الهندي عزاه الامين العام لجامعة الدول العربية فيما بعد الى « سوء فهم » عربي (٥) .

وفي وقت لاحق من ذلك المساء قامت مجموعة من الزعماء العرب بزيارة السيد نهرو وتبدد سوء الفهم بسرعة ، وفي جلسة الصباح التالي اوضح السيد نهرو بالضبط

---

٥ ـ عبد الخالق حسونة ، **تقرير حول مؤتمر باندونغ** .

ما قصده . وقال ان اشارته الى اضطهاد اليهود « لم تكن بالطبع تبريرا لمجيء اليهود الى فلسطين ... لان اضطهاد اليهود في بلدان معينة لا يعني انه يجب ان يضطهدوا الآخرين ... وعلى الرغم من الشعور بالعطف على اليهود فان احدا لم يردهم في أي بلد آخر ، وهكذا القوا خارجا بشكل آلي » . اما حول التسوية عن طريق المفاوضات فقد أصر على موقفه قائلا انه « تدرب على يد المهاتما غاندي ... ان يكون دائما مستعدا للتحدث مع العدو » .

وفي هذه الجلسة الصباحية قدمت لجنة الصياغة شيئا حول فلسطين يشكل جزءا من البيان النهائي : « نظرا للتوتر القائم في الشرق الاوسط نتيجة الوضع في فلسطين وخطر ذلك التوتر على السلام العالمي اعلن المؤتمر الافرو ـ آسيوي دعمه لحقوق الشعب العربي الفلسطيني ودعا الى تنفيذ قرارات الامم المتحدة حول فلسطين والى تحقيق التسوية السلمية للمسألة الفلسطينية » . وهنا نلاحظ التغيير الذي طرأ على الاقتراح الافغاني الاصلي وهو الاشارة الى الامم المتحدة . واعرب السيد شو ان لاي عن رغبته في اضافة الكلمات التالية : « تحت ظروف استبعاد تدخل قوات اجنبية » لان التدخل الاجنبي كان السبب الاساسي للمشكلة في فورموزا كما في فلسطين ، وقال المندوب الصيني : « نحن نعاني من السبب نفسه الذي تعاني منه البلدان العربية » . ولكن مندوب الصين لم يصر على قبول هذه النقطة . واقترحت بورمة اجراء تغييرين لاعطاء الاولوية للمفاوضات السلمية حول تنفيذ مقررات الامم المتحدة ، وهذا بالتأكيد كان سيلقى قبولا اكثر من الاسرائيليين، الا ان يونو اثار هذه النقطة ولم يصر عليها ايضا.

وهنا يمكن ايضاح نقطتين حول الاسئلة التي اثارها السيد نهرو . فعندما قال بحتمية احد اثنين : اما الحرب او التسوية عن طريق المفاوضات ، انما طرح مجموعة خاطئة من البدائل لان عشرين عاما من الممارسة العربية أظهرت انه بالامكان قيام حالة لا حرب ولا سلم ولا مفاوضة . وبدا ايضا انه يرى في الصهيونية حركة تستخدمها الدول الكبرى بينما من الاصح ان ينظر الى الصهيونية والدول الكبرى كقوى تتعاون وتستخدم بعضها بعضا كما رأينا .

وهناك بضع نقاط مهمة فيما يتعلق بالمناقشات التي جرت حول فلسطين في مؤتمر باندونغ رغم انه بعد خمس عشرة سنة ظل الجدال حول التفاوض او عدم التفاوض مسألة قائمة . وهكذا كان عدد المتكلمين قليلا نسبيا ولم تشترك جميع الدول العربية في المناقشة اذ التزمت كل من تونس واليمن والسودان الصمت وانحصر حديث مصر والسعودية بملاحظات اجرائية مقتضبة . ومن بين الدول غير الاسلامية تحدثت بايجاز كل من الهند والصين فقط تأييدا لوجهة النظر العربية . وفي طريق العودة الى الوطن لخص مندوب مصر الكولونيل عبد الناصر نتيجة المناقشة بقوله : « انه مجرد قرار ، ومهما يكن فان له بعض القيمة الادبية (٦) » .

كانت الاهمية الحقيقية لمؤتمر باندونغ في ما بداه وليس في ما حققه . ففي باندونغ عرف شرقي آسيا وآسية وجنوب شرقي آسية وغربي آسية بعضهم بعضا للمرة الاولى . وبسبب خمول الدبلوماسية العربية جزئيا كانت الفرصة ضئيلة امام بلدان

---

٦ ـ الهندروسي ، مدراس ، ٢٨ ـ ٤ ـ ١٩٥٥

مثل كمبودية ولاوس لمعرفة القضية العربية مباشرة ، الا ان مؤتمر باندونغ عالج هــذا الوضع نوعا ما . وكانت الجسور التي اقيمت في باندونغ بين نصفي آسية عظيمـــة الاهمية الى ابعد الحدود وخاصة الجسور التي اقيمت بين الصين والدول العربية .
ومع هذا اللقاء جاء اول رفض آسيوي حاسم لقبول اسرائيل كجزء من آسية او افرو ــ آسية . فقد وقف الافرو ــ آسيويون في باندونغ الى جانب الفلسطينيين ولم يبق بعــد ذلك ابدا فرصة امام اسرائيل لكي تنضم الى اي من لقاءاتهم الرسمية او غير الرسمية.
ان القرار الاول الذي اتسم بلهجة خفيفة ، وهو القرار الذي صدر عن مؤتمر باندونغ، امكنه ان يزداد استنكارا في المؤتمرات التالية ، وهذا ما حدث فعلا .
لقد قيمت إسرائيل وصحافتها اثر مؤتمر باندونغ السلبي عليهم تقييما صحيحا . وارسل موشي شاريت رئيس وزراء اسرائيل انذاك رسالة الى رئيس المؤتمر (رئيس وزراء اندونيسية) يعرب فيها عن « دهشته » و « أسفه » لان المؤتمر بحث موضوع اسرائيل في وقت لم تدع فيه الى المؤتمر(٧) . وابدت الصحافة الاسرائيلية اهتماما كبيرا بمؤتمر باندونغ الا ان عددا غير قليل منها استمر في اتخاذ الخط القائـــل انه بما ان المسألة الرئيسية المدرجة في جدول اعمال المؤتمر هي المواجهة مع العرب فان ذلك ليس من شأن اسرائيل مباشرة وعدم دعوتها لا يؤسف عليه . واعربت معظم الصحف عــن قلقها بصور متعددة : فقد ثبت ان الاشتراكية لم تكن اساسا كافيا للعلاقات مع افرو ــ آسية ، « لا تزال عزلتنا عزلة تامة » ، ظهرت « عزلة اسرائيل السياسية والنفسيــة عزلة تامة » ، « ان مدرستنا الفكرية الموالية للغرب خاطئة » وربما يكون اعظم أهمية ان « تبدو اسرائيل جسما غريبا في الشرق الاوسط (٨) » .
لم تلتق بلدان افرو ــ آسيوية مرة أخرى بعد مؤتمر باندونغ على مستوى القمة ولا يبدو مرجحا ان يلتقوا ابدا . انعقد اجتماعان تحضيريــان على مستـــوى وزراء الخارجية في مدينة الجزائر في حزيران وتشرين الاول من العام ١٩٦٥ الا انه لم يتم التوصل الى اي اتفاق غير التأجيل الى أجل غير مسمى . وكانت ردة فعل الصحافة الاسرائيلية لهذا الفشل اشارة واضحة الى ابعاد اسرائيل عن المجموعة الافــرو ــ آسيوية ، كما اعربت عن رضاها لان الافرو ــ آسيويين لن يجتمعوا ثانية ولان الأمور اختلفت جدا انذاك عما كانت عليه في باندونغ . وحيت احدى الصحف « انحطـــاط وانحلال العالم الافرو ــ آسيوي (٩) » . واشارت صحيفة اخرى بلهجة الرضى الى « الضعف العسكري والاقتصادي والاجتماعي الذي يكمن وراء الخطابات القوية التي يلقيها معظم الزعماء الافرو ــ آسيويين (١٠) » . وباختصار اخذ المعلقون الإسرائيليون بعد عشر سنوات بالافتراض القائل بأن ما هو سيء لأفرو ــ آسية جيد لاسرائيل .
وفي هذا الوقت تولى تجمع سياسي جديد لدول يجمعها الولاء المشترك لسياسة عدم الانحياز مهام الجماعة الأفرو ــ آسيوية التي كانت تلتقي على اساس جغرافي .

---

٧ ــ **The Statesman** ، كلكته ، ٢٤ ــ ٤ ــ ١٩٥٥ .
٨ ــ مراجعة الصحف الاسرائيلية في الجيروساليم بوست ، ٢٤ ــ ٢٨ نيسان ١٩٥٥ و **Zmanim** ٢٢ ــ ٤ ــ ١٩٥٥ .
٩ ــ الجيروساليم بوست ، ٥ ــ ١١ ــ ١٩٦٥
١٠ ــ هآرتس ، تل أبيب ، ٥ ــ ١١ ــ ١٩٦٥

وتداخلت الجماعتان الى حد بعيد جدا ، فبينما لم يكن كل الافرو ــ آسيويين غير منحازين كان جميع غير المنحازين تقريبا أفرو ــ آسيويين . فعندما عقدت خمس وعشرون دولة غير منحازة اول مؤتمر قمة لها في بلغراد في ايلول ١٩٦١ لم يكن بينها غير يوغسلافية وكوبه من خارج أفرو ــ آسية .

ولم يكن هناك تردد حول عدم دعوة اسرائيل الى بلغراد كبلد غير منحاز مع ان ولاءها للغرب لم يظهر واضحا الا في العام ١٩٦٥ ومع انها لم تكن رسميا عضوا في كتلة او حلف ، ولم تكن محاولاتها لدخول حلف الاطلسي معروفة عموما ، الا ان تواطؤها مع بريطانية وفرنسة في العام ١٩٥٦ كان برهانا كبيرا على ان اسرائيل ليست جزءا من العالم الثالث الذي كان خاضعا للاستعمار في الماضي .

واعربت الصحافة الاسرائيلية بعد مؤتمر بلغراد عن رضى اكثر مما اعربت عنه بعد مؤتمر باندونغ ، وهناك مبرر لهذا الشعور . فقد كانت هناك مسائل كثيرة وخطيرة قبل انعقاد المؤتمر استحوذت على اهتمام العالم استئناف روسية تجاربها النووية ، والتوتر الحاد في برلين حيث اقيم الحائط السيء الصيت قبل المؤتمر بقليل ، واثر الهجوم الفرنسي على بنزرت والجزائر وانغولا ، والصراع على السلطة في الكونغو . ومن جهة اخرى بدا ان المسألة الفلسطينية ، التي كانت في احدى مراحل ركودها ، اصبحت احدى المسائل غير القابلة للحل (مثل مسألة كشمير) التي اعتاد العالم ببساطة ان يتعايش معها .

ونتيجة لذلك ، وباستثناء غينية ، كان الممثلون العرب (عدا الجزائر) هم الوحيدون الذين ذكروا اسرائيل وفلسطين في اقوالهم العامة وجرى النقاش الوحيد حول المسألة في اللجنة التي كانت تعد بيان المؤتمر ، وتم ذلك وفقا للخطوط المألوفة واقترح المندوبون العرب صيغة شديدة اللهجة حاولت بورمة،والى حد اقل يوغسلافية تخفيفها وايد كريشنا مينون ، ممثل الهند ، هذه المحاولة . ومع ذلك تحول الرئيس تيتو والسيد نهرو عن موقف بورمة الى حد ما عند وضع رؤساء الوفود لمساتهم الاخيرة على مسودة البيان . واعربت الصحافة الاسرائيلية في الوقت الذي شكرت فيه يونو لدعمه لها عن استيائها من مواقف رؤساء يوغسلافية وغينية ومالي ومن موقف السيد نهرو

اما الفقرة المتعلقة بفلسطين في البيان الصادر عن مؤتمر بلغراد فقد كانت اقوى قليلا فقط مما جاء في بيانمؤتمر باندونغمع انه كان من المتوقعانتكوناشد تنديدباسرائيل بعد انكشاف مؤامرة السويس . يقول النص : « يدين المشتركون في المؤتمر السياسات الامبريالية الجارية في الشرق الاوسط ويعلنون تأييدهم لاعادة كافة حقوق الشعب العربي الفلسطيني كاملة غير منقوصة وفقا لميثاق وقرارات الامم المتحدة (١١) . »

اذا قارنا هذا الكلام بالقرار الصادر عن مؤتمر باندونغ نرى ان الاشارة الى « تسوية سلمية » قد الغيت وذكرت « اعادة كافة الحقوق كاملة غير منقوصة » للفلسطينيين . واهم من ذلك وضع المسألة الفلسطينية في اطار « السياسات

١١ ــ الحكومة اليوغسلافية : **مؤتمر رؤساء دول او حكومات البلدان غير المنحازة** ، بلغراد ، ١٩٦١ ، ص ٢٥٨

الامبريالية » في الشرق الاوسط لان هذا هو الخط الفكري الذي برز بازدياد في المؤتمرات التالية .

ويتضح ذلك التحول بوضوح قوي جدا في البيان الذي صدر عن المؤتمر الثاني لدول عدم الانحياز الذي عقد في القاهرة في تشرين الاول ١٩٦٤ ، ذلك البيان الذي وصفه خبراء وزارة الخارجية الاسرائيلية بأنه « من اسوأ القرارات التي اتخذت اطلاقا حول المسألة الفلسطينية » (١٢) . وفي السنوات الاربع التي مرت بين مؤتمري القمة لدول عدم الانحياز اصبح العالم الثالث بصورة حاسمة في حالة نفسية اكثر حدة وشدة كما اصبح اكثر ادراكا لتهديد الاستعمار الجديد ، وهذا الاتجاه لا يزال قائما حتى وقتنا الحاضر . وبما ان المؤتمر الثاني لدول عدم الانحياز عقد في عاصمة عربية صار حتميا ان تكون الاشارة الى فلسطين اشد لهجة . الا انه بسبب الزيادة الكبيرة في الاعضاء ، من ٢٥ في بلغراد الى ٤٧ في القاهرة ، ازدادت الاعتراضات على التشدد في الموقف حول فلسطين . فقد ابدت ثماني دول تحفظات في لجنة الصياغة حول صيغة مسودة البيان ، وهذه البلدان هي سيلان وليبيرية وتشاد وتوغو ونيجيرية وتنزانية ونيبال وبورمة (الا ان الصحافة الاسرائيلية ذكرت انها كانت احدى عشرة دولة مضيفة كمبودية والحبشة والسنيغال) . ولكن هذه البلدان سحبت تحفظاتها علنا في الجلسة الختامية (باستثناء نيبال وبورمة) وسط جو من التهليل والابتهاج مما حمل الصحافة الاسرائيلية على القول بأن اصدقاء اسرائيل يتبعون سياسة ذات وجهين . وذكر المؤتمر الثاني لدول عدم الانحياز انه « يدين السياسة الامبريالية المتبعة في الشرق الاوسط ويقرر ، وفقا لميثاق الامم المتحدة ، ما يلي :

« ١ — الموافقة على اعادة كافة حقوق الشعب العربي الفلسطيني كاملة في وطنه وحقه الثابت في تقرير المصير .

« ٢ — اعلان دعمه التام للشعب العربي الفلسطيني في نضاله من اجل التحرر من الاستعمار والعنصرية » .

يمثل هذا الى حد بعيد اعظم موقف مؤيد للفلسطينيين ومعاد للاسرائيليين تتبناه البلدان الافرو — آسيوية غير المنحازة . يسلم البند الاول بالحق في العودة والحق في تقرير المصير اللذين طالب بهما السيد الشقيري قبل ذلك بتسع سنوات في باندونغ . اما اهمية البند الثاني فهي اشارته الى النضال الفلسطيني بصفته نضالا من اجل « التحرر » وربطه الصهيونية « بالاستعمار » . ان « التحرر » و « الاستعمار » كلمتان تثيران العواطف بشدة لدى الافرو — آسيويين وان يكن بمعنيين متعارضين وكانت المسألة الفلسطينية في العام ١٩٦٤ لا تزال في حالة ركود مثلما كانت في العام ١٩٦١ ، لذلك لم يكن هناك سبب خاص ومعين لكون قرار القاهرة اشد بكثير من القرار السابق الذي اتخذ في بلغراد عدا عن ان هذا التغير عبارة عن تزايد المعارضة للدولة الصهيونية الآخذة قوتها بالازدياد على مر السنين .

وعند انعقاد مؤتمر القمة الثالث لبلدان عدم الانحياز في لوساكا في ايلول ١٩٧٠ كان هناك سبب خاص جدا لتنديد الافرو — آسيويين باسرائيل هو استمرار اسرائيل

---

١٢ — الجيروساليم بوست ، ١٢ — ١٠ — ١٩٦٤

في احتلال الاراضي العربية التي استولت عليها اثناء القتال في حزيران ١٩٦٧ ونتيجة لذلك جاء قرار لوساكا اطول واكثر صراحة في ادانته لاسرائيل من اي قرار اتخذ حتى الآن .

تقدمت الحبشة قرارا خفيف اللهجة الى حد ما في اللجنة السياسية حيث مثل رؤساء الوفود ــ وكانوا عادة من وزراء الخارجية ــ بلدانهم الا ان صيغة عراقية اشد بكثير ما لبثت ان حلت محل اقتراح الحبشة . وبعد نقاش طويل داخل اللجنة تم اتخاذ القرار العراقي فعلا وتقول الصحافة الاسرائيلية ان ستة وعشرين من الوفود (وعددها ٦٢) التي حضرت المناقشة اتخذت موقفا « معتدلا » اي مؤيـــدا لاسرائيل (١٣) . كان هذا قرارا بارزا لانه صدر لاول مرة عن بلدان افرو ــ آسيوية غير منحازة اجتمعت على مستوى وزراء الخارجية ووافقت فيه هذه البلدان على توصية بتطبيق عقوبات ضد اسرائيل اذا استمرت في رفضها الجلاء عــن المناطق العربية المحتلة . وبسبب تأخير حصل في اصدار البيان النهائي انتشرت الانباء في العالم عن ان مؤتمر لوساكا وافق على فرض العقوبات . الا انه عندما اجتمع رؤساء الوفود للنظر في البيان كما اوصت به اللجنة السياسية برز شعور عام حتى في صفوف الوفود المؤيدة للعرب بأن الدعوة لفرض عقوبات بلغت حدا بعيدا بحيث اثير التساؤل حول ما اذا كان باستطاعة دول عدم الانحياز حمل بقية العالم على القبول بها وتنفيذها . ونتيجة لذلك اوصى رؤساء الوفود باستبدال كلمة « عقوبات » بكلمتي « اجراءات كافية » ، وهي توصية اضعف بكثير من التوصية الاولى وتبدو اشد ضعفا اذا قورنت بنص القرار كله . وجدير بالملاحظة ايضا انه لاول مرة تذكر « اسرائيل » بأسمها على انها موضوع او بالاحرى هدف القرار .

وفيما يلي نص بيان لوساكا في صورته النهائية (غير ان الكلمات التي ظهرت في القرار كما قدمته اللجنة السياسية اساسا موجودة بين قوسين) :

« ان رؤساء دول او حكومات البلدان غير المنحازة يؤكدون من جديد القرارات السابقة التي تبنتها بلدان عدم الانحياز والتي اجتذبت الانتباه الى الوضع الخطير في الشرق الاوسط والى حقيقة ان استمرار الاحتلال الاسرائيلي لثلاثة بلدان من بلدان عدم الانحياز يشكل خرقا لمبادىء الامم المتحدة وتحديا لاهداف عدم الانحياز وتهديدا خطيرا (جديا) للسلام ، ويرون من غير المقبول ان تحتفظ اسرائيل بأراضي ثلاثة بلدان ذات سيادة وغير منحازة تحت الاحتلال وتستمر في اتباع سياسة استخدام القوة بشكل صارخ وتستخدم احتلال هذه المناطق كوسيلة للضغط من اجل فرض الحلول ، ويكررون رفضهم لاكتساب الارض بالقوة ويدعون الى انسحاب اسرائيل الفوري من كل الاراضي العربية التي احتلتها بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، ويعلنون ان الاحترام الكامــل للحقوق الثابتة للشعب العربي الفلسطيني هو شرط للسلام في الشرق الاوسط، ويدعون الى اعادة حقوق الشعب العربي الفلسطيني كاملة وتامة في وطنه (بوطنه) المغتصب ويؤكدون من جديد دعمهم في نضالهم من اجل التحرر الوطني من الاستعمار والعنصرية، يكررون القول بضرورة الالتزام بقرارات الامم المتحدة في هذا المجال وتنفيذها ، يعربون

١٣ ــ الجيروساليم بوست ، ١٧ ــ ٩ ــ ١٩٧٠

عن تأييدهم للممثل الخاص للامين العام للامم المتحدة في تنفيذ قرار مجلس الامن الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، يأسفون لعرقلة اسرائيل لهذه الجهود الهادفة الى اقامة السلام على اساس العدل وخاصة مقاطعتها المحادثات التي يجريها الممثل الخاص للامين العام للامم المتحدة في القيام بالمهمة الموكولة اليه وفق قرار مجلس الامن ، يوصون الامم المتحدة باتخاذ الاجراءات الكافية ضد اسرائيل (ويوصون بتطبيق العقوبات ضد اسرائيل وفقا للفصل الثامن من ميثاق الامم المتحدة) اذا اصرت على الاستهتار بالجهود المبذولة من اجل اقامة السلام على اساس العدل ، وعلى رفض الجلاء عن الاراضي المحتلة تمشيا مع قرار مجلس الامن » .

ان هذا القرار المطول والمفصل الذي يدين اسرائيل بشدة هو صرخة بعيدة فعلا عن الكلمات الغامضة والمسكنة التي صدرت عن مؤتمر باندونغ . فبعد مضي خمس عشرة سنة على ذلك المؤتمر لم تستطع الحكومات الافرو ــ آسيوية مهما بلغت تحفظاتها الا ان تتخذ موقفا علنيا ضد اسرائيل .

اما الى اي مدى كانت هذه المعارضة للدولة الصهيونية اساسية فيتضح عندما نلاحظ تغيرا واحدا صغيرا ، لكنه عظيم الاهمية ، ادخله رؤساء الدول على صياغة القرار . فقد اتفق وزراء الخارجية على « الدعوة الى اعادة كامل حقوق الشعب العربي الفلسطيني بوطنه المغتصب » ولكن رؤساء الدول ادخلوا تعديلا بقولهم « اعادة كامل حقوق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه المغتصب » . ويعني هذا اكثر من الحق في العودة ، يعني ان رؤساء الدول الافرو ــ آسيوية يسلمون بوجود رابطة قومية « ثابتة » بين شعب فلسطين وارض فلسطين ويعني هذا بدوره تحركا باتجاه فكرة ان الدولة الصهيونية اقيمت على تلك الارض ويجب ان يحل محلها او ان تتحول الى كيان قومي فلسطيني . ولا يستطيع الرفض الافرو ــ آسيوي لاسرائيل ان يذهب ابعد من ذلك .

كانت المؤتمرات الاربعة التي تعرضنا لها لقاءات حكومية رسمية . اما الاجتماعات غير الرسمية لمختلف المنظمات الافرو ــ آسيوية فقد نددت باسرائيل بشدة قبل المؤتمرات الرسمية بسنوات عديدة . وهكذا صرح ثمانية واربعون بلــــدا حضروا المؤتمر الاول للتضامن الافرو ــ آسيوي الذي عقد في القاهرة في الاول من كانون الثاني ١٩٥٨ بأن « دولة اسرائيل قاعدة امبريالية تهدد تقدم وأمن الشرق الاوسط » . واعلن المؤتمر دعمه « لحقوق عرب فلسطين في العودة الى وطنهم » . وفي السنوات التالية ادينت اسرائيل بقسوة ودون مساومة في مؤتمرات الصحافيين والقانونيين ومنظمات الشباب والنساء التي عقدت في غينية واندونيسية والجزائر وتنزانيه وغانا .

وفي كانون الثاني ١٩٦٦ اتسعت حركة التضامن الافرو ــ آسيوية وتحولت الى حركة التضامن بين شعوب القارات الثلاث آسية وافريقية وامبركة اللاتينية . وعقد المؤتمر الاول للقارات الثلاث في كوبة وقرر ما يلي :

« ١ ــ يعتبر المؤتمر اساسا ان اسرائيل امبريالية في طبيعتها وعدوانية وتوسعية في اغراضها وعنصرية في تركيبها وفاشية في طرقها ووسائلها .

« ٢ ــ يعتبر المؤتمر اسرائيل ، الدولة الاستيطانية ، قاعدة للامبريالية واداة

في خدمة الاستعمار في العدوان والتسلل والتغلغل الاقتصادي والسياسي والثقافي في القارات الثلاث .

« ٣ ــ يعتبر المؤتمر حق الفلسطينيين في تحرير وطنهم امتدادا طبيعيا لحقهم الثابت في الدفاع الشرعي عن انفسهم . »

لا يمكن اضافة الكثير الى هذه التصريحات الغاضبة والمباشرة في ادانة اسرائيل .

انغالبية الحكومات الافرو ــ آسيوية حاليا يمينيةاو «فيوسط الطريق»، اما حركة التضامن الافرو ــ آسيوية فيسارية صراحة. ولكن سواء أكانت حكوماتهم ملكية تقليدية أم جمهورية معتدلة أم تنظيما « تقدميا » محرضا فان ما يجمع الافرو ــ آسيويين على ما يبدو شيئان : فهم قوميون ومعادون لاسرائيل ويبدو ان هذين الشعورين يسيران معا بصورة متزايدة . ذلك لانه كلما تقارب الافرو ــ آسيويون القوميون كلما ازداد ابعادهم للدولة الصهيونية . وقد صح هذا حتى على بلدان في آسية وافريقية اظهرت اسرائيل لها صداقة خاصة مثل بورمة وتركية وغانه .

التقرب والابتعاد

يلاحظ نمط معين في علاقات اسرائيل مع بعض الدول الافرو ــ آسيوية : كلما ازدادت الصداقة التي تبديها اسرائيل نحوهم كلما قلت صداقة هذه البلدان نحوها في النهاية مع ازدياد ثقة هذه البلدان بالنفس واعتمادها على ذاتها . ونحن نحكم من خلال ما حدث مرارا وتكرارا في العالم الثالث اذ نجد ان البلد الذي يتمتع بمعايير مستقلة للحكم على الامور يبتعد عن اسرائيل عندما يعرفها جيدا .

ويبدو ان الحكم ذاته ينطبق على الافراد في علاقاتهم مع اسرائيل انظر الى حقيقة ان وسيط الامم المتحدة الكونت برنادوت ورؤساء الاركان التابعين للامم المتحدة (الجنرال بنايك والجنرال بيرنز والجنرال فون هورن) انتهوا ، بعد ان تعاملوا مع اسرائيل كثيرا ، بشعور عدائي نحوها (١٤) . واصبح من البديهي تقريبا ان ضباط هيئة الرقابة التابعة للامم المتحدة ، مهما بلغت صداقتهم لاسرائيل وهم عادة اصدقاء لها ، يصبحون عند نهاية مهماتهم معادين لاسرائيل (١٥) .

لسنا هنا بصدد تفحص التقلب العادي بين التحسن والتدهور في العلاقات بين الدول لان هذا التقلب شيء مألوف في العلاقات بين الدول مثلما هو بين الافراد . الا اننا نشير الى العملية التي تبدأ بفترة اولية تتميز بعلاقات ناشطة جدا وودية للغاية بين اسرائيل والدول الاخرى . ومثل تلك العلاقات الودية تدوم من خمس الى ثماني سنوات يليها تراجع من جانب الحكومات الافرو ــ آسيوية . ويكسب هذا التراجع قوة بصورة سريعة بحيث انه ما ان تمضي عشر او اثنتا عشرة سنة على تقدم اسرائيل نحو البلد الافرو ــ آسيوي حتى لا يبقى من العلاقة ما يفوق سلامتها من الناحية الديبلوماسية ، وبقدر ما نستطيع ان نلاحظ فان الصلة تبقى على هذا المستوى الرسمي على الرغم من عدم وجود اي انقطاع واضح فيها .

---

١٤ ــ بالنسبة للكونت برنادوت انظر : م. اي. جنسن ، **الولايات المتحدة والشعب الفلسطيني** ، بيروت ، ١٩٧٠ ، الفصل الثالث ، الجنرال اي.ل.م. بيرنز ، **Between Arab & Israeli** ، لندن ، ١٩٦٢ ، بيروت ، ١٩٦٨ ، الجنرال كارل فون هورن ، **Soldiering For Peace** ، لندن ، ١٩٦٦

١٥ ــ فون هورن ، المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .

وتذكر احدى الدراسات في علاقات اسرائيل بالدول النامية « اغلاق المشاريع المشتركة قبل الاوان في بورمة وغانا وتنزانية (١٦) » مشيرة بذلك في الحقيقة الى تراجع ثلاثة بلدان عن صداقتها مع اسرائيل ، تلك الصداقة التي سعت اسرائيل وراءها بحماسة خاصة .

وكما راينا من قبل فان التغير في موقف بورمة بدأ في العام ١٩٦١ عندما قام يونو بزيارة للقاهرة في السنة الاخيرة من حكمه . وازداد هذا التغير وضوحا بعد العام ١٩٦١ عندما تسلم السلطة الجنرال ني وين ، لقد انخفض عدد الزائرين والمتدربين كثيرا الى ان توقف كليا في النهاية . اما الذي ازعج اسرائيل بصورة خاصة فهو تأميم مشاريعهم المشتركة في بورمة كجزء من البرنامج الذي اطلق عليه اسم « طريق بورمة الى الاشتراكية » .

وتشير ارقام التجارة المتبادلة بين بورمة واسرائيل بوضوح الى الانحطاط الحاد في العلاقات البورمية ــ الاسرائيلية : قدرت قيمة استيراد اسرائيل من بورمة في العام ١٩٦٤ بـــ ٧٠٠،٠٠٠ دولار ، وانخفضت هذه القيمة في العام ١٩٦٧ الى ١٠٠٠ دولار ، اما الصادرات الاسرائيلية الى بورمة فقد بلغت ١٤٤ مليون في العام ١٩٦٤ وانخفضت في العام ١٩٦٧ الى ٤٠٠٠ دولار .

اما ابتعاد تركية عن اسرائيل فقد حدث بصورة تدريجية اكثر من تراجع بورمة عنها . فبعد عدوان السويس في العام ١٩٥٦ سحبت تركية وزيرها المفوض من مفوضيتها في اسرائيل ، ومنذ ذلك الحين لم يمثلها هناك سوى قائم بالاعمال ذي مرتبة صغيرة احيانا . وفي كانون الثاني ١٩٦٥ اعلنت تركية عن عزمها على تخفيف روابطها باسرائيل . واعطت حرب ١٩٦٧ الفرصة لتركية لتتخذ خطوة اخرى في الابتعاد عن اسرائيل . وفي العام ١٩٦٩ اعلنت تركية من طرف واحد انهاء اتفاقها التجاري مع اسرائيل . وكان حجم التجارة قد انخفض بينهما على اية حال : فقد انخفضت قيمة ما تستورده اسرائيل من تركية من ٥ ملايين دولار في العام ١٩٦٦ الى ٢،٣ مليون دولار في العام ١٩٦٨ ، وانخفضت صادرات اسرائيل اليها من ٨،٢ مليون دولار الى ٣،٦ مليون دولار في الفترة نفسها .

وواجهت اسرائيل اول صدمة رفض من افريقية عندما اشتركت كل من غانا وغينية ومالي مع الجمهورية العربية المتحدة والجزائر والمغرب في اصدار بيان في مؤتمر الدار البيضاء الذي عقد في العام ١٩٦١ يندد باسرائيل بشدة . وقد آلم اسرائيل بشكل خاص تصرف غانا وغينية اللتين كانت تتودد اليهما باستمرار ــ والحقيقة ان غانا كانت تمثل نقطة تغلغل في افريقية بالنسبة لاسرائيل مثلما كانت بورمة بالنسبة لها في آسية.ولم تتحسن علاقات اسرائيل مع مالي وغينيةابدا بعد ذلكالرفض الاولي وسارت علاقاتها مع غانا بثبات في طريق الانحطاط . ومع تأكيد الرئيس نكروما بشدة على الافريقية صار حتميا ان تلغي غانا مشاريعها المشتركة مع اسرائيل ، وحدث هذا فعلا عندما اخذت غانا حصة اسرائيل في خط شحن بحري وفي شركة بناء .

وحدث الشيء نفسه الى حد بعيد في العلاقات الاسرائيلية ــ التنزانية اذ خضعت

---

١٦ ــ ل. لوفر ، اسرائيل والبلدان النامية ، نيويورك ، ١٩٦٧ ، ص ١٤٣ ــ ١٤٤ .

الحماسة المبكرة والمشاريع المشتركة امام التأميم مما ادى الى موقف معاد لاسرائيل بشدة خاصة بعد العام ١٩٦٧ .

وتظهر دراسة علاقة سيلان باسرائيل ان السياسة التوسعية الاسرائيلية واحتلال اسرائيل للارض العربية ليسا فقط سبب عملية التراجع عن اسرائيل . وعلى الرغم من ان اسرائيل احتفظت بمفوضيتها في كولومبو فان الحكومة السيلانية تركت دائما مسافة معينة بينها وبين اسرائيل : ففي العام ١٩٦٠ سحبت سيلان اعتماد وزيرها المفوض (غير المقيم) في اسرائيل . وفي العام ١٩٧٠ وبعد مرور ثلاث سنوات على حرب ١٩٦٧ قطعت الحكومة السيلانية الجديدة بزعامة السيدة باندرانايكا كل علاقاتها الديبلوماسية مع اسرائيل ، وكان هذا اول عمل رسمي قامت به بعد تسلمها الحكم . لماذا حدث ذلك ؟

الجواب على ذلك هو حقيقة ان هذه الحكومة اكثر يسارية او تطرفا واقل تأييدا للغرب من سابقتها . وادت هذه الاسباب نفسها دورها في كل من بورمة وغينية وهي تعمل الآن في الهند وتؤثر في سياسة رئيسة الوزراء السيدة انديرا غاندي في الشرق الاوسط ، وهي سياسة معادية لاسرائيل بصراحة اكثر من سياسة والدها السيد نهرو . ولم تتغير مصالح الهند في الشرق الاوسط في السنوات الخمس الاخيرة كما لم تزد الدول العربية من تأثيرها على الهند (والعكس صحيح الى حد ما) . ومع ذلك اشتدت كراهية السياسة الهندية للدولة الصهيونية ، وحدث معظم هذا التغير قبل حزيران ١٩٦٧ . وتفسير ذلك يوجد في التطرف المتزايد في الفكر والشعور السياسيين الهنديين . ان تكون افرو ــ آسيويا متطرفا او يساريا يعني بشكل تلقائي ان تتخذ موقفا معاديا لاسرائيل .

والذي عمل ضد اسرائيل في بورمة ايضا هو نمو الشعور بالاصالة لان الجنرال ني وين كان يحاول ادخال الاشتراكية « البورمية » تماما كما ادت الاشتراكية « الافريقية » الى اغلاق المشاريع المشتركة مع اسرائيل في كل من غانا وتنزانيه « قبل الاوان » .

والذي اثر ايضا على علاقة اسرائيل بالدول الافرو ــ آسيوية في كل هذه الحالات ــ بورمة ، غينية ، غانه ، تنزانيه ، وسيلان ــ هو نمو الثقة بالنفس في تلك الدول . وبلغ هذا النمو حدا مقبولا واتخذ مظهرا معاديا لاسرائيل بسبب اسرافها في تقديم مساعدتها . فقد كانت اسرائيل تتلهف تلهفا شديدا لايجاد الفرص الملائمة لها في افرو ــ آسية التي كانت غير مهتمة بها او معادية لها عموما . لذلك كانت اسرائيل تندفع بالعديد من مشاريع العون حالما تتاح لها اول فرصة . وقد ادى هذا الى ترك الانطباع لدى الشعوب التي تتلقى العون بأنها واقعة تحت سيطرة الاجانب الذين يقولون لهم ماذا يفعلون وكيف يديرون بلدهم . وقد تركت هذه المساعدة ايضا انطباعا خاطئا على الرأي العام الاسرائيلي الذي اخذ يشعر بأن مساعدته هي الدعامة الرئيسة او الوحيدة لبعض البلدان الافرو ــ آسيوية ، وهذا ايضا يثير اشمئزاز الحكومات الافرو ــ آسيوية التي تتلقى المساعدة عندما تسمع بمثل هذه المشاعر نحوها (١٧). الا

---

١٧ ــ م. اي . كريغين ، اسرائيل وافريقية ، نيويورك ، ١٩٦٤ ، ص ١٧٨ .

ان الاسرائيليين بحاجة لان يضخموا مساعدتهم اكثر مما ينبغي في الواقع وعلى صعيد الدعاية لان هذه المساعدة لا ترتكز على حسابات النفع المشترك او الشعور الانساني وانما على الضرورة السياسية ــ النفسية للتهرب من عزلتهم .

وبما أن الولايات المتحدة هي الممثلة الرئيسية لما يسمى « الغرب » فان العداء للغرب يعني العداء لاميركة ، والعداء لاميركة يعني العداء لاسرائيل لان اميركة هي كفيلة اسرائيل وسندها . وحتى لو تركنا مجالا للمغالطة المنطقية « بعد هذا ، وبسبب منه » يبدو هنالك ترابط بين العدوتين . ولا يمكن ان يكون هناك تفسير آخر للظاهرة المتكررة التالية : عندما يصبح بلد صديق للولايات المتحدة معاديا لها يتخذ بسرعة بعد ذلك موقفا معاديا لاسرائيل بعد أن كان في السابق صديقا للدولة الصهيونية . وقد حدث هذا بالنسبة لتركية والفيليبين وكمبودية حيث كان الترابط بين العداء لاميركة والعداء لاسرائيل واضحا بصورة خاصة . وبامكاننا ان نتنبأ بثقة ان الشيء نفسه سيحدث في اليابان حيث بدأت تظهر الدلائل على عملية الابتعاد المترابط بوضوح .

وهكذا فان الاقتراب من اسرائيل ومن الطبيعة الاساسية للدولة الصهيونية يولد ردة فعل هي الارتداد في الدول الافرو ــ آسيوية بدافع القومية الاصلية وازدياد الاعتماد على النفس والثقة بها . والعكس صحيح ايضا . ويكشف تحليل سجل التصويت في الامم المتحدة بصورة واضحة ان افضل اصدقاء اسرائيل في آسية وافريقية واميركة اللاتينية هم في غالبيتهم الساحقة الدول الصغيرة والضعيفة التي لا عون لها وتلك المرتبطة اقتصاديا وعسكريا بدول خارج افرو ــ آسية .

سجل التصويت في الامم المتحدة

لقد راينا كيف ان المؤتمرات الافرو ــ آسيوية ومؤتمرات عدم الانحياز ، رسمية وغير رسمية ، تصلبت تدريجيا في موقفها ضد اسرائيل . وربما يقال ان البيانات النهائية الصادرة عن هذه المؤتمرات لم تعبر عن الشعور الحقيقي او السياسة الحقيقية لكل دولة بمفردها تجاه المسألة الفلسطينية لان الدول الاعضاء كانت تتأثر بالجو العام للمؤتمر وايضا بالحاجة الى الحفاظ على الاجماع لانه تجري اقتراعات في مثل هذه المؤتمرات . وهكذا فان الطريقة الوحيدة التي يعبر بها بلد ما عن رأيه الحقيقي سلبا هي عن طريق ادخال تحفظات بصورة سرية مثلما فعلت بعض البلدان احيانا حول الفقرة المتعلقة باسرائيل .

ولهذه الاسباب قد يمثل سجل التصويت في الجمعية العامة للامم المتحدة صورة اكثر وضوحا وصدقا للسياسة الحقيقية للدول الافرو ــ آسيوية تجاه اسرائيل والمسألة الفلسطينية . ففي التصويت بالمناداة تتخذ الحكومات مواقف علنية ، وفي نيويورك تقوم الحكومات الافرو ــ آسيوية بذلك بهدوء ودرس لانهم في جو عالمي وغير متأثرين بالمسرح المحلي او الحماسات الاقليمية او القارية .

وعليه فان أصوات الدول الافرو ــ آسيوية في الامم المتحدة حول المسائل المختلفة الناجمة عن المسألة الفلسطينية تشكل اداة واضحة وصحيحة نقيس بها بالضبط درجة التأييد العام الذي يقدمونه الى الدول العربية او يحجبونه عن اسرائيل . وهذا صحيح

خاصة فيما يتعلق بالاصوات التي ادلي بها في الجمعية العامة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ وخاصة بعد القتال مباشرة عندما كانت المشاعر مستمرة صعدا وكان كل من العرب والاسرائيليين يحثون اصدقاءهم على الوقوف الى جانبهم .

وفي هذه الجلسة الخاصة التي عقدتها الجمعية العامة لمعالجة نتائج حرب حزيران طرحت على التصويت ثلاثة مقررات هامة . كان هناك قرار الدول غير المنحازة او الافرو ــ آسيوية الذي دعا الى انسحاب القوات الاسرائيلية بدون شرط من الاراضي العربية التي احتلت اثناء المعركة . وقد لقي هذا القرار تأييد البلدان العربية . ثم بدأ التنافس المباشر عندما قدمت بلدان اميركة اللاتينية (باستثناء كوبه) قرارا يربط بين انسحاب القوات الاسرائيلية ووقف حالة الحرب القائمة بين الدول العربية واسرائيل ، وهذا موقف مؤيد لوجهة النظر الاسرائيلية . وكان اخيرا القرار المتعلق بالقدس الذي اعلن عدم قانونية ضم اسرائيل للقطاع الاردني من المدينة من طرف واحد .

واذا جمعنا الاصوات حول هذه المقررات الثلاثة نحصل على قائمة مؤلفة من ثلاث مجموعات من المواقف : مجموعة مؤيدة للعرب ومجموعة في الوسط ومجموعة مؤيدة لاسرائيل . ويمكن تقسيم المجموعتين الاولى والثالثة الى مجموعات فرعية مؤيدة للعرب تأييدا « تاما » « وبشدة » ، ومؤيدة لاسرائيل « بشدة » « وبشدة كبيرة ». (لا تشمل القائمة الدول العربية) .

وفي الجلسة العادية للجمعية العامة التي عقدت في العام ١٩٦٨ طرحت ثلاثة قرارات اساسية للتصويت مرة اخرى . الاول كان مشروع قرار سليم من الولايات المتحدة هدفه تمديد فترة وكالة هيئة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (انروا) . واتخذ هذا القرار بتأييد ١٠١ صوتا ودون معارضة احد وامتناع دولة واحدة ، اسرائيل ، عن التصويت . الا ان قرارا اشد لهجة بقليل اتخذ بتأييد ٨٨ مقابل لا شيء ، واشار هذا القرار الى اشخاص « مشردين في الوقت الحاضر ... نتيجة حرب حزيران ١٩٦٧ » . ولا يمكننا استخلاص نتائج من هذين الاقتراعين على الرغم من كبر عدد الممتنعين والغائبين او غير المشتركين في الاقتراع الثاني بصورة غير عادية .

والاكثر ايضاحا هو التصويت الذي جرى على قرار تقدمت به ست دول والذي يدعو البند الاساسي فيه اسرائيل الى القبول بعودة « لاجئي » العام ١٩٦٧ دون تأخير . ونال مشروع القرار هذا على ٩١ صوتا مؤيدا ، اما اسرائيل فكانت الدولة الوحيدة التي عارضته في حين امتنعت تسع دول عن التصويت هي بوتسوانا وكولومبيه وداهومي وجمهورية الدومينيك وجمايكه وروانده وتوغو والاوروغواي وفينزويلا

واول قرار اثار الخلاف فعلا هو القرار الذي تقدمت به خمس دول ــ هي افغانستان واندونيسية وماليزية وباكستان والصومال ــ لكنه لم يطرح على التصويت في الجمعية العامة لانه فشل في الحصول على اغلبية الثلثين المطلوبة في اللجنة ، فقد نال ٤٤ صوتا مؤيدا مقابل ٤٢ صوتا معارضا وامتناع ٢٢ عن التصويت . ودعا مشروع القرار هذا الى تعيين قيم على « حماية وادارة الاملاك العربية في اسرائيل » .

اما القرار الثاني الذي اثار الخلاف فقد نادى « باحترام وتطبيق حقوق الانسان في المنطقة المحتلة » . وعبر القرار بكلمات لا لبس فيها عن اسفه لخرق حقوق الانسان

وامتهان الحريات الاساسية في المناطق المحتلة وطالب اسرائيل بالتوقف عن نسف البيوت العربية واقترح ان تعين الامم المتحدة لجنة تحقيق مؤلفة من ثلاث دول اعضاء للتحقيق في احوال المناطق المحتلة . وقد تبنت الجمعية العامة هذا القرار المؤيد للعرب بصورة خاصة بتأييد ٥٥ صوتا واعتراض ٣٢ صوتا وامتناع ٤١ عن التصويت .

لقد صنفت هذه الاصوات ايضا وها نحن نبرزها في الجدول الاول .

الجدول الاول ــ التصويت على المقررات الثلاثة التي نظرت فيها الجلسة الخاصة للجمعية العامة في صيف ١٩٦٧

	التصويت الى جانب العرب		
	تأييد تام	تأييد شديد	المجموع
آسية	افغانستان ، سيلان ، قبرص ، الهند ، اندونيسية ، ماليزيا ، باكستان	بورمة ، كمبودية ، ايران ، تايلاند ، تركية ، اليابان	١٣
افريقية	بوروندي ، الكونغو (برازافيل) ، غينية ، مالي ، موريتانية ، السنغال ، الصومال ، تنزانية ، توغو ، اوغنده ، فولتا العليا ، زامبية	نيجيرية ، الكمرون ، الكونغو (كنشاسا) ، سيراليون	١٦
اوروبة	روسية ، يوغسلافية ، دول الكتلة الشيوعية الثماني	فنلندة ، فرنسة ، اليونان ، اسبانيا	١٤
اميركة اللاتينية	ــ	كوبة	١
اميركة الشمالية	ــ	ــ	ــ
المجموع			٤٤

	اصوات الوسط	
آسية	الصين (فورموزه) ، لاوس ، نيبال ، سنغافورة	٤
افريقية	تشاد ، ساحل العاج ، النيجر	٣
اوروبة	السويد	١
الاميركتان	ــ	ــ
المجموع		٨

	التصويت الى جانب اسرائيل		
	تأييد شديد جدا	تأييد شديد	المجموع
آسية	ــ	الفيليبين	١
افريقية	جمهورية افريقية الوسطى، داهومي، كينية ، ليبيرية ، ملاوي ، رواندة ، جنوب افريقية	بوتسوانا ، الحبشة ، الغابون، غامبية ، غانا ، ليسوتو ، مدغشقر	١٤

(تتمة الجدول الاول)

اوروبــة	ايسلندة ، ايطاليــة ، مالطــة ، البرتغال	النمسة ، بلجيكا ، الدنمارك ، ايرلنــدة ، لوكسمبــورغ ، هولنــدة ، النروج ، المملكــة المتحــدة	١٢
اميركة اللاتينية	بربادوس ، بوليفيــة ، كولومبية ، جامايكة ، الاوروغواي	الارجنتين، البرازيل ، تشيلي ، كوستاريكا، جمهوريةالدومينيك، الاكوادور ، السلفــادور ، غواتيمالا ، غيانة ، هندوراس، المكسيك ، نيكاراغوا ، بنما ، الباراغواي ، بيرو ، ترينيداد وتوباغو ، فنيزويلا	٢٢
اميركة الشمالية	الولايات المتحدة	كنــدة	٢
المجموع			٥١

الجدول الثاني ــ التصويت على المقررات الثلاثة التي نظرت فيها الجلسة العادية للجمعية العامة للامم المتحدة للعام ١٩٦٨

التصويــت الى جانب العــرب			
	تأييد تــام	تأييد شديد	المجموع
آسيــة	افغــانستان ، سيــلان ، الصين (فورموزة) ، الهنــد ، اندونيسية ، ايران ، ماليزية ، ملديف ، باكستان	بورمة ، قبرص ، اليــابان ، نيبال ، الفيلبين ، سنغافورة ، تركية ، تايلاند	١٧
افريقيــة	بوروندي ، الكونغو (برازافيل) ، غينيــة ، مــالي ، موريتانيــة ، السنغال ، الصومال	الكمرون ، جمهوريــة افريقية الوسطى ، تشاد ، غــانة ، الحبشة ، كينية ، نيجيرية ، النيجــر ، اوغنــدة ، فلتا العليا ، تنزانية	١٨
أوروبــة	يوغسلافية ، روسية ، وسبع دول شيوعية	اليونان ، البرتغال، رومانية ، اسبانية	١٣
اميركة اللاتينية	كوبــة	تشيلي، هندوراس، المكسيك ، البيرو ، ترينيداد وتوباغــو ، فينزويلا	٧
اميركة الشمالية	—	—	—
المجموع			٥٥

(تتمة الجدول الثاني)

اصوات الوسط

آسيــة	—	
افريقيــة	—	—
اوروبــة	النمسة ، بلجيكة ، الدنمارك ، فنلندة ، فرنسة ، ايسلندة ، ايرلندة ، ايطالية لوكسمبورغ ، النروج ، السويد ، المملكة المتحدة	— ١٢
اميركة اللاتينية	الارجنتين ، بربادوس ، البــرازيل ، الاوروغواي	٤
أميركة الشمالية	كنــدة	١
المجموع		١٧

التصويت الى جانب أسرائيل

	تأييد شديد جدا	تأييد شديد	المجموع
آسيــة			—
افريقيــة	بوتسوانا ، داهومي، توغو ، رواندة	غينية الاستوائية ، الغابــون ، غامبية ، ساحل العاج ، ليسوتو ، ليبيرية ، مدغشقر ، ملاوي ، موريشوس ، سوازيلاند	١٤
اوروبــة			—
اميركة اللاتينية	كولومبية ، جمهورية الدومينيك ، جامايكا ، هايتي	بوليفية ، الاكوادور ، السلفــادور ، نيكــاراغوا ، بنما ، البــاراغواي	١٠
أميركة الشمالية	الولايات المتحدة		١
المجموع			٢٥

الجدول الثالث ــ سجل تصويت اعضاء الامم المتحدة حول المسالة الفلسطينية :

المواقف الثابتة في العامين ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨

التصويــت الى جانب العــرب

	تأييد تــام	تأييد شديد	المجموع
آسيــة	افغانستان ، سيــلان ، الهنــد ، ماليزية ، باكستان	بورمة ، قبرص ، اليــابان ، تايلاند ، تركية	١١

(تتمة الجدول الثالث)

افريقيــة	بوروندي ، الكونغو (برازافيل) ، غينية ، مالي ، السنغال ، الصومال	الكمرون ، نيجيرية ، تنزانية ، فولتا العليا	١٠
اوروبــة	روسية ، يوغسلافية ، وسبع دول شيوعية (الكتلة الشيوعية)	اليونان ، رومانية ، اسبانية	١٢
اميركة اللاتينية	—	كوبــة	١
اميركة الشمالية	—	—	—
المجموع			٣٤

اصوات الوسط

اوروبة	السويــد

التصويت الى جانب اسرائيل

	تأييد شديد جدا	تأييد شديد	المجموع
آسيــة	—	—	—
افريقيــة	—	بوتسوانا ، غامبية ، الغابون، ليسوتو ، داهومي ، ليبيرية ، ملاوي ، مدغشقر ، رواندة	٩
اوروبــة	—	—	—
اميركة اللاتينية	كولومبية ، جامايكــا	جمهورية الدومينيك ، الاكوادور ، السلفــادور ، نيكاراغوا ، بنما ، باراغواي	٨
اميركة الشمالية	—	الولايات المتحدة	١
المجموع			١٨

وتظهر مقارنة الجدولين الاول والثاني للعامين ١٩٦٧ — ١٩٦٨ تحولا محددا بل وحاسما ايضا عن العطف على اسرائيل الى العطف على العرب . ففي العام ١٩٦٧ كانت نتيجة التصويت ٤٤ مؤيدا للعرب ، ٨ وسطيين ، ٥١ مؤيدا لاسرائيل ، الا انها اصبحت في العام ١٩٦٨ على الشكل التالي : ٥٥ — ١٧ — ٢٥ . يعني هذا ان اسرائيل فقدت نصف مؤيديها . كان هذا التغير الجذري نتيجة لتحول حدث في اصوات كتلتين : انتقل ١١ صوتا اوروبيا من تأييد اسرائيل الى الوسط ، ثم تحول عن تأييدها ٢٢ صوتا اميركيا لاتينيا بينها ستة صارت مؤيدة للعرب . والجدير بالاهمية هو ان هذا التغير نحو الاسوأ في التصويت بالنسبة لاسرائيل لا يرجع قليلا او لا يرجع بالمرة الى فضل الجماعة الافرو — آسيوية التي بقي سجل تصويتها ثابتا بصورة مدهشة خلال هذين العامين : ففي العام ١٩٦٧ بلغ عدد المؤيدين للعرب ٢٩ والوسطيين ٧ والمؤيدين لاسرائيل ١٥ ،

واصبحت هذه الارقام في العام ١٩٦٨ كما يلي : ٣٥ ــ صفر ــ ١٤ . ولم تكن الاصوات الــ ١٤ المؤيدة لاسرائيل في تصويت العام ١٩٦٨ في الحقيقة افرو ــ آسيوية بل افريقية فقط ، وكان بين الاصوات الــ ١٥ المؤيدة لاسرائيل في تصويت العام ١٩٦٧ صوت آسيوي واحد هو صوت الفيليبين . وهكذا فان اسرائيل لا تملك في القارة الآسيويــة حيث ولدت قاعدة صلبة من التأييد بينما تملك في افريقية كتلة تتألف من ١٣ او ١٤ مؤيد وفي .

واذا ما طابقنا بين جدولي التصويت لهذين العامين استطعنا ان نميز المواقف الثابتة لاعضاء الامم المتحدة من المسألة الفلسطينية .

وهكذا نلاحظ في الجدول الثالث (سجل التصويت الثابت) للعامين ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨ ٣٤ صوتا مؤيدا للعرب وصوت واحد وسطي و١٨ صوتا مؤيدا لاسرائيل .

وصوتت الجمعية العامة للامم المتحدة في العام ١٩٦٩ على ثلاثة قرارات اثنان منها يتعلقان باستمرار الانروا في مهمتها وتقديم مساعدة خاصة لها ، وقد اتخذ هــذان القراران دون اية معارضة اما القرار المثير للخلاف حقا فكان شاملا وضم ؛ ربما لسوء الحظ ، اشارات الى مسائل انسانية تتعلق بحقوق الانسان وسياسية تماما واعترف النص « بأن مشكلة اللاجئين العرب الفلسطينيين قد نتجت عن حرمانهم من حقوقهم الثابتة التي ينص عليها ميثاق الامم المتحدة والاعلان العالمي لحقوق الانسان » ويذكر النص ايضا ان مشكلتهم قد « تفاقمت بسبب سياسة العقاب الجماعي والاعتقال الكيفي وحظر التجول ... » ، وذكر القرار ايضا بالقرارات السابقة التي تطالب اسرائيل « بقبول اعادة لاجئي العام ١٩٦٧ » كما « اكــد من جديد الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني . »

وكان التصويت على هذا القرار غير عادي ، فقد ايده ٤٨ وعارضه ٢٢ وامتنع ٤٧ عن التصويت وربما افقدته طبيعته الشاملة بعض المؤيدين الا انه بسبب هذا الشمول بالضبط كانت الاصوات المؤيدة والاصوات المعارضة عبارة عن مواقف سياسية قوية جدا في دعم العرب دعما تاما او دعم اسرائيل دعما تاما .

وبذلك نتوصل الى نتيجة مدهشة وحقيقية وهي ان للعرب حول المسألــة الفلسطينية مؤيدون يبلغون ضعف مؤيدي اسرائيل .

تبين مقارنة هذه الجداول ان اكثر القارات صداقة لاسرائيل هما اميركة الشمالية واميركة الجنوبية او اللاتينية ، والقارة الثانية هامة بصورة خاصة في الامم المتحدة بسبب عدد اصواتها اما افريقية فمقسمة بالتساوي تقريبا في عطفها وتأييدها ، في حين ان اوروبة اخذت تميل الى تأييد العرب خاصة بعد العام ١٩٦٨ . والواقع اننا نلاحظ في الجدولين الاخيرين انه بينما كانت يوغسلافية مستعدة لتقديم الدعم الكامل للموقف العربي لم يكن هناك بلد واحد في اوروبة مستعدا لان يقدم دعما مساويا الى اسرائيل مع ان اوروبة هي القارة الام للصهيونية . والواضح ان اقل القارات صداقة لاسرائيل بصورة ثابتة هي آسية حيث وجدت اسرائيل ولكن بأصوات قارات اخرى..

وفي الامم المتحدة حيث يطبق المبدأ الديموقراطي ، وان يكن غير واقعي ، القائل « بالصوت الواحد للدولة الواحدة » ليس المهم فعلا من يصوت الى جانب من طالما ان

المهم هو النتيجة النهائية . ولكن لا بد ان يزعج اسرائيل (ويرضي العرب) ان كل الدول الافريقية ومعظم الدول الاميركية اللاتينية التي تؤيدها بشدة هي دول صغيرة جدا وغير هامة . يقف الى جانب العرب كل من تنزانية ونيجيرية ، اما اعظم الـدول الافريقية واشدها تاييدا لاسرائيل فهي ملاوي ويوتسوانا وليسوتو وسوازيلانـد ، وتعتمد هذه الدول كليا على الحكم العنصري في جنوب افريقية (وهذا ، كما سنرى ، هو احد اسباب تأييدهم لاسرائيل) اما مدغشقر التي يبلغ عدد سكانها ستة ملايين نسمة فهي اكبر مؤيد افريقي لاسرائيل ففي افريقية ايضا تلقى اسرائيل ، التي تقع على الساحل معزولة عن جيرانها ، تأييد دولة تقع على جزيرة مثلما لاقت تأييد سنغافورة والفيليبين واليابان الواقعة بعيدا عن البر الآسيوي الرئيسي . وبين اصدقاء اسرائيل الافريقيين اولئك المرتبطين بأحلاف عسكرية اجنبية والذين تقع على ارضهم قواعـد عسكرية اجنبية مثل الحبشة ومدغشقر وتشاد والغابون وساحل العاج .

بعد ان بينا اتخاذ البلدان الافرو – آسيوية وغيرها من بلدان القارات الاخرى مواقف عامة في الامم المتحدة مع العرب او ضد الاسرائيليين يبقى ان نحاول الآن اكتشاف ما حملهم على اتخاذ تلك المواقف .

دوافع تأييد العرب

سنبدأ اولا بالبلدان الافريقية والآسيوية التي ايدت العرب ضد اسرائيل .

يمكن تقسيم هذه البلدان الى مجموعتين كبيرتين لكل منهما دوافع عامة معينة . المجموعة الاولى هي مجموعة « النموذج الهندي » وتضم الهند وسيلان وبورمه وماليزيه وقبرص ونيجيرية . وهذا النموذج قومي وليبرالي وغير منحاز وتعددي وعلماني . اما المجموعة الثانية فتتبع « النموذج الصيني » وتضم الصين الشيوعية (النموذج الاصلي للمجموعة) وبلدانا مثل بوروندي والكونغو (برازافيل) وغينية وتنزانيه وكوبه وهي البلدان الشيوعية او « التقدمية »

النموذج الهندي . وضع مميزاته منذ سنوات عديدة المهاتما غاندي وجواهر لال نهرو . شملت مشاعر غاندي نحو فلسطين مشاعره نحو التضامن الآسيوي . وهذا الشعور بالتضامن الآسيوي الذي عبر عنه غاندي قبل سنوات كثيرة هو الذي يحرك الزعماء الافرو – آسيويين اليوم خاصة بسبب حقيقة ان الشعب الفلسطيني ، الذي اعطى غاندي الاولوية لمصالحه ، قد برز بعد غياب عشرين عاما مقاتلا رئيسيا في النضال من اجل فلسطين . وبما ان المنظمات الفدائية الفلسطينية استحوذت على اهتمام العالم من جديد فان الجيل الافرو – آسيوي الحاضر ، مثله مثـل الشعوب الاخرى ، ادرك كما ادرك غاندي من قبل ان الفلسطينيين شعب آسيوي يقاوم التشرد على يد شعب غريب عن آسية . وهناك دلائل جيدة على امكانية اشتهار الفلسطينيين لانه كلما زاد الفلسطينيون مقاومتهم كلما ازداد اعجاب الآسيويين بهم واشتد تضامنهم معهم .

اما المشاعر التي عبر عنها نهرو في باندونغ فهي اليوم اقوى بكثير في افريقية وآسية بل هي آخذة بالازدياد مع اتضاح اعتماد اسرائيل على القوى الامبرياليـة

السابقة واصدقائها وخاصة الولايات المتحدة . فاذا مات الاستعمار في افرو ــ آسية فان الخوف من الاستعمار الجديد لم يمت . وقد عملت تجربة معظم البلدان الافرو ــ آسيوية في مواجهة الاستعمار ضد عطف افرو ــ آسية على اسرائيل خاصة بعد حزيران ١٩٦٧ . وبما ان افرو ــ آسية بكاملها ، باستثناء تايلاند ، مرت بتجربة الاحتلال الاجنبي فقد اعتبرت اسرائيل قوة اجنبية تحتل مساحات شاسعة من الارض العربية . وهي تقوم بالاعتقالات الجماعية وتفرض حظر التجول وتطرد وتهدم البيوت ، هذه تصرفات مألوفة جدا لدى الافرو ــ آسيويين وتبعث في نفوسهم اشمئزازا خاصا جدا . ولا تنعكس هذه النظرة على التصويت في الامم المتحدة فقط بل هي واضحة جدا ايضا في تزايد الشعور المعادي لاسرائيل في الصحافة والرأي العام . وقد كان بروز حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة بعد اذار ١٩٦٨ عاملا رئيسيا في كسب الرأي الافرو ــ آسيوي الى جانب القضية العربية لان المقاومة الفلسطينية تثير في نفوسهم ذكريات حركات التحرر الوطني التي حققت الاستقلال لمختلف البلدان الافرو ــ آسيوية .

واحدى النقاط التي ذكرها المهاتما غاندي ضد الصهيونية هي انها تركز وتشجع علنا على الولاء المزدوج لدى الطوائف اليهودية في شتى انحاء العالم . واعتراض غاندي على الولاءات المزدوجة يرتكز على تجربته الخاصة والمامه بتركيب البلدان الآسيوية ، فازدواجية الولاء لدى اقلية ما يشكل خطرا حقيقيا جدا على بلدان افرو ــ آسيوية كثيرة مثل كينيه ونيجيرية وماليزيه وتايلاند واندونيسيه . ويوجد في هذه البلدان جاليات هندية وصينية الى جانب الاقليات الاصلية الكبيرة . ويشكل ما حدث في فلسطين ، حيث اتيح لاقلية ان تنمو الى حد المطالبة بدولة مستقلة لها عن طريق التقسيم ، سابقة خطيرة بصورة خاصة بالنسبة لهذه البلدان الافرو ــ آسيوية . وفي بعض هذه الدول اتبعت الاقليات المثال الصهيوني وطالبت بدول منفصلة لها بواسطة التقسيم . وهكذا فان تاريخ فلسطين بين العامين ١٩٢٠ ــ ١٩٤٧ وقصة «النضال» الصهيوني وخلق دولة اسرائيل تشكل تحذيرا لافرو ــ آسية وليس مثالا تحتذي به .

تحاول البلدان الافرو ــ آسيوية ، بعد ان اقلقتها مشاكل الاقليات ، حل مشاكلها بالعمل على اقامة مجتمع علماني تعددي . اما اصرار اسرائيل على حقيقة انها « دولة يهودية » وعلى وجوب الحفاظ على يهوديتها (وهذا يتعارض الآن مع المطلب الفلسطيني بدولة ديموقراطية علمانية تعددية) فيدفع بالدولة اليهودية الى الانغلاق العنصري والديني ، على عكس الدول الافرو ــ آسيوية تماما .

واشار غاندي الى هذه النقطة الحساسة في الحديث الذي جرى بينه وبين الصهيوني البريطاني سيدني سلفرمان ، عضو البرلمان البريطاني ، عندما سأله : « استسمحون بدخول العرب الى فلسطين بحرية ؟ » اجاب سيلفرمان : « نعم ، ولكن شرط الا يقضي هذا على الهدف المعلن لاقامة وطن قومي يهودي في فلسطين . » ولو طرح سؤال غاندي هذا على السلطات الاسرائيلية اليوم لاجابت صراحة « لا » مثلما قالت لعدة منظمات دولية . ولذلك يلقى الفلسطينيون استجابة بين الافرو ــ آسيويين عندما يقولون ان هدفهم السياسي هو خلق دولة ديموقراطية علمانية متعددة الاجناس

والاديان في فلسطين ، وهذا هو بالضبط هدف عدة دول افرو ـ آسيوية .

بامكاننا ان نجد خمسة اسباب لميل البلدان الافرو ـ آسيوية الى اتباع النموذج الهندي ميلا اساسيا ضد اسرائيل . اولا ، اسرائيل بلد غير آسيوي المنشأ والسكان ، ثانيا ، خلقت اسرائيل على يد قوى اجنبية امبريالية او مؤيدة للامبريالية لا تزال تساعدها وتدعمها حتى الآن ، ثالثا ، قاومت اسرائيل حركات التحرر في عدد من البلدان الافرو ـ آسيوية (مثل الجزائر) كما قاومت سياسة عدم الانحياز الافرو ـ آسيوية ، رابعا ، اسرائيل الآن قوة محتلة ، خامسا ، اسرائيل عبارة عن اقلية مزدوجة الولاء وترفض امكانية قيام مجتمع تعددي وعلى الرغم من ان هذه الدوافع قد تبدو غامضة او عامة لاول وهلة الا انها تركت اثرها على الشعور الافرو ـ آسيوي العام في الشهور التي تلت حرب حزيران في العام ١٩٦٧ مباشرة لقد اظهر هذا تماما اهمية وايجابية بعث المخاوف والذكريات التاريخية

النموذج الصيني . تميز النموذج الهندي للبلدان الافرو ـ آسيوية بأنه اكثر تأييدا للعرب منه عداء لاسرائيل بينما يتميز النموذج الصيني بكونه اكثر عداء لاسرائيل منه تأييدا للعرب . وهناك ثلاثة اسباب لاتخاذ النموذج الصيني موقفا معاديا لاسرائيل اولا ، اعتبار اسرائيل جزءا من الامبراطورية الاميركية الاستعمارية الجديدة وحصنا ومخفرا متقدما لها ، ثانيا ، ان اسرائيل على الطريق لان تصبح دولة مؤيدة للرأسمالية ان لم تكن قد اصبحت هي دولة رأسمالية ، ثالثا ، ان « الاشتراكية » الاسرائيلية فقدت حماستها الثورية منذ زمن طويل وهي الآن معادية للثورية صراحة .

لقد تغلغت هذه النظرة اليسارية « والتقدمية » الى المسألة الفلسطينية حديثا في الغرب من خلال تبني اليسار الجديد للقضية الفلسطينية اما التأييد اليساري الافرو ـ آسيوي لفلسطين فيرجع الى العام ١٩٥٥ ، عندما التقى التقدميون او اليساريون « المتطرفون » الافرو ـ آسيويون لاقامة حركة التضامن الافرو ـ آسيوية جاعلين مركزها الرئيسي في القاهرة . وقد نظمت الحركة مؤتمرات كثيرة جمعت التقدميين المعادين للاستعمار في مصر والجزائر وسورية (من الجانب العربي) والهند واندونيسية وسيلان وغينية ومالي وتنزانية (من افرو ـ آسية) . وعلى الرغم من قلة عدد التقدميين الافرو ـ آسيويين فانهم يتمتعون بنفوذ كبير في بلدانهم لانهم يشغلون مناصب رئيسية في حكوماتهم وفي مجالات الدعاية والتربية ، وقد عرف كثيرون منهم القضية العربية من خلال اتصالهم بالتقدميين العرب .

اعطى انعقاد المؤتمر الدولي لدعم الشعوب العربية في نيودلهي في تشرين الثاني ١٩٦٧ دافعا جديدا لسياسة التقدميين المؤيدة للعرب والمعادية لاسرائيل . ومع ان معظم الذين التقوا في المؤتمر كانوا من حركة التضامن الافرو ـ آسيوية فقد كان هناك بالاضافة اليهم ممثلون ، ومعظمهم يساري ، عن بلدان من القارات الاربع الاخرى : الارجنتين واوسترالية والبرازيل وكنده وفنلنده وايطالية وبنما والولايات المتحدة ويوغسلافية وغيرها من البلدان . وارسلت كثير من حركات التحرر الوطني في افريقية ممثلين عنها ايضا . واصدر المؤتمر ثلاث وثائق مطولة جدا (مجموع كلماتها ٤٠٠٠) جوهرها انه يتوجب على اسرائيل الامبريالية الانسحاب من الاراضي العربية وان

للشعب الفلسطيني الحق في العودة الى وطنه .

كان هذا المؤتمر هاما لانه اجتذب الى جانب القضية الفلسطينية ليس فقط اناسا من اليسار الشيوعي بل ايضا اناسا من اليسار التقدمي غير الشيوعي او « اليسار الجديد » .

يختلف تفكير النموذج الصيني كثيرا عن تفكير النموذج الهندي . فالثاني ينتقد اسرائيل ويدينها لارتباطها بالولايات المتحدة ذلك لان السياسة الاميركية تجاه البلدان الافرو — آسيوية ومطامعها ليست ، من وجهة النظر الافرو — آسيوية ، متعاطفة بما فيه الكفاية . اما بالنسبة لتفكير النموذج الاول فالمسألة اساسية الى حد ابعد بكثير مما يراه الثاني . فالنموذج الصيني يرى في الولايات المتحدة العدو البغيض الذي يجب مقاتلته والحاق الهزيمة به واسرائيل حليف قريب من الولايات المتحدة ولذلك يجب مقاومتها بنشاط . ويحاجج التقدمي الافرو — آسيوي بقوله ان هناك صلة حميمة بين اميركة الامبريالية ومركزها الاستعماري المتقدم في الشرق الاوسط مشيرا الى المساعدة المالية الهائلة التي يقدمها الصهيونيون الاميركيون لاسرائيل كما يشير الى احدث الاسلحة والمعدات الحربية التي تقدمها الولايات المتحدة لاسرائيل ويشير ايضا الى الدعم الديبلوماسي الاميركي الشامل لاسرائيل في الامم المتحدة على انها جميعا دليل على هذه الصلة . ويرى التقدمي ان عدوه هو ثالوث الولايات المتحدة والمانيا الغربية واسرائيل ويولد انتماء اسرائيل شبه التام للولايات المتحدة وعملها في سبيله بكل افتخار كراهية شديدة للدولة الصهيونية من قبل بعض الحكومات الافرو — آسيوية التقدمية ولدى فئات كبيرة من اليساريين في افريقية وآسية ولدى المفكرين والمؤمنين بالعنف في تحقيق الاغراض السياسية .

وقد حققت اسرائيل تقاربا ممتازا من اليساريين والاشتراكيين الافرو — آسيويين عن طريق اغراء الاشتراكية الاسرائيلية . الا انه في متناولنا معلومات وافرة من مصادر رسمية اسرائيلية ومن المعارضة اليسارية داخل اسرائيل تبين ان القطاعات الاشتراكية في الحياة الاقتصادية الاسرائيلية آخذة في التقلص امام تقدم القطاع الخاص . وسارت حركة الكيبوتز والهستدروث منذ بعض الوقت في طريق التضاؤل والانحسار وقد قيل ان التدفق الهائل في الاموال من المانية الغربية على شكل تعويضات بدأ عملية تحويل اسرائيل من بلد متقشف واشتراكي رائد الى بلد شرقي غني الى حد ما ولا يختلف كثيرا عن جاره لبنان ذي الاقتصاد الحر . وتبقى حقيقة ان اسرائيل لم تتوجه ، بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، في جهودها الدولية للتعويض عن خسائرها بالنداء الى الاخوة الاشتراكية ولم تلجأ الى سياسة شد الحزام بل عقدت مؤتمرين في اسرائيل ، واحاطتهما بدعاية جيدة ، وحضرهما بضع مئات من اصحاب الملايين اليهود قادمين من كافة انحاء العالم . وعندما دعا بيان المؤتمر الى وجوب احتفاظ اسرائيل بالاراضي العربية المحتلة بسبب فائدتها الاقتصادية بدأ التقدميون الافرو — آسيويون يرون في اسرائيل ليس مجرد مركز متقدم للاستعمار بل ايضا قوة استعمارية في حد ذاتها .

لا تستطيع اسرائيل ان تظهر نفسها كدولة « ثورية » و « تقدمية » تماما ، بسبب ارتباطها الحيوي الهام بالولايات المتحدة . انما عليها حتى ان تقلل من اهمية خلفيتها

الاشتراكية   اما حركة المقاومة الفلسطينية التي برزت حديثا فلا تقــول فقط انها اشتراكية بل تذهب ابعد من ذلك لتقول انها ثورية وتقدمية . ولا يشير الفلسطينيون الى حركة المقاومة التي انطلقوا بها على انها نضال للتحرر الوطني بل يدعونها فقط « الثورة الفلسطينية » سواء أكان ذلك له ما يبرره ام لا وسواء كان له فائدة ام لم يكن . وعليه ، عندما يتعلق الامر بدعم القوى الثوريـــة في الشرق الاوسط يستثني التقدميون الافرو ــ آسيويون واليساريون الجدد الاوروبيون والاميركيون اسرائيل بصورة آلية ويتوجهون الى الفلسطينيين . هذا وتتحدث «الثورة الفلسطينية» بالطريقة المألوفة التي تتحدث بها الحركة اليسارية الدولية ، وتبنت « الثورة الفلسطينية » ابطال تلك الحركة المعروفين انفسهم اذ تحمل عملياتها اسماء رمزية مثل «غيفارا» و « هوشي منه » . وهناك دلائل تشير الى ان فلسطين ، مع تضاؤل الاهتمام اليساري تدريجيا بفيتنام ، ستحتل ، شئنا ام ابينا ، المكان الاول بحيث تصبح القضية الاولى للتقدميين الافرو ــ آسيويين ولليسار الجديد في اوروبة واميركة .

كان الاشتراكيون التقليديون الاوروبيون والافرو ــ آسيويون يحملون حتى وقت قريب آراء مؤيدة لاسرائيل . الا انه يبدو خلال السنوات الثلاث الاخيرة ان «المحافظين» فقط في التجمعات الاشتراكية التقليدية في الغرب مستمرون في دعم اسرائيل (وذلك بسبب شعور الغرب بالذنب تجاه اهلاك الطائفة اليهودية الاوروبية وليس بسبب الاشتراكية الاسرائيلية) في حين ان التقدميين « واليساريين الجدد » الاكثر ميلا الى الفردية اجتذبتهم حركة المقاومة الفلسطينية بجانبها الثوري . ولقد صدم اليساريون الشبان الذين تحركهم الاخوة الاشتراكية والثورية باصرار الاسرائيليين على الحفاظ على الهوية اليهودية فقط لدولتهم ولكن مطلب الفلسطينيين باقامة دولة غير عنصرية وغير طائفية في فلسطين استطاع اجتذابهم .

الدوافع المشتركة بين النموذجين الهندي والصيني . هناك مجموعة اخرى مـــن الدوافع المشتركة بين البلدان الافرو ــ آسيوية التابعة لاحد النموذجين وعلى راس هذه الدوافع الدوافع الاقتصادية .

هناك ظاهرة صحية آخذة في الظهور بصورة مطردة : لم يعد العالم يقسم على اساس السياسة الى شرق وغرب بل على اساس الاقتصاد الى شمال وجنوب ، وهذا مفهوم قدمه اول ما قدمه اليوغسلافيون . وهناك بلدان يشكلان جزءا من الشمال المتطور بسبب غناهما وبحبوحتهمـــا الاجتماعية المتقدمة : وهذان همـــــا اليابان في الشرق واسرائيل في الغرب . ولكن في حين ان الغنى والبحبوحة هما في اليابان نتيجة للمحاولات والمساعي الحثيثة على الصعيد الاقتصادي الداخلي فانهما في اسرائيل نتيجة لغنى وبحبوحة بلدان اخرى في القطاع الشمالي . ومهما كان الاصل والطبيعة بالضبط للغنى والبحبوحة الاسرائيليين فان الحقيقة تبقى انهما يفصلان اسرائيل عن البلدان الافرو ــ آسيوية المتخلفة . وهكذا وجدت لجنة اوفدتها الحكومة الهندية لدراســـة حركة الكيبوتز الاسرائيلية ان هذه الحركة ، بالنسبة للهند ، « مضللة من جهة وغير ملائمة من جهة اخرى » .

وحسب التعبير الايديولوجي الصيني فان افرو ــ آسية جزء من « قرية العالم »

في حين ان اوروبة واميركة هما « مدينة العالم » ومثلهما اسرائيل . وباختصار ، ان البنية الاقتصادية الاسرائيلية هي بالضبط عكس البنية الاقتصادية لمعظم البلــدان الافرو ــ آسيوية .

ولم تعط هذه الجوانب من البنية الاسرائيلية اهتماما كبيرا الا ان اقتصادها المتميز بالغنى والبحبوحة واعتماده على الصناعة لا الزراعة هو ما يفصلها في الحقيقة كليا عن تيار الحياة الافرو ــ آسيوية الرئيسي . وبما ان الفجوة بين الاغنياء والفقراء آخذة في الاتساع على الصعيد العالمي فان الفجوة بين اسرائيل وافرو ــ آسية آخذة بالاتساع ايضا . وهذا التطور ، لا المنازعات والخصومات السياسية الجارية في ايامنا هذه ، هو الذي سيحكم العلاقة بين اسرائيل وافرو ــ آسية في المستقبل .

ويخشى الافرو ــ آسيويون اسرائيل ايضا بسبب عدم تحديد سياستها حــول الحدود . وقد كانت اسرائيل مترددة جدا في تقديم مقترحات من اجل السلام ، وكل خطة تقدمت بها اسرائيل بصورة غير رسمية طالبت بأراض جديدة اكتسبتها عن طريق نصر عسكري . وهذه المطالب تتعارض ومبدأين اساسيين يعتنقهما الافرو ــ آسيويون هما وجوب احترام الحدود القائمة وعدم تحقيق فائدة عن طريق العدوان . وليس هناك من يهتم اكثر مـــن الافرو ــ آسيويين بأن يحافظ على حرمـــة الحدود الجديـــدة والضعيفة التي يمكن ان تتغير فقط بالمجازفة عن طريق افساح المجال امام الخصومات والعداوات التي لا تحصى . ولهذا السبب تعهدت الدول الافريقية في مؤتمر القمة الاول الذي عقد في العام ١٩٦٣ بالقبول بكافة الحدود القائمة على الرغم من انها من صنع الاستعمار وتمر باستمرار عبر وحدات اثنية وقبلية . وعلى سبيل المشابهة اقامت الهند وباكستان في العام ١٩٦٥ سابقة بانسحابهما من الاراضي التي استولتا عليهـا اثناء القتال . ويلعب مبدأ عدم تغيير الحدود وعدم الافادة من العدوان دورا متزايـدا في التقييم الافرو ــ آسيوي للمسالة الفلسطينية منذ شهر تموز من العام ١٩٦٧ عندما تبين ان اسرائيل حاولت تحقيق حدود جديدة موسعة .

وقد كررت الحكومات الافرو ــ آسيوية على وتيرة ملتظمة تقريبا في خطاباتهـا في الامم المتحدة وفي سلسلة كاملة من البيانات الثنائية ان انسحاب القوات الاسرائيلية يجب ان يكون انسحابا فوريا وكليا غير مشروط وانه لا يمكن اعتبار الامر الواقع نهائيا وان استخدام القوة لا يمكن ان يكون مبررا لمكاسب اقليمية او ان يعود بفائدة سياسية. وحتى حليفتا اسرائيل غير الرسميتين ، ايران والحبشة ، اعلنتا هذه النقاط في الامـم المتحدة وغيرها . وهذه المبادىء التي لا اعتراض عليها قد لا تكون اكثـــر من مبادىء بالنسبة للدول الاوروبية الراسخة ، ولكنها تعبر عن السياسات العملية والحقيقية جدا للدول الافرو ــ آسيوية وترتكز على قلق حقيقي واصيل جدا . وستبقى اسرائيل عبارة عن عامل قلق لكل دولة آسيوية عمليا الى ان تنسحب اسرائيل الى ما وراء حدود ثابتة ومتفق عليها . وقد يقول الواقعيون الاوروبيون ان الحدود القومية رسخت دوما بالقوة ولكن هذه الكلمات تلقى آذانا صماء في افريقية وآسية حيث الاعتقاد بأننا نعيش في اسرة دولية مختلفة واكثر تنظيما .

وبامكاننا ان نستشهد بثلاثة بلدان مختلفة جدا وتفصل بينها مساحات شاسعة

كأمثلة معينة على هذا الاعتقاد ، وهذه البلدان هي اليابان وسيلان وتركية . فقد اظهرت تركية على مر السنين صداقة كبيرة تجاه اسرائيل ، واحتفظت سيلان بموقف بارد وغير متحيز من العرب واسرائيل ، وفي الوقت الذي كانت فيه اليابان على علاقات صداقة باسرائيل اعلنت تبنيها موقفا « مطلق الحياد » اثناء القتال في حزيران ١٩٦٧. الا انه خلال اسابيع اخذت البلدان الثلاثة تطالب بوجوب انسحاب القوات الاسرائيلية دون شرط وعدم قيام أمر واقع يرتكز على الغزو العسكري .

كانت ردة الفعل الافرو ــ آسيوية القومية هذه (وحتى من أشد البلدان صداقة لاسرائيل) في مواجهة النتائج السياسية والوضع الاقليمي الذي نتج عن النصر العسكري الاسرائيلي ايضبا نتيجة لاكتشاف الافرو ــ آسيويين ان اسرائيل لم تكن الضحية في الشرق الاوسط ، ولم تكن اسرائيل كما ظن كثيرون مثل « داود » بل كانت مثل « جوليات » المحارب . وهكذا فان العاطفة الطبيعية التي يشعر بها لناس عانوا من الاضطهاد وكانوا ضحيته نحو اناس آخرين يعيشون ذلك الوضع نفسه قد انتقلت من الاسرائيليين الى الفلسطينيين . وبرز في مواجهة « جوليات » الاسرائيلي « داود » جديد هو المقاومة الفلسطينية.

« لا شيء ينجح مثل النجاح » . هذا قول صحيح لكنه لا ينطبق ، على ما يبدو ، على النجاح العسكري . فبسبب النصر العسكري الذي تحقق بسهولة وسرعة أخذ الاسرائيليون يظهرون درجة من الثقة بالنفس لا تبعد كثيرا عن الغطرسة . واخذ الزعماء الاسرائيليون يتحدثون عن « تأديب » و « معاقبة » الدول العربية التي تؤيد حركة المقاومة الفلسطينية . تذكر هذه اللهجة ببرودتها وتوقيتها الافرو ــ آسيويين بأسيادهم الاستعماريين السابقين ، وهذا في حد ذاته كريه بالنسبة لهم بصورة خاصة. وعندما يصل الزعماء الاسرائيليون الى هذا الحد ، كما يحدث باستمرار ، ويتحدثون بلغة التهديد بالقوة المسلحة مطلقين تهديدات بالقيام بأعمال عسكرية اشد وشن المزيد من الغزو وتحقيق المزيد من التوسع فانما هم يحولون بذلك احترام الافرو ــ آسيويين المشوب بالتردد والذي قد يشعرون به تجاه شجاعة اسرائيل العسكرية وانتصارها السريع في العام ١٩٦٧ الى نقمة ونذير بالخطر .

باختصار ، أن اسرائيل تسير ، خاصة بعد حزيران ١٩٦٧ ، في خط يتعارض مع شعور قومي افرو ــ آسيوي اساسي . وهذا الشعور الباطني هو الذي يحمل بلدانا مثل بورمة واليابان وحتى تايلاند على الاشمئزاز من كلمات اسرائيل واعمالها المثمرة ومن استعلائها وغطرستها القائمة على اساس القوة المسلحة . ومن حيث نظرة المجتمع وتقديره فان افريقية وآسية تنظران ، كما كلنتا دائما ، الى المحارب على انه في مركز يقع بعيدا وراء المعلم والكاهن ، اما في اسبارطة الجديدة التي تبدو اسرائيل انها على الطريق اليها فان العسكريين يدفعون المعلمين والكهنة جانبا بفظاظة .

دوافع الافرو ــ آسيويين « الدينية » . من الواضح ان الاسلام والدور الرئيسي المركزي الذي تلعبه جامعة الازهر الاسلامية في القاهرة يتركان اثرا رئيسيا على سياسة البلدان الافرو ــ آسيوية الاسلامية تجاه المسالة الفلسطينية . وتتأثر تأثرا كبيرا بالروابط الاسلامية أيضا البلدان التي تضم اقليات اسلامية كبيرة . وهذا التأثير جعل

البلدان الاسيوية مؤيدة للعرب والبلدان الافريقية اقل تأييدا لاسرائيل . والبلدان التي تتأثر بالاسلام في افريقية هي موريتانية والصومال ونيجيرية والنيجر وغينية ومالي ، اما في آسية فهي تركية وانغانستان وباكستان وجزر ملديف وماليزيه واندونيسية والهند الى حد ما . وقاوم الشعور الاسلامي العميق تدريجيا في الريف التركي خلال السنوات الاربع او الخمس الماضية علاقات الصداقة الاولية بين الحكومة التركية واسرائيل

ومن سوء حظ اسرائيل ان غنيمتها الرئيسية في حرب العام ١٩٦٧ هي مدينة القدس التي اقسمت اسرائيل الا تتخلى عنها ابدا رغم التحذيرات العالمية ، فقد جعلت المقدسات الاسلامية القدس في المقام الثالث بالنسبة للعالم الاسلامي . لقد أدى الهياج الذي احدثه احراق المسجد الاقصى في البلدان الاسلامية الى عقد مؤتمر اسلامي في الرباط واقامة سكرتارية اسلامية دائمة بواسطة المؤتمر . ويعتبر مسلمو افرو — آسية اسرائيل مسؤولة بصورة غير مباشرة على الاقل (ان ليس بصورة مباشرة) عن احراق المسجد الاقصى ، وهكذا فانه من المستحيل او من الصعب للغاية لأي بلد افرو — آسيوي يضم طائفة اسلامية كبيرة ان يكون غير معاد لاسرائيل طالما تقع القدس تحت الاحتلال . وقد بلغ شعور المسلمين الاتراك نحو اماكنهم المقدسة في القدس درجة اضطرت معها الحكومة التركية ، التي كانت تتبنى مبدأ العلمانية منذ ايام مصطفى كمال ، ان تحضر المؤتمر الاسلامي في الرباط . وقد يبدو في الواقع انه بوجد بين كثيرين من الافرو — آسيويين وفي عدد من بلدان افريقية وآسية ، كما في العالم عموما ، شعور بالولاء الى مدينة مقدسة أقوى من العاطفة نحو او فهم المسألة الفلسطينية ذاتها التي يشكل مستقبل القدس احد جوانبها .

الاعتبارات الاقتصادية التي تحرك الافرو — آسيويين . على الرغم من انه من المشكوك فيه ان تلعب الاعتبارات الاقتصادية أي دور كبير في سياسات الدول الافرو — آسيوية تجاه المسألة الفلسطينية فان المصالح الاقتصادية قد تجعل الافرو — آسيويين يميلون الى اتخاذ موقف مؤيد للعرب . وهذا صحيح لان الافرو — آسيويين يرون من الافضل لهم بكثير ان يحموا مصالحهم الكبيرة والهامة في العالم العربي من ان يقيموا علاقات اقتصادية مع اسرائيل ، وعلاقاتهم الاقتصادية مع اسرائيل لا يمكنها الا ان تكون أضيق مجالاً من علاقاتهم مع الدول العربية بالاضافة الى ان بامكانهم استيراد ما يستطيعون استيراده من اسرائيل من أي بلد اوروبي غربي صناعي .

ومن الناحية الاقتصادية لا توجد طبعا مقارنة بين موارد وحاجات العالم العربي وبين موارد وحاجات بلد صغير جدا مثل اسرائيل . وهكذا فان مئة مليون العربي يمثلون سوقا هائلة للمنتوجات الصناعية او شبه الصناعية التي تنتجها بلدان مثل اليابان وهونغ كونغ وسنغافورة والهند وباكستان . ويبدي العالم العربي امكانية اعظم للتوسع ايضا . وفوق ذلك فان صناعات النفط والبتروكيماويات الهامة والواسعة النطاق آخذة بالتطور من خلال الجهود المشتركة التي تبذلها ايران والكويت والسعودية من جهة وباكستان واليابان والهند من جهة اخرى .

بلغت قيمة استيراد اسرائيل من آسية في العام ١٩٦٦ مبلغ ٥٢ مليون دولار وصادراتها ٧٤ مليونا . الا ان ٩٠ ٪ من تلك الصادرات كانت من صنف واحد هو

الماس الصناعي المصقول . وانخفضت في العام ١٩٦٨ قيمة الاستيراد الى ٥٠ مليون دولار بينما بلغ مجمل الصادرات ١٠٣ ملايين دولار ، وهكذا فان ميزان التجارة الافرو — آسيوي مع اسرائيل ليس في مصلحة افريقية وآسية . وعلى اية حال فان التجارة مع افرو — آسية تشكل جزءا صغيرا جدا من علاقات اسرائيل التجارية ، فقد بلغت قيمة الصادرات الاسرائيلية على الصعيد العالمي ما قيمته ٦٣٩ مليون دولار ، اما قيمة الاستيراد فبلغت ١٠٨٨ مليون دولار . وتستورد اسرائيل من افرو — آسية ٥٪ من مجمل ما تستورده وتصدر اليها ١٦ ٪ من صادراتها .

تمر طرق المواصلات البرية والبحرية والجوية بين شرقي افريقية ،وجنوبي آسيا، وجنوب شرقي آسية من جهة واوروبة والساحل الشرقي لاميركة الشمالية من جهة أخرى عبر الشرق الاوسط . ولذلك فانها مصلحة سياسية واقتصادية رئيسية لكافة البلدان الواقعة في هذه المنطقة ان تكون اوضاع الشرق الاوسط على صورة تضمن بقاء خطوط المواصلات هذه مفتوحة . وعندما اغلقت قناة السويس لأول مرة في العام ١٩٥٦ تنبهت بلدان جنوبي آسية على وجه الخصوص الى حقيقة ان السلام في الشرق الاوسط له أهمية حيوية بالنسبة لاقتصادياتها . وبسبب اغلاق القناة للمرة الثانية منذ حزيران ١٩٦٧ اضطرت بلدان شرقي افريقية وجنوبي وجنوب شرقي آسية الى دفع زيادة اضافية على اسعار ما تستورده من اوروبة والغرب تتراوح بين ١٥ — ٢٠ ٪ ، وكذلك لرتفعت كلفة ما تستورده اوروبة والغرب من البلدان الافرو — آسيوية بنسبة مماثلة (اي ان كلفة الصادرات الافرو — آسيوية الى اوروبة والغرب قد ازدادت) . ولم تتكيف اقتصاديات هذه البلدان الافرو — آسيوية ، تلك الاقتصاديات التي لم تكن ابدا قوية وناشطة جدا ، مع هذا الوضع لتتحمل العبء الجديد والثقيل الذي فرض عليها بسبب وجود القوات الاسرائيلية على طول القناة — هذا الوجود الذي ادانته جميع هذه البلدان وطالبت بالغائه . ويشكل هذا تذمرا اقتصاديا ايجابيا جدا من اسرائيل .

ويجب ان ندرك ان المصالح الاقتصادية للبلدان الافرو — آسيوية الواقعة على المحيط الهندي ترتبط بالدول العربية بصورة ايجابية ، وباسرائيل بصورة سلبية فقط ، لأنها تستطيع ان توقف النفط وتقطع المواصلات . وهكذا فان للافرو — آسيويين مصالح اقتصادية قوية جدا في المشرق العربي ايام السلم العادية على صعيد التجارة والتعاون الاقتصادي والمواصلات اما اسرائيل فتظهر في الصورة الاقتصادية فقط كقوة مفككة وممزقة فعلا .

السياسة العامة والعلاقات الخاصة . لقد رأينا ان العاطفة القومية والتجربة التاريخية والايديولوجية وعدة اعتبارات اقتصادية وسياسية عامة هي دوافع رئيسية للدول الافرو — آسيوية التي تتبع سياسة مؤيدة للعرب بشأن فلسطين . ودليلنا على مدى صداقة الافرو — آسيويين للعرب هو سجل تصويت الافرو — آسيويين في الامم المتحدة . ان ما كنا بصدد مناقشته اذن هو السياسة العامة او الموقف العام الذي تتخذه دول افريقية وآسية او ما يمكن تسميته « السياسة المعلنة » التي تتميز عن « السياسة الفعلية » التي يتبعونها اي سياسة العلاقات الثنائية المباشرة مع اسرائيل. وتبدو « السياسة المعلنة » احيانا كثيرة متناقضة مع « السياسة الفعلية » الافرو —

آسيوية . وقد يبدو لاول وهلة وجود مثل هذا التناقض بين العام والخاص ، بين المحلي والدولي ، تذبذبا او حتى نفاقا . ولكن تناقضات كهذه هي شيء عادي في الحياة الخاصة والعامة وفي العلاقات بين الدول كما بين الافراد . اما في العلاقات بين الدول الافرو ـ آسيوية واسرائيل فليس التناقض حادا كما قد يبدو لأول وهلة .

ويظهر التناقض بسرعة وسهولة . فاذا القينا نظرة على قائمة البلدان التي تؤيد العرب باستمرار (الجدول الثالث) نرى ان البلدان الاسيوية الستة التي تؤيد العرب تأييدا « تاما » لا تربطها باسرائيل علاقات ديبلوماسية وانها بذلك ثابتة على عدائها لاسرائيل . اما البلدان الافريقية المؤيدة للعرب تأييدا « تاما » في الامم المتحدة وكذلك البلدان الاسيوية والافريقية المؤيدة للعرب « بشدة » فلها ، بدون استثناء ، علاقات ديبلوماسية كاملة مع اسرائيل . والواقع أن بعض تلك البلدان مثل تنزانية وتايلاند واليابان ترتبط بعلاقات صداقة باسرائيل . اما علاقة اليابان بها فهي اكثر مودة وحرارة .

وقد لاحظ الاسرائيليون بالطبع هذا التناقض خاصة في علاقاتهم بالدول الافريقية . وعندما انضمت بلدان مثل غانة وغينية ، اللتين كانت لهما علاقات ودية مع اسرائيل ، الى ما يسمى جماعة الدار البيضاء قبل حوالي عشرة اعوام في ادانة اسرائيل اصابت الراي العام الاسرائيلي صدمة وخيبة امل ، وقدمت وزارة الخارجية الاسرائيلية احتجاجات لهما وطلبت اليهما اعطاء ايضاحات حول ذلك . ولكن يبدو ان الاسرائيليين تعلموا منذ ذلك الحين ان يتعايشوا مع حقيقة ان « البلدان نفسها التي كانت بينها وبين اسرائيل روابط ثنائية قوية وتعاون تقني صوتت باستمرار الى جانب المواقف المعادية لاسرائيل (١٨) » .

وهكذا تعلم الاسرائيليون ان يمتصوا التحديات العلنية العامة واتخذوا موقفا يقول ان المهم هو العلاقات الثنائية الودية وان التصويت المعادي لهم في الامم المتحدة يمكن اعتباره بثقة مجرد سياسة « معلنة » . وربما يكون صحيحا ان اصوات بعض الدول الافريقية الصغيرة في الامم المتحدة هي اشارات متبجحة فقط ، الا ان هناك بلدانا أفرو ـ آسيوية أخرى تتفق اصواتها في الامم المتحدة « وافعالها » او سياستها مع الدول الاخرى . ويمكننا القول ان جميع البلدان التي تقف « تماما » او « بشدة » ضد اسرائيل في الامم المتحدة ، تدفع الثمن في ناحية واحدة هامة : اسرائيل قادرة بصورة فريدة على التأثير في وسائل الدعاية العالمية وخاصة في الغرب ، لذلك فان البلدان التي تنتقد اسرائيل قد تتوقع ان تتعرض ، وتتعرض فعلا ، لنقد اشد تشنه وسائل الاعلام هذه يفوق ما تستحقه هذه البلدان .

ان قبرص هي خير مثال لدينا على مدى التوافق بين السياسة المعلنة والسياسة الفعلية . ففور تصويتها الى جانب العرب وضد اسرائيل في الجلسة الخاصة للجمعية العامة للامم المتحدة في العام ١٩٦٧ الغى حوالي ٣٠،٠٠٠ سائح يهودي زيارتهم الى قبرص مرة واحدة موجهين بذلك ضربة قاسية للسياحة التي تشكل قطاعا رئيسيا

---

١٨ ـ الجيروسالم بوست ، ٢١ ـ ٧ ـ ١٩٦٧ ، « لماذا فشل العرب والهند في تحويل الصوت الافرو ـ آسيوي » ، بقلم دايفد كمشي .

في الاقتصاد القبرصي . واعلنت الحكومة الاسرائيلية بعد ذلك امكانية استئناف تدفق السياح الاسرائيليين الى قبرص في العام ١٩٦٨ شرط ان تعدل الحكومة القبرصية موقفها في التصويت الذي يجري في الامم المتحدة . فأجاب الرئيس مكاريوس بأن ذلك غير ممكن وعاد السياح الاسرائيليون على اية حال الى قبرص في العام ١٩٦٨ .

واذا تركنا جانبا تقييم مكاريوس لجوانب الصواب والخطأ في المسالة الفلسطينية يمكننا ايضاح ثبات سياسته من خلال حقيقة ان قبرص كانت في ذلك الوقت تحت ضغط عسكري تركي كبير . ودعم اسرائيل في ذلك الوقت قد يعني دعم مبدأ ان العدوان بامكانه ان يعود بالفائدة كما يعني ايضا توجيه دعوة مفتوحة الى تركية لتحاول غزو قبرص .

ويوجد بين البلدان الافرو ــ آسيوية المؤيدة « تماما » او « بشدة » للعرب بضعة بلدان تتوافق سياستها المعلنة وسياستها الفعلية مثلما هي الحال في قبرص وللاسباب نفسها ، وهذه البلدان هي الهند وباكستان والصومال وبورمة وتايلاند وتركية واليابان ونيجيرية . وبالنسبة لجميع هذه البلدان فان السياسة « المعلنة » ضد العدوان العسكري والتوسع سياسة « فعلية » حقيقية نشطة .

واذا كان هناك تناقض في سياسة بعض هذه البلدان وكان في مقدورها التخلص منه فان ذلك يرجع الى ان اسرائيل والدول العربية ليست في مركز تطالب منه او تفرض اي استثناء في صداقاتها . ولم يكن من الممكن لأي من الطرفين ممارسة اي شيء ضد الاخر مثل مبدأ « هولشتاين » في الشرق الاوسط . الا ان اسرائيل تتلقى عونا من هذا النوع من مساعديها الغربيين الاشد قوة وخاصة الولايات المتحدة . وهكذا فان اصدقاء اسرائيل هم الذين يساعدون على سد الفجوة بين السياسة « الفعلية » والسياسة « المعلنة » فيما يتعلق ببعض الدول الافرو ــ آسيوية الضعيفة (وخاصة الدول الافريقية الصغيرة جدا) . ويهتم هؤلاء الاصدقاء الاقوياء ، الى حد معين على الاقل ، بالا يسمح لتلك البلدان بالتخلص من الحفاظ على سياسة « فعلية » ودية مع الدول في الوقت الذي تتبع فيه سياسة « معلنة » دولية غير ودية . ومهما يكن فانه كلما كان البلد مستقلا وقويا كلما صغرت الفجوة بين السياستين .

دوافع تأييد اسرائيل

يمكن الاشارة الى دوافع البلدان الافرو ــ آسيوية المؤيدة لاسرائيل على انها ايجابية وسلبية .

الدوافع الايجابية للافرو ــ آسيويين . لقد سبق والمحنا الى اول هذه الدوافع واشدها وضوحا أي الى ان اسرائيل تعمل جاهدة لجعل نفسها معروفة . فقد اقامت فورا بعثات ديبلوماسية حتى في أصغر الدول الافرو ــ آسيوية وعينت فيها ديبلوماسيين فعالين ومخلصين . ويجري توزيع مواد دعائية موضوعة بذكاء على نطاق واسع بواسطة الاسرائيليين بالاضافة الى تدفق الوفود مختلفة الانواع من اسرائيل واليها بحيث ان الاهتمام مرعي باستمرار .

وفي المقابل ، لا تبذل الدول العربية اي جهد يقارن بالجهد الذي يبذله

الاسرائيليون . وهذا نتيجة لنقص في الاموال والموظفين من جهة ولحقيقة ان العرب لا يزون اهمية افرو ــ آسية من جهة ثانية فيبذلون طاقاتهم بدل ذلك في محاولة تحويل الغرب المعادي لهم الى جانبهم . الا ان السبب الرئيسي لذلك هو ان العرب مقتنعون بعدالة قضيتهم الى حد انهم لا يرون حاجة لعرض قضيتهم على شعوب يفترضون مسبقا انهم اصدقاؤهم .

اما الاسرائيليون فلا يسلمون جدلا بأية صداقات . فهم كقادمين جدد الى المسرح الافرو ــ آسيوي ترتب عليهم ان يبرزوا قضيتهم ففعلوا ذلك بكد وجهد . وبالطبع يستجيب بعض الافرو ــ آسيويين ايجابيا للعروض الاسرائيلية من اجل الصداقة والتفاهم لأنه من الواضح ان اسرائيل تبذل جهدا خاصا في سبيل ذلك .

وقد نجح برنامج المساعدة الفنية الاسرائيلي في افرو ــ آسية نجاحا بارزا . ويتم هذا البرنامج بطريقتين : اولا ، يذهب الخبراء الاسرائيليون الى الخارج ، وثانيا ، يفد الفنيون الافرو ــ آسيويون الى اسرائيل للتدرب . وقدر في العام ١٩٦٥ انه يوجد في أي وقت ٣٠٠٠ متدرب في اسرائيل وهذا رقم كبير بالنسبة لحجم اسرائيل .

وخدمات الخبراء الاسرائيليين متيسرة للبلدان الافرو ــ آسيوية في مجالات متنوعة جدا . اضف الى ذلك انهم خبراء حقا في مجالاتهم ويعملون بكد وجهد . ويعيشون ويشتغلون مع السكان المحليين على عكس خبراء معظم البلدان الاخرى (باستثناء هيئة السلام Peace Corps) وخدمات هؤلاء الخبراء لا تقدم مجانا وانما هم يرضون بأن يتقاضوا معاشات وفقا للاسس المرعية محليا . ولذلك ينظر الى الخبير الاسرائيلي ، على انه صديق قيم في بلدان افرو ــ آسيوية كثيرة ، وهو بذلك يحقق كسبا عظيما لبلده . وكان وزير الخارجية الاسرائيلي يقول الحقيقة بالضبط عندما قال في كانون الثاني ١٩٦٧ ان برنامج المساعدة الفنية الاسرائيلي « اعظم نشاط فريد» في وزارته مضيفا الى ذلك قوله ان برنامج وزارته هذا « حرر اسرائيل من عزلتها الاقليمية وخلصها من مخاطر الاقليمية » .

وبالاضافة الى برنامج المساعدة تشترك اسرائيل في مشاريع تجارية واسعة النطاق مع بضع دول افرو ــ آسيوية . وتقدم اسرائيل نتاج خبراتها وتدعم ماليا مشاريع مثل تلك التي اقيمت في كمبودية وبورمة ونيبال وايران وغانة وكينية وتنزانية . وتشمل هذه المشاريع صناعة المشروبات الخفيفة ومعامل الدواليب وبناء المطارات وشبكات المياه وخطوط النقل البحري المشتركة وتطوير السياحة والاعمال الفندقية .

وعلى الرغم من اعتمادها على التحويل الخارجي قدمت اسرائيل قروضا وهبات لبضعة بلدان افريقية . ومع انه ليس في متناولنا تفصيلات حول حجم وغرض هذه المساعدة المالية فاننا نعرف الذين تلقوها وهم غانه وساحل العاج وكينية وملاوي ونيجيرية وسيراليون وتنزانية وفولتا العليا .

وكبلد عسكري ، فان اسرائيل تقوم بالتدريب العسكري وتدريب رجال البوليس وبتقديم السلاح لبضع دول افرو ــ آسيوية وهذه البلدان هي الكونغو (كنشاسا) والحبشة وكينيا ومدغشقر وسيراليون وتنزانية ويوغنده في افريقية وبورمة وايران ونيبال وسنغافورة في آسية . وهذه المساعدة العسكرية ذات اهمية خاصة في افرو ــ

آسية حيث القوات المسلحة هي السلطة الحاكمة فعليا . اما في البلدان التي يتسلم العسكريون مقاليد الحكم فيها فان مساعدتهم في زيادة فعاليتهم قد تعني بقاءهم في الحكم ، وهذه خدمة بارزة حقا . واما المساعدة الاسرائيلية الى الحبشة وايران فهي ذات طبيعة خاصة . ويقوم الاسرائيليون في الحبشة بتدريب الاحباش على مقاومة ومقاتلة رجال العصابات التابعين لحركة تحرير اريترية ، كما تعاون الاسرائيليون مع الايرانيين على مساعدة المتمردين الاكراد في قتالهم ضد الحكومة العراقية قبل التوصل الى تسوية في العام ١٩٧٠.

وهناك روابط اقيمت على اسس عاطفية طبعا واخرى بدافع اعتبارات مادية . ان الانحياز العام لدى الاشتراكيين الافرو ـ آسيويين المؤيدين للصهيونية واسرائيل يعلل الصداقة بين بعض الاحزاب الاشتراكية الهندية التقليدية واسرائيل كما يعلل التأثير الذي تركته الاشتراكية الاسرائيلية على الاحزاب الحاكمة في كينية وتنزانية . وتجتذب اسرائيل بقوة عاطفية شديدة بضعة زعماء أفرو ـ آسيويين يعتنقون التعاليم اليهودية المسيحية ويأخذون بتقاليدها .

ان العامل الديني ـ العاطفي الرئيسي في الحركة الصهيونية ، ذلك العامل الذي يقال انه يعطيها صحتها وشرعيتها ، هو نبوءة التوراة التي تزعم الحركة الصهيونية انها حققتها . وهكذا تمتد جذور الحركة الصهيونية الى المعتقد اليهودي ـ المسيحي متخذة منه اساسا دينيا للدولة الصهيونية يجتذب بعض الزعماء الافرو ـ آسيويين بينما ليس له أهمية عند الاخرين . فالزعماء الافرو ـ آسيويون الذين تمتد جذورهم الدينية الى الهندوسية والبوذية والكنفوشية وغيرها والذين لا تعني النبوءة التوراتية شيئا بالنسبة لهم لا يشعرون بجاذبية نحو الحركة الصهيونية التي هي حركة سياسية تتزيف بالدين. ولكن هناك زعماء يعتقدون بأن خلق اسرائيل على يد الصهيونية له ما يبرره لكونه تحقيقا للنبوءة التوراتية . وأحد هؤلاء الزعماء الرئيس باندا ، رئيس ملاوي ، وهو رجل ورع جدا ومن كبار رجال كنيسة اسكتلنده ، فقد بعث برسالة تأييد الى اسرائيل خلال لزمة حزيران ١٩٦٧ . وهناك صهيوني أممي آخر هو امبراطور الحبشة الذي يتخذ لنفسه لقب « أسد يهودا » بجدية كبيرة حقا . ولذلك لم يكن مدهشا، بعد سقوط القدس بيد القوات الاسرائيلية ، ان يرسل اسقف الكنيسة الحبشية في المدينة المقدسة بتهانيه للجيش الاسرائيلي مضيفا الى ذلك قوله : « كنت دائما مقتنعا بأن رب ابراهيم وداود سيفي بوعده لاسرائيل » .

ان استضافة اسرائيل للزعماء الافرو ـ آسيويين باستمرار يفيدها كثيرا فهم يرون فيها الكثير مما يثير اعجابهم . واسرائيل تعطي انطباعا قويا عن فعاليتها وحسن تنظيمها ونشاطها الصاخب وعن شعبها الذي يعرف ماذا يريد وكيفية الحصول عليه. وهذا كله بصورة واضحة على عكس ما يلاحظ عمليا في البلدان الافرو ـ آسيوية الاخرى . وقد يكون جزء كبير من افريقية وآسية معاديا سياسيا للغرب ولكن المنطقة بأسرها تناضل نضالا شديدا من أجل« التغريب». وقد يكون السواد الاعظم من الشعب في اسرائيل حاليا من أصل أفرو ـ آسيوي ولكن بنية الحياة اليومية والقيم الشخصية والمثل القومية في اسرائيل غربية برمتها . وهكذا يبدو ان اسرائيل حققت

ما تناضل افرو ــ آسية من اجله الا انه يفوت معظم هؤلاء الزعماء وخاصة الافريقيين منهم حقيقة ان هذا لم يتحقق من خلال التغريب بل عن طريق ادخال النماذج الغربية وزرعها زرعا . ولا يزال الزعماء وشعوبهم يكنون اعجابا حقيقيا بتصميم اسرائيل وقوتها العسكرية ونجاحها في تحقيق اغراضها القومية .

اما حقيقة ان الاسرائيليين ، على الرغم من ميل لونهم الى البياض ، لا يتصرفون عموما تجاه الافرو ــ آسيويين بالغطرسة والامتهان اللذين يتوقعهما هؤلاء من الرجل الابيض فقد اضافت بعدا شخصيا الى الشعور بالاعجاب الذي يكنه هؤلاء لاسرائيل .

دوافع الافرو ــ آسيويين السلبية . من البين ان البلدان الافرو ــ آسيوية قد تدعم اسرائيل بسبب المخاوف المشتركة والعدو المشترك والاعجاب والصداقة الحقيقية . وهنا يصح القول العربي المشهور : « عدو عدوي صديقي » .

يقال على سبيل المثال ، وربما يكون في ذلك مقدار من الصحة ، ان افريقية السوداء تشعر شعورا وديا تجاه اسرائيل ، عدوة العرب ، بسبب الذكريات الافريقية عن تجار العبيد من العرب الذين شنوا على مر القرون غزوات عبر الصحارى في جميع بلدان غربي افريقية وشمالي افريقية الوسطى . ولقد اشار ممثل اسرائيل في لجنة الوصاية التابعة للامم المتحدة ، خلال اجتماعها في ٢٩ تشرين الاول ١٩٦٧ ، الى هذا الشعور الافريقي ضد المستعبدين العرب ، ولكن وفد تنزانية وبخه بشدة بسبب ما اسماه محاولة « شريرة وقحة » « لدك اسفين» بين افريقية العربية وافريقية السوداء.

وفي البلدان التي يوجد فيها شعور سياسي معاد للمسلمين توجد ايضا كراهية للعرب بوصفهم مؤسسي الاسلام . والحبشة بالضبط مثال على ذلك لان الشعوب الاسلامية في اريترية والصومال كانت تقاتل الحكومة الامبراطورية الحبشية التي تتلقى ، كما راينا ، مساعدة اسرائيلية من اجل مقاومة المتمردين . وهكذا ايضا في الهند حيث ان اعظم المؤيدين لاسرائيل صخبا هم احزاب السيخ والهندوس الدينية المعادية للمسلمين بصراحة وعنف . (وحزب جان سانغ الهندوسي هو اعظم مؤيد لاسرائيل في الصحافة والبرلمان وهو الحزب المسؤول عن اغتيال المهاتما غاندي الذي اعتبروه مؤيدا للمسلمين الى حد بعيد) .

ان النخبة الحاكمة في بعض البلدان الصغيرة في غربي افريقية تتالف من المسيحيين في الوقت الذي يحرز فيه الاسلام تقدما في صفوف الشعب بصورة ثابتة . وهنا ينصهر الشعور المعادي للمسلمين وللعرب مولدا عطفا على اسرائيل . ولذلك اتخذت حركة الشباب الوطني في سيراليون في ايار ١٩٦٧ قرارا تعلن فيه : « نحن ندعم الشعب الاسرائيلي في نضاله العادل ضد الامبريالية العربية والسيطرة الاسلامية » . وهناك حالة مشابهة في تشاد حيث ان غالبية السكان ، وهي من المسلمين ، تقاتل الان لانتزاع مقاليد الحكم من ايدي الاقلية غير المسلمة .

اما الدعم المصري ثم الجزائري فيما بعد لحركات المعارضة الانقلابية « التقدمية» في بعض الدول الافريقية المحافظة فقد خلق اصدقاء لاسرائيل مثل ملاوي والكونغو (كنشاسا) . وعن طريق دعمها للشعب الصومالي « نجحت » الجمهورية العربية المتحدة في استعداء كل من الحبشة وكينية . وقد ازداد العداء الحبشي اكثر من ذلك ايضا بسبب الدعم السوداني والسوري للاريتريين .

وروعت الدول العربية التقدمية ايضا الكثير من الحكومات الافريقية المحافظة بحديثها الفضفاض عن « الاشتراكية العربية » ومن هذه الدول ليبيرية وملاوي وغامبية ومدغشقر . وقد رأت تركية ايضا في هذه الدعاية ازعاجا لها . وتزعم اسرائيل بالطبع ايضا انها اشتراكية ولكنها لا تهدد بتصدير اشتراكيتها مثلما يفعل التقدميون العرب .

وفي آذار ١٩٦٧ قام وزير الخارجية الاسرائيلي بجولة في بعض بلدان جنوب شرقي آسية . واشارت الصحافة الاسرائيلية في حديثها عن الجولة الى ان اسرائيل اكتشفت عاملا مشتركا بينها وبين بعض هذه البلدان : فجميعها صغير ويعيش عزلة فرضها عليه جيران معادون . وهذه البلدان التي تشارك اسرائيل عزلتها هي لاوس وكمبودية ونيبال والحبشة يضاف اليها هذه الايام بصورة واضحة جدا سنغافورة .

الاتجاهات المستقبلية في افريقية وآسية

عندما ننظر الى المستقبل تثير اهتمامنا المسألة التالية : هل يرجح ان تطرأ اية تغييرات على مصالح وسياسات الافرو — آسيويين في الشرق الاوسط يمكن ان تجعلهم اكثر ، او اقل ، تأييدا للعرب او لاسرائيل ؟

وبقدر ما نستطيع ان نرى فان الاتجاه المؤيد للعرب والمعادي لاسرائيل أخذ يبرز في افريقية وآسية في أواخر العام ١٩٦٧ عندما اصبح من الواضح ان اسرائيل باتت قوة محتلة .(واخذ تغير مشابه يحدث في المواقف الاوروبية في ربيع العام ١٩٦٨) آخذة في النمو والاشتداد .

ويرتكز هذا التنبؤ على اعتبار ان الدوافع التي تجعل الافرو — آسيويين في موقف مؤيد للعرب — التضامن الاسيوي والقومية وعدم الانحياز والذكريات التاريخية وعدم الاعتداء ومبدأ وحدة الاراضي الاقليمية — هي اعمق جذورا واشد ثباتا واكثر ايجابية من الدوافع التي تجعل افرو — آسيويين آخرين في موقف مؤيد لاسرائيل . وهناك حد لتأثير وفعالية سياسة التردد وتقديم المساعدة الفنية والقروض والعون ، وهناك حد ايضا لمقدار الاعجاب الذي يمكن ان يشعر به الانسان تجاه النجاح والفعالية العسكريين ، اضف الى ذلك ان هناك حدا لتأثير مواجهة عدو مشترك ، كما ان هناك حدا ايضا للنفوذ الغربي الآخذ حتما بالتضاؤل في افريقية وآسية . اما « الاتفاقية الجانبية » الحيوية بين اسرائيل وتركية وايران والحبشة فهي مؤقتة : فقد تراجعت تركية كثيرا من هذه الناحية ، وسياسات ايران والحبشة سياسات شخصية تتعلق بالشاه والامبراطور (والامبراطور رجل طاعن في السن) .

وباستطاعة اسرائيل ان تلقى قبولا على المدى البعيد في افريقية وآسية اذا ضمنت قبول جيرانها الاقربين في غربي آسية . ولكن ذلك يبدو بعيدا اكثر من اي وقت مضى .

ردة الفعل الشعبية الهندية وانقلابها في العام ١٩٦٧

ان ردة الفعل الشعبية في الهند وانقلابها اثر الازمة التي ولدتها المعركة الثانية من أجل فلسطين في العام ١٩٦٧ هامة لاسباب متنوعة . أولا ، لأن الهند ، وفقا للمصادر الاسرائيلية ، تزعمت الهجوم الديبلوماسي على اسرائيل في الامم المتحدة .

ثانيا ، لأن الهند كانت دوما هدفا دعائيا وسياسيا رئيسيا للاسرائيليين : فقد عبرت عن وجهة نظرهم بصورة فعلية وعلى نطاق واسع القنصلية الاسرائيلية الناشطة جدا في بومباي والتي تساعدها جمعية الصداقة الهندية الاسرائيلية التي تأسست في العام ١٩٦٤ . ثالثا ، جرى التعبير بحرية عن آراء متنوعة حول هذه المسألة في البرلمان والصحافة الهنديين بحيث يوجد في متناولنا مادة وافرة للدرس . رابعا ، هذه آراء مشتركة بين الكثير من البلدان الافرو ـ آسيوية الاخرى . خامسا ، واخيرا ، كان الانقسام في الراي عميقا وعنيفا جدا هز الحكومة الهندية وكاد يخلق ازمة لها . وواجهت السيدة انديرا غاندي حول مسألة الشرق الاوسط في العام ١٩٦٧ التحدي نفسه لسلطتها الذي واجهته حكومات يوغسلافية وتشيكوسلوفاكية وبولندة حسب ما روي.

برز التحدي من حقيقة ان سياسة الحكومة كانت مؤيدة للعرب في الوقت الذي انتشر فيه الانتقاد الشعبي لهذه السياسة في الصحافة والبرلمان .

عندما تسلمت السيدة غاندي رئاسة الوزراء في اوائل العام ١٩٦٦ جرت بعض التوقعات في الدوائر الصهيونية بأن رئيسية الوزارة الجديدة قد تلطف موقف الهند الرسمي من اسرائيل . وسبب هذه التوقعات غير واضح واصيب الذين قالوا بها بخيبة امل : « تميزت الاشهر الخمسة الاولى من تسلم السيدة غاندي رئاسة الحكومة بتصلب بيّن في هذا الموقف (المعادي لاسرائيل) ليس فقط بالنسبة لعهد نهرو بل حتى بالنسبة لحكم شاستري الذي تلاه حكم السيدة غاندي مباشرة (١٩) » . واعلنت رئيسة الحكومة الهندية موقفها بصورة واضحة جداً اثناء زيارة قامت بها للقاهرة في العام ١٩٦٦ « وليس دعمنا فقط بسبب صداقتنا التقليدية للعرب وانما بسبب ايماننا والتزامنا بالعلمانية وبالمبدأ القائل بالا تبنى الدول او تخلق على اساس الدين . انتنا قلقون في أعماقنا بسبب الآلام الانسانية التي حلت باللاجئين الفلسطينيين العرب ، ونحن ندعم حقهم في العودة الى وطنهم ».

تورطت الهند مباشرة في ازمة الشرق الاوسط في العام ١٩٦٧ : فقد كانت عضوا في مجلس الامن وكان قائد قوة الطوارىء التابعة للامم المتحدة في غزة وسيناء جنرالا هنديا كما كانت كتيبة من الجيش الهندي تشكل جزءاً من تلك القوة . وعندما نشب القتال في الخامس من حزيران ١٩٦٧ هاجم الاسرائيليون مواقع الكتيبة الهندية بنيران المدفعية والقصف الجوي فقتل اربعة عشر جنديا هنديا وجرح واحد وعشرون وفقد تسعة عشر . وبعد عشرة ايام اعربت اسرائيل عن أسفها واقترحت دفع تعويضات ولكن الحكومة الهندية رفضت الاعتذار والتعويضات .

وفي حديث امام البرلمان وصفت السيدة غاندي هذا الحادث بأنه : « هجوم جبان ... ومتعمد ومدروس وبدون استفزاز » . وجرى الاعراب عن عطف كبير على الضحايا في البرلمان والصحافة ومما هو جدير بالذكر ان اسرائيل لم تعتبر ملامة بالفعل . والحقيقة انه قامت معارضة في البرلمان ضد ادانة اسرائيل بسبب هذا الهجوم على اساس ان القوات الهندية لم تخل منطقة القتال في وقت مبكر .

---

١٩ ـ جوزف ب. شكتمان ، « الهند واسرائيل » ، **Midstream** ، نيويورك ، آب ـ ايلول ، ١٩٦٦ .

كل هذا نتيجة لحقيقة ان كثيرا من الصحف والاحزاب السياسية الهندية كانت قد تبنت موقفا معاديا للعرب في شهر آيار عندما كانت الازمة آخذة في التطور . وفي مناقشة جرت في « المجلس الادنى » في البرلمان الهندي في ٢٦ آيار أيد الحزب الشيوعي وخده موقف الحكومة المؤيد للجمهورية العربية المتحدة . ونادى حزب سواتانترا اليميني الذي يمثل المصالح التجارية الكبيرة بوجوب حياد الهند بين العرب واسرائيل ؛ اما حزب جان سانغ اليميني الديني الهندوسي المؤيد لاسرائيل كليا فقد أتهم الحكومة بأنها « مثيرة للحرب » ، ومع ذلك كان راي اشتراكيي براجا اليساريين ايضا ان الهند ذهبت شوطا بعيدا في دعم الجمهورية العربية المتحدة . واثناء هذه التهجمات لم يفعل اعضاء حزب المؤتمر الحاكم شيئا أكثر من التزام الصمت المشوب بالانزعاج ، ولكنهم انتقدوا حكومة حزبهم فعلا عندما انتقل النقاش الى « المجلس الاعلى » في البرلمان لتسرعها في دعم الجمهورية العربية المتحدة . وقل ما ادهشنا ان الحكومة الاسرائيلية اتخذت في ٢٩ ايار خطوة غير عادية باصدار بيان تقول فيه ان درجة العطف الشعبي الهندي تركت اثرا طيبا في نفسها محرفة بذلك الحقائق اذ اعتبرت الشعور المعادي للعرب عطفا على اسرائيل .

وفي اليوم التالي تساءل بضعة اعضاء في البرلمان عما اذا كان الرئيس عبد الناصر قد شكر الحكومة الهندية لدعمها له ولماذا شكر الجنرال ديغول فقط .

وفي اليوم التالي لبدء الحرب انتقد بضعة اعضاء في الهيئة التنفيذية البرلمانية لحزب المؤتمر تصريح وزير الخارجية الهندي بأن وجود اسرائيل في حد ذاته خلق توترا. ونصح كل من نائب رئيس الهيئة التنفيذية وسكرتيرها العام باتخاذ موقف اكثر حيادا .

وحدثت مناوشات غاضبة بين اعضاء حزب جان سانغ واعضاء الحزب الشيوعي في البرلمان الهندي يومي السابع والتاسع من حزيران . وفي التاسع عصفت المناوشات لدرجة ادت الى تأجيل الجلسة بعد ان أتهم أحد أعضاء جان سانغ الحكومة الهندية بجعل الهند الدولة العربية الرابعة عشر .

وفي ١٦ حزيران تساءل اعضاء البرلمان عما اذا كان من المحتمل ان تعيد الولايات المتحدة النظر في المساعدة الغذائية للهند بسبب سياسة الحكومة الهندية المعادية لاسرائيل . واستمر النقاش مدويا بضعة اسابيع لأنه روي عن وقوع مناقشة حادة في ٢٠ تموز بين رئيسة الحكومة السيدة غاندي واعضاء في الهيئة التنفيذية البرلمانية لحزب المؤتمر . واعترف بعض الاعضاء فيما بعد ان الحزب انقسم حول هذه المسألة زاعمين أن كثيرين من اعضائه وربما معظمهم عارضوا سياسة الحكومة . ووصلت الامور حدا شعرت معه السيدة غاندي أنها مضطرة الى التهديد باجراء انتخابات عامة من اجل الحصول على تفويض من الشعب حول المسألة (وقد لا تكسب هي ذلك) . وبعد ذلك بيومين ووسط اشاعات عن معارضة كل من نائبها (وكان وزيرا للمال ايضا) ووزير الدفاع نفت السيدة غاندي وجود انقسامات في حكومتها حول هذه المسألة .

وبعد هذا التاريخ خبت أحداث الشرق الاوسط تدريجيا في سياسة الهند الداخلية ولكن بعد ان حدث ما يكفي للاشارة الى ان المعارضة لسياسة الحكومة في الشرق الاوسط عرضت وجود الحكومة في حد ذاته للخطر .

ومع ان الحكومة الهندية قاومت هذه التهجمات خارج صفوفها وفي داخلها في البرلمان فقد بحثت دون جدوى عن أي دعم حقيقي من الصحافة الهندية . وباستثناء عدد كبير من النشرات الصغيرة الصادرة عن التقدميين والشيوعيين كانت كل الصحف الهندية الرئيسية في موقف المنتقد للسياسة الرسمية . واورد اصحاب الافتتاحيات حججا متنوعة تدعم آراءهم : قالوا ان الهند انحرفت عن عدم الانحياز بتأييدها للعرب من طرف واحد فخسرت بذلك أيفرصة للعب دور صانع السلام وهو الدور الذي لعبته في عدة نزاعات في الماضي ، وقيل ايضا ان السياسة الواقعية تجعل من الحكمة للهند ان تكون صديقة لاسرائيل القوية عسكريا والتي قد تكون حليفا يعتمد عليه ، واضافوا ان مقاومة اسرائيل قد تثير كراهية صديقة اسرائيل ، الولايات المتحدة ، ضد الهند مما قد يؤثر على المساعدة الاقتصادية التي تتلقاها الهند من الولايات المتحدة وقد تثير ايضا دعاية معادية للهند ، وقد يجعل ذلك من الصعب للهند ايضا ان تحصل على مساعدة مالية من المصادر الخاصة بسبب نفوذ المولين الصهيونيين في الدوائر المصرفية الدولية . وقد ثبت صحة هذه التحذيرات الى حد ما لأن الرئيس جونسون اظهر استياءه من سياسة الهند المؤيدة للعرب . والغت المتاجر اليهودية الضخمة الخاصة في نيويورك طلبات لاستيراد مصنوعات هندية يدوية بقيمة بضعة ملايين دولار .

لقد أثرت آراء الصحافة واعضاء البرلمان في الشعور الشعبي وتاثرت به .ويظهر ذلك في استفتاء على الرأي العام أجري في آب ١٩٦٧ في أربع مدن هندية رئيسية (٢٠). وعلى الرغم من أن صياغة الاسئلة كانت منحازة الى اسرائيل فقد كانت النتيجة مدهشة جدا بحيث تبدو صحيحة عموما . فمع ان ٢٤٠ ٪ ممن استفتوا يعتقدون انه يجب استمرار الهند في تأييد العرب فان ٤٩ ٪ منهم يعتقدون بوجوب معاملة كل من العرب واسرائيل بالتكافؤ . واظهر الاستفتاء ، على اساس الاحزاب السياسية ، ان ٣٧ ٪ من الشيوعيين الذين استفتوا يؤيدون الحكومة الى ابعد الحدود ، ثم تلاهم الاشتراكيون في ذلكبنسبة٢٨ ٪ ،وأيد ٢٥ ٪ فقط من اعضاء حزب المؤتمر الذين استفتوا حكومتهم ،ومن الذين استفتوا من الحزبين اليمينيين ايد الحكومة ١٧ ٪ من احدهما و ١٥ ٪ من الآخر . وباستثناء الحزب الشيوعي فان غالبية المؤيدين من الاحزاب الاربعة الاخرى تؤيد اتخاذ الهند موقفا اكثر حيادا .

اما ما هو ذو مغزى حقا بالنسبة للتطورات المستقبلية فهو انه على الرغم من اعتراف غالبية الذين استجوبوا بأن تقديرهم لاسرائيل قد ازداد فان فردا او حزبا لم يكن مستعدا للتصويت حتى بنسبة ١ ٪ الى جانب تقديم الهند دعما لاسرائيل وعدم دعم العرب .

وهكذا رغم كل المناقشات الحادة والانتقاد المرير للسياسة الرسمية فان الشعور الشعبي الهندي حول ازمة العام ١٩٦٧ ظهر بصورة واضحة جدا على انه ليس مؤيدا لاسرائيل حتى رغم استيائه الكبير من التزام الهند نحو العرب ، فقد كان ذلك الشعور ناقدا للعرب لكنه احجم تماما عن دعم اسرائيل .

---

٢٠ ــ The Statesman ، كلكته ، ١٤ ــ ٨ ــ ١٩٦٧ ، اجرى الاستفتاء المعهد الهندي للراي العام .

يشير هذا الموقف الذي يعوزه التناسب نوعا ما الى ان الهندي العادي اعرب عن رأيه لا على اساس من التحليل الهادىء لأزمة الشرق الاوسط (لأنه لو تم الاعراب عن الراي على ذلك الاساس لكان الاحتمال ان يؤيد ١٠ ٪ على الاقل سياسة مؤيدة لاسرائيل) بل على اساس من التحيز العاطفي نوعا ما ، ذلك التحيز الذي شمل العرب ولم يشمل الاسرائيليين بالمرة .

وهذا التحيز عبارة عن عداء عميق وقديم للمسلمين في الهند يرجع في قدمه إلى زمن الإمبراطور المغولي اورانغزيب في القرن السابع عشر . ويجب ان نتذكر ان شبه القارة الهندية قسمت في زمن ليس ببعيد على اساس الدين الى دولتين هما الهند وباكستان . وفي ايلول ١٩٦٥ نشبت بينهما حرب أشارت اليها الدعاية في الجانبين على انها « جهاد » وحرب « ضد الجهاد » .

وفي اواسط العام ١٩٦٧ تاثرت آراء جميع الهنود غير المسلمين تقريبا بشدة ، حول المسالة المتعلقة بالعرب المسلمين ، بهذه العاطفة المعادية للمسلمين . وكان هذا صحيحا بالنسبة لكافة قطاعات الشعب من سياسيين ورجال أعمال وصحافيين وجنود، وتكمن تلك العاطفة حتى وراء اكثر التفسيرات عقلانية والتي يوردونها تبريرا لموقفهم المعادي للعرب (٢١) .

اما حزب جان سانغ فلم يهتم باخفاء حقيقة ان موقفه المعادي للعرب كان نتيجة لشعوره المعادي للمسلمين . وخلال الازمة صدرت صحيفة الحزب الاسبوعية المسماة « المنظم » مليئة بالمقالات والصور الكاريكاتورية التي تمتدح اسرائيل وتسخر من العرب المهزومين بالاضافة الى هزئها المعادي للروس الذي يظهر أحيانا في الصحيفة . وهكذا يقول احد العناوين « ان حقوق اسرائيل بالقدس اقوى واعدل بكثير من حقوق الروس بالارض الالمانية او البولندية » ويقول عنوان آخر « ان دولة يهودية في قلب الاسلام لا يمكن اعتبارها جريمة فظيعة مثل تدمير فسفنت على يد اورانغزيب واقامة مسجد في موقعها » . وفي مقابلة مع هذه الصحيفة الاسبوعية زعم القنصل الاسرائيلي متملقا قراءه بأن العرب « يتصرفون مثل الوحوش ... أنتم لا تعرفون ما يستطيع التعصب الاسلامي عمله » .

وحتى تلك المجلة الحادة الآراء ابرزت في عددها الصادر في ٩ تموز ١٩٦٧ عنوانا مزدوجا وغير عادي : « يجب ان يعترف العرب باسرائيل : يجب ان تصبح اسرائيل آسيوية » . اشار هذا العنوان الى اجتماع عقدته لجنة العمل المركزية (وهي الهيئة التنفيذية العليا) لحزب جان سانغ واتخذت فيه قرارا من خمس نقاط حول الوضع في الشرق الاوسط . وقالت هذه النقاط بوجوب اقلاع البلدان العربية عن نواياها لافناء اسرائيل ايضا أنها دولة افرو ــ آسيوية اساسا ولذلك يتوجب عليها ان تلعب دورا هادئا وجديرا بالاحترام في بناء المنطقة بدل السماح لنفسها ان تستخدم كاداة فقط في

---

٢١ ــ اشار بضعة معلقين سياسيين هنود في ذلك الوقت الى هذا التحامل على المسلمين : من N. C. Chaudhuri في الجيروساليم بوست ٢٤ ــ ٧ ــ ١٩٦٧ ، « لماذا تؤيد دلهي العرب » ومن C. P. Ramachandran في الاوبزيرفر ، لندن ، ١٢ ــ ٦ ــ ١٩٦٧

يد الديبلوماسية الغربية » ، « ولكنها ستضطر من اجل ذلك الى تكييف مواقفها من جديد والى التوقف عن التوجه الى الغرب والى تطوير شخصية جديدة كليا.» ، ويجب ان تساعد اسرائيل بسخاء على اعادة توطين اللاجئين العرب الذين اقتلعوا من ارضهم، ويجب فتح قناة السويس وخليج العقبة امام سفن جميع الدول ، ويجب أن تسحب اسرائيل قواتها من كل المناطق المحتلة .

وفي القرار ما يريح العرب اكثر من اسرائيل مع انه صادر عن اشد جماعة هندية عداء للمسلمين وللعرب . ويرجع ذلك الى انه مهما اشتد التحامل على المسلمين فان شعورا قوميا اساسيا على الدرجة نفسها من الشدة بل اكثر يجعل من المستحيل حتى لحزب جان سانغ ان يقبل باسرائيل كجسم غريب في افرو ــ آسية . وهذا هو سبب توجيه جان سانغ نصيحة الى اسرائيل تدعوها الى التوقف عن كونها اداة للغرب والى ان تصبح آسيوية .

يمتد تأثير الشعور المعادي للمسلمين على المسألة العربية ــ الاسرائيلية الى مناطق في افريقية وآسية تبعد كثيرا عن الهند . وتوجد مشاعر مشابهة تولد ردة الفعل السياسية نفسها في كثير من دول غربي افريقية وفي كينية والحبشة في شرقي افريقية وفي بورمة وسنغافورة والفيليبين ، وتوجد في الحقيقة في كل بلد يضم اقلية اسلامية كبيرة باستثناء قبرص .

وهناك بضعة اسباب اخرى على الصعيد الاكثر عقلانية ، ولكنها اقل اقناعا ؛ تفسير كون ردة الفعل الشعبية الهندية على تلك الدرجة من العداء للعرب . كان الامر يرتبط الى حد ما بالعزة الوطنية الهندية بسبب الاعتقاد ان الهند تنازلت عن حرية العمل في الشرق الاوسط عن طريق الخضوع تهيبا للفيتو العربي على اقامة اية اتصالات مع اسرائيل . وبسبب وعي الذات القومية وبدافعها اثيرت ايضا النقطة القائلة بأنه رغم موقف الهند المؤيد للعرب اثناء ازمة السويس لم يدعم العرب الهند عندما نشب القتال بينها وبين الصين في العام ١٩٦٢ او بينها وبين باكستان في العام ١٩٦٥ . وكانت هناك ايضا ، كما رأينا ، خيبة امل كبيرة ترتكز على التوق الى الماضي اكثر من ارتكازها على الواقعية لان الهند بدعمها احد الجانبين فقدت فرصة لعب دور صانع السلام مرة ثانية . وتوجد جميع هذه الشكاوى ايضا في البلدان الافرو ــ آسيوية : ففي وقت من الاوقات تأمل كل من امبراطور الحبشة والرئيس نكروما والرئيس كنياتا ان يلعبوا دور وسيط السلام في الشرق الاوسط الا انهم شعروا بخيبة امل عندما ثبط العرب عزائمهم .

اما الجماعات المؤيدة للغرب والمعادية للاشتراكية في الهند فقد سرت لهزيمة الجمهورية العربية المتحدة وسورية لانهما بالنسبة لهم يساريتين بصورة خطرة واكثر من ذلك واقعتين تحت النفوذ الروسي .

واعرب ضباط القوات المسلحة الهندية ، من خلال اطلاعهم على الاحداث من وجهة النظر العسكرية الصرفة ، عن كبير اعجاب بالفعالية السريعة لآلة الحرب الاسرائيلية .

اما التأثير الاقل ادراكا والاكثر اهمية فهو تأثير موقف المفكرين ذوي الثقافة

الغربية في صفوف السياسيين والبيروقراطيين ورجال الاعمال والدعاية على الـراي العام الهندي . وكثيرون من هؤلاء تاثروا كثيرا ، عندما كانوا يدرسون في بريطانية واميركة ، باساتذتهم اليهود الذين كان بعضهم صهيونيا . والمثال الرئيسي في العالم الناطق بالانكليزية هو هارولد لاسكي الاستاذ في كلية الاقتصاد بجامعـة لندن الذي ساعدت آراؤه (حول الشرق الاوسط بين وسائل اخرى) في تكوين الآراء السياسية لما لا يقل عن جيلين من نخبة المفكرين ليس في الهند فحسب بل ايضا في بلدان مثل بورمة وسيلان وكينية وغانة . ولا شك ان المفكرين امثال ريمون آرون تركوا الاثر نفسه على الطلاب القادمين من البلدان الافرو ـ آسيوية الناطقة بالفرنسية .

وعندما كانت الهند وبلدان افرو ـ آسيوية اخرى ايضا تناضل من اجل استقلالها كان كثيرون جدا من مؤيدي واصدقاء حركات التحرر في البلدان المتروبولية من اليهود والصهيونيين امثال عضو البرلمان البريطاني سيدني سيلفرمان . وشعر دعاة القومية الافرو ـ آسيويون ، الذين تلقوا دعم مثل اولئك الناس عندما كانوا بحاجة لدعمهم ، بالتزام من قبيل الامتنان لاصدقائهم القدامى بعد تحقيق الاستقلال عندما توسط هؤلاء الاصدقاء لديهم لمصلحة اسرائيل . ولم يكن من السهل حتى على شخص مثل المهاتما غاندي ان يصد هذا النوع من التوسل العاطفي من شخص مثل سيلفرمان .

يجب ان نلاحظ ان التاثير اليهودي على المفكرين الافرو ـ آسيويين كان قويـا بحيث ان كثيرين منهم ورثوا الشعور الغربي بالذنب تجاه اليهود على الرغم من ان بلدانهم كانت بريئة تماما من اللاسامية . وقد لمحنا ذلك في اشارة السيد نهرو الى الاضطهاد النازي لليهود حينما قاله في مؤتمر باندونغ .

وهكذا كانت هناك مجموعة معقدة من الاسباب التي حملت الراي العام الهندي على العطف على اسرائيل وليس على العرب في العام ١٩٦٧ . وكانت تلك الاسباب متنوعة بصورة تثير الدهشة لعدم كون الراي العام الهندي اشد تأييدا لاسرائيل . الا ان هذا يرجع الى ان طبيعة الدولة الصهيونية في حد ذاتها تتعارض والشعور القومي الهندي الذي هو جزء من شعور اشمل اي الشعور بالهويـة الآسيوية او الافرو ـ آسيوية واحترام الذات .

وبسبب قوة هذا الشعور حدث بسرعة انقلاب في الراي العام الهندي . وقد راينا ان هذا كان واضحا في حزب جان سانغ في تموز ١٩٦٧ . واصبح ذلك الشعور عاما في الصحافة وفي اوساط السياسيين من جميع الاحزاب في شهري ايلول وتشرين الاول من ذلك العام عندما اتضح ان اسرائيل لم تكن عازمة على الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة وانها كانت بدل ذلك تستوطن تلك المناطق مثل قوة محتلة مستعمرة . وهناك عدد قليل من الصحف الهندية الرئيسية ، ان وجدت واحدة منها ، تقـول شيئا مؤيدا لاسرائيل الآن : فالمحررون انفسهم الذين عبروا عن اعجابهم باسرائيل في العام ١٩٦٧ يصفونها الآن بأنها « متغطرسة » « وقاسية »«ومولعة بالقتال » . لقد اثارت سياسات الاحتلال الاسرائيلي القاسية وبروز حركة المقاومة الفلسطينية الشعور القومي الهندي بحيث ان لاسرائيل الآن عددا اقل من الاصدقاء والمدافعين عنها في الهند مما كان لها في حزيران ١٩٦٧ . ولم تعد حكومة السيدة غاندي تتعرض لهجوم البرلمان عندما

تتخذ موقفا مؤيدا للعرب في الامم المتحدة وقد فقدت اسرائيل احد اكثر اصدقائها نفوذا وهو الشخصية المعروفة دوليا جاي براكاش نارايان تلميذ غاندي الذي كان يذكر دوما على انه قد يصبح في المستقبل رئيسا للهند وبسبب آرائه الاشتراكية كان لسنوات كثيرة خلت مدافعا عنيدا عن توثيق الروابط بين الهند واسرائيل التي زارها بضع مرات كما رتب زيارات لمجموعات من الاشتراكيين الشبان يقومون بها الى اسرائيل . الا انه لم يعد يتحمل في منتصف العام ١٩٦٨ وجود اسرائيل وسلوكها في المناطق المحتلة فأدانها بحزم قائلا انها دولة يهودية وصهيونية (٢٢). كان هذا مثالا نموذجيا وهاما على انقلاب الشعور الهندي الذي كان مؤيدا لاسرائيل في العام ١٩٦٧.

وكما يكشف التصويت في الجمعية العامة حدث انقلاب في الراي ، مشابه للانقلاب الذي حدث في الهند ، في كثير من البلدان الافرو ــ آسيوية . وكان هذا الانقلاب اشد في آسية منه في افريقية حيث لا يزال لاسرائيل اصدقاء رغم سياساتها المعادية لافريقية.

في العامين ١٩٦٠ ــ ١٩٦١ نالت غالبية الدول الافريقية الواقعة جنوبي الصحارى حريتها من بريطانيا وفرنسة ومع ذلك وبعده بعدة شهور فقط هرعت احدى عشرة دولة من تلك الدول بما فيها ليبيرية الى تقديم قرار في الجمعية العامة للامم المتحدة في نهاية العام ١٩٦١ يطالب باجراء مفاوضات مباشرة بين اسرائيل والدول العربية .

رحبت اسرائيل بهذا القرار بحرارة وايدته بقوة بينما قاومه العرب بالقدر نفسه من القوة . وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بهذا القرار المؤيد لاسرائيل فان التقدم به قد يثير التساؤل حول كيفية تمكن اسرائيل من كسب ذلك العدد الكبير من الدول الافريقية الى جانبها في ما يزيد على العام بقليل على الرغم من ان جهود عشر سنوات فشلت في تحقيق تأييد هام في آسية .

وقبل الاجابة على السؤال حول كيفية تحقيق ذلك الكسب في افريقية فان تقديم عرض اولا لدرجة الاختلاف ما بين علاقات اسرائيل بآسية من جهة وعلاقاتها بافريقية من جهة اخرى في قضايا مثل التصويت في الامم والعلاقات الديبلوماسية والتجارة والمساعدة قد يوضح الامور .

لقد كشف تحليل التصويت في الامم المتحدة انه في الوقت الذي لم تكن فيه دولة آسيوية واحدة مستعدة لاتخاذ موقف في صالح اسرائيل بشدة كبيرة كانت حوالي ثماني دول افريقية مستعدة لذلك ، ويمكننا اضافة اربع او خمس دول اخرى فقط لها مواقف اقل تأييدا لاسرائيل . ويقابل مجموعة الوفود الآسيوية الستة والوفود الافريقية الستة التي يمكن الاعتماد عليها دوما في التصويت الى جانب العرب مجموعة من الوفود الافريقية يبلغ عددها حوالي الاثني عشر يمكن الاعتماد عليها في دعم اسرائيل . وليست هذه الوفود الافريقية المؤيدة لاسرائيل هي وفود البلدان نفسها التي قدمت قرار العام ١٩٦١ بسبب حدوث ازدياد ونقص ولكن النواة تتألف الآن من ملاوي وبوتسوانا وليسوتو وسوزايلاند وساحل العاج والغابون وداهومي وليبيرية ومدغشقر .

والفرق العددي بين القارتين فيما يتعلق بالعلاقات الديبلوماسية مع اسرائيل واضح جدا ايضا . ففي العام ١٩٦٧ كانت اسرائيل ترتبط بعلاقات ديبلوماسية او كانت

---

٢٢ ــ الهندوستان تايمز ، نيودلهي ، ١١ ــ ٥ ــ ١٩٦٨

لها بعثات تجارية او قنصلية في ثمانية بلدان آسيوية فقط مقابل سبعة وعشرين بلدا افريقيا .

ومع ان عدد سكان افريقية يساوي سدس عدد سكان آسية فان صادرات اسرائيل الى افريقية تساوي ثلث الصادرات الاسرائيلية الى آسية . واشد غرابة من ذلك ارقام الاستيراد الاسرائيلية : ففي العام ١٩٦٤ بلغت قيمة ما استوردته اسرائيل من آسية ١٨ مليون دولار ارتفعت في العام ١٩٦٨ الى ١٩ مليون دولار فقط ، اما قيمة ما استوردته من افريقية في العام ١٩٦٤ فقد بلغت ٢٧ مليون دولار ارتفعت في العام ١٩٦٨ الى ٣٠ مليون دولار . وباستثناء جنوبي افريقية ، شريك اسرائيل التجاري في القارة السوداء ، فان معظم تجارة اسرائيل تتم مع مجموعة البلدان المحافظة وهي الغابون وساحل العاج والحبشة ، وهذه البلدان هي صديقة اسرائيل السياسية .

اما التمييز الذي تقيمه اسرائيل نفسها بين آسية وافريقية في طريقة تعاملها مع القارتين وتقربها منهما فواضح بصورة خاصة في برنامج المساعدة الفنية الاسرائيلي . ففي العام ١٩٦٦ وحده كان ٤٠٦ خبراء اسرائيليين يخدمون في عدة بلدان افريقية (مقابل ٢٥ خبيرا في العام ١٩٥٨) كما كان ٧٢٨ افريقيا يتدربون اثناء ذلك في اسرائيل وبلغ المجموع الكلي للافريقيين الذين تدربوا في اسرائيل ٤٣٥٨ متدربا حتى العام ١٩٦٦ وبلغ عدد الخبراء الاسرائيليين في افريقية للفترة ذاتها ٢٠٠٠ خبير الا ان المجموع الكلي للاسيويين الذين تلقوا تدريبهم او كانوا يتلقونه حتى العام ١٩٦٦ فقد بلغ ١٠٠٠ شخص، اما عدد الخبراء الاسرائيليين الذين خدموا في آسية للفترة نفسها فقد بلغ ١٠٠ خبير .

بعد ان اوضحنا مدى الفرق في بعض المجالات المعينة في العلاقات بين اسرائيل وكل من آسية وافريقية يمكننا الآن ان نحاول ايجاد اسباب تمكن اسرائيل من تحقيق قبول واسع النطاق في افريقية لم تستطع تحقيقه في آسية وايجاد سبب تحقيق ذلك خاصة بتلك السرعة . ان احد الاسباب هو ان اسرائيل لم تأخذ المبادرة في شق طريقها الى البلدان الافريقية المستقلة حديثا ولم تقم بذلك بجدارتها فمنذ البداية كان لها دول اجنبية قوية ترعاها وتكفلها . فقد كانت بريطانية وفرنسة تواجهان خلال خمسينات القرن الحالي سياسيا وعسكريا قوى القومية العربية ممثلة على وجه الخصوص بالجمهورية العربية المتحدة والجزائر . قبل العدوان على السويس خاضت الجمهورية العربية المتحدة معارك ضد فرنسة وبريطانية ليس في الشرق الاوسط والجزائر فحسب وانما في افريقية ايضا حيث قدمت العون للحركات القومية في بلدان كثيرة من غينية الى توغو وكينية وروديسية . وعندما حان الوقت في العامين ١٩٦٠ — ١٩٦١ لبريطانية وفرنسة ان تقوما بانسحابهما الكبير من افريقية انضمت اليهما الولايات المتحدة في الالحاح بتوجيه النصيحة الى الدول الافريقية الجديدة التي تفتقد ، في معظم الحالات ، الى الخبرة بأن تقبل اسرائيل كدولة من الطراز الغربي وكصديق مأمون ومفيد وغير ذي مصلحة بها . ومن الواضح انه كان لهذه البلدان الثلاثة كل سبب لان تضمن وترعى قضية اسرائيل في افريقية السوداء كقوة تواجه النمو السريع جدا للاسلام ولنفوذ الافكار السياسية العربية المتطرفة التي تلت حركة الاسلام باتجاه الجنوب . وكانت اسرائيل بالطبع مستعدة كل الاستعداد لتلقي الضمان والرعاية .

وهذا هو السبب اذن لكون اسرائيل تجد افضل اصدقائها بين الدول الافريقية المحافظة والضعيفة الصغيرة التي ترتبط اوثق الارتباط اقتصاديا وحتى عسكريا بفرنسة (ساحل العاج وتشاد والغابون ومدغشقر) او ببريطانية (غامبيه وسيراليون) او بالولايات المتحدة (ليبيرية) . وبما ان فرنسة خاضت اكبر نزاع مع العرب بسبب الجزائر فقد كانت ترعى وتضمن اسرائيل الى ابعد الحدود واشدها ، وهذا ما يفسر ان عدد اصدقاء اسرائيل في المجموعة الناطقة بالفرنسية يفوق بكثير عدد اصدقائها في المنطقة الناطقة بالانكليزية في افريقية .

واذا كانت الرعاية والضمانة القويتين هما اللتان سهلتا دخول اسرائيـــل الى افريقية المستقلة فقد استفادت اسرائيل كل الفائدة من هذه البداية عن طريق اقامــة شبكة من العلاقات بسرعة مع الدول الجديدة التي سرها بالطبع الاهتمام الذي ابدته اسرائيل بها على عكس البلدان العربية التي لم تتحرك ولو نسبيا . ولاسرائيل بعثات ديبلوماسية في افريقية تساوي وربما تفوق عددا التمثيل الديبلوماسي للدول العربية مجتمعة في تلك القارة .

وكما سبق ورأينا فان المصالح الاقتصادية والسياسية للبلدان الآسيوية تربطها بالعرب بصورة ايجابية وباسرائيل بصورة سلبية في الغالب . اما العكس فيبدو صحيحا بالنسبة لمعظم البلدان الافريقية السوداء (باستثناء بلدان شرقي افريقية عدا الحبشة) التي لها مصالح سياسية وتجارية ضئيلة جدا في العالم العربي بينما لها مصالح ايجابية وخاصة تجارية تربطها باسرائيل .

وما ان حققت الدول الافريقية استقلالهــا حتى انقسمت الـــى مجموعة الدار البيضاء المتطرفة (تمثلت فيها افريقية السوداء بثلاث دول هي غانه وغينية ومالي) ومجموعة برازافيل المحافظة والاكبر حجما والتي ضمت في النهاية ما لا يقل عن احدى وعشرين دولة . وارتبط العرب منذ البداية بالافريقيين المتطرفين لان الجمهورية العربية المتحدة والجزائر والمغرب كانت اعضاء في كتلة الدار البيضاء . اذن ، وبمعزل عن نصيحة الغرب حول هذا الامر ، كـــان من الطبيعي ان يشعر الافريقيون المحافظون بالعطف على عدو البلدان العربية التي كانت متحالفة مع مناوئيها الافريقيين . كما كان من الطبيعي ان تنتاب انظمة الحكم الافريقية المحافظة ، مخاوف مـــن حركـــة التحرير الفلسطينية التي تصف نفسها « بالثورة » . وسبب ذلك هو ان معظم البلدان الناطقة بالفرنسية ، على عكس الدول الآسيوية ، لم تشهد حركات تحرير خاصة بل كانت حريتهم مجرد هبة منحت لهم .

وكسبب اخير للقبول الذي لقيته اسرائيل في افريقية ، لا نستطيع ان نتجاهــل المحاولات الاسرائيلية الماكرة التي لا تزال ترسم وتخطط لابقاء واثبات الصورة القائلة بانتماء العربي المعاصر الى تاجر الرق العربي القديم . وقد يلقى هذا اشمئزازا في بعض البلدان الافريقية التقدمية ولكنه يضرب بالتأكيد على الوتر المناسب في المناطق الافريقية الاخرى الاكثر تقليدية .

ان اي عرض لكيفية صياغة اسرائيل روابط بينها وبين البلدان الافريقية قـــد

يستلزم تشكيل قائمة طويلة ببرامج المساعدة والمشاريع المشتركة (٢٣) . وباختصار ، ان عشرين من اصل الثلاثين اتفاقية التي ابرمتها اسرائيل للتعاون الفني تمت مع دول افريقية ، فنسبة ٦٠٪ من الخبراء الاسرائيليين الذين يخدمون في الخارج ونسبة ٦٠٪ من ميزانية العون الخارجي الاسرائيلية موزعة على افريقية . وحتى على الرغم من ان المساعدة الاسرائيلية تصل فقط الى نسبة ٠،٠٥٪ من مجموع المساعدة التي تتلقاها افريقية فانها تؤدي الى نتائج غير متكافئة خاصة في مجال السياسة الخارجية بسبب الحذر والانتباه اللذين يختار بهما الاسرائيليون مشاريع المساعدة التي يقدمونها والجد في تنفيذها .

ومع ذلك فان انواع المساعدة التي من المرجح انها تكسب اسرائيل اعظم نفوذ في البلدان الافريقية هي بالضبط تلك التي تحيطها اسرائيل باعظم درجـــات الكتمان والسرية .

واول هذه الانواع المساعدة الاسرائيلية في بناء القوات العسكرية والبوليس في الدول الافريقية . وفيما يلي قائمة تامة باسماء البلدان (٢٤) التي تلقت مساعدة من هذا النوع حتى العام ١٩٦٦ : الكمرون وجمهورية افريقية الوسطى وتشاد والكونغو (كنشاسا) وداهومي والحبشة وغانه وساحـــل العاج وكينية وملاوي ونيجيرية وسيراليون وتنزانية وتوغو ويوغنده بالاضافة الى مدغشقر (٢٥) . وقد خرجت من هذه المجموعة من البلدان كل من نيجيرية وغانه وربما تنزانيه مما يعني ان اسرائيل تزود الآن بالمساعدة العسكرية وشبه العسكرية الحكومات المحافظة والمعتدلة فحسب والتي هي ، كما اظهر سجل التصويت في الامم المتحدة ، اشد اصدقائها ثباتا في افريقية .

وعلى الرغم من ان احد الكتاب المؤيدين لاسرائيل (٢٦) والذي يحاول ان يضرب حجابا من اللياقة والادب على برنامج المساعدة بقوله انه « بسبب طبيعتهم الحساسـة لم يكشف الا القليل من التفاصيل عن برامج التدريب العسكري وتدريب البوليس » لقد « أنكشفت » الحقائق الاساسية عن نوع المساعدة العسكرية التي تقدمها اسرائيل الى كل بلد من البلدان المذكورة اعلاه . وهكذا فان المساعدة متنوعة جدا : تدريب الضباط ، والمظليين على وجه الخصوص ، في اسرائيل ، ضباط اسرائيليون في مهـــام تدريبية في افريقية ، اقامة كليات حربية ، تأسيس كتائب شباب ، ودورات خـــاصة لطلاب البحرية والجوية والبوليس .

ان بعض جوانب هذه المساعدة العسكرية تسترعي الانتباه . هناك بيع الاسلحة

---

٢٣ ــ قد توجد التفاصيل في ملاحق افريقية خاصة تنشرها عادة سنويا **The Israeli Economist** الشهرية ، القدس ، وتوجد ايضا في مقالة حول الموضوع في لوموند ، باريس ٣ و ٤ ايلول ١٩٦٧ ، وفي ليوبولد لوفر ، المصدر السابق ، وفي م. اي. كرينين ، المصدر السابق .

٢٤ ــ سانفورد سلفربرغ : **Israel Military and Paramilitary Assistance to Sub - Saharan Africa : A Harbinger for the Role of the Military in the Developing States,** اطروحة ماجستير ، الجامعة الاميركية ، واشنطن ، ١٩٦٨ ، ص ٥٠ ــ ٧٥ ، نقلا عن مجلة **Tricontinental** ، هافانه ، تشرين الثاني ــ كانون الاول ١٩٦٩ .

٢٥ ــ ذكر في ل. لوفر ، المصدر السابق ، ولوموند ، ٢ ــ ٩ ــ ١٩٦٧ .

٢٦ ــ ل. لوفر ، المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(وتملك اسرائيل صناعة خفيفة ومزدهرة للاسلحة) بما فيها مدفع الهاون الفنلندي المرخص صنعه في اسرائيل ورشيش « العوزي » الاسرائيلي الشهير الذي زود به « الحرس الجمهوري في بضعة بلدان في غربي افريقية (٢٧) » منها ساحل العاج (٢٨) .
وهناك « القوات الخاصة » من اجل عمليات المقاومة وصد التمرد والعصيان التي يقوم بتدريبها وقيادتها في القتال عسكريون اسرائيليون . فقد حدث هذا في تشاد والحبشة : قتل في العام ١٩٦٧ مستشاران اسرائيليان في تشاد ونكر مقاتلو المقاومة الاريترية انهم قتلوا بعض الاسرائيليين في معارك مع الجيش الحبشي . وفي الحبشة خصوصا قام الاسرائيليون بعمل هائل في مقاومة وصد عمليات التمرد : ففي العام ١٩٦٧ ورد إن عشرين ضابطا اسرائيليا اوكلوا بهذه المهمة (٢٩) . (وسنذكر ان اسرائيل تقدم النوع نفسه من المساعدة العسكرية لحليفها الامبراطوري ايران حيث يعمل مستشارون اسرائيليون في مخابرات الشاه .)
ومن النادر ان يبالغ في تقدير اهمية المساعدة العسكرية التي تقدمها اسرائيل الى الدول الافريقية الجديدة . وبما ان السيطرة العسكرية على الحكم في كل بلد افريقي تقريبا هي احدى الاحتمالات فان تدريب ضباط الجيش يعني تدريب اولئك الذين قد يصبحون في المستقبل حكام هذه البلاد وسيحتفظون على الاقل بمشاعر الصداقة نحو البلد الذي زودهم بالخبرة العسكرية التي ادت بهم الى السلطة السياسية . وهذا ما حدث مع الرئيس موبوتو رئيس الكونغو (كنشاسا) الذي كان جنرالا قبل ان يصبح رئيسا وتلقى تدريبه المظلي في اسرائيل .
وجميع انظمة الحكم المحافظة هذه تقع تحت ضغط القوى الاصلاحية او المتطرفة. وكل بلد ، مثل اسرائيل ، يزيد من الفعالية الرادعة لحراس هذه الانظمة ، مثل الحرس الجمهوري والقوات الخاصة ، يساعد مباشرة على الحفاظ على نظام الحكم في السلطة .
اما الشكل الهام الآخر وشبه السري للمساعدة التي تقدمها اسرائيل لافريقية فهو الترتيبات التي تقوم اسرائيل بموجبها بدور القناة التي يمر عبرها طرف ثالث لتقديم المساعدة تحت اسم مستعار . ويلاحظ مؤرخ علاقات اسرائيل مع البلدان النامية بحصافة للمرة الثانية مشاركة الطرف الثالث في هذه العلاقات : « ان التفاصيل حول مدى هذا النوع من التعاون ليست سهلة المنال » (٣٠) ، وهذه اشارة ليست مربكة فقط بل هامة ايضا . لقد استخدم برنامج المساعدة الاسرائيلي لافرو ــ آسية منذ بدايته ، كما رأينا ، « كجبهة » للمنظمات الغربية ، ولهذا السبب تمول اتحادات العمال الاميركية المعهد الافرو ــ آسيوي في تل ابيب ، وهو ابرز مؤسسة في برامج التدريب الافرو ــ آسيوية .
وقد اتسعت مشاركة الطرف الثالث غير المباشرة في برامج المساعدة الاسرائيلية لتشمل تمويل ما يفترض ان يكون برامج مساعدة اسرائيلية في افريقية : ان كل ما تقدمه اسرائيل هو الخبراء . وقد تكون اسرائيل قد حاولت الابقاء على هذه الترتيبات

---

٢٧ ــ لوموند ، ٥ ــ ٩ ــ ١٩٦٧
٢٨ ــ سيلدربرغ ، المصدر السابق .
٢٩ ــ لوموند ، المصدر السابق .
٣٠ ــ لوموند ، المصدر السابق . ص ٩ .

المشبوهة سرية لاسباب واضحة الا ان النظرية الكاملة وراء تلك الترتيبات اعرب عنها صراحة : « ان دولة عالمية حرة ترغب في توسيع تدفق مساعدتها الى افريقية تحول جزءا منها من خلال اسرائيل بسبب مؤهلاتها الخاصة وقبولها الواضح لدى الكثير من الدول الافريقية (٣١) » ، والافتراض هنا هو ان « الدولة العالمية الحرة » قد لا يكون لها هي نفسها « قبول واضح » . « واذا كان هناك اي دافع واقعي ، في برنامج المساعدة الخارجية الاسرائيلي فهو الامل بأن تكسب مكافآت ملموسة من الولايات المتحدة عن طريق خدمة الاغراض نفسها التي تسعى تلك الدولة (الولايات المتحدة) الى تعزيزها من خلال برنامج المساعدة في الوقت نفسه الذي تخدم فيه مصالحها هي (٣٢) . » ورغم هذا الكلام الذي قاله مواطن اسرائيلي سابق بأن الدافع الرئيسي لبرامج المساعدة الاسرائيلية هو كسب « مكافآت ملموسة » ليس من الدول التي تتلقى المساعدة بل من الولايات المتحدة فان بعض المكافآت ، مع ذلك ، تأتي الى اسرائيل على الاقل من البلدان الافريقية التي تقر بالجميل « للمساعدة الاسرائيلية » .

ويكشف هذا المصدر الاسرائيلي النقاب عن دعم الولايات المتحدة لبرامج الشباب الاسرائيلية في جمهورية افريقية الوسطى وداهومي ، ويكشف ايضا عن المساعدة الفرنسية الى مشاريع الشباب في ساحل العاج ، هذا « وقدمت بريطانية العظمى والمانية الغربية المساعدة لمشاريع في اماكن اخرى في افريقية (٣٣) » ، وهنا ينقشع نقاب الغموض تدريجيا .

من الواضح انه لا بد ان يكون تمويل برنامج المساعدة الاسرائيلية عن طريق طرف ثالث كبيرا جدا لانه على حد قول المصدر السابق نفسه : « ربما يكون فريدا من نوعه ان تكسب اسرائيل اكثر من نصف الاموال التي يتطلبها جهدها من مصادر غير اسرائيلية (٣٤) . » وهذا قول مأمون اذ ان عددا قليلا من البلدان الاخرى على استعداد للقبول بكسب فضل ومفخرة برامج مساعدة تمولها حكومات اخرى ذات هوية مشبوهة بحيث تجعل مساعدتها سرية .

ان بلدا مثل اسرائيل يعتمد كليا على هبات اجنبية هائلة ويقدم هو نفسه المال الى بلدان اخرى قد لا يبدو صادقا او جديرا بالفضل والمفخرة ، ولكن هذه هي حال اسرائيل فعلا . وقد قدمت حكومة تل ابيب في الواقع قروضا وهبات الى بلدان افريقية ولا يعرف الكثير عنها « لم تنشر الحكومة الاسرائيلية اي معلومات احصائية حول نشاطاتها في مجال القروض والهبات (٣٥) » . ولا نعرف الا اسماء الدول الافريقية المدينة لاسرائيل وهي : سيراليون ونيجيرية وغانة وليبيرية وساحل العاج وتنزانية وملاوي وكينية وفولتا العليا ، ولا تزال خمسة من هذه البلدان على الاقل من اشد مؤيدي اسرائيل اخلاصا . وهنا ايضا كانت اسرائيل في الواقع تقدم المساعدة من اموال

---

٣١ — Arnold Rivkin ، **افريقية والغرب** ، نيويورك ، ١٩٦١ ، ص ٨٩ .

٣٢ — ناداف سفران ، **الولايات المتحدة واسرائيل** ، كامبريدج ، ماساتشوستس ، ١٩٦٣ ، ص ٢٦٧

٣٣ — لوفر ، المصدر السابق ، ص ٦٣ .

٣٤ — المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

٣٥ — المصدر نفسه ، ص ١٣٨ ، ملاحظة رقم ٢

اطراف ثالثة بسبب « القبول الواضح » الذي تلقاه اسرائيل اكثر من تلك الاطراف على ما يعتقد .

اخيرا وليس آخرا يجب ان نذكر من الوسائل التي اكسبت اسرائيل دعما افريقيا السخاء الذي ابدته نحو العديد من الزعماء الافريقيين : فان الهبات التي قد تكون « اشياء تافهة وغير جديرة بالاعتبار » في ظروف اخرى تتخذ اهمية بالنسبة لزعماء الدول الصغيرة . وقد خفت هذه الممارسة الى حد ما بدليل حقيقة ان المسؤولين الاسرائيليين يتحدثون عنها بحرية وسهولة في السر على الاقل (٣٦) .

وقد لا يكون هناك شيء ينتقد في الصداقة التي تبديها بعض الدول الافريقية تجاه اسرائيل — ويمكن التسليم بأنهم انما يتبعون مصالحهم القوميـة — لولا حقيقة ان اسرائيل تتبع سياسات حول مسألتين حيويتين هي في الاساس والجوهر معاديـة لافريقية ، اي ضد مصالح القارة بأسرها .

هناك اولا الدعم الاسرائيلي الخفي للحركات الانفصالية . وقد تم الاتفاق بالاجماع في مؤتمر القمة الاول لمنظمة الوحدة الافريقية ، الذي عقد في العام ١٩٦٣ ، على وجوب احترام الحدود القائمة لكافة الدول على الرغم من انها من آثار الاستعمار ولم تقم وفقا للاسس الاثنية أو القبلية او الجغرافية . وادركت الحكومات الافريقية انه اذا فتح موضوع تصحيح الحدود فان الفوضى والتشوش والنزاع ستعم القارة من اقصاها الى اقصاها . كان ذلك اذا رفضا تاما للانفصال . وهكذا عندما طالبت قبائل « الايبو » النيجيرية بالانفصال واقامة ما يسمى دولة بيافرة عارضت جميع الدول الافريقية الاحدى والاربعين ذلك التحرك باستثناء اربـع منها . وكانت اسرائيل التي ارادت اضعاف الحكومة النيجيرية المركزية من القوى الاجنبية التي قدمت الدعم للانفصاليين ، ذلك لان الحكومة المركزية حولت سياستها التي كانت تتخذ في السابق مواقف مؤيدة لاسرائيل . وعندما تحطم تمرد الانفصاليين نهائيا اعلن وزير الخارجية الاسرائيلي بفخر يشوبـه الاسى ان هذه المأساة لم تكن لتحدث لو قدمت البلدان الاخرى مساعدة لقبائل « الايبو » بقدر ما قدمت اسرائيل .

وهناك ثانيا الحركة الانفصالية في جنوبي السودان التي تلقى دعم اسرائيـل وهدفها المعلن في ذلـك ايضا هـو اضعاف الحكومـة المركزية المعادية لاسرائيل في الخرطوم . وقد عثر على رشيشات من نوع عوزي في مستودعات اسلحة المتمردين ، وتصلهم هذه الاسلحة عبر يوغنده المجاورة حيث يقوم الاسرائيليون بكافة انواع التدريب العسكري .

وبسبب علاقاتها بنظام الحكم العنصري في جنوبي افريقية تسير اسرائيل في خط يتعارض والمصالح الانسانية والقومية الاساسية لحكومات وشعوب القارة الافريقية . وكما هو معروف جيدا فان الحكومة الحاضرة في جنوبي افريقية ترتكز على الافتراض القائل بأن جميع الناس الملونين ، سودا وسمرا ، هم وفقا لقانون الله ادنى مرتبة من

---

٣٦ — حصل المؤلف على معلومات حول هذا الموضوع بتفصيل مدهش من ديبلوماسي اسرائيلي كبير سابق له خبرة في افريقية : علمت ان معطف فرو المنك كانت هدية مقبولة دائما على الرغم من عدم صلاحيتها في المناخ الافريقي .

الانسان الابيض ، وتهدف قوانين الرجل الابيض في جنوبي افريقية الى الابقاء على غير البيض في مرتبة ادنى دائما . ان هذه الدولة والذين يدعمونها ينتهكون الكرامة الانسانية الاساسية واحترام الذات الانسانية للفرد الافريقي . واسرائيل هي احدى اصدقاء جنوبي افريقية ومن مؤيديها الاشد حماسة وحرارة .

قد يقال ، على عكس ما قلنا ، ان اسرائيل صوتت ضد جنوبي افريقية في الامم المتحدة حول مسألة التفرقة العنصرية (على الرغم من انها فعلت ذلك في العام ١٩٦٢ وبعد احدى عشرة سنة من التردد والتذبذب) وانه ليس لها ايضا اية علاقات ديبلوماسية معها . يجب ان نضع في وجه هذه التلميحات حقيقة ان اسرائيل تقوم بصورة مستمرة بما يتعارض وقرار الامم المتحدة الذي يطالب الدول الاعضاء بعدم اقامة اية علاقات تجارية مع نظام الحكم العنصري في جنوبي افريقية . وتسافر طائرات الخطوط الجوية الاسرائيلية (العال) الى جنوبي افريقية باستمرار . وكانت اسرائيل تصر على الاحتفاظ بذلك الخط الجوي لدرجة ان طائرات العال كانت تلتف حول شبه الجزيرة العربية في طريقها من طهران الى نيروبي . وتجارة اسرائيل مع جنوبي افريقية آخذة في الازدياد بحيث تشكل الآن خمس تجارة اسرائيل كلها مع القارة . ومن الواضح ان الارقام لا تشمل الماس الخام الذي تشتريه اسرائيل من جنوبي افريقية « وحدها تقريبا » (٣٧) . وتتبين اهمية تجارة الماس هذه بالنسبة لاسرائيل من حقيقة ان الماس المقطوع والمصقول يؤلف ما لا يقل عن خمسي صادرات اسرائيل (٣٨) .

واعظم مساعد لاسرائيل ماليا في جنوبي افريقية الطائفة اليهودية القومية والمؤلفة من ١٠٠،٠٠٠ شخص ، وهي طائفة غنية جدا وشديدة الحماس للصهيونية (٣٩) . ففي فترة عشر السنوات ما بين العامين ١٩٥١ — ١٩٦١ تبرعت هذه الطائفة بمبلغ عشرين مليون دولار لاسرائيل . الا أن ما قدمته هذه الطائفة في العام ١٩٦٧ يفوق ذلك المبلغ بكثير اذ بلغ ٣٠ مليون دولار بالاضافة الى انها ارسلت ٨٦١ متطوعا للقتال في اسرائيل . وحتى في ايام السلم تسمح جنوبي افريقية لضباط الاحتياط من اليهود ان يتدربوا في اسرائيل وهذا اجراء مخالف رسميا للقانون .

لقد كان ارسال المتطوعين وتحويل الاموال امتيازات خاصة إعطيت للطائفة اليهودية في جنوبي افريقية وكان لزاما بالطبع دفع ثمن لها ، فكان التواطؤ الادبي والايديولوجي بين مبدأ التفرقة العنصرية المعادي للسامية ومبدأ الصهيونية : وهو تواطؤ مورس ليس فقط في جنوبي افريقية بل مارسته المنظمة الصهيونية في كل مكان آخر .

وقد كان البويريون جنوب الافريقيين في الحزب القومي الذين يمارسون التفرقة العنصرية معادون للسامية بشدة : فقد اعربوا اثناء الحرب العالمية الثانية صراحة عن عطفهم على هتلر ومبدأ النازية المعادي للسامية الذي نادى به . ومن ناحية اخرى اظهرت الصهيونية ، وهي نتاج اضطهاد اليهود في اوروبة الشرقية ، معارضتها لكافة

---

٣٧ — لوموند ، المصدر السابق .

٣٨ — القائمة ١/٤ في **Statistical Abstract of Israel** الذي يصدر سنويا .

٣٩ — انني مدين كثيرا في القسم التالي الى ريتشارد ب. ستيفنز : **Zionism South Africa and Apartheid : the Paradoxical Triangle**، منظمة التحرير الفلسطينية — مركز الابحاث ، بيروت ، ١٩٦٩ . ان مقالة الدكتور ستيفنز بحث قيم ورائد .

اشكال التمييز العنصري . يبدو هذان المبدآن اذن متناقضين اساسا الا في دولة جنوبي افريقية العنصرية بعد قيام الدولة الصهيونية (التي مارست هي ذاتها التفرقة العنصرية بين اليهود وغير اليهود في فلسطين) .

وصف الدكتور ريتشارد ستيفنز كيف ان الطائفة اليهودية في جنوبي افريقية والحزب القومي كانا قبل العام ١٩٤٨ في حالة من العداء المتبادل . الا ان قيام اسرائيل احدث تغييرا لان البويريين الذين يقرأون الكتاب المقدس ، وكثيرون منهم صهيونيون اميون ، رأوا في هذا الحدث تحقيقا لنبوءة توراتية ، كما ان العنصريين منهم « رأوا في نجاح اليهود ضد العرب نصرا للابيض على غير الابيض (٤٠) . » وحدث مقابل ذلك تغير في سياسة الطائفة اليهودية وفي انتقادها السياسات العنصرية التي يتبعها الحزب القومي فصاروا يمتدحونه ويمتدحون سياساته بصورة بغيضة وعندما تقاعد الرئيس مالان في العام ١٩٥٤ منح اسمى مراتب الشرف عند يهود جنوبي افريقية فادرج اسمه في « الكتاب الذهبي » اعترافا بما « قدمه في سبيل تفاهم عنصري افضل في جنوبي افريقية » . واهدي خلفه جائزة فضية . وكان القاضي الذي حاكم الزعيم القومي الافريقي الجنوبي الزنجي الشهير نلسون مانديلا في العام ١٩٦٨ يهوديا . وحتى مذبحة شاريفيل (١٩٦٠) التي اثارت الاستنكار في سائر انحاء العالم وبين كثير من الافراد والجماعات في جنوبي افريقية مرت بصمت وسط الطائفة اليهودية . وبعد عدة شهور قال عضو بارز في الطائفة بأن « غالبيتنا تؤيد سياسة حكومة الاتحاد فيما يتعلق بالتفرقة العنصرية (٤١) » .

وعندما صوتت اسرائيل في العام ١٩٦٢ ضد جنوبي افريقية عاد القوميون على الفور الى التهجم على الطائفة اليهودية واسرائيل . وقال رئيس الوزراء في ذلك الوقت، الدكتور فيروورد ، بأن اليهود « اخذوا اسرائيل من العرب بعد ان عاش العرب هناك الف سنة . انني اتفق معهم في ذلك ، فاسرائيل ، مثل جنوبي افريقية ، دولة عنصرية ». وقد الغيت الامتيازات الخاصة الممنوحة للمنظمات اليهودية لارسال اموال وبضائع الى اسرائيل .

اما الطائفة اليهودية في جنوبي افريقية فقامت بما استطاعت القيام به : انتقدت بشدة تصويت اسرائيل ضد جنوبي افريقية في الداخل والخارج . وتحدث ممثلون عن تلك الطائفة تأييدا لسياسة حكومة جنوبي افريقية ليس فقط في جنوبي افريقية واسرائيل بل ايضا في اميركة حيث قدم بعضهم محاضرات برعاية بناي بريث المعروفة بدفاعها عن القضايا الليبرالية في النواحي الاخرى .

وانتهى هذا التضارب في الآراء الى تسوية . فقد افهمت حكومة جنوبي افريقية أن اسرائيل كانت مضطرة للتصويت ضد التمييز العنصري في الامم المتحدة وللاستمرار فيه بسبب ازدياد مصالحها في الدول الافريقية المستقلة وان المنظمات الصهيونية المتنوعة والواسعة الانتشار في العالم ستمتنع عن اي نقد للتمييز العنصري .

وبفضل هذا الاتفاق قام تفاهم غير رسمي بصورة ثابتة بين جنوبي افريقية

---

٤٠ ــ المصدر نفسه ، ص ٧ وما يليها .

٤١ ــ المصدر نفسه ، ص ٩ .

واسرائيل . وقد ايدت صحافة جنوبي افريقية اسرائيل خلال ازمتي ١٩٥٦ و١٩٦٧ وكما مر معنا ، كانت جنوبي افريقية تصوت في الامم المتحدة دائما الى جانب اشد القرارات تأييدا لاسرائيل . اما الدول الافريقية الاربع التي هي فعــلا اسيرة جنوبي افريقية ـــ وهي ملاوي وبوتسوانا وليسوتو وسوازيلاند ـــ فتصوت تماما مثل جنوبي افريقية وبضغط منها كليا او جزئيا على الاقل .

وفي نهاية العام ١٩٧٠ بدا ان تنظيما جديدا للقوى اخذ في البروز في افريقية فنادى اصدقاء اسرائيل الافريقيين ـــ ساحل العاج والغابون وداهومي ومدغشقر ـــ علنــا ببدء حوار ودي مع جنوبي افريقية . وسواء كان هذا التوافق المدهش في الصداقة وليد الصدفة او نتيجة مخطط فان الوقت وحده كفيل بكشف ذلك .

تبدو الفجوة بين السياسة « الفعلية » والسياسة « المعلنة » بالنسبة لإسرائيل واسعة خاصة في افريقية . ففي الوقت الذي كانت فيه اسرائيل ، علــى الرغم مــن صداقتها لجنوبي افريقية ، توطد صداقاتها مع احدى عشرة دولة افريقية انضمت هذه الدول ذاتها الى كل الدول الاخرى في منظمة الوحدة الافريقية في ادانة جنوبي افريقية وادانة اسرائيل بقسوة متزايدة .

وادراكا منها ان اي محاولة للحصول على قرار يدين اسرائيل في منظمة الوحدة الافريقية قد يؤدي الى شق المنظمة الطفل ، امتنعت الدول العربية الست الاعضاء في المنظمة بلباقة عن اثارة تلك المسألة في مؤتمرات القمة الثلاث الاولى للمنظمة . ولكن مؤتمر القمة الرابع الذي انعقد في ايلول ١٩٦٧ ادهش حتى الاعضاء العرب باجرائه نقاشا خاصا بأزمة الشرق الاوسط وباتخاذه قرارا قويا يعلن وقوف المنظمة وقوفا تاما وراء الجمهورية العربية المتحدة ويعد بالعمل من اجل تحرير كافة اراضيها مــن الاحتلال الاجنبي وبالتحديد من الاحتلال الاسرائيلي . واكثر من ذلك اعربت اللجنة الوزارية لمنظمة الوحدة الافريقية في شباط ١٩٦٨ عن تضامنها مع كافة البلدان العربية الواقعة اراض منها تحت احتلال القوات الاسرائيلية ودعت الى الانسحاب الفوري وغير المشروط لهذه القوات . واكتفت مؤتمرات القمة لمنظمة الوحدة الافريقية التــي عقدت في العامين ١٩٦٨ ـــ ١٩٦٩ بتكرار صيغة العام ١٩٦٧ . اما في ايلول ١٩٧٠ فقد وافق مؤتمر القمة على القرار الوزاري الذي يدعو الى انسحاب القوات الاسرائيلية من كافة الاراضي العربية المحتلة .

وفي الوقت نفسه صوتت بعض هذه البلدان الافريقية ذاتها الى جانب قرارات مؤيدة لاسرائيل بشدة في الامم المتحدة . وقد خافت اسرائيل نفسها اول الامر من هذا التناقض الظاهر ولكنها قررت بذكاء ان المهم فعلا هو علاقاتها الثنائية الودية مع بعض الدول وليس الادانات الجماعية التي تطلقها منظمة الوحدة الافريقية ، وذلك ما حدث بين اسرائيل وجنوبي افريقية اذ رأت اسرائيل ان المهم هو التفاهم الثنائي مع جنوبي افريقية وليس تصويت اسرائيل الى جانب قرار يدين التمييز العنصري في الامم المتحدة .

ليس التشدد البطيء في موقف منظمة الوحدة الافريقية تشددا كاذبا ومنافقا لانه يعكس تزايد الشعور المعادي لاسرائيل بين بعض الدول الافريقية البارزة والاكبــر حجما : فقد اصبحت الآن بعض البلدان التي كانت صديقة لاسرائيل في الماضي معادية

لها ، وليس هذا التحول مجرد تحول لفظي . وبسبب هذا التحول او التراجع عـــن صداقة اسرائيل اصبحت صداقاتها في افريقية ، باستثناء الحبشة ، محصورة بالدول الصغيرة .

يمكن ان يكون هذا بداية ادراك متأخر من جانب الدول الافريقية الاكثر اهمية واستقلالا بأنه لا يمكن ان تقوم صداقة حقيقية بينهم وبين اسرائيل التي ترتكز على مبدأ العنصرية والتي ترتبط بعلاقات صداقة وتعاون مع الدول العنصرية في جنوبي افريقية.

الفصل الثامن

اسرائيل : مستعمرة او مستعمرة

رأينا من خلال هذه النظرة العامة في علاقة الصهيونية بالقومية الآسيوية وفي علاقة الدولة الصهيونية بالدول القومية في أفريقية وآسية ان بعض الزعماء القوميين الآسيويين رفضوا الحركة الصهيونية بسبب أصولها الاوروبية وطبيعتها الاستعمارية الاغتصابية ، ثم عارضت بعض الدول الآسيوية الجديدة خلق اسرائيل بسبب الطريقة التي أدخلت فيها الى آسية عن طريق قوى غير آسيوية ورغم معارضة آسية وممانعتها، وقد رأينا بعد ذلك كيف ان بعض البلدان الناشئة في آسية وافريقية ابتعدت عن اسرائيل بعد قيامها بسبب تشريدها الفلسطينيين وبسبب سياساتها المؤيدة للغرب والمعادية لافريقيــة وآسية . ومنذ فترة وجيزة ، وبعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، قاومت بلدان أفرو ــ آسيوية أخرى اسرائيل لانها اصبحت قوة عسكرية محتلة . واذا نظرنا الى المستقبل نستطيع أن نتنبأ بأن مزيدا من البلدان الافرو ــ آسيوية ستجد نفسها في مواجهة اسرائيل بسبب ما ستكون عليه اي ليس مستعمرة غربية فحسب بل مستعمرة (بكسر الميم) بحكم طبيعتها .

كان هناك ميل حتى في صفوف المحللين السياسيين العرب الى الاستخفافباسرائيل من خلال وصفها بازدراء بانها ليست اكثر من مستعمرة غربية تابعة أو رأس جسر للاستعمار في المنطقة . الا أن هذا ليس صحيحا تماما لانه وجد دوما التقاء وانسجام مصلحيان بين الصهيونيين ومختلف مؤيديهم من الاوروبيين . أما الشيء الوحيد الذي كان عرضة للشك فهو معرفة من استفاد من الآخر بنسبة أكبر في أية فترة زمنية معينة . وربما كانت اسرائيل منذ اوائل العام ١٩٥٧ تعتمد على ذاتها أو على الاقل تشعر بأنها كذلك ، ولكنها كانت دائما طبعا تعتمد على الدعم المالــي والسياسي والدعائي الذي تقدمه الحركة الصهيونية المنتشرة في سائر أنحاء العالم والتي يجب ان يحسب لها دائما حساب . الا أن اسرائيل انتقلت منذ حزيران ١٩٦٧ من حيث القوة السياسية الى مرحلة « الاقلاع » حقا : فهي ليست قادرة فقط على الوقوف على قدميها وانما يرجح انها تستطيع ان تقرر الى أين يجب ان تحملها قدماها في السنوات القادمة.

من المسلم به أن هذا الراي من قبيل التخمين ، ومن المجازفة التخمين حول مستقبل اسرائيل اذ أنه من الصعب تماما رؤية استمرار الدولة الصهيونية على ما هي عليه فعلا في الوقت الحاضر .

وسبب هذا هو أن اسرائيل بطبيعتها الصهيونية بحد ذاتها مضطرة ان تتغلف

بغلاف سميك من الخرافات التي لولاها لكانت الحركة الصهيونية مخيفة وبغيضة جدا، ولولا الخرافات لكانت الدولة الصهيونية خالية من الاوهام خلوا كبيرا

يذكر الدكتور فرديناند زفايغ (Ferdynand Zweig) ، وهو مراقب مدرك للمسرح الاسرائيلي ادراكا جيدا ، في كتابة **اسرائيل : السيف والقيثارة** (١) ما يلي تحت عنوان « خرافات اسرائيل الاساسية » : خرافة الكتاب المقدس ، والارض المقدسة ، والخلاص ، واستمرار اسرائيل ، والعودة ، والتحقيق ، والنفي ، وابداع اسرائيل الخاص ، واسرائيل كتجسيد لليهود ، والآباء المؤسسون ، « وحل المسألة اليهودية »، ومركزية اسرائيل ، « والحياة اليهودية الاكمل » . وقد تبدو الثلاث عشرة خرافة هذه عبئا ثقيلا بصورة غير عادية بالنسبة لبلد غرب آسيوي صغير يقطنه ثلاثة ملايين شخص ويذكر الدكتور زفايغ أن الاسرائيليين الاسرائيليي المولد يشعرون بعبء الخرافات . الا ان الامر يتضح بعض الشيء من خلال حقيقة ان جميع هذه الخرافات «يمكن تلخيصها بمعتقد واحد هو الاعتقاد بكون اسرائيل فريدة في نوعها ومعجزة» ، لا اكثر ولا اقل .

ولكن بما أن الدكتور زفايغ يقول ان هذه « الخرافات ... هي عوامل من اجل التكامل القومي والاجتماعي » « وانها تساعد في تجنيد العالم المسيحي وغيره من الدعم الدولي » وانها ، أخيرا وليس آخرا ، « وسيلة في تكوين الراي اليهودي وتشجيع الهجرة اليهودية والدعم المالي اليهودي » ، فاننا قد نعجب مما اذا كانت هذه المعتقدات التي تؤدي الى مثل تلك النتائج النافعة والعملية الى حد بعيد خرافات حقيقية أم انها مجرد نتاج للدعاية الصهيونية الذكية والبعيدة النظر .

ان ابراز هذه الخرافات باحرف كبيرة جعلها عظيمة على الرغم من نتيجتها الدنيوية. أما الخرافات الاكثر بساطة وعلمانية والاشد ارتباطا بالحياة اليومية فهي التي حجبت حقيقة اسرائيل الحالية عن أعين الافرو ــ آسيويين، وأكثر من ذلك انها كانت موجهة الى احاسيس ومدارك الافرو ــ آسيويين . وهذه الخرافات هي : خرافة أن اسرائيل دولة اشتراكية ترتكز على شبه خرافة هي الكيبوتز والهستدروت ، وخرافة أن اسرائيل مثال على العصرية المتمدنة ، وخرافة أن اسرائيل هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة .

وقد نتصور من خلال مقدار الدعاية المنتشرة أن الريف الاسرائيلي مغطى بالكيبوتزات من أقصاه الى اقصاه . الا أن الحقائق مختلفة تماما كما يظهر في نشرات مثل **اقتصاد الكيبوتز الاسرائيلي** لكاتبه اي . كانوفسكي وفي كتابين عن الكيبوتز وضعهما م. سبيرو و د. ليون (٢) . لقد بقي عدد سكان الكيبوتزات الذي يبلغ حوالي ٨٠,٠٠٠ ثابتا خلال عشر السنوات الماضية مما يعني ان نسبتهم الان تبلغ ٣ ٪ من مجموع السكان في حين ان هذه النسبة بلغت ٦٪ في العام ١٩٤٩ . وانخفضت حصة الكيبوتزات من مساحة الأراضي الزراعية خلال عشر سنوات من ٤٥ ٪ الى ٣٢ ٪

---

١ ــ لندن ، ١٩٦٩ ، ص ٧٠ وما يليها . على الرغم من ان الدكتور زفايغ يعطف اساسا على اسرائيل فان كتابه يضم بعض أصدق وأذكى وأوضح التحليلات حول المجتمع والسياسة الاسرائيليين

٢ ــ اي . كانوفسكي ، **اقتصاد الكيبوتز الاسرائيلي** ، هارفارد ، ١٩٦٦ ، م. سبيرو ، **الكيبوتز** ، نيويورك ، ١٩٦٢ ، د. ليون ، **الكيبوتز** ، تل ابيب ، ١٩٦٤

وهي لا تزال آخذة في الانخفاض . هـذا والكيبوتز عبارة عـن قطعـة جـديرة أن توضع في متحف لان حركته في طريق الزوال تدريجيا لعدم اقبال عناصر جديدة وغياب الدافع الادبي له . ولم يعد عامل الكيبوتز المثال الاسرائيلي ، ولهـذا اضطر الكيبوتز الى التنكر لمبادئه الاساسية باستئجاره اليد العاملة والاهم من ذلـك بالنسبة للبلدان الافرو ـ آسيوية هو ان الكيبوتزات لم تكف احتياجاتها ابدا لانهـا لم تصمم ابدا كمشاريع اقتصادية . وكما يقول كانوفسكي « حـرم مستوى المعيشة في الكيبوتز في معظمه من الربح المتوفر (٣) » . ويحاجج الدكتور زفايغ بقولـه ان الكيبوتز والهستدروت مؤسسات لا تلائم افريقية وآسية ، وهي نتيجة توصلت اليها لجنة بحث حكومية هندية قبل خمس عشرة سنة .

لقد بولغ كثيرا في تصوير الدور الذي يلعبه الهستدروت في الاقتصاد الاسرائيلي ايضا مما ادى الى الاعتقاد الخرافي بانه يلعب دورا رئيسيا حاسما . وتثبت دراسة هـ. باركاي دور **الهستدروت والقطاعين العام والخاص في الاقتصاد الاسرائيلي** (٤) نهائيا بأن القطاع الخاص في اسرائيل ، من حيث ما يقدمه للناتج المحلي وعدد الاشخاص الذين يشتغلون فيه ، أهم من الهستدروت بكثير جدا .

وبسقوط شبه الخرافتين لا يبقى اساس مادي للخرافة الرئيسية وهـي أن اسرائيل اشتراكية . وقل ما يدهشنا ان يقول الدكتور زفايغ ، الذي يكن كل عطف لاسرائيل ، صراحة : « اسرائيل نموذج عن الراسمالية الغربية في البلدان النامية (٥) ».

وكون اسرائيل دولة دينية ينفي خرافتها القائلة بانها عصرية ومتحضرة لانهـا لم تستطع تحقيق الشرط الاساسي للعصرية وهو الفصل العلماني بين الدين والدولة . ففي أية دولة دينية مثل اسرائيل لا يستطيع المواطنون من الاديان الاخرى غير الديانة السائدة الا ان يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية . وقـد تم هذا التصنيف على يد الحكومة الاسرائيلية في ردها على السؤال التالي « من هو اليهودي ؟ » لقد تركت الحكومة الاسرائيلية قرار محكمتها العليا وقررت ان الذين يولدون لامهات يهودية والذين يتحولون رسميا الى الديانة اليهودية فحسب بامكانهم ان يكونـوا يهـودا ويصبحـوا على هـذا الاساس مـن الامـة اليهوديـة وبالتالـي مواطنـين اسرائيليين . وقيل ان الدافع الصهيوني الرئيسي هو الحاجة الى اقامة الصلة الحميمة التي تربط بين الشعب اليهودي « والارض » . الا انه لا « الارض » ولا حتى « الارض المقدسة » تعطي اي حق في المواطنة كما هي الحال في بلدان متنوعة مثل الهند واليونان والولايات المتحدة . أما في اسرائيل فتتحقق المواطنة من خلال الرحم والكنيس ، من خلال الدم والدين . ان هذه المقاييس العتيقة تتعارض ومفهوم الدولة العصرية .

أما خرافة الديمقراطية الاسرائيلية فتخضع للتساؤل الجدي بسبب المركز المتدني جدا لجماعتين اثنتين هما الاقلية العربية والمهاجرون اليهود غير الاوروبيين الذين يشكلون الاغلبية . وتوجد الصورة التامة للاضطهاد والتمييز اللذين تتعرض لهما هذه

---

٣ ـ كانوفسكي ، المصدر السابق ، ص ٧٩ .

٤ ـ مشروع فولك للبحث الاقتصادي في اسرائيل ، التقرير السادس ، القدس ، ١٩٦٤

٥ ـ ف. زفايغ ، المصدر السابق ، ص ٣٠٠

الجماعات في مصادر مليئة بالوثائق مثل كتاب **العرب في اسرائيل** لصاحبه صبري جريس ، والنشرات المتنوعة الصادرة عن المجلس السفردي ، والدراسات الاقتصادية مثل كتاب **التفاوتات في الدخل في اسرائيل** لمؤلفه ج. هانوخ (٦) . تؤدي النقطة التي تؤكدها هذه المصادر الى نتيجة حتمية هي أن اليهود الاشكينازيين ، وهم من الاوروبيين فقط ، الذين يحتمل ان يكونوا اقلية فقط يحتكرون فعلا السلطة والنفوذ في الحياة العامة في اسرائيل .

وهناك خرافة اخرى تقول بأن اسرائيل ستصبح افرو — آسيوية على مر الزمن لان غالبية سكانها الان يأتون من أصل افرو — آسيوي . وتتجاهل هذه الخرافة حقيقة أن المجتمع الاسرائيلي ليس ، كما قيل ، مجتمعا متناغما ومتجانسا بل هو بالأحرى عبارة عن طريق وحيد الاتجاه تتخلله حواجز « الاوروبية » ولا ينجح في اجتيازه الا من يستطيع التغلب على هذه الحواجز . وقد فضح هذه الخرافة على افضل وجه عالم يهودي شرقي في اسرائيل (٧) . وهناك ايضا الحقيقة الاحصائية البارزة بأن اليهود الشرقيين أتموا اسهامهم وخدمتهم لعدد السكان في اسرائيل . من الان فصاعدا لا يفد المهاجرون الا من الغرب ، من روسية ومن الولايات المتحدة . ويشكل مغزى للمستقبل أن تقدم الولايات المتحدة اكبر مجموعة من المهاجرين الى اسرائيل (اكثر من ٦٠٠٠ شخص) في العام ١٩٧٠ وللمرة الاولى (٨) .

اذا الغيت جميع هذه الخرافات البطولية والمشجعة والمتنوعة ماذا يبقى ؟ ما هو في الواقع مظهر اسرائيل الحقيقي اليوم في نظر الافرو — آسيويين ؟ انها مستعمر استعماري ، انها قوة امبريالية صغيرة . لقد هدد آباء اسرائيل المؤسسون الدول الاستعمارية والامبريالية التي كانت قائمة في ايامهم وتزلفوا اليها وذلك من أجل زرع مستعمرة يهودية في فلسطين الا أن تلك المستعمرة نفسها آخذة الآن وفي جيلها الثاني بالاستعمار مما يجعلها دولة امبريالية وان كانت دولة امبريالية صغيرة حسب المقاييس العالمية .

تتميز الامبريالية وفقا لما يقوله المحللون السياسيون عنها بميزات « ادبية » واقتصادية ونفسية تظهرها اسرائيل اليوم جميعا . وتعني الميزة « الادبية » وجوب اعتقاد الامبريالي بأن عليه واجبا والتزاما وله رسالة ان يحكم « القبائل الاصغر التي هي بدون قانون » وذلك من أجل خير هذه القبائل نفسها . وبغض النظر عن شعور الصهيونيين والاسرائيليين الثابت بالتفوق بسبب « مبدأ الخلاص » فان هناك عددا وافرا من تصريحات الزعماء الاسرائيليين قبل العام ١٩٦٧ عن مدى تحسن اوضاع العرب في اسرائيل بالمقارنة مع اوضاع اخوانهم في البلدان العربية ، ثم اخذوا يتحدثون في تصريحاتهم بعد العام ١٩٦٧ عن مدى فائدة الاحتلال الاسرائيلي بالنسبة لسكان الضفة الغربية للاردن من حيث الازدهار والقانون والنظام . وقد سبق واشرنا الى

---

٦ — صبري جريس ، **العرب في اسرائيل** ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ج. هانوخ ، **Income Differentials in Israel** تترير فولك ، التقرير الخامس ، القدس ، ١٩٦١ .

٧ — نسيم رجوان ، **«The Two Israels, A Study in Europocentrism»**، **Judaism Quarterly** ، المجلد السادس عشر ، العدد الاول ، ١٩٦٧

٨ — نيويورك تايمز ، ٢٣ — ١٠ — ١٩٧٠

المناقشة الاقتصادية التي تؤيد التوسع الاسرائيلي التي وردت في تقرير مؤتمرات أصحاب الملايين من اليهود ، تلك المؤتمرات التي عقدت في القدس في العامين ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨ وأوصت بالاحتفاظ بالمناطق المحتلة بسبب الفائدة التي تستطيع اسرائيل أن تجنيها من موارد تلك المناطق المعدنية والنفطية والسياحية . ولكن محللي الامبريالية يتفقون على أن الدافع النفسي لاقامة امبراطورية هو أهم الميزات جميعها التي تتميز بها الامبريالية التي يصفها هوبسون بأنها « مرض الكيلومترات » أو (جنون الاميال) ، (انها) غريزة السيطرة على الارض » . أما شومبيتر فيعطي التعريف التالي : « الامبريالية هي الميل غير الهادف لدى الدولة للتوسع غير المحدود عن طريق القوة (٩) »

مرة أخرى ، لسنا بحاجة الى بينة عن أن في اسرائيل اليوم « رغبة غير محدودة للغزو » . ولم يتحدث « الصقور » الشبان وحدهم عن اسرائيل الكبرى اذ تحدث عنها أيضا رجل مشهور «بالاعتدال» هو ليفي اشكول عندما كان رئيسا للحكومة (١٠). هذا ولا تصل حدود اسرائيل الحالية وخطوط وقف اطلاق النار التي قامت في العام ١٩٦٧ الى الحدود الشرقية والشمالية التي رسمتها الحركة الصهيونية في الخارطة التي قدمتها الى مؤتمر فرساي . الا أن المناطق التي تذكر كأهداف للتوسع الصهيوني في المستقبل تفوق الحدود التي تبرزها الخارطة التي قدمت الى مؤتمر فرساي ، فهناك حديث عن دلتا النيل وعمان ودمشق . ولا نزال نذكر التشبيه الذي يقارن فيه نورمان بنتويتش حدود الدولة اليهودية في المستقبل بجلد الايل الذي يتقلص أو يتمدد وفقا الى جوع الحيوان أو شهيته .

كذلك هي الحقيقة وبما انها حقيقة اسرائيلية فانه يتوجب على اسرائيل نسج خرافة حولها تحجبها وتحيطها بالتضليل . ويشير الدكتور زفايغ الى مركب الغموض والابهام الذي يحيط بالعنف في اسرائيل ولكنه يحاول الطمأنة بهذه الكلمات : صحيح ان الاسرائيلي « محارب الآن ولكنه ليس محاربا يحمل عصا مارشال في الحقيبة الملقاة على ظهره ، وانما هو شخص يحمل عصا نبي بيده (١١) » . وهنا لا يسعنا الا ان نسأل : كيف تنطبق هذه الكلمات الشاعرية على الطيار الاسرائيلي الذي يقذف قنابل النابالم على المدارس والمصانع المصرية وعلى المزارع والمدن الاردنية ؟

كانت دولة اسرائيل الصهيونية منذ نشأتها جسما غريبا في أفرو ــ آسية ، وهذا الجسم هو اليوم سبب لاضطراب واسع الانتشار . وإذا كانت اسرائيل تقاوم اليوم الاندماج في فلسطين ديمقراطية وعلمانية او اذا كانت تتحدى البقاء ضمن الحدود التي وضعتها لها الامم المتحدة فان ما يرجح أن تواجهه هو ردة فعل وحيدة : الرفض .

---

٩ ــ ج. أ. هوبسون ، الامبريالية ، لندن ١٩٤٨ ص ٢١٤ ــ ٢١٣ ؛ ج. شومبيتر ، سوسيولوجية الامبريالية ، نيويورك ، ١٩٥٥ ، ص ٦ .

١٠ ــ انترناشيونال هيرالد تريبون ، باريس ، ٢٠ ــ ١٠ ــ ١٩٦٧

١١ ــ زفايغ ، المصدر السابق ، ص IX — VII

طبع على مطابع « دار الحوادث »



منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

مركز الابحاث
منظمة التحرير الفلسطينية

شارع كولومباني المتفرع من شارع السادات

اسس في شباط (فبراير) ١٩٦٥

تصدر عنه

(١) سلسلة « اليوميات الفلسطينية »

(٢) سلسلة « حقائق وارقام »

(٣) سلسلة « ابحاث فلسطينية »

(٤) سلسلة « دراسات فلسطينية »

(٥) سلسلة « كتب فلسطينية »

(٦) خرائط وصور فلسطينية

(٧) سلسلة « نشرات خاصة »

الثمن ٨ ليرات لبنانية
او ما يعادلها